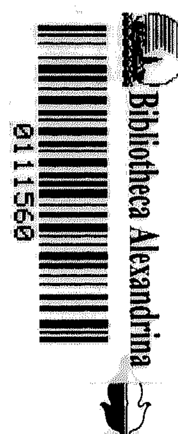
توني موريسون

فردوس

رواية





ترجمة: علي باشا

راجعه عن الأصل: حنّا عبّود



فردوس

* توني موريسون

* فردوس

* ترجمة: علي باشا

* راجعه عن الأصل: حنّا عبود

* الطبعة الأولى 1999

* الناشـــــــر : ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع

سوريـــة ـ دمشق ☎ 3321053

* الاستشارة الأدبيـة : حيدر حيدر

* لوحـــــة الغـلاف : د. أحمد معلا

* الإشـــــراف الفني : د. مجد حيدر

* الإخـــــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع

* التـــــــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053 ص.ب 4490

توني موريسون

فردوس

رواية

ترجمة: علي باشا

راجعه عن الأصل: حنا عبود

عنوان الكتاب الأصلي:

Paradise

الفردوس وأوهام الأرض الموعودة

لايبدو الأمر على كثير من التعقيد، بل يبدو بسيطاً جداً؛ إنها كاتبة حازت جائزة نوبل للآداب في العام 1993 . أضف إلى ذلك، إن هذه المرأة ذات شعر أشبه بكثّة فهد أسود. إنها تمثل سلطة أخلاقية لامثيل لها. تبلغ اليوم السابعة والستين من العمر. في جعبتها سبع روايات فقط لاغير. وهي كتب تصدح ـ قبل أي شيء آخر ـ بأناشيد البلوز. اسمها؟ توني موريسون، هل يمكن إضافة صفات أخرى؟ بالتأكيد، إنها اليوم سيدة الآداب الأميركية الكبيرة. تقبع خلفها كل الإذلالات التي تعرض لها العبيد السود. أما أمامها، فنجد جميع الوعود بالأخوّة التي حاول أدبها أن يعيد إبداعها من جديد. وعود، لم تتأت إلا حين أدارت عنقها لجميع الأحكام المسبقة، فهي تكتب، حسب ما قالت ذات يوم، كي «أبدع النظام والجمال والحياة انطلاقاً مما يحيطني، على الرغم من أن محيطي هذا ليس سوى سديم وبؤس وموت».

هل من أمور أخرى نستطيع ذكرها؟ اسمها الحقيقي كلويه انطوني ووفورد، ابنة مزارعَين هاجرا من جورجيا في ألاباما كي يقيما في أوهايو. مطلّقة ولها ولدان. عملت ناشرة كتب في «دار راندوم»، وهي حالياً أستاذة في جامعة برنستون.

ماذا أيضاً؟ إذا ما أخفي تاريخ السود في الولايات المتحدة، مطولاً، وبشكل حزين، فإن توني موريسون، حاولت أن تعيد إليه غناه، كما أن تعيد إليه نصيبيه في المرارات والدموع. فمنذ رواية «صولا» وحتى «بيلوفد» (محبوبة)، ومن «العين الأكثر زرقة» حتى «جاز»، لم تقم موريسون، في رواياتها هذه، إلا بنبش ذاكرة الأفرو ـ أميركيين المرفوضة، كما بنبش ماضيهم المظلم. ماض نجد فيه جميع النساء وهن يلعبن أتعس الأدوار، لأنهنّ ضحايا مزدوجات: ضحايا الجنس وضحايا العِرق.

تعرضت موريسون لجميع هذه الأفكار في أدبها، بيد أنها لم تسقط في الأدب «الملتزم». إذ عرفت هذه «الديفا السوداء» كيف تضيف إلى آلام شعبها وإلى صرخات المنبوذين فيه، موسيقاها الخاصة وإحساسها المتوحش ورعبها من الأشياء. ثمة زنجية واضحة في كتاباتها، لكنها زنجية مليئة بالجاز. فكتاباتها ترتعش كما لو أننا في حفل. كتابة تبدو أحياناً، كأنها تخرج من «مسلخ فلوبير» لتتراقص على أنغام طبول ماكس روش. أو تقلد أحياناً صوت ماهاليا جاكسون العذب. كتابة، ليست سوى العيد. فنثرها يهتز ويترنح حتى الثمالة.

مؤخراً، تحولت روايتها «محبوبة» (وهي أكثر كتبها مبيعاً) إلى فيلم سينمائي، قام باقتباسه جوناثان ديم (مخرج فيلم «صمت الحملان»)، وفي الوقت عينه، عادت موريسون إلى الساحة الأدبية عبر رواية جديدة بعنوان «فردوس». فمنذ العام 1993 ، أي منذ نوبل، لم تكتب شيئاً. لذلك استُقبلت الرواية «بالطبل والزمر» في الولايات المتحدة. حتى أن دار النشر لم تتورع عن إصدار الطبعة الأولى من الكتاب في 400 ألف نسخة. «النيويورك تايمز»، ولأول مرة في تاريخها، نشرت ثلاث مقالات متتابعة حول الكتاب. أما الكاتبة فقد تصدرت غلاف مجلة «تايم»، في حين فاقت المبيعات كل تصور. أمور رفعت توني موريسون إلى السماء رغم أن «فردوسها» لايملك في الواقع ألوان جنة عدن.

«منذ أيام همنغواي، لم نجد كاتباً أميركياً حاز نوبل، وهو مايزال يرسو داخل الثقافة الشعبية». هكذا قالت «واشنطن بوست». ومع ذلك فقد انقسم النقاد حول الرواية، فمن جهة هناك من اعتبر أن الرواية رائعة أدبية، ومن جهة أخرى، هناك من اعتبر أن الرواية رواية نسوية، رمزية جداً، وصعبة على القراءة.

صحيح أن صفحات الرواية البالغ عددها 365 صفحة، تُشتتنا قليلاً، إذ بعد الافتتاحية الرائعة التي تكتبها موريسون، تغوص الكاتبة في الرمال المتحركة، تدحرج إعصاراً من الشخصيات، تحرق المراحل، قبل أن تعود لتطير من جديد. لكن، إذا ماوصل القارئ إلى هذه المرحلة، فهو سيقلع معها مجدداً. سيشعر بالبهجة، إذ سيجد عيداً عظيماً تُشعِل فيه الروائية نيران هواجسها أي تُشعل مآسي الزنجية، مع العلم بأنها تتحدث فيها أيضاً عن مآزقها وأوهامها ومتاهاتها.

فيما مضى، أعطى المخرج أرنست لوبيتش، لإحدى أروع مسرحياته الكوميدية، عنوان «متاعب في الجنة». ولو لم نكن هنا، بعيدين عن هذه الكوميديا، لصح العنوان مدخلاً لقراءة كتاب موريسون الأخير، إذ نحن أمام قصة الخروج من الفردوس. والسبب؟ هل هو عنف الرجل الأبيض؟ فساده؟ أم أن المكان الفاضل، ليس سوى وهم لن يستمر؟

نحن في أقصى أقاصي أوكلاهوما، «في وسط اللامكان»، في مدينة صغيرة تدعى روبي. إنها «الدورادو» أخرى، تأسست في الخمسينيات من قِبَل السود كي ينسوا «كيف بصقهم البيض»، كما لينسوا احتقارهم وبغضهم. في البداية، كانت جميع الشوارع تحمل أسماء الإنجيليين لذلك بدت روبي كجنة، حيث «جميع الرجال جميلون وسود مثل الفحم». لقد بنوا مدينتهم بأيديهم حجراً فوق حجر. بنوا أيضاً فرنهم الكبير (الرمز الديني للسعادة التي حصلوا عليها) كما مدرسة لتعليم الثقافة السوداء. وأين هو الشر؟ غير موجود في روبي، إذ لانجد فيها سجناً ولاقبراً. فخلال عشرين سنة، وفر الموت السكان الذين يجهلون التلفزيون والشرطة والسينما

والموسيقا المقرفة والكوكلوكس كلان «والشراب على الغداء والمخدرات على العشاء».

بيد أن حيطان بابل هذه، المثالية، انتهى بها الأمر لكي تتحطم. لقد فرض الرجال قانون القلّز (نظرية اقتصادية تقول بأن أجر العامل لايمكن أبداً أن يتجاوز الحد الحيوي الأدنى) فالطهرانية بدأت تعصف عصفها، والرجال أصبحوا ينظرون بعين غير نظيفة إلى «الخلاسية»، أي إلى الذين لايملكون بشرة سوداء صافية... ومن ثم هناك أيضاً، تلك اللعنات الغريبة التي ترفرف فوق المدينة والتي تمارس ضغطها عليها. فتسوء الأمور تدريجاً، تصبح أكثر قلقاً. لذلك تطلّب الأمر إيجاد مسؤولين عن ذلك. فلم يتأخر الأمر في اتهام خمس نساء، خمس ساحرات، ناشطات، إلا أنهن مسالمات، ساحرات يضعن أيديهن على دير يبعد 25 كيلومتراً عن روبي.

هناك، في الدير، يجتمعن حول العجوز كونسولاتا، تلك المرأة المدمنة على الخمر، المتوحدة في الكهف. فتؤسس هذه الفتيات ـ الهاربات اللواتي جمعهن القدر في هذا المكان ـ نوعاً من «المشرك» (تجمع إنتاجي دعا إلى إقامته الفيلسوف الاشتراكي فورييه وفيه يعيش العمال عيشة مشتركة). بيد أن الحياة لم توفرهن، إذ يُشاهدن أطفالهن وهم يموتون، حبهن وهو يتدهور. لقد تركن كل شيء. ولكي يطردن شياطينهن، يبدأن بالشراب والاحتفال وإقامة الشعائر الغامضة. أما في روبي، فينهمك الجميع في جعلهن من الشياطين. وذات صباح، يهاجم أحد رجال «الكوماندو»، وكان مسلحاً بالبنادق والقنابل، الكهف. فتقع المجزرة. تسقط النساء، وسرعان ماتختفي أجسادهن المضرجة بالدماء. هل متن حقاً؟ ثمة نهاية مفتوحة، تترك موريسون الشك ليطوف فوقها. كذلك تضاعف الكاتبة سخريتها كي تسوط أحلام روبي السوداء، المجنونة، «هذا السجن الذي أعطى لنفسه اسم مدينة».

حين صدرت «فردوس» في ترجمتها الفرنسية، سألت صحيفة «ليبراسيون» الكاتبة التالي: «بالنسبة إلى سود مدينة روبي، كانت الجنة في الهرب من البيض والإقامة في أعمق أعماق أوكلاهوما كي

يعيشوا فيما بينهم، بيد أن ثمة واقعة تاريخية تفيد أن مجموعات السود قد شيّدت مدناً في هذه المنطقة مع بداية القرن، إلا أن رواياتك تذهب إلى أبعد من ذلك. إنها استعارة حول أوهام الأرض الموعودة».

وتجيب موريسون: «أجل، فأميركا هي البلد الذي جاءه الناس كي يجدوا فيه الجنة، أكانوا من «الكويكرز» أو «الأميش» أو «المورمون» أو الحجاج الآخرين... جميع هذه الطوائف وصلت إلى هنا، وقالت: وجدت المكان الذي بحثت عنه. والسبب في ذلك طبيعة المكان...».

من هنا تبدو هذه اللوحة عن عدن التي تحولت إلى جهنم ـ والتي ترسمها موريسون ـ كأنها سخرية فذة وفجّة من الطوباويات المنقِذة. إنها اتهام للاندماج العرقي فهذه الرواية ليست سوى ألعاب نارية للسحر والعنف. عنف الشغف المتعصب. وسحر النساء والطبيعة، إذ نحن أمام «هكتارات من حَب الهال والبرتقال المحروق... ووديان من زرقة الليل، مع سماوات من الليل الليلكي الذي يشق الروح».

أين الفردوس في كل ذلك؟ إنه غير موجود إلا في الكلمات، فكلمات موريسون ترقص بشكل رائع. تشتعل مثل الشموس السوداء. إنها نشيد خلاسي، متقاطع، يرن فيه صدى اللحم والدماء والفتيات المغتصبات، المضرجات بالعرق والدم. من هنا، ثمة سؤال لابد من أن يطرح نفسه، هل تشكل رواية «فردوس»، الجزء الأخير من ثلاثية بدأت مع «بيلوفد» وتتابعت مع «جاز» وانتهت بهذا الكتاب الأخير.

ثمة أمور مشتركة كثيرة بين هذه الكتب. فقط عن الرغبات والحب المحرم وأشباح الماضي، واكتشاف البؤس والتاريخ، هناك أمر واحد لانستطيع تجاوزه... فموريسون هي ملكة الآداب الأميركية. بالأحرى، إنها الحاكمة بأمر...

اسكندر حبش

Lois

لأنّها كثيرة أشكال الملذات التي توجد
في الخطايا العديدة،
والشهوات الجنسية،
والأهواء الدنيئة،
والملذّات العابرة،
التي يتعاطاها (الرجال)
قبل أن يصبحوا حكماء
ويرتفعوا إلى مكان راحتهم الأبدية
وهناك سوف يجدونني
وسوف يعيشون،
ولن يموتوا أبداً.

روبي

أطلقوا النار على الفتاة البيضاء أولاً. وبالنسبة للبقية، فإنهم يستطيعون أخذ وقتهم، ولا حاجة للعجلة فهم على بعد سبعة عشر ميلاً عن مدينة تقع على مسافة تسعين ميلاً عن أيّ مدينة أخرى. وستكون المخابئ عديدة في الدير، ولكن مازال هناك وقت فالنهار قد بدأ للتو.

إنهم تسعة، أكثر بمرتين من عدد النساء اللواتي كان عليهم أن يجعلوهن يهربن أو أن يقتلوهنّ، ومعهم كل مايلزم للقيام بهذه المهمة: حبال، صليب من سعف النخيل، أصفاد، قضيب شوكي(*)، نظارات سوداء، وكذلك بنادق جميلة ونظيفة جداً.

لم يسبق لهم أبداً أن دخلوا إلى هذا العمق في الدير. سبق لبعضهم أن ركنوا سيارات الشفروليه قرب المدخل لكي يأخذوا مشكاة فليفلة أو أنهم دخلوا إلى المطبخ من أجل إناء مرق التوابل، لكنّ قلة منهم فقط شاهدوا القاعات، والمصلّى، وغرفة الدرس والغرف الأخرى. والآن جميعهم سيفعل. وسيذهبون أخيراً لمشاهدة القبو ليعرضوا قذاراته في الضوء الذي سيجلو عما قريب سماء أوكلاهوما. وبانتظار ذلك، كانت الملابس التي يرتدونها تقلقهم ـ فقد أدركوا فجأة أنها غير مناسبة. فكيف يمكن أن يتصوروا البرد

(*) قضيب كان يستخدم للتعذيب في العصور الوسطى.

الذي يسود داخل الدير في فجر يوم من أيام شهر تموز؟ لقد كانت قمصان الـ«تي شيرت» وقمصان العمل والداشيكي(*) التي يرتدونها تمتص البرد مثل الحمّى. وأولئك الذين ينتعلون أحذية العمل كانوا يخشون جلبة وقع أقدامهم التي تدوي على أرضيات الرخام، والذين ينتعلون الـ«برو- كيدز»، يشعرون بالخوف من الصمت. ثم هناك المهابة. الرجلان اللذان كانا يضعان ربطات عنق، ظهرا كأنهما في منزلهما، وكل منهما يذكر بدوره أنّ هذا البيت، قبل أن يكون ديراً، كان جنون أحد المختلسين. وهو بيت أرضيات رخامه الوردي والأبيض تعقب الأرضيات المغطاة بخشب الساج. صفائح من حجر السيكا الذي يحتفظ بضوء من الزمن القديم، وجدران مزينة، قُشِرت، وجرى تبييضها بالكلس منذ خمسين عاماً. اكسسورات الحمّام غير المألوفة والتي كانت تثير اشمئزاز الراهبات، استُبدلت بحنفيات بسيطة وعادية، أما المغاطس والمغاسل الفخمة التي لم يكن استبدالها ممكناً دون نفقات باهظة، فقد ظلّت تالفة بكل هدوء. أزيل ماأمكن إزالته من مظاهر مباهج حياة ذلك المختلس، بشكل رئيسي في غرفة الطعام التي حوّلتها الراهبات إلى غرفة للتدريس جلست فيها سابقاً، فتيات عاقلات من الآراباهو وتعلّمن النسيان.

والآن هنالك رجال مسلّحون يفتشون الغرف التي تتأرجح فيها سلال مكراميه(**) إلى جانب الشمعدانات الفلامندية، وحيث يشعّ المسيح وأمه في مشكاةٍ زينت بالعناقيد. وقد نزعت «أخوات الصليب المقدس» جميع الحوريات بالإزميل ولكنّ استطالات شعرهن الرخامي المنحنية ماتزال تحصر أوراق الكرمة وتندس بين عناقيد العنب. كان البرد يشتد مع انتشار الرجال في أعماق الدير، كانوا متمهلين في سيرهم، يصغون وينظرون، متيقّظين، بسبب مكر النساء المختبئات هنا في كل مكان ورائحة الخميرة والزبدة والعجين الذي يختمر.

(*) قميص أفريقي فضفاض يرتديه الرجال فقط.

(**) مكراميه: كلمة تركية تعني كل عمل مشغول بأشرطة الزينة. والسلال المكراميه هي المشغولة من سيور وأشرطة وأربطة، تعلق في الحائط أو تدلى في السقف للزينة.

التفت أحدهم، وهو الأصغر سنّاً، مرغِماً نفسه على رؤية كيف يمكن للحلم الذي يعيشه أن يستمر. المرأة القتيلة، المستلقية على الأرض الرخامية في وضعية غير مريحة، تشير له بأصابعها ـ أو أنّ هذا مابدا له. حلمه كان يجري إذن كما ينبغي، عدا مايتعلق باللون. فلم يسبق له أبداً أن حَلُمَ بألوانٍ كهذه: أسود قاتم تمتد فيه سحابة عنيفة من الأحمر، ثم أصفر كثيف ومحموم، كملابس امرأة تمّ افتراعها بسهولة. توقف القائد ورفع يده اليسرى لكي يوقف الأشخاص الذين يتبعونه، فتوقفوا، التقطوا أنفاسهم وبصورة ودّية أعادوا أيديهم التي كانت تشدّ على بنادق أو مسدسات إلى أماكنها. التفت القائد، وبإشارةٍ فَصَل بين رجاله: أنتما الاثنان، اذهبا من هنا نحو المطبخ، اثنان آخران إلى فوق، اثنان إلى المصلى. واستبقى للقبو نفسه هو وأخوه وذلك الذي يعتقد أنه يحلم.

انفصلوا بكل مودّة، دون عجلة ودون أن ينبسوا ببنت شفة. وقبل قليل، عندما اقتحموا باب الدير، كانت طبيعة مهمتهم تسبب لهم الدوار. ولكن هدفهم، على أية حال، عبارة عن حطام: أناس منبوذون يعودون أحياناً إلى الغرفة بعد كنسهم خارج الباب. وهكذا بات السم مسيطراً عليه الآن. فقتل المرأة الأولى (البيضاء) جعلهم رائقين كالزبدة: زيت الكراهية النقي في الأعلى، والجزء القاسي مستقرّ في الأسفل.

في الخارج، بلغ ارتفاع الضباب طول القامة، وعمّا قليل سيصبح فضيّاً ويجعل أقواس قزح الحشائش منخفضة كفاية كي يلعب عليها الأطفال، قبل أن تبدّدها حرارة الشمس، فتنكشف مساحات من الأعشاب وربما آثار امرأة ساحرة أيضاً.

المطبخ أكبر من البيت الذي ولد فيه أيّ واحد من هؤلاء الرجال. والسقف يعلوه مخزن حبوب خشبي. وفيه من الخزائن الجدارية أكثر مما في بقالية إيس. ويبلغ طول المائدة أربعة عشرة

قدماً، يمكن أن تنقص بوصة، ومن السهل أن يلاحظ المرء أنّ النساء اللواتي يطاردونهنّ قد أخذن على حين غرّة: ففي أحد أطرافها إبريق مليء بالحليب وضع بجانب أربعة أوانٍ طفحت بالحبوب المجفّفة. وفي الجانب الآخر، حدث التوقف عن تقطيع بعض الخضار: البقلة المفرومة كحفنة من الأوراق الخضراء المقصوصة إلى قطع صغيرة، تتلألأ بينها حلقات الجزر، ولكنّ البطاطا التي قُشّرت وبقيت كاملة على حالها، بدت بيضاء بلون العظام رطبة وذات قوام متماسك، والحساء يغلي على موقد بحجم موقد أحد المطاعم الكبيرة، إذ أنّ له ثمانية رؤوس، وعلى أحد الرفوف، تحت السقيفة المعدنية الكبيرة، أُسندت نحو اثني عشر قرص خبز تختمر. وهنالك كرسي مقلوب. ولاتوجد أية نوافذ.

أشار أحد الرجال إلى آخر أن يفتح غرفة المؤن بينما يذهب هو نحو الباب الخلفي الذي كان مغلقاً ولكنه ليس مقفلاً. ألقى نظرة إلى الخارج فرأى دجاجة مسنّة، مؤخرتها منتفخة وحمراء بلون الدم، افترض أنها توشك أن تبيض - بيضات ضخمة: فيها صفاران أو ثلاثة ضمن أغلفة كبيرة الحجم ومشوّهة. أصوات الدواجن المكتومة تأتي من القنّ الكائن خلف البناء. دجاجات تنقر الحبوب هناك بكل هدوء واطمئنان في الضباب، حيث تختفي تارة، ثم تظهر، لتختفي بعد ذلك من جديد، عيونها فارغة لاتعير اهتماماً إلّا لطعامها. ليس هناك آثار أقدام تعكر الطين حول درجات السلم الحجري. أغلق الرجل الباب وتبع رفيقه إلى غرفة المؤن. أخذا يفتشان معاً «جرار مايسون»(*) التي يعلوها الغبار ومابقي من معلبات العام السابق: بندورة، فاصولياء خضراء، دراق. قالا لنفسيهما: نساء خاملات، فهاهو شهر آب على الأبواب وهن حتى لم يفرزن الجرار، فضلاً عن غسلها.

أطفأ الموقد تحت قِدر الحساء. كانت أمه تغسّله في قدر ليس أكبر من هذا. وهذا يُعتبر ترفاً في الكوخ الذي ولدَتْ فيه. أما البيت

(*) أوعية زجاجية منزلية محكمة الإغلاق تمنع تسرب الهواء.

الذي يسكنه اليوم فهو واسع، مريح، وهذه المدينة رائعة إذا قورنت بتلك التي ولد فيها والتي خلال خمسين سنة سقطت على بطنها بعد أن كانت واقفة على رجليها. من هاقن مدينة حالمة في منطقة أوكلاهوما، إلى هاقن مدينة الأشباح في ولاية أوكلاهوما. والمحرَّرون، الذين كانوا يقفون منتصبين على أقدامهم عام 1889، سقطوا راكعين سنة 1934 ، ثم أخذوا يزحفون على بطونهم في عام 1948 . من أجل ذلك هم موجودون الآن هنا، في هذا الدير: لكي يتأكدوا من أنّ هذا لن يتكرر ثانيةً أبداً. فلا شيء في الداخل أو الخارج يفسد المدينة الوحيدة السوداء بكاملها، يستحق الألم. فكل المدن الأخرى التي عرفها أو سمع عنها، كانت قد خضعت أو انصهرت وتحولت إلى مدن بيضاء، وإلّا فإنها مثلها في ذلك مثل هاقن قد انكمشت فلم تعد سوى فتيلة معدنية تنمو: حدود الأساسات الواضحة من الطريقة التي تنمو الأعشاب حولها، وورق الجدران الذي تنعكس ألوانه خلف النوافذ التي تَحطَّم زجاجها، وأرضيات المدرسة التي باعدت بينها أشجار البيلسان وقد نبتت عالياً باتجاه المكان الذي يستقر فيه الجرس. عام 1905 بلغ عدد السكان نحو ألفٍ، تقلّص إلى 500 عام 1934 ، ثم 200 ، وأصبح 80 عندما انهار القطن أو عندما أخذت شركات الخطوط الحديدية تمدّ خطوطها في مناطق أخرى. وزراعة المواد الغذائية وهي الكَرَم الوحيد الذي كانت تحتاجه الأسرة الكبيرة العدد فيما مضى، أصبحت زراعة فائضة عن الحاجة كلما تزوج أحد أبناء الأسرة واستولى على حصته من الأرض، التي عليه أن يقسمها أيضاً بين أولاده، إلى أن يرحب أصحاب تلك الحصص الصغيرة، الذين لم يقرفوا ويغادروا المنطقة، بأيّ سعر يعرضه عليهم مساوم أبيض. لأنهم متلهفون للمغادرة لكي يجربوا مكاناً آخر. هذه المرة مدينة كبيرة، أو قرية صغيرة - أو أيّ مكان تمّ إعماره.

لكنه هو والآخرون، وجميعهم من المحاربين القدماء، لديهم فكرة مختلفة. ولأنهم يحبون ماكانت عليه هاقن - الفكرة التي كوّنوها عنها، وحجمها - فقد نقلوا هذا الإخلاص، رعوه وغذّوه،

من باتان إلى غوام ومن أيّوجيما إلى شتوتغارت، وقرّروا أن يبدؤوا من جديد. لمس الموقد وأعجب ببنائه وقوّته. إنه بطول الفرن المبني من الآجر الذي كان ينتصب فيما مضى وسط المدينة التي ولد فيها. والذي بعد عودتهم إلى الولايات المتحدة، فكّكوه ونقلوا قرميداته، وبلاطة موقده والصفيحة الحديدية إلى مسافة مئتين وأربعين ميلاً باتجاه الغرب ـ بعيداً، وبعيداً جداً عن شعب «كريك» القديم ـ في منطقة أسمتها إحدى الحكومات الظريفة ذات مرة «الأرض غير المخصّصة». وهو يتذكر الاحتفال الذي أقاموه عندما ثبّتوا اللوحة المعدنية وصقلوا وجلوا الحروف البالية لكي يراها الجميع. وهو نفسه قد ساعد على إزالة اثنتين وستين سنة من الدخان والدهن الحيواني لكي تلمع الكلمات وتبدو بالبريق نفسه الذي كانت عليه عام 1890 عندما كانت جديدة. وإذا كان هذا أمراً مؤلماً ـ أن يفكّكوا ماجمّعه أجدادهم ـ فإنّ هذا ليس شيئاً يذكر إذا ماقورن بما تحمّلوه وبما يمكن أن يصبحوا عليه لو لم يبدؤوا من جديد. وباعتبارهم آباء مازالوا في سن الشباب، ناضلوا ضد العالم أجمع، فإنهم لايستطيعون (ولايرغبون) أن يكونوا أقل شأناً من «الآباء القدامى» الذين احتالوا على ذلك العالم. والذين لم يسمحوا للخطر أو لأذى الطبيعة أن يمنعهم من إخراج هاقن من الوحل، والذين كانوا على درجة كافية من المكر، بحيث جعلوا انتصارهم يتوقف عند تحقيق هذه الأولوية. فرن مكوّر كالرأس، عميق كالرغبة. الآباء القدامى الذين كانوا يعيشون في عرباتهم أو بقربها، ويطبخون طعامهم في الهواء الطلق، ويقطعون الأعشاب و«المسكيت»(*) ليصنعوا لأنفسهم ملجأ يأوون إليه، قاموا أولاً بهذا: ركزوا الجانب الأساسي من قواهم في بناء الفرن الضخم الذي وضعوا تصوراً تاماً له، فكان يطعمهم ويجسّد في الوقت نفسه ماأنجزوه. وعندما أُنجز ـ بعد أن ثبتت كل قرميدة زاهية بعناية، المدخنة واسعة وعالية، والأوتاد والمشواة آمنة، وجرى تأمين عمل السحب المنتظم بوساطة الأنبوب الخلفي، وركّب الباب بشكل متوازن ـ عند ذلك قام عامل الحدادة

(*) المسكيت: نبات شائك.

بعمله. فصنع من إطارات برميل وجسور عربات مكسورة ومراجل ومسامير معوّجة، صفيحةً حديدية طولها خمسة أقدام وعرضها قدمان، ثبّتها تحت فتحة الفرن. مازال غير معروف تماماً من أين أتت الكلمات. شيءٌ ما سبق أن سمعه، ابتدعه، أم شيء ما هُمس له أثناء نومه، وهو ملتف حول أدواته على مرقد إحدى العربات. كان يدعى مورغان، وهو يستطيع القول فيما إذا كان قد ابتدع أو سرق نصف دزينة الكلمات التي نحتها. كلمات، بدت في بداية الأمر، أنها تجلب لهم السعادة، وتحيرهم فيما بعد، وفي النهاية تخبرهم بأنهم قد خسروا.

أخذ الرجل ينظر إلى حوض المطبخ. اقترب من المائدة الطويلة رفع إبريق الحليب، شمّه في البداية، وبما أنه يمسك المسدس بيده اليمنى، استخدم يده اليسرى لرفع الإبريق إلى فمه وشرب جرعات طويلة بحيث اختفت نصف كمية الحليب، وعند ذلك شمّ رائحة عطر شجيرة الغلطيرة(*).

في الطابق العلوي، يتقدم رجلان في الممرّ ويتفحصان الغرف الأربع التي ثبت على باب كل منها بطاقة إسمية. كان الاسم الأول، سينيكا، مكتوباً بأحمر الشفاه. الثاني هو ديڤاين مكتوب بالحبر وبأحرف كبيرة. تبادل الرجلان نظرة تفاهم عندما تبينّ لهما أن كل امرأة منهن لاتنام في سرير كما يفعل الناس العاديون، بل في أرجوحة. لم يكن هنالك قطع أثاث أخرى سوى مكتب ضيق أو منضدة صغيرة. وبالطبع لايوجد ملابس في الخزائن الجدارية، لأن هؤلاء النسوة يلبسن فساتين واسعة ووسخة وأشياء للأمانة لايمكن أن تسمى أحذية، ولكن هناك أشياء غريبة معلقة على الجدران، أو مسنودة في زوايا الغرف. تقويم لعام 1968 ، وإشارات «X» تحمل

(*) شجيرة في شمال أمريكا، والكلمة مترجمة عن الألمانية.

تواريخ مختلفة (4 نيسان، 19 تموز)؛ ورسالة مكتوبة بالدم تعلوها بقع كثيرة بحيث لايمكن فكّ رموز مضمونها الشيطاني، لائحة تنجيمية، قبعة مخملية وضعت بشكل مائل على عنق تمثال نسائي نصفي مصنوع من البلاستيك. وفي بيت كان يؤوي في السابق بعض المسيحيين - وأيضاً كانوا من الكاثوليك - لايوجد أي صليب للمسيح. لكنّ الأمر الذي أقلق الرجلين كثيراً هو وجود مجموعة كبيرة من أحذية وصنادل الأطفال والرضّع، مربوطة بشريطة إلى سرير طفل في آخر غرفة دخلا إليها. تتأرجح بين الأحذية الصغيرة حلقة يحكّ الأطفال أسنانهم بها قاسية ومشقّقة. وبنظرةٍ منه أرسل أحد الرجلين رفيقه نحو الغرف الأربع الأخرى الكائنة في الجانب الآخر من الممر. اقترب من حزمة أحذية الأطفال. عمّ يبحث؟ أعن دليل آخر؟ إنه لايعرف. أعن دم؟ ربما عن إصبع قدم طفل، صغير جداً، تُركت في حذاء أبيض صُنع من جلد البقر؟ زلّق مفتاح الأمان في بندقيته وذهب هو أيضاً ليفتش عبر القاعة.

هذه الغرف عاديّة، قذرة، تعلو أرضها الأوساخ وقد غطّت أرض إحداها الصحون التي تعلوها طبقة يابسة من الطعام وبعض الكؤوس والفناجين الوسخة، والسرير لايمكن رؤيته لأنه مدفون تحت جبل من الملابس. وفي غرفة أخرى ينتصب كرسيان هزازان تغطيهما الدُمى، ولُعب الأطفال، وفي الغرفة الثالثة وَجَد الرجلان بقايا شراب وطعام ورائحة إحدى كبرى السكّيرات - ولكنّ الغرف كانت عادية على الأقل.

رضابهُ مر المذاق، ومع أنه يعلم أن هذا المكان غير صحي، فقد أقلقه سوط الشفقة الذي يضرب صدره وأخذ يتساءل: ماذا يمكن أن تفعل حقاً هؤلاء النسوة؟ وكيف استطاع دماغهن البسيط جداً تخيّل مثل هذه الأشياء: نشاطات جنسية مقززة، وخداع وتعذيب ماكر للأطفال؟ هنا، في هذا المجال الرحب، وقد حُبسن في هذا المسكن - وليس هناك من يزعجهنّ ولامن يشتمهن - وقد نجحن في جعل قيمة كل امرأة عرفها تقريباً، موضع جدل. وثمن المعطف الشتوي الذي وفّره أبوه، سراً، خلال موسمين، والبريق في عيني أمه

عندما داعبت ياقته المصنوعة من جلد الفقمة. والحفلة الراقصة غير المتوقعة التي أقامها هو وأخوته بمناسبة عيد ميلاد إحدى أخواتهم السادس عشر. ومع ذلك فهنا، على مسافة تقل عن عشرين ميلاً عن جماعة هادئة ومقبولة، تعيش كما ينبغي، يوجد نساء لايشبهن أي امرأة عرفها أو سمع عنها. وبالضبط هنا. وحيدة ومنعزلة كانت مدينته، وراضية بصورة مشروعة بما هي عليه، لم يكن فيها سجن، ولاحاجة لها به. فلم يولد أي مجرم في مدينته أبداً. وكانوا يتحملون مسؤولية الاثنين أو الثلاثة الذين يرتكبون الحماقات ويهينون عائلاتهم أو يشوّهون الفكرة التي كونتها المدينة عن نفسها. لكن من المؤكد أنه لايوجد في المدينة أي شخص سافل قذر ولاأية امرأة كسولة خاملة، وقد تبادر إلى ذهنه أنَّ أسباب ذلك واضحة: فمنذ البداية كان ذووه أحراراً، يتمتعون بالحماية. وعندما كانت إحدى النساء لاتستطيع النوم، يمكنها أن تغادر سريرها في أي وقت، فتلقي وشاحاً على كتفيها وتجلس على إحدى درجات السلّم في ضوء القمر. وإذا رغبت بالخروج، فإنها تستطيع أن تخرج من الباحة وتنزل إلى الشارع، بلا مصباح وبلا خوف. فلا يخيفها أبداً أي صوت أو صفير يأتي من جانب الطريق، أياً كان مصدره، ولاشيء هناك يمكن أن يحاول مهاجمتها على حين غرّة. وعلى مسافة تسعين ميلاً في الاتجاهات كافة، لاشيء يعتبرها فريسة. فهي تستطيع أن تمشي بالبطء الذي تريده، وتتذكر وصفات الطبخ، وتستعيد ذكريات الحرب، والقصص العائلية، أو أن توجه نظرها نحو النجوم دون أن تفكر أبداً بأي شيء. وهكذا يمكنها متابعة طريقها عبر الظلام دون أن يعتريها أي خوف. وإذا لفت انتباهها ضوء مصباح يسطع في بيتٍ بعيدٍ بعض الشيء وبكاء طفل يعاني من المغص، ينبعث من هناك، فإنها تستطيع الذهاب إلى ذلك البيت وتنادي بهدوء المرأة التي تهدئه في الداخل. وبإمكانهما بعد ذلك تدليك بطن الطفل كل واحدة بدورها، وأن تهزا له السرير وتحاولا إعطاءه قليلاً من ماء الصودا. وعندما يهدأ الطفل ويرقد، يمكنهما أن تجلسا جنباً إلى جنب لبعض الوقت لكي تضحكا وتتبادلا الأحاديث بصوت منخفض كيلا توقظا أحداً.

بعد ذلك تستطيع المرأة أن تقرر العودة إلى منزلها، وقد استرخت وأصبحت مستعدة للنوم، أو أن تتابع السير في الاتجاه نفسه، فتنزل إلى الطريق وتمر أمام بيوت أخرى، أمام الكنائس الثلاث، أمام المراعي. ثم تخرج فتجتاز حدود المدينة فلاشيء هناك يمكن أن يعتبرها فريسة.

في كل طرف من الممر يوجد حمّام. وكلٌّ من الرجلين دخل واحداً منها وهو مايزال يصرّ على أسنانه، لأنهما كانا يتوقعان كل شيء. في أحد الحمّامات، وهو أكبرها، بدت الحنفيات صغيرة جداً، لاتتناسب مع المغسلة الضخمة. المغطس يرتكز على ظهر أربع حوريات ـ أذنابها مشقوقة شقاً واسعاً لكي تسند المغطس بشكل أفضل وصدورها مقوسة من أجل المزيد من الثبات. الآجر تحت الأقدام مخضر مثل زجاجة خضراء. علبة «مودكس» على خزان السيفون، وبجانبها سطل مملوء بأشياء وسخة. لايوجد ورق تواليت. هناك مرآة فقط لم تُطلَ بالكلس، وقد تجاهلها الرجل: فهو لايريد أن يرى نفسه وهو يبحث عن النساء أو سوائلهن. شعر بالارتياح، فخرج وهو يسير إلى الخلف، وأغلق الباب. هدأ روعه، فوجّه فوهة بندقيته نحو الأرض.

وفي الأسفل، كان هناك رجلان، أب وابنه، لايبتسمان، وإن كانا يرغبان بذلك عندما دخلا إلى المصلّى لأن ذلك بدا صحيحاً: كانت تُعبد فيه أصنام منحوتة. رجال ونساء بأجساد صغيرة، يرتدون فساتين بيضاء وأردية ذهبية وزرقاء، وُضعوا على رفوف صغيرة نحتت داخل كوى في الجدار. يضمون طفلاً رضيعاً أو يرفعون أيديهم. ووجوههم الخالية من الإحساس تصطنع البراءة. وقد أشعلت الشموع عند أقدامهم، تماماً كما قال المحترم بوليام: لاشك أنهم قد قدّموا لهم الطعام أيضاً لأنّ هناك أوانٍ صغيرة على جانبي المدخل. وعندما سينتهي كل شيء، سيقولون للمحترم بوليام بأنه كان مصيباً فيما قاله، وسيضحكون في وجه المحترم ميسنر.

ثمة فروق متعارضة بين الجماعات المذهبية في المدينة ولكنّ أعضاءً من كل منها اتحدوا بقوة حيال ضرورة هذا العمل: افعلوا مايجب عليكم أن تفعلوه. لايمكن أن يستمر هذا، لا الدير ولا النساء اللواتي فيه.

ياللأسف. فيما مضى، كان الدير جاراً حقيقياً، وإن بدا بعيداً بعض الشيء، محاطاً بحقول القمح، بالعشب والنفل الذي يرعاه البوفالو، يؤدي إليه درب ترابي يكاد لايُرى من الطريق العام. والمسكن الذي أصبح ديراً كان موجوداً هناك قبل وجود المدينة بكثير، وآخر المقيمات فيه من الآراباهو كن قد غادرنه حين وصلت العائلات الخمس عشرة. حدث ذلك قبل خمسة وعشرين عاماً، عندما كانت جميع الأحلام تسمو بالرجال الذين يحلمون بها. كانوا قد شقوا طريقاً مستقيماً كالقالب يخترق مركز المدينة وأقاموا على أحد جانبيه رصيفاً مبلّطاً. سبع عائلات كانت تملك أكثر من خمسمئة آكر، وثلاث عائلات مايقرب من ألف. وشيئاً فشيئاً، عندما أصبح الطريق شارعاً يحمل اسماً، نظّم رجل يدعى أوسي سباقاً للخيل، احتفالاً بالحدث. والناس الذين كانوا يسكنون في خيام عسكرية، وفي بيوت نصف منتهية، على أراضٍ قد استصلحوها لتوّهم، أتوا على ظهور خيولهم وجلبوا ماعندهم، أخرجوا أشياء كانوا يحتفظون بها على سبيل الاحتياط إلى وقت الحاجة، وأشياء أخرى ظهرت بشكل مفاجئ: غيتارات، بطيخ متأخر النمو، بندق، فطائر الراوند والأرغن الذي يعزف بالفم، حوض غسيل، وحَمَل مشوي، أرز بالفلفل، «ليل غرين»، «في الظلام»، «لويس جوردان» و«طبلة الأذن الخامسة»، بيرة منزلية، لحم المرموط(*) المقلي والمطهو على مهل بالصلصة. وقد ربطت النساء شعورهن بالشرائط ذات الألوان الزاهية، وصنع الأطفال لأنفسهم قبعات من الخشخاش البرّي وكرمة النهر. كان أوسي يملك فرساً في الثانية من عمرها وأخرى في الرابعة من عمرها، سريعتان وأنيقتان كأنهما عروسان.

(*) المرموط: حيوان لبون قارض ينام طوال الشتاء.

أما الخيول الأخرى فكانت مجموعة بسيطة: كحصان إيس المرقّط، وحصان الآنسة إستير المسنّ، وأحصنة الفلاحة الأربعة التي يملكها ناثان بالإضافة إلى فرسه، وكذلك حصان صغير نصف مروّض لايملكه أحد ظل يرعى بحريّة على ضفة الجدول.

اختلف الخيّالة مطوّلاً ليعرفوا فيما إذا كانوا سيمتطون الجياد بسرج أو بدون سرج، واستغرق ذلك وقتاً طويلاً، مما دفع بعض النساء اللواتي كنّ يُرضعن أطفالهن إلى أن يطلبن منهم إما امتطاء جيادهم أو ترك المجال لآخرين كي يقوموا بذلك. فاتفق الرجال على شروط سباق العدل(*). وراهنوا مرحين بأرباع دولارات، وعندما دوّى الطلق الناري، ثلاثة أحصنة فقط انطلقت إلى الأمام. أما الخيول الأخرى فقد سارت بصورة جانبية أو أنها قفزت فوق الأخشاب المكدّسة بقرب البيوت التي لم ينجز بناؤها بعد. وعندما حدث السباق أخيراً زغردت النساء من المرج، بينما أطفالهن يصرخون ويرقصون بين الحشائش التي تصل إلى أكتافهم. ووصل الحصان الصغير في الطليعة، لكن باعتباره أسقَطَ خيّاله بعد ربع ميل، فقد أصبح الفائز فرس ناثان السمراء. ثم اختيرت الفتاة الصغيرة التي على رأسها أكبر كمية من الخشخاش لكي تُقدم لخيّال تلك الفرس شريط الفوز الذي عُلّق عليه وسامُ أوسي «القلب الأرجواني»، أما الفائز فكان في السابعة من العمر، وقد بدا مبتسماً، وكأنه فاز في سباق «كنتاكي ديربي»(**). واليوم تراه في مكان ما في قبو الخمرة لأحد الأديرة، يبحث عن نساء فظيعات لم يكنّ أبداً، عندما وصلن الواحدة بعد الأخرى، راهبات حقيقيات، أو مدّعيات الرهبنة، بل كنّ، على مايُظن، من أتباع عبادةٍ ما. لم يكن أحد يعرف ذلك. لكن ليس لذلك أية أهمية، لأن كلّ واحدة منهنّ استمرت بدورها، مثلما فعلت الأم الرئيسة وخادمتها، في بيع بعض المنتجات، صلصة الشواء، الخبز الجيد، والفليفلة الأشدّ لذعاً في العالم. وبسعر مرتفع

(*) سباق العدل: سباق يُتساهل فيه مع الضعيف أو يُفرض على القوي عبء إضافي بحيث تصبح فرص الكسب متكافئة.

(**) أهم سباق للخيل في الولايات المتحدة.

كان يمكن شراء مشكاك من الفليفلة أو البهارات المصنوعة منه. كل منها يتفوّق حسب قوّة اللذع التي يحتويها. أما البهارات فكانت تبقى لسنوات إذا لقيت العناية. ورغم المحاولات العديدة التي قام بها كثير من الزبائن، الذين زرعوا البذور، فإن تلك الأنواع من الفليفلة لم تكن تنبت في أي مكان خارج حديقة الدير.

كان أكثر الناس يقولون إنهن جارات غريبات الأطوار، ولكنهن مسالمات، بل أكثر من مسالمات، إنهن خدومات في المناسبات، فهن يستقبلن الناس - التائهين أو المحتاجين للراحة. وقد تحدثت التقارير الأولى عن طبيعتهن وطعامهن الجيد جداً. أما الآن، فالجميع يعلمون أنّ كل ذلك لم يكن سوى أكاذيب، واجهة ومظاهر رُتّبت بعناية كي تخفي ماكان يحدث في حقيقة الأمر. وعندما أصبحت الخطورة واضحة، التقى ممثلون عن الكنائس الثلاث قرب الفرن، لأنهم لم يتوصلوا إلى الاتفاق على معرفة أية كنيسة يجب أن تضم الاجتماع الذي سيُقرّر فيه ماذا يجب عمله، لأنّ النساء تجاهلن جميع التحذيرات.

عُقد الاجتماع بصورة سرّية، ولكنّ الإشاعات تحدثت عنه منذ أكثر من سنة. فالإساءات التي تراكمت طيلة ذلك الوقت أصبحت تشكل أدلة. أمّ صرعتها ابنتها القاسية تحت الدرج. أربعة أطفال ولدوا مشوهين في أسرة واحدة. وبعض الفتيات كنّ يرفضن مغادرة السرير. وعدة عرائس اختفين أثناء شهر عسلهن. أخوان تبادلا إطلاق النار على بعضهما من مسدّسيهما مساء عيد رأس السنة. وباتت الرحلات إلى دمبي من أجل الحصول على حقنة ضد الأمراض الزهرية، عملة رائجة، وماكان يحدث في الفرن في تلك الفترة، يفوق إدراك ما يُسمع عنه. ولذلك فعندما قرر تسعة رجال أن يلتقوا فيه، كان عليهم أولاً أن يطردوا أولئك الموجودين فيه تحت تهديد بنادقهم، قبل أن يتمكنوا من الجلوس في ضوء مصابيحهم اليدوية لكي يحملوا مسؤولية الأمور على عاتقهم. فالأدلة التي حصلوا عليها منذ الاكتشاف الرهيب الذي حصل في فصل الربيع، لايمكن نكرانها:

أنّ مايربط بين جميع هذه الكوارث موجود في الدير. وأولئك النسوة كُنّ في الدير.

سار الأب في ممر المصلّى وهو يتفقد ويفتش المقاعد، يميناً ويساراً، بينما مصباحه اليدوي ماركة «بلاك آند ديكر» يلقي حزمة ضوء تحت كل مقعد. قَلَبَ المراكِع، وتوقف أمام المذبح. تأرجحت فوقه نافذة ذات لون أصفر باهت في العتمة. بدت الأشياء غير نظيفة. اقترب من صينية عليها أقداح صغيرة وُضعت على الجدار الصغير، ليرى إذا كان فيها بقايا من طعام القربان. وفيما عدا الوسخ ونسيج عنكبوت كانت الأقداح الحمراء فارغة. ربما لم تكن مخصصة لتقديم الطعام بل لتلقّي النقود. أم لتلقي الأوساخ؟ وهناك علكة ملفوفة بأوسخ غلاف. إنها من النعناع الحاد.

هزّ رأسه ولحق بابنه خلف المذبح. بسط الابن ذراعه. أضاء الأب الجدار، عند أسفل النافذة الصفراء التي بالكاد تبدو منها أشعة الشمس. بدت لهما جوانب صليب ضخم وبدا المكان الذي اعتاد أن يكون فيه المسيح نظيفاً كما لو أنه طلي حديثاً.

الشقيقان اللذان أخذا يقتربان من القبو كانا فيما مضى متماثلين تماماً. ومع أنهما توأمان، فإنّ زوجتيهما تتشابهان أكثر منهما. أحدهما ظريف ورشيق ويدخن سيجار «تي آمو»، أما الآخر فأكثر قسوة وأكثر بخلاً، ولكنه يخبّئ وجهه عندما يصلي. ومع ذلك فإنّ للاثنين كليهما عينين كبيرتين بريئتين وليس لديهما سوى فكرة واحدة حيال ذلك الباب المغلق، كما كان الأمر في عام 1942 عندما بدأا العمل. كانا في السابق يفتشان عن مخرج ـ عن قطيعة، بعيداً عن حياة يكون فيها المرء مديناً لا مالكاً. أما اليوم فيريدان أن يكونا مالكين. فيما مضى، في سنوات الأربعين، لم يكن لديهما مايخسرانه. واليوم، كل شيء يحتاج إلى حمايتهما. فمنذ البداية، منذ تأسيس المدينة، أدركا أنّ العزلة لاتضمن أي أمن. فالأمر يحتاج

إلى رجال أقوياء ذوي عزم حين يصل الأمر إلى حد أن الغرباء من التائهين والبائسين يمرون دون إلقاء حتى نظرة على هذه المدينة المستسلمة للنوم والتي فيها ثلاث كنائس لاتبعد الواحدة عن الأخرى ميلاً واحداً، ولكن ليس فيها شيء لخدمة المسافر: لامطعم، لامخفر للشرطة، لامحطة محروقات ولاهاتف عمومي ولا دار للسينما ولامشفى. وفي بعض الأحيان، إذا كان الغرباء شباناً وثملين، أو مسنين وجائعين يمكنهم أن يترصّدوا ثلاث أو أربع فتيات من الملونات اللواتي يتسكعن بجانب الطريق، فيمشون بضعة ياردات، متوقفين حسب متطلبات الحديث، ويتسكعون متوقفين للضحك أو لطم ذراع الآخر كمزاح. ويمكن أن يهتم الغرباء بهنّ. فعلى سبيل المثال كان هناك ثلاث سيارات، إحداها ماركة بيل إير موديل 53 خضراء اللون وسكرية من الداخل، رقمها 085 B ست أسطوانات، وقد ضوعفت حوافها الخلفية، ذات سرعتين تعملان بصورة آلية من نوع «باورغلايد»، وأخرى ماركة دودج ويفيرر موديل 49 ، سوداء، زجاجها الخلفي محطم، جوانبها مجنّحة، نصف آلية. والثالثة ماركة أولدزموبيل موديل 53 تحمل لوحتين من ولاية أركنساس. تباطأ السّائقون في سيرهم، ومدّوا رؤوسهم من النوافذ وأخذوا يزعقون، وأعينهم متغضّنة من الشر. يدورون حول الفتيات، يتوقفون ثم يستديرون بشكل حرفي «U» و«K». يتلفون العشب المزروع أمام المنازل ويطردون الهررة أمام بقالية إيس، ويرسمون دوائر. بهتت عيون الفتيات فأخذن يتدافعن وهنّ يتراجعن. عند ذلك خرج رجال المدينة الواحد تلو الآخر من المنازل، من الباحات، من مخزن الأغذية، ونزل آخرون من سقالة المصرف. فتح أحد المسافرين في إحدى السيارات بنطاله وانحنى على النافذة كي يخيف الفتيات. فانتفضت القلوب الصغيرة في صدور الفتيات ولكنهنّ لم يستطعن إغلاق أجفانهنّ بسرعة، ولذلك دفعن برؤوسهن جانباً بشكل مفاجئ. لكنّ رجال المدينة كانوا ينظرون إليهن، وتبيّنوا الرغبة في تلك الحركة العدوانية فابتسموا. وقد ابتسموا على مضض ورغماً عنهم

لأنهم يعرفون أنه منذ تلك اللحظة، إن لم يكن قبل ذلك، فإن هذا الرجل، حتى لو جازف بروحه، فإنه سيُلحق أكبر ضررٍ ممكن بالناس الملونين.

خرج رجال آخرون، وخرج غيرهم أيضاً. لم تكن مسدساتهم مصوّبة نحو أي شيء. فهم يحملونها بتراخٍ ملتصقة بأفخاذهم. عشرون رجلاً. أصبحوا الآن خمسة وعشرين. أحاطوا بالسيارات التي تسير بشكل دائري. تسعون ميلاً تفصلهم عن مركز الهاتف وتسعون عن أقرب مخفر للشرطة. لو كان الجو جافاً في ذلك النهار، لكان الغبار المتصاعد خلف العجلات قد أزال لونهم جميعاً. ولكنّ تلك العجلات لم تدفع وراءها سوى بعض الحصى الصغيرة.

كان التوأمان يتمتعان بذاكرة قوية. فالاثنان يتذكران معاً تفاصيل كل ماحدث ـ ماشهداه وما لم يشهداه. يتذكران درجة الحرارة بكل دقة في اليوم الذي دارت فيه السيارات حول الفتيات مثلما يتذكران تماماً منتوج كل مزرعة في المنطقة. ولم ينسيا أبداً مغزى أو تفاصيل أية قصة، وبخاصة تلك القصة الهامة التي رواها لهما جدّهما ـ الرجل الذي كتب كلمات فوهة الفرن السوداء. القصة التي أوضحت لماذا لن يستطيع لاموّسسو هاڤن ولا ذريّتهم أن يتحملوا أحداً سوى أنفسهم. أثناء الرحلة، من ولاية المسيسبي وأبرشيتي لويزيانا حتى أوكلاهوما، استُقبل المحرَّرون المئة والثمانية وخمسون بصورة سيئة على كل شبر من الأرض، من يازو حتى فورسميث. كان الشاكتاو الأغنياء يطردونهم والبيض الصغار يطاردونهم وكلاب الحراسة تلاحقهم، تسخر منهم عاهرات المخيمات وأبناؤهن، ومع ذلك فإن كل هذا لم يهيّئهم للصدّ الجاف والإهانات العدوانية التي تلقوها في المدن السوداء التي كانت قيد الإنشاء. وعنوان المقالة التي نُشرت في صحيفة «هيرالد»: «فلتأتوا مستعدّين أو لاتأتوا أبداً»، لايمكن أن يعنيهم، أليس كذلك؟ ولأنهم ماهرون، أقوياء، متلهّفون إلى العمل في أرضهم الخاصة، فقد كانوا يعتقدون أنهم أكثر من مستعدّين ـ بل هم مصممون. لم

يصدّقوا آذانهم عندما علموا بأنّهم لايملكون مايكفي من المال الذي يتفق مع الشروط التي يضعها السود الذين يتّبعون أسلوب الاكتفاء الذاتي. وباختصار، فقد كانوا أكثر فقراً وأكثر عرياً من أن يدخلوا إلى التجمعات التي تطلب مزارعين سوداً فضلاً عن الإقامة فيها. إن سوء الاستقبال الزريّ الذي قابلهم به من كانوا أوفر حظاً منهم، غَيَّرَ درجة حرارة دمِهِم مرتين: ففي بداية الأمر بدأ بالغليان عندما وصفوهم بأنهم «أناس يفضلون المقاهي ولعب الورق، على البيوت والكنائس والمدارس» ثم برد دمهم عندما تذكروا تاريخهم المذهل. وما بدأ في حرارة التفاؤل أصبح هاجساً بارداً. قال أحد الرجال: «إنهم لايعرفون أحداً منا أو شيئاً عنّا»، «نحن أحرار مثلهم، كنا عبيداً مثلهم. فلماذا تكون هذه الفروق؟».

وعندما تعرضوا للإنكار والرفض، غيّروا طريقهم واتجهوا إلى الغرب نحو الأراضي غير المفْروزة، إلى جنوب مقاطعة لوغان، وإلى مابعد النهر الكندي في منطقة آراباهو. وكل حادثة مزعجة كانت تجعلهم أكثر تصميماً وفخراً، فتظل التفاصيل محفورة في ذاكرة التوأمين القوية. قصص كثيرة ماتزال تروى وتروى على علاتها ودون رتوش، في الأهراء المظلمة، قرب الفرن عند الغروب، بعد ظهر أيام الأحد عندما يتلاقى المصلّون. سروج اللصوص الأربعة ذوي البشرة السوداء الذين أطعموهم لحم البوفالو المجفف قبل أن يسرقوا بنادقهم. صمت الزوبعة التي اجتاحت مخيمهم وطوقته. الأطفال النائمون الذين استيقظوا وهم يتطايرون في الهواء. روعة الخيول التي كانت جماعة من الشاكتاو تمتطيها وهي تراقبهم. وفي وقت العشاء، عندما يسود الظلام الذي لايمكن معه القيام بشيء سوى مايمكن عمله في ضوء النار، يروي الآباء القدامى قصص تلك الرحلة: الإشارات التي كان الله يعطيها لهم لكي يرشدهم ـ إلى مصادر المياه، إلى «الكريك» حيث يقايضون عملهم بالعربات والخيول والمراعي، بعيداً عن أوجار مستعمرات الكلاب البرية التي تغطي خمسين ميلاً ـ وشرور الشيطان: نساء مهجورات بلا شيء، إشاعات عن الذهب المخبأ في قاع الأنهار.

يعتقد التوأمان أن جدّهما قد اختار الكلمات للفرن عندما اكتشف كم كان طريق الفضيلة ضيقاً. كانت قطع الأثاث تجمّع بواسطة أوتاد خشبية لأن المسامير غالية جداً، ولكنه ضحى بكنزه من المسامير التي طولها ثلاث أو أربع بوصات، المعوجة أو المستقيمة، لكي يقول شيئاً هاماً يمكن أن يدوم أثره طويلاً.

عندما وُضعت الحروف في مكانها، وقبل أن يتاح الوقت للتفكير بالكلمات التي تكوّنها تلك الحروف، أقاموا سقفاً قرب الفرن تدلّت واسودّت جوانبه. اجتمع سكان هافن، وجلسوا على صناديق ومقاعد استُحدثت للتو، لكي يتحدثوا، ويكونوا معاً ليتذوّقوا متعةَ لحم الطرائد التي اصطادوها، بعد أن شويَ بصورة جيدة. وفيما بعد، عندما حلّت محلَّ عشب البوفالو مدينة صغيرة جميلة، فيها شارع مركزي، وبيوت خشبية وكنيسة، ومدرسة ومخزن، ظل مواطنو المدينة يجتمعون هناك. كانوا يضعون أيّلاً بكامله وبعض الطيور التي يصطادونها على السفّود ويشوونها، يقلّبون الضلوع ويفركون بالملح أضلاع العجل الذي يبرد. كان الاعتماد في تلك الفترة على طريقة الشواء البطيء، فيجعلون اللهب خفيفاً بحيث يظل الديك الرومي الذي يزن 20 باونداً ليلة بكاملها، ويظل نصف عجل يومين بطولهما إلى أن ينضج لحمه حتى العظم. وكلما قتلوا حيواناً أو اشتهوا لحم طرائد الصيد الطازج غير المدخّن، يجلب سكان هافن الحيوان إلى الفرن ويظلّون أحياناً هناك ليتبادلوا رواية القصص والحكايات. يتنازعون مع عائلة مورغان حول مسألة إضافة البهارات والتوابل إلى الطعام، أو حول أفضل طريقة لمعرفة متى يكون الشواء قد نضج. ويظلون هناك يثرثرون، يتبادلون الشكاوى، يصرخون ضاحكين ويشربون القهوة في ظل الحواجز الواقية من الرياح وأشعة الشمس. وأي طفل قريب، يصل إليه صوت أحدهم كان يتلقى الأمر بطرد الذباب وجلب الحطب، وتنظيف منضدة العمل أو تكويم التراب بمِدَكّة.

في العام 1910 كان في هافن كنيستان وفرع لمصرف «أوُل سيتيزن» «كل المواطنين»، وأربعة صفوف في المدرسة، وخمسة

مخازن تبيع السلع الجافة، والعلف والمواد الغذائية، لكن الرواح والمجيء حول الفرن كان أكبر منه في جميع هذه الأماكن. ولم تكن أية عائلة تحتاج لأي شيء، باستثناء موقد صغير، طالما أن الفرن يعمل، وقد ظلّ يعمل على الدوام. وحتى في عام 1934 ، عندما أخذ كل شيء في المدينة يتدهور، وأصبح واضحاً كضوء النهار أن المناقشات بشأن الكهرباء ستظل مجرد مناقشات، وأنّ الغاز والمجارير أعجوبتان صالحتان لـ تولسا(*)، فقد ظل الفرن حياً. وحتى فترة الجفاف الكبير، لم ينقص الماء الجاري في المدينة لأن النبع كان عميقاً، وعندما كان التوأمان حديثي السنّ لطالما تأرجحا على أغصان أشجار الحور والصفصاف التي تتدلّى، وخاطرا معلقين فوق المياه الصافية كي يتأمّلا انعكاس قدميهما فيها. كانا يسمعان القصص التي تروى عن الفساتين والقبعات الزرق التي اشتراها الرجال للنساء بالنقود التي حصلوا عليها من أول موسم أو من ثمن الحيوانات الأولى التي ذبحوها. وعن الوصول المدهش لبيانو سان لويس الذي أوصيَ عليه منذ أن صُنعت الأرضية الخشبية لكنيسة «صهيون». راحا يتخيلان أمهما وهي في العاشرة من عمرها بين فتيات صغيرات أخريات تجمعن حول البيانو، وأخذن يضغطن خلسة على أحد مفاتيحه، قبل أن تبعد الشمّاسة أيديهن بضربة كف خفيفة، وأصواتهن السوبرانو الصافية وهن ينشدن أثناء التمارين: «سيحرسك ويسهر على سلامتك...» ويمكن القول، إن هذا ماقام به إلى أن كفَّ عن ذلك.

ولد التوأمان سنة 1924 وظلّ الناس يحدثونهما طيلة عشرين عاماً عن الأربعين سنة السابقة. كانا يصغيان، يتخيلان ويتذكران أبسط الأمور، لأن أقل التفاصيل شأناً كان يثيرهما ويحدث لديهما مايشبه الصدمة التي تفرحهما وتتيح لهما متعة مثيرة كالحلم، وأكثر حضوراً من الحرب التي قاتلوا فيها.

(*) تولسا: مدينة في ولاية أوكلاهوما في الولايات المتحدة، سكانها نصف مليون، وهي مركز نفطي هام.

سنة 1949 ، وهما شابّان تزوّجا حديثاً، لم يكونا غبيّين. قبل الحرب بكثير، أخذ سكان هاڤن يغادرونها ومن لم يكن قد حزم حقائبه كان يستعد للقيام بذلك. نظر التوأمان إلى مستقبلهما وقد بدا مغلقاً في تلك الفترة التي تلت الحرب ولم يكن من الصعب إقناع شبان آخرين من المدينة أن يكرروا مافعله الآباء القدامى عام 1890 . عشرة أجيال كانت قد عرفت ماذا ينتظرها «هناك»: حيز، كان فيما مضى جذّاباً وحراً، تُرك لتعبث به المشاكل والاضطرابات، واستعصى على أية سيطرة، فراغ يبرز فيه الشر الطارئ والمنظم، في الزمان والمكان المختارين ـ خلف أية شجرة، وراء باب أي بيت، متواضعاً كان أو فخماً. «هناك» حيث كان أولادك لُعباً ونساؤك غنائم وشخصك بذاته يمكن أن يُدمّر ويُقضى عليه، إذ يذهب المؤمنون إلى الكنيسة حاملين أسلحتهم، والحبال ملفوفة ومعلّقة على سروج خيولهم. «هناك» حيث تشبه كل مجموعة من البيض أعضاء مجلس المدينة، وأن تكون وحدك فذلك يعني أنك ميت. ولكن على مدى الأجيال الثلاثة الأخيرة، كانوا قد تعلموا مرة تلو الأخرى الدروس عن طريقة حماية مدينة. وهكذا، كالعبيد القدماء الذين كانوا يعرفون ماالذي يجب عمله قبل كل شيء، هدم الجنودُ القدماء الفرنَ، وحمّلوا قِطَعَهُ في شاحنتين، حتى قبل أن يفكّكوا أسرَّتَهم الخاصة. وفي منتصف شهر آب والشمس لم تكن قد بزغت بعد، غادرت هاڤن خمس عشرة عائلة، لم تتوجه نحو موسكوغي، أو كاليفورنيا كما فعلت عائلات أخرى، أو نحو سان لويس أو هيوستون أو لنغستون أو شيكاغو، بل توغّلت أكثر عمقاً في أوكلاهوما إلى أبعد ماستطاعت التسلق، هرباً من الأدنياء المتملّقين الذين دنّسوا المدينة التي بناها أجدادهم.

سأل الأطفال وهم جالسون على المقاعد الخلفية في السيارات: «كم بقي لنا؟» «كم سيطول الطريق؟»

أجاب الآباء: «سريعاً» وساعة بعد أخرى ظل الجواب هو نفسه «سريعاً. سريعاً جداً». وعندما رأوا نهر بيفر كريك يندفع في فوهة الولاية التي كان لها شكل البندقية ويجتاز الفدادين المكسوة

بالحشائش (التي لم يعد لها قيمة منذ الاعصارات التي عصفت بها سنة 1949) التي اشتروها بالمبلغ الذي جمعوه من أجورهم الأخيرة، كان ذلك جميلاً وفي الوقت المناسب.

وماتخلوا عنه كان مدينة تفخر بأن شوارعها مغطاة بالعشب، وقد أصبحت الآن مغطاة بالأعشاب البرية، يسيطر عليها ثمانية عشر شخصاً عنيدون يتساءلون كيف يذهبون إلى مكتب البريد فربما تنتظرهم إحدى الرسائل التي بعث بها أحفادٌ لهم غادروا منذ زمن طويل. هناك حيث أقيم الفرن، كانت بعض الأفاعي الصغيرة الخضراء ترقد في الشمس. ومن كان يستطيع التصوّر أنه بعد خمس وعشرين سنة، وفي مدينة جديدة تماماً، يستطيع ديرٌ أن يتفوق على القوة التخريبية للأفاعي والكساد الاقتصادي وجابي الضرائب والسكة الحديدية؟

والآن، أحد الأخوين، وهو زعيم في كل مجال، خلع باب القبو بأخمص بندقيته. والآخر وقف ينتظر، مع ابن أختهما، على بُعد بضعة أقدام إلى الخلف. ثم نزل الثلاثة على الدرج وهم في غاية اليقظة، متشوقين للاستطلاع. ولم يخب ظنهم. فما رأوه كان غرفة نوم الشيطان وحمّامه وحظيرته النّقالة الكريهة والمقزّزة التي يلعب فيها.

ظلّ ابن الأخت يعرف على الدوام أنّ أمه قد عملت كل مابوسعها كي تصمد. وقد صمدت حتى رأته يمتطي الحصان الفائز، لكن لم تعد لديها القوة لأكثر من ذلك، حتى ولا القوة على الاهتمام بالمناقشات التي دارت حول اختيار اسم لذلك المكان الذي أتت إليه مع أخويها وطفلها الصغير. وطيلة ثلاث سنوات، ظلّ اسم نيوهاڤن مقبولاً من قِبَل العدد الأكبر من الناس، حتى وإن كان بعضهم لايتحرّجون من اقتراح أسماء أخرى، أسماء كانوا يقولون بأنها لاتُذكّر بأي إخفاق أو فشل، جديداً كان أو مكرراً. بعض الذين اشتركوا سابقاً في حرب

المحيط الهادئ، أحبوا اسم: غوام وآخرون فضلوا: أنشون. وأولئك الذين حاربوا في أوروبا لم يكفّوا عن اقتراح أسماء، أحبَّ الأطفالُ وحدهم أن يلفظوها. أما النساء فلم يكن لهنّ رأي محدد تماماً إلى أن ماتت والدة ابن الأخت. وَضَعَ دفْنُها ـ وهو الأول في المدينة ـ حداً للنقاش ولضرورته. فأعطت النساء للمدينة اسم واحدة من بينهنّ، ولم يجد الرجال مايقولونه للاعتراض على ذلك. حسن جداً. موافقون: روبي. روبي الشابة.

وقد راق هذا لخالَي الطفل اللذين استطاعا بذلك، في آن واحد، أن يبكيا الأخت وأن يكرّما الصديق والصهر، الذي لم يرجع مطلقاً من الحرب. لكنّ ابن الأخت، الذي فاز بوسام «القلب الأرجواني» من أوسي، وورث بطاقات كلب أبيه، ورأى بقية حياته اسم أمه مسجلاً على اللوحات ومكتوباً على المغلفات، أحْدَثَ له هذا التكريم بعض التشويش والاضطراب: القلب والبطاقات وتسمية مكتب البريد، كانت تبدو كأنها كثيرة عليه وتتجاوزه قليلاً. والنساء، اللواتي عرفن أمه واعتنين بها وعالجنها، أخذن فيما بعد يدلّلن ابن روبي. الرجال الذين سبق لهم أن تعاونوا مع أبيه فضلوا ابن زوج روبي. استهان الخالان به. وعندما اتُّخذ القرار، بالقرب من الفرن، كان موجوداً هناك. لكن قبل ذلك بساعتين عندما بلعوا آخر لقمة من اللحم الأحمر، ربّت أحد الخالين ببساطة على كتفه وقال له: «لدينا قهوة في الشاحنة. اذهب وأحضر بندقيتك». فنفّذَ ماطُلب منه ولكنه أخذ أيضاً الصليب المصنوع من سعف النخيل.

كانت الساعة الرابعة صباحاً عندما انطلقوا، والخامسة تقريباً عندما وصلوا، فنظراً لأنهم لايريدون أن يُفسد هديرُ المحركات أو نورُ المصابيح حمايةَ الظلام لهم، قطعوا الأميال الأخيرة سيراً على الأقدام. أوقفوا الشاحنات في بقعة قُطعت أشجارها، لأن الضوء في تلك البلاد يمكن أن يُرى من بعيد. وإذا كانت أغطية السيارات لاتُرى من على بعد خمسين ميلاً، فإنّ شمعات قوالب حلوى في حفلة أحد الأعياد تبدو من بعيد حالما يُشعل عود الكبريت. على مسافة نصف ميل من الموقع الذي يقصدونه، اكتنفهم ضباب كثيف وصل إلى

أوراكهم. ووصلوا إلى الدير قبل الشروق ببضعة ثوانٍ، فأتيحت لهم برهة لكي يروا ويسجلوا كيف كان المسكن يعوم قاتماً منفصلاً عن أرض الله..

في غرفة الدرس التي سبق أن استُخدمت كغرفة للطعام والتي لم تعد تُستعمل اليوم إلا لتجميع المقاعد وحشرها قرب الجدران، كان كل شيء بادياً للعيان. هاهم رجال روبي يزدحمون على النوافذ. وبما أنهم لم يجدوا في الدير إلّا أدلة قاطعة، فقد تجمعوا هنا. فهم آباء روبي الجدد في أوكلاهوما. وقد زال البرد الذي استقبلهم في البداية، وتبدّد الضباب أيضاً. إنهم متحمسون - دفءٌ وتعرّق والرائحة الليلية للاستقامة. كان المشهد واضحاً.

أثر. لايستطيع ابن الأخت التفكير بشيء آخر. متسابقات سريعات لمسافة أربعمئة ياردة أو حتى عدّاءات الأميال الثلاثة. اثنتان منهن دفعتا رأسيهما إلى الخلف بقدر ماسمح لهما عنقاهما، وشدتا على قبضتيهما، بينما أخذت سواعدهما تتأرجح وتمتد إلى الأمام. أحنت إحداهما رأسها المغطى بالزغب ودفعت جبينها إلى الأمام لكي تشق الهواء والزمن، يدها مبسوطة لكي تقطع شريط الوصول الذي لاوجود له في مستقبلها. فتحن أفواههنّ واستنشقنّ الهواء دون أن يطردن منه شيئاً. لم تكن سيقانهنّ تلمس الأرض كانت متباعدة عن بعضها فوق نباتات النفّل.

بنات حواء السوداوات المتميزات اللواتي لم تخلّصهن مريم العذراء، يشبهن ظبيات نافرات من شدة الخوف، رحن يقفزن نحو الشمس التي توصلت في نهاية الأمر إلى تبديد الضباب والتي أخذت تسكب الآن زيتها المقدس على جلد الطرائد.

الله إلى جانب الرجال، فقد حددوا هدفهم. من أجل روبي.



ماقيس

بدا الجيران راضين عندما اختنق الأطفال الصغار. وذلك دون شك لأن سيارة الكاديلاك ذات اللون الأخضر النعناعي التي ماتوا فيها أزعجتهم لبعض الوقت. ومن المؤكد أنهم عملوا كل ماكان ينبغي عمله: فقد جلبوا بعض الطعام، واتصلوا هاتفياً للتعبير عن حزنهم، وقاموا بالبحث عن أسباب الحادث، ولكنّ بريق الفضول بدا واضحاً في أعينهم.

وعندما وصلت الصحافية، جلست ماقيس في زاوية الأريكة دون أن تعرف تماماً إذا كان عليها أن تزيل فُتات الشيبس المحصورة تحت حاشية غطاء الأريكة البلاستيكي أو أن تدفعها إلى الداخل. ولكنّ الصحافية أرادت أن تؤخذ الصور أولاً. فأجلس المصور ماقيس وسط الأريكة، وأجلس الأطفال الباقين على قيد الحياة إلى جانبي أمهم، الذاهلة الحزينة. وطلبت أن يأتي الأب أيضاً، بالتأكيد. جيم؟ هل هو جيم أولبرايت؟ لكنّ ماقيس قالت بأنه ليس على مايرام، ولايستطيع الحضور وعليهم أن يستغنوا عنه. فتبادل المصور والصحافية النظرات، ولكن ماقيس قالت في سرها إنهما، على كل حال، يعلمان، دون شك أن فرانك ـ وليس جيم ـ كان جالساً على حافة حوض الحمّام وأنه كان يشرب السيغرام دون كأس.

اقتربت ماڤيس من وسط الأريكة ونزعت غبار الشيبس من تحت أظافرها وانتظرت أن يلحق بها الأطفال الآخرون. «الأطفال الآخرون» هكذا سيسمّونهم الآن. وضعت سال ذراعها حول خصر أمها. بينما وقف فرانكي وبيلي جيمس جنباً إلى جنب، في الجهة اليمنى. قرصتها سال بقوة. فعرفت ماڤيس في الحال أنّ ابنتها لم تكن قلقة بسبب آلة التصوير والآخرين، لأن القرصة طال أمدها، وكانت حادة جداً، ولأن أظافر سال غاصت حتى الدم.

«لابد أنّ ذلك كان مرعباً بالنسبة لكم». هي تقول بأنها تدعى جون(*).

«نعم، يا سيدتي. هذا الأمر مرعب بالنسبة لنا، جميعنا».

«هل هناك ما تريدين قوله؟ شيء، ربما تريدين أن تعرفه بقية الأمهات؟»

«ماذا ياسيدتي؟»

وضعت جون إحدى ساقيها على الأخرى، فلاحظت ماڤيس أنها لأول مرة تنتعل حذاءها الأبيض ذا الكعب العالي. فنعله لم يكد يصيبه الوسخ. «كما تعلمين، يمكنك أن تقولي شيئاً لتوعيتهن، وتحذيرهنّ من مغبّة الإهمال».

«حسن». أخذت ماڤيس نفساً طويلاً. «لايحضرني شيء. أعتقد. أنا».

جلس المصور القرفصاء وأحنى رأسه وأخذ يدرس الإمكانيات.

«لكي ينجم شيء حسن من هذه المأساة الرهيبة». كانت جون تبتسم ابتسامة حزينة.

انتصبت ماڤيس واقفة بسبب أظافر سال. أحدثت آلة التصوير صوتاً خافتاً: كليك! وضعت جون قلمها الحبر في مكانه. إنه قلم جميل. لم تر ماڤيس شيئاً كهذا قط ـ كان يكتب على الورق بالحبر،

(*) June: وتعني حزيران.

ولكنه حبر جاف لايُحدث البقع أبداً. «ليس لديّ ما أقوله الآن لأناس لاأعرفهم».

للمرة الثانية، أرخى المصور ستار النافذة الأمامية وعاد نحو الأريكة ممسكاً بعلبة سوداء أمام وجه ماقيس.

قالت جون: «أفهم ذلك!» رقّتْ نظرةُ عينيها ولكنّ بريقهما كان كبريق عيون الجيران. «إني أكره حقاً أن أجعلك تتعرضين لهذه التجربة، ولكن ربما تستطيعين أن تقولي لي ماذا حدث وحسب؟ فقراؤنا أصيبوا بالذعر تماماً. التوأمان، وكل شيء. أوه، ويريدون أن تعلمي أنهم يذكرونك في صلواتهم كل يوم». وألقت نظرة على الطفلين وعلى سال: «وأنتم أيضاً. إنهم يصلّون من أجل كل واحد منكم».

أطرق فرانكي وبيلي جيمس ووجّها أنظارهما نحو أرجلهما الحافية. وألقت سال رأسها على كتف أمها وقرصتها بمزيد من القوة في خصرها.

«إذن هيا، أيمكن أن تحكي لنا؟» وابتسمت جون ابتسامة تعني: «اعملي معي هذا المعروف».

«حسناً... » قطبّت ماقيس حاجبيها. إنها هذه المرة تريد أن تفعل ذلك. «لم يكن يريد فطيرة السبام المحشوة بلحم الخنزير، أعني أنّ الأطفال يحبونها ولكن هو لايحبها. وهذا الجو الحار، لايسمح بالاحتفاظ بكثير من اللحم. وفي إحدى المرات كان عندي قطعة أضلاع كبيرة فسدت، فذهبت بالسيارة لأجلب بعض النقانق وقلت لابأس، ميرل وبيرل. كنت ضد تلك الفكرة في بداية الأمر ولكنه قال...»

«م.ي. ر.ل.؟».

«نعم ياسيدتي».

«تابعي».

«لم يكونا يبكيان، لاشيء، ولكنه قال إنه يشعر بألم في رأسه. ففهمتُ. واصطحبتُ الطفلين. لايمكنك أن تتوقعي أن يعود رجل من ذلك النوع من العمل وأن يقوم بعد هذا بحراسة الأطفال أثناء ذهابي لأجلب طعاماً شهياً أضعه في صحنه. أعرف أن هذا غير صحيح».

«اصطحبتِ، التوأمين إذن. لماذا لم تصطحبي الأطفال الآخرين أيضاً؟».

«إنه نمس البراري» قال فرانك.

«الغُرير» قال بيلي جيمس.

فقالت لهما سال «أغلقا فمكما!». وانحنت على بطن ماثيس ومدّت إصبعها نحو أخويها.

ابتسمت جون وتابعت: «ألم يكن هذا أكثر مدعاة للأمن، مع وجود الأطفال الآخرين في السيارة؟ أعني أنهم أكبر سناً».

دسّت ماثيس إبهامها تحت حمالة نهديها لكي ترفعها فوق كتفها. «لم أكن أتوقع أي خطر. فهناك يختلط الحابل بالنابل. كان يمكنني أيضاً الذهاب إلى كونفينينس ولكنني أجد أن بضاعتهم غير طازجة».

«وتركت الطفلين الرضيعين في السيارة أثناء ذهابك لشراء لحمة الأضلاع...».

«كلا، ياسيدتي، لشراء نقانق».

«صحيح. نقانق» وأخذت جون تكتب بسرعة ولكنها لم تكن تشطب شيئاً (كتبت wieners بدلاً من weenies). «ومع ذلك، فإنّ ماأريد أن أسألك عنه هو: لماذا استغرق شراؤك مادة واحدة هذا الوقت الطويل؟».

«آه، كلا. لم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً، لم أبق داخل المحل أكثر من خمس دقائق، بالضبط».

«سيدة أولبرايت إنّ طفليك توفّيا مختنقين، في سيارة نوافذها مغلقة والحرارة فيها مُحرقة، وقد حُبس فيها الهواء. ومع ذلك يصعب التصديق بأنّ هذا قد حدث خلال خمس دقائق».

ربما كان هذا عرقاً، ولكنّ الألم الذي شعرتْ به بدا من الشدة لدرجة أنه يمكن أن يكون دماً. لم تجرؤ على دفع يدٍ سال بضربة خفيفة ولاأن تعترف بالألم. وبدلاً من ذلك حكّت زاوية فمها وقالت: «لقد نلت عقاباً كافياً هكذا، ولكن من المؤكد أنّ هذا لم يستغرق أكثر من ذلك الوقت. فقد ذهبت مباشرة إلى قسم المنتجات الحيوانية، وتناولت حزمتين من نقانق أرمور، وهي ليست رخيصة كما تعلمين، ولكني لم أهتم بذلك حتى أني لم أنظر إلى السعر. فهنالك أنواع أخرى أرخص منها، وكلها جيدة مثلها. ولكني كنت في عجلة من أمري لذلك لم أهتم بالسعر».

«كنت في عجلة من أمرك؟».

«أوه، نعم، ياسيدتي. كاد يصاب بأزمة. لأن فطائر سبام ليست شيئاً كغذاء بالنسبة لرجل يعمل».

«وهل النقانق أفضل منها؟».

«كنت قد فكرت بشراء «أضلاع»، لقد فكرت بذلك».

«ألم تكوني تعرفين أنّ زوجك سيعود لتناول طعام العشاء، ياسيدة أولبرايت؟ ألا يعود لتناول العشاء كل يوم؟».

فكرت ماڤيس: إنها حقاً لطيفة ومهذبة: فهي لاتنظر إلى الغرفة ولا إلى أقدام الأطفال، ولاتنتفض بسبب الضجيج المنبعث من خلف البيت، الذي يتبعه صخب السيفون.

الصوت الذين كان يحدثه المصور وهو يغلق حقائبه بدا أكثر قوة عندما توقف السيفون. وقال: «حصلت عليها، أنا سعيد بلقائك ياسيدتي». انحنى ليشد على يد ماڤيس. لون شعره بلون شعر الصحافية.

سألته جون: «هل أخذت مايكفي من الصور لسيارة الكاديلاك؟»

«ما يكفي منها» ورسم حرف O بواسطة إبهامه وسبّابته. وقال: «أنتم جميعكم طيبون جداً». ثم تناول قبعته وانصرف.

كفّت سال عن ضم خصر أمها. انحنت إلى الأمام وبدت منشغلة بأرجحة قدمها التي راحت تصدم من وقت لآخر ساق ماڤيس.

من المكان الذي كانوا يجلسون فيه داخل الغرفة لايستطيعون رؤية سيارة الكاديلاك المتوقفة أمام المنزل. لكن جميع سكان الحي كانوا يرونها منذ أشهر، والآن سوف يراها جميع الناس في ولاية مريلاند لأنّ المصور أخذ صوراً للسيارة أكثر مما أخذ لهم: خضراء بلون النعناع، بلون الخس. لامعة برّاقة. ولكنّ اللون لن يُرى في الصحيفة. لن يُرى سوى المكان الذي مات فيه الطفلان. طفلان رضيعان، لايمكن رؤيتهما مطلقاً بعد الآن، لأنّ أمهما لم يكن لديها حتى صورة أُخذت على عجل لوجهيهما البريئين.

قفزت سال واقفة وصرخت: «أوه! انظروا! خنفساء!» رضّت قدم أمها.

لقد سبق أن قالت ماڤيس: «نعم، ياسيدتي. إنه يعود لتناول طعام العشاء كل يوم» وأخذت تتساءل كيف يمكن ذلك: أن يكون لها زوج يعود كل يوم. حقاً كل يوم. وعندما ذهبت الصحافية، أرادت أن تذهب لترى ماذا فعلت لها سال في خاصرتها، لكن فرانك كان مايزال في الحمّام، ولاشك أنه نائم والأفضل عدم إزعاجه. ففكرت بنزع فتات الشيبس العالقة تحت حواشي الغطاء البلاستيكي، ولكنّ المكان الذي أرادت أن تكون فيه هو السيارة. مع أنّ الكاديلاك لم تكن لها، بل له، فإنّ ماڤيس ربما كانت تحبها أكثر منه وقد كذبت عليه عندما قالت له بأنها أضاعت رزمة المفاتيح الثانية. كان هذا آخر ماتحدثت عنه عندما انصرفت جون قائلة: «إنها ليست جديدة، عمرها ثلاث سنوات، فهي موديل عام 65». ولو استطاعت لنامت فيها، على المقعد الخلفي، متكورة في المكان الذي وُجِد فيه التوأمان، الوحيدان اللذان كانا يحبّان البقاء معها، واللذان لم يكن وجودهما يُعتبر عملاً ثقيلاً وشاقاً بالنسبة لها. ولكنها، بالطبع، لاتستطيع أن تفعل ذلك. فقد سبق لـ فرانك أن قال لها بألّامصلحة لها

بقيادة الكاديلاك إلى آخر أيام حياتها، ولا حتى بلمسها، ولذلك ذهلت مثل أي شخص أخر عندما سرقتها.

«هل أنت بخير؟» كان فرانك قد أصبح تحت الأغطية وماقيس استيقظت بانتفاضة رعبٍ تحولت بسرعة إلى خوفٍ اعتيادي.

«إني بخير». وحدقت في الظلام مستفسرةً باحثةً عن إشارة لكي تحاول أن تعرف وتتبيّن مسبقاً مزاج فرانك. ولكن لم يكن هناك سوى الفراغ، تماماً كما كانت الحال أثناء تناول الطعام مساء يوم المقابلة مع الصحافية. ولابدّ أنّ فطيرة اللحم الجيدة (لم تكن قاسية جداً ولاطرية أكثر مما ينبغي - لأنّ إضافة بيضتين لها صنعتا هذا الاختلاف) قد أعجبته. الأمر هكذا، أو أنه عثر على التوازن: مايلزم لبطنه ومايلزم في متناول يده. وعلى أية حال، فقد كان ظريفاً، وحتى مسلياً، على المائدة، بينما كان الأطفال الآخرون متصلبين كالأوتاد. وقد وضعت سال موسى الحلاقة القديم الخاص بـ فرانك مفتوحاً بجانب صحنها، ثم ألقت على أبيها مجموعة من الأسئلة بدأتها بهذا السؤال: «هل هو مشحوذ بما فيه الكفاية لكي يقطع...؟» فأجابها فرانك: «إنه يقطع كل شيء، من شعر اللحية إلى الغضاريف» أو: «إنه يقطع أهداب البقّة». مما جعل سال تقهقه ضاحكة. وعندما بصق بيلي جيمس الـ «كول - إيد» في صحن ماقيس قال أبوه: «أعطني الكاتشب يا فرانكي، وأنت يا بيلي كفّ عن اللعب بطعام أمك، أتسمعني؟»».

لم تعتقد أن ذلك يستغرق معهم وقتاً طويلاً، وعندما رأت كيف كانوا عند تناول طعام العشاء، منصرفين إلى الضحك من المزاح والمداعبات وكل ذلك، عرفت أنّ فرانك سيترك لهم الحرية ليفعلوا مايشاؤون. سيبحث الصحافيون عن شيء يشدّ القارئ ويثير اهتمامه، وجون «وهي المرأة الصحافية الوحيدة في جريدة الكورّيير» ستمثل الجانب الإنساني.

حاولت ماقيس ألّا تتوتّر بسبب الضجة التي يحدثها فرانك وهو يجد مكانه على الفراش. فهل احتفظ بسرواله؟ لو عرفت ذلك لأدركت فيما إذا كان ينوي ممارسة الجنس أم لا، ولكن يستحيل اكتشاف ذلك دون أن تلمسه. وكما لو أنّ فرانك أراد إرضاء فضولها، أخذ يفرقع بالدكة المطاطية لسروال الملاكمة خاصته. فاسترخت ماقيس وأرسلت تنهيدةً، آملة أن تشبه الشخير. وكان الغطاء قد انتُزع قبل أن تنتهي. ورفع قميص نومها وغطى لها به وجهها، فتركته يقوم بهذه الحركة المباركة. لكنها أخطأت مرة أخرى. فهو ربما يقوم بهذا أولاً والبقية بعد ذلك. ولابدّ أنّ الأطفال الآخرين واقفون وراء الباب يتضاحكون، وعينا سال باردتان وغير متسامحتين كما كانتا عندما أخبروها بالحادث. قبل أن يأوي فرانك إلى السرير حلمت ماقيس بشيء هام كان يُفترض أن تقوم به، ولكنها لم تستطع أن تتذكره. وما أن تذكرته حتى سألها فرانك عمّا إذا كانت بخير. والآن تفترض أنها بخير، لأنّ الأمر الهام الذي نسيته ماعاد هناك حاجة لإنجازه أبداً.

هل سيتم ذلك بسرعة، كما يحدث في كل مرة تقريباً؟ أم أنه سيدوم طويلاً، وبشكل ساهٍ، لينتهي إلى إعياء صامت؟

لاهذا ولاذاك. فهو لم يلجْها ـ احتكّ بها وحسب، إلى أن شعر بذروة النشوة وهو يعض لها خصلة من الشعر من خلال قميص نومها الذي يغطي وجهها. كان يمكن أن تكون دمية آن الشعثاء، بالحجم الطبيعي.

بعد ذلك، تكلّم معها عبر الظلام: «لاأعرف يا ماقي، حقاً. إني لاأعرف».

أكان عليها أن تقول: ماذا؟ ماذا تعني؟ ماهو هذا الذي لاتعرفه؟ أم تلزم الصمت؟ فاختارت ماقيس الصمت لأنها أدركت فجأة أنه لم يكن يتكلم معها هي، بل مع الأطفال الآخرين الذين كانوا يتضاحكون وراء الباب.

وقال: «ربّما، ربّما أمكن معالجة ذلك، وربما، فأنا حقيقة لاأعرف». وتثاءب مطولاً، ثم: «ألا ترون كيف رغم ذلك».

كانت تعرف هذا، إنها الإشارة الموجهة إلى سال وفرانكي وبيلي جيمس.

وظلت تنتظر طيلة ماتبقى من الليل دون أن تغمض لها عين. بينما فرانك يغطّ في نوم عميق، كان يمكنها أن تنسلّ من السرير (طالما أنه لم يخنقها ولم يكتم أنفاسها) وتفتح الباب لولا التنفس الذي راحت تسمعه يتردّد في الجانب الآخر. كانت متأكدة أن سال تجلس القرفصاء هناك ـ مستعدة للانقضاض عليها، أو للإمساك بساقيها. وربما تكون شفتها العليا مرفوعة تكشف أسنان فتاة في الحادية عشرة، لكنها كبيرة الحجم بالنسبة لفمها الشرس. فكرت ماڤيس: سيكون الفجر حَرِجاً. فالفخ مقرّر، ولكنه ربما لم ينصب بعد. وستكون بحاجة لأقصى درجة من التركيز لكي تحدّد مكانه قبل أن يُطبق عليها.

وعند أول شعاع ضوء رمادي، غادرت ماڤيس السرير. فلو استيقظ فرانك لانتهى كل شيء. تناولت بنطالاً أحمر ضيقاً وكنزة «دافي دك» وذهبت إلى الحمّام. أخذت حمالة نهدين وسخة من سلة الغسيل وارتدت ملابسها بسرعة بدون سروال داخلي، ومن المستحيل الرجوع إلى الغرفة لجلب الحذاء. وأصعب مافي الأمر هو المرور أمام غرفة الأطفال الآخرين: فالباب مفتوح وإن كان لايخرج منه أي صوت، ارتعشت ماڤيس من فكرة الاقتراب منه. في آخر الممر، إلى اليسار، كان يوجد المطبخ الصغير الذي يُستعمل أيضاً كغرفة طعام، وإلى اليمين غرفة الجلوس. كان عليها أن تقرر اختيار الجهة التي ستسلكها قبل المرور راكضة أمام الباب. إنهم توقعوا، دون شك، أن تذهب مباشرة إلى المطبخ، كما تفعل كل يوم، لذلك ربما كان عليها أن تتسلّل بسرعة نحو الباب الخارجي. أو أنهم ظنوا بأنها ستغيّر عادتها ولم يكن الفخ في المطبخ أبداً.

تذكّرت فجأة أنّ حقيبة يدها في غرفة الجلوس، فوق خزانة التلفزيون التي أصبح يوضع عليها كل شيء، بعد أن تعطل الجهاز. ومجموعة المفاتيح الثانية معلقة تحت شق في بطانة الحقيبة. كتمت ماڤيس أنفاسها، حملقت في الظلام، وقفزت بسرعة أمام باب غرفة

الأطفال المفتوح، معرضةً ظهرها لذلك الخطر الجسيم، فشعرت بأنها أصيبت بالحمى - تتصبّب عرقاً، ومتجمدة في الوقت نفسه.

ليست حقيبتها وحسب كانت فعلاً في المكان الذي تذكّرت أنها موجودة فيه ولكنّ جزمة سال أيضاً بقرب الباب الخارجي. تناولت ماقيس الحقيبة، دسّت قدميها في جزمة ابنتها الصفراء وهربت عن طريق الشرفة. لم تلتفت نحو المطبخ، ولم تره بعد ذلك أبداً.

الخروج من المنزل أحدث لديها إحساساً كان من الشدة، بحيث أنّها شعرت وهي تبتعد بالكاديلاك عن حافة الرصيف بأنّها لاتملك أية فكرة عما ستفعله بعد ذلك ولا إلى أين يجب أن تذهب. فتوجهت نحو منزل بيغ، لم تكن تعرفها جيداً، ولكن أثناء الدفن، تأثرت كثيراً للدموع التي ذرفتها هذه السيدة. وقد أحبّت بعد ذلك على الدوام أن تتعرّف عليها بشكل أفضل ولكنّ فرانك يجد في كل مرة وسيلةً كي يمنع تحوُّل علاقةٍ بسيطة إلى صداقةٍ وطيدة.

كان المصباح الوحيد للشارع يبدو بعيداً لمسافة أميال، والشمس لمّا تشرق بعد، ولذلك وجدت صعوبة بالتعرف على منزل بيغ. وعندما وصلت أخيراً إليه، أوقفت السيارة في الجانب الآخر من الشارع وانتظرت أن يصبح ضوء النهار أكثر قوة قبل أن تقرع الباب. كان المنزل غارقاً في الظلام، وطيف صورة النافذة ما يزال في الأسفل، والسكون المطلق يخيم على تلك الأرجاء. تمثال خشبي لفتاة بين نباتات «البيتونيا»، تغطي وجهها قبعة لونها أزرق فاتح تمسك برشاش منحنٍ نحو النباتات ومجموعة منحوتة من البط تتبعها متقاطرة. والمرجة الخضراء، ذات الجوانب المقصوصة جيداً على استقامة واحدة، تشبه عيّنة من سجادة صوفية غالية الثمن. لاشيء يتحرك، لا الطاحونة الصغيرة ولا اللبلاب المتسلق الذي يحيط بها. ومع ذلك، هنالك نبتة ورد شارون، أكثر ارتفاعاً وأكثر قِدماً من سطح السيدة بيغ، راحت تهتز بجانب المنزل. كانت تتراقص يهزها الهواء الذي يخرج من جهاز التكييف، فتذري زهوراً وأزراراً على الحشائش. بريّة، تبدو بريّة، ونبض ماقيس أخذ يدقّ على إيقاع تراقصها. وحسب ساعة الكاديلاك لم تكن الساعة قد بلغت الخامسة

والنصف. فقررت ماقيس القيام بجولة صغيرة والعودة في ساعة مناسبة. ربما في السادسة. ولكنهم سيكونون هم أيضاً قد استيقظوا في تلك الساعة، وسيلاحظ فرانك أنّ الكاديلاك قد اختفت. ومن المؤكد أنه عند ذلك سيخبر الشرطة.

ابتعدت ماقيس عن حافة الرصيف، وقد أحزنتها وأخافتها الحماقة التي ارتكبتها. فليس كل الجوار فقط يعرفون السيارة، إنّما الصحيفة ستنشر صورتها اليوم . إذ عندما اشتراها فرانك وعاد بها إلى المنزل ضرب الرجالُ الذين كانوا في الشارع براحة أيديهم على غطائها وهم يبتسمون وأخذوا يشمون داخلها، ثم شغّلوا الزّمور وضحكوا. واستمروا في ضحكهم لأنّ صاحبها كان عليه أن يستعير جزّازة الأعشاب كل خمسة عشر يوماً، وليس لديه حاجز منخلي لنوافذ بيته، وجهاز التلفزيون الذي لديه معطل، ولأنّ اثنين من أعمدة شرفة منزله الستة طُليت باللون الأبيض قبل ثلاثة أشهر، وطلاء البقية الأصفر كان يتقشّر باستمرار، ولأنّ صاحبها كان ينام في بعض الأحيان - طيلة الليل - على مقود سيارته التي يتاجر بها أمام منزله. والنساء اللواتي كنّ يشاهدن ماقيس تأخذ الأطفال إلى وايت كاسل وقد وضعت نظارة شمسية في الأيام الغائمة، يحدقن ببلادة للتأكد من ذلك، قبل أن يهززن رؤوسهن مستغربات. كأنهن عرفن منذ البداية أنّ الكاديلاك ستصبح ذات يوم سيئة الصيت.

سارت ماقيس بحذر، بسرعة عشرين ميلاً في الساعة. دخلت الطريق 121، وهي تشكر الظلام الخفيف الذي مازال يخفيها عن الأعين. وعندما مرت أمام مشفى المقاطعة خرجت سيارة إسعاف صامتة من المدخل. ظهر صليب أخضر على خلفية بيضاء في الظلام عبر أضواء الإسعاف الباهرة. خمس عشرة مرة أتت إلى هذا المشفى كمريضة، أربع مرات منها كي تلد. وفي آخر مرة، عندما كانت حبلى بالتوأمين، وتنتظر أن تلدهما، أتت أمها من ولاية نيوجيرسي لمساعدتها. فاعتنت بالبيت وبالأطفال الآخرين خلال ثلاثة أيام. وبعد ولادة التوأمين، عادت إلى باترسون، ففكرت

ماڤيس أنّ رحلتها تستغرق ثلاث ساعات بالسيارة. كان يمكنها أن تصل قبل «العاصفة السرية» التي فاتتها الصيف كله.

في إحدى محطات الوقود «املأ وامض» تفقدت محفظتها قبل أن تجيب على سؤال المستخدم. ثلاث أوراق نقدية من فئة العشرة دولارات كانت مطوية خلف إجازة قيادة السيارة.

قالت: «عشرة.»

«غالونات أم دولارات ياسيدتي؟»

«غالونات.»

لاحظت ماڤيس بجانب المحطة واجهة مطعم ينعكس عليها ضوء الصباح الباكر، المرجاني.

فصرخت بأعلى صوتها، عبر الضجيج الجهنمي الذي تُحدثه الشاحنات على الطريق:

«هل المكان مفتوح هناك؟».

«نعم، يا سيدتي».

فقفزت قفزاً فوق الحصى متوجهةً نحو المطعم. في الداخل، كانت الخادمة تأكل كعك التفاح البري والجريش وهي جالسة خلف مكتب المحاسبة. غطّت صحنها بخرقة ومسحت زاويتي فمها قبل أن تحيّي ماڤيس وتسألها عن طلبها. وعندما خرجت ماڤيس ومعها قليل من القهوة في إناء من الكرتون وقطعتين من حلوى العسل في منديل من الورق، فاجأتها ابتسامة كبيرة بدت على وجه الخادمة في مرآة «بيرة هايرز روت» المعلقة عند المخرج. هذه الابتسامة أقلقتها وهي في طريق العودة إلى محطة الوقود، إلى أن رأت حذاءها الأصفر الكناري وهي تخطو إلى داخل السيارة.

بعيداً عن مضخة الوقود، توقفت وراء المطعم، ووضعت طعام إفطارها أمامها على حافة القيادة لكي تستطيع البحث عما يوجد في دُرجها. وهناك وجدت زجاجة مختومة من شراب إرلي تايمس وأخرى فيها قليل من الويسكي، مناديل ورقية، حلقة من المطاط

لأسنان الرُّضَّع، عدة قطع مطاطية، زوج جرابات وسخة، مصباح يدوي نفدت بطاريته، قلم أحمر شفاه، خريطة لولاية فلوريدا، سكاكر بالنعناع لترطيب الحلق، وبعض قسائم السفر. وضعت حلقة المطاط في حقيبة يدها، وضمت شعرها لتجعله على شكل ذيل حصان صغير وحزين، يبرز من الحلقة المطاطية كريش الدجاجة. ووضعت من أحمر شفاه المرأة المجهولة على فمها. ثم جلست في مقعدها وشربت قهوتها. كانت أكثر قلقاً من أن تطلب حليباً أو سكراً، فشربتها «سادة»، ولم تستطع إرغام نفسها على ابتلاع الجرعة الثالثة. لقد ترك أحمرُ شفاه المجهولة أثرهُ الرطب فوق حافة الكرتون.

الكاديلاك تستهلك عشرة غالونات من البنزين كل تسعين ميلاً. تساءلت ماڤيس فيما إذا كان عليها أن تتصل هاتفياً بأمها، أم أن تصل دون أن تعلمها بأنها قادمة. فبدا لها أنّ الحل الثاني هو الأنسب. لأنّ فرانك ربما يكون قد اتصل بحماته، أو أنه قد يتصل بها في أي وقت. لذلك يصبح من الأفضل أن تستطيع أمها القول، دون أن تكذب: «لاأعرف أين هي». لقد استغرقت رحلتها خمس ساعات، لاأربعة كي تصل إلى باترسون وكان قد بقي معها أربعة دولارات وستة وسبعون سنتاً عندما رأت المؤشر. كان الوقود قد وصل في المؤشر إلى حرف E (أي فارغ).

بدت لها الشوارع أكثر ضيقاً مما في ذاكرتها والدكاكين مختلفة. في الشمال، بدأت أوراق الأشجار تذبل وتصْفَرّ. وبينما كانت تسير تحتها في الردهة الكبيرة التي شكلت فيها الأوراق بقعاً، حصل لديها انطباع بأن الشارع ينزلق أمامها بدلاً من أن يتراجع. وكلما زادت من سرعتها بدا لها أن الطريق يبتعد.

توقّف محرك الكاديلاك على بعد مبنى من منزل أمها، ولكنّ ماڤيس استطاعت أن تتجاوز نقطة التقاطع وتركن السيارة بجانب المنعطف.

كان الوقت مايزال مبكراً، وأمها لاتعود من روضة الأطفال قبل أن يأتي الناس ليأخذوا أولادهم بعد الظهر. لم يكن المفتاح موجوداً

تحت تمثال الرنّة الجصي، لذلك جلست ماڤيس على درج مدخل المنزل الخلفي، وخلعت بصعوبة الجزمة الصفراء. فشعرت أنّ قدميها ليستا لها، بل لشخص آخر.

اتصل فرانك هاتفياً في الساعة الخامسة والنصف صباحاً، عندما كانت ماڤيس تتأمل شجرة ورد شارون أمام منزل السيدة بيغ. روَت بيردي غودرو لـ ماڤيس أنها أغلقت الهاتف في وجهه بعد أن قالت له بأنها لاتفهم شيئاً مما يحكيه، ومن يعتبرها حتى يجعلها تغادر سريرها؟ لم تكن مسرورة. لافي ذلك الوقت، ولافيما بعد عندما قرعت ابنتها نافذة المطبخ وهي تبدو كخفّاش خارج من الجحيم. وهذا ماقالته لها حالما فتحت الباب: «أيتها الفتاة، تبدين مثل خفّاش خارج من الجحيم، ماذا تفعلين هنا بهذه الجزمة الولّادية؟»

«دعيني أدخل وحسب، هل توافقين؟».

بيردي غودرو كان لديها مايكفي لشخصين بالضبط من كبد العجل. تناولت الأم وابنتها الطعام في المطبخ. وبدت ماڤيس عند ذلك بحالة مقبولة، بعد أن استحمّت وسرّحت شعرها وتناولت بعض أقراص الأسبيرين، وارتدت ثوب بيردي المنزلي الذي بدا فضفاضاً عليها.

«حسناً، إذن ماذا حدث؟ حتى وإن كان لاضرورة لأن تروي لي ذلك».

كانت ماڤيس ترغب بالحصول على مزيد من البازلاء، فأحنَت الوعاء لترى إذا كان قد بقي فيه شيء.

تابعت بيردي الكلام قائلة:

«تعلمين أنني كنت أتوقع هذا. الجميع كانوا يتوقعونه، فالأمر لايحتاج أكثر من دماغ بعوضة».

كان قد بقي قليل منها، نحو ملعقتين. أسقطتهما ماڤيس في صحنها، متسائلة إذا كان هنالك حلويات بعد الطعام. وقد تبقّى بعض البطاطا المقلية في صحن أمها. «هل ستأكلينها يا أمي؟».

دفعت بيردي صحنها نحو ماڤيس كان مايزال فيه أيضاً قطعة كبد صغيرة وبعض البصل المقلي، سكبت ماڤيس كل شيء في صحنها.

«مازال لديك أطفال أيضاً. الأطفال بحاجةٍ إلى أم. أعرف ياحبيبتي ماذا أصابك، ولكن لديك الأطفال الآخرين».

كان الكبد معجزة. فأمها تزيل منه كل أثر للغشاء الملتصق.

«ياماما»، قالت ماڤيس بعد أن مسحت شفتيها. بمنديل ورقي: «لماذا لم تأتي لحضور الدفن؟».

انتفضت بيردي: «ألم تتلقّي الحوالة؟ والزهور؟».

«لقد تلقيناها».

«إذن تعرفين لماذا. كان عليّ أن أختار ـ المساعدة على دفنهما أو دفع نفقات الرحلة. لم أكن أملك الوسائل للقيام بالاثنتين معاً. سبق أن قلت لك كل هذا. وسألتك بصراحة ماهو الأفضل. وكلاكما أجبتما أن النقود هي الأفضل. كلاكما، نعم كلاكما قلتما ذلك».

«سيقتلونني ياماما».

«هل ستظلين ترددين عليّ هذا طيلة ماتبقى من حياتي؟ بعد كل ماعملته لك وللأطفال؟»

«لقد سبق أن حاولوا ذلك ولكني هربت».

«أنتِ كل مالديّ بعد أن ذهب أشقاؤك ليُقتَلوا مثل الـ...» وضربت بيردي فوق الطاولة.

«ليس من حقهم أن يقتلوني».

«ماذا؟»

«إنه يُرغم الأطفال الآخرين على القيام بهذه الفعلة».

«ماذا؟ أية فعلة تعنين؟ تكلّمي بصراحة كي أفهم ماتقولين».

«أقول إنهم ينوون قتلي».

«هم؟ من هم؟ فرانك؟ من تعنين بـ هُم؟»

«هم كلهم. الأطفال أيضاً».

«يقتلونك؟ أطفالك؟»

أومأت ماڤيس برأسها. فتفرست بها بيردي غودرو، في البداية وقد جحظت عيناها، ثم نظرت إلى ركبتيها ممسكة جبينها بإحدى يديها.

بعد ذلك لم تقولا شيئاً خلال فترة من الوقت، ولكن فيما بعد، قرب المغسلة، سألتها بيردي: «هل حاول التوأمان، هما أيضاً القتل؟».

فحدّقت ماڤيس بأمها: «لا! أوه، لا ياماما! هل جننت؟ كانا رضيعين».

«حسناً، حسناً. كنت أسأل، إنه سؤال، وهذا كل شيء. فليس أمراً عادياً، كما تعلمين، التفكير بأنّ أطفالاً صغاراً...».

«ليس أمراً عادياً؟ إنه... إنه أمر سيء! ولكنهم سيفعلون مايقوله. والآن سيحاولون كل شيء، لقد سبق لهم أن حاولوا ياماما!».

«كيف حاولوا؟ ماذا فعلوا؟».

«كان مع سال موسى حلاقة وكانوا يضحكون وهم ينظرون إليّ ويراقبونني. لم يكونوا يرفعون نظرهم عني دقيقة واحدة».

«ماذا تفعل سال بموسى الحلاقة؟».

«وضعته إلى جانب صحنها وراحت تنظر إليّ. جميعهم راحوا ينظرون إليّ».

لم تتطرق أيّ منهما بعد ذلك إلى هذا الموضوع، لأنّ بيردي قالت لـ ماڤيس بأنّ بإمكانها البقاء شريطة ألّا تتفوّه ثانيةً بمثل هذا الكلام. وأنّ فرانك إذا اتصل هاتفياً لن تقول له بأنها موجودة هنا، لا له ولا لأيّ أحد غيره، ولكنها إذا أضافت كلمة واحدة عن قصة القتل تلك فإنها ستتصل به في الحال.

وبعد انقضاء أسبوع استأنفت ماڤيس الرحيل، ولكنها هذه

المرة قد وضعت خطة. فقبل ذلك ببضعة أيام، سمعت أمها تتكلم بالهاتف بصوت منخفض: «الأفضل أن تأتي في الحال، أعني أن تفعل ذلك». فقامت ماڤيس بجولة في البيت أثناء وجود بيردي في الروضة، متفكرةً: نقود، أسبيرين، ماكياج، ملابس داخلية. نقود، أسبيرين، ماكياج، ملابس داخلية. أخذت كلّ ماستطاعت أن تجده من النقود والأسبيرين. الحوالات في ظرفين حكوميين غامقي اللون، بقرب صورة أحد أخوتها الذين قتلوا في الحرب، وعبوتين من أسبيرين باير. وأخذت قِرط الماس الاصطناعي من علبة حلي أمها، وعثرت على مفاتيح السيارة، التي كانت أمها تعتقد أنها قد خبأتها جيداً، وأفرغت غالونين من البنزين، كانت مخصصة لآلة قص الأعشاب في خزان الكاديلاك، وذهبت تبحث عن غيرها. وفي نيو ارك وجدت مشغل إيرل شيب لطلاء السيارات وانتظرت هناك يومين في أحد المهاجع، حتى أعيد طلاء الكاديلاك باللون الأحمر الغامق. والدولارات التسعة والعشرون المعلن عنها لم تكن إلا للسيارات ذات الحجم العادي. أما هي فقد طُلب منها أن تدفع للكاديلاك 69 دولاراً. واشترت الحذاء والملابس الداخلية من محل وول ورث. ومن دكان غودويل اشترت بنطالاً أزرق باهتاً لايتجعّد وفولاراً ملفوفاً من القطن الأبيض. وفكرت: هذا مناسب جداً، من أجل كاليفورنيا، حقاً مناسب.

غادرت نيو ارك متجهة نحو الطريق العام رقم 70 ، وبجانبها على المقعد خريطة جديدة من شركة موبيل. ومع ابتعادها وتركها الشرق وراءها راحت تشعر بمزيد من السعادة. ولم تكن قد شعرت بمثل هذه السعادة إلا مرة واحدة. عندما ركبت لعبة الصاروخ وهي طفلة صغيرة. وعندما كان الصاروخ يزداد سرعةً في أحد المنحدرات عند ذلك تسحرها السرعة وتجعلها تشعر بنشوة السعادة. وعندما يبطئ قبل أن يدير رأسه في قوس الدائرة الكبير في الأسفل تعتريها رعشة قوية ولكنها هادئة. كانت تصرخ بقوة كبقية الركاب، ولكن كانت تتصاعد في داخلها إثارة مطمئنة وهادئة كالتي نشعر بها عند مجابهة الخطر المقيد في المعدن المتين بشكل

آمن تماماً. كانت سال تكره هذا، وكذلك الصبيان عندما اصطحبتهم فيما بعد، إلى مدينة الملاهي. والآن، وهي تهرب نحو كاليفورنيا، كانت حسب رغبتها تستعيد ذكريات الصاروخ واندفاعه بها.

حسب الخريطة عليها أن تسير إلى الأمام على خط مستقيم وماعليها سوى أن تجد الطريق الدولي العام رقم 70 ، وأن تتبعه حتى أوتاه ثم تلتفّ يساراً وتنحدر بعد ذلك من جديد، نحو لوس أنجلوس. وقد تذكرت، فيما بعد، أنها سارت هكذا مباشرة وعلى خط مستقيم: ولاية، ثم أخرى، حسب ماتنبئ به الخريطة. وعندما لم يبق معها سوى بعض قطع النقود الصغيرة، أصبحت مضطرة أن تصطحب في سيارتها بعض المسافرات اللواتي يقفن على الطريق وينتظرن من يصطحبهن في سيارته. لكن لم تكن تتذكر سوى الأولى والأخيرة. ولم يكن اصطحاب هؤلاء الفتيات يسبب أية مشكلة. كانت تأمل أن تكون رفقتهن سهلة ومريحة، فهنّ يساهمن بدفع قيمة الوقود، ووجبات الطعام. يضفين الجمال على الطرقات الرئيسية، وعلى مفترقاتها، وحواجز الجسور، ومداخل محطات الوقود، وأبواب الموتيلات. يرتدين بنطلونات جينز بزنار منخفض إلى الردفين ومتماوج في الوسط. وشعرهن قاسٍ يتأرجح في الهواء أو مشعث على الطريقة الأفريقية. الفتيات البيض كنّ الأكثر تودداً والملونات أبطأ تكيفاً. ولكن جميعهن كنّ يحدثنها عن عالم ماقبل كاليفورنيا وعبر الثرثرة التي كانت تسمعها، والضحكات المستمرة، وفترات الصمت، كان العالم الذي يصفنه يشبه بدقّة حياتّها قبل كاليفورنيا ـ عالم حزين، مخيف، سيء. المدارس العليا منحطّة، الأهل أغبياء، جونسون يبعث على القرف، رجال الشرطة خنازير، الرجال جرذان، والصبيان قذرون.

الفتاة الأولى كانت موجودة عند مخرج زانسفيل. وبينما كانت تعد نقودها وهي جالسة في مطعم بجانب الطريق، وصلت الهاربة. رأتها ماقيس عندما دخلت إلى دورة المياه الخاصة بالسيدات، وبعد ذلك بوقت قصير خرجت وهي ترتدي ملابس أخرى: تنورة طويلة هذه المرة وقميصاً نسائياً واسعاً وطويلاً ينسدل على فخذيها. وفي

الخارج، عند موقف السيارات أسرعت الفتاة إلى قرب الكاديلاك وسألت ماقيس إذا كانت تستطيع الركوب. وبابتسامة عريضة، فتحت الباب بسرعة عندما أومأت لها ماقيس برأسها. وذكرت الفتاة اسمها - ساندرا، لكن، ناديني: دستي - وظلت تتحدث طيلة السير مسافة اثنين وثلاثين ميلاً. ثم دون أن تهتم مطلقاً بماقيس أكلت قطعتين من «المالومار» واستمرت في ثرثرتها المتعلقة أساساً بأصحاب البطاقات المعدنية للكلاب الستة المعلّقة حول عنقها. فتيان من صفها في مدرستها العليا أو أنها تعرّفت عليهم قبل الثانوية. حصلت على بطاقتين منها أثناء مواعيد اتفقت عليها، أما البطاقات الأخرى فقد استجْدَتْها من أهلهم - إنها للذكرى. فجميعهم ماتوا أو اختفوا.

وافقت ماقيس بأن تعرّج على كولومبوس لكي توصل دستي عند صديقتها. وصلتا إلى هناك تحت مطر ناعم. وكان أحدهم قد جزّ أعشاب المرجة الخضراء لآخر مرة في ذلك الموسم. شعر دستي ذو الخصلات الداكنة الصغيرة الملتصقة، ورائحة الأعشاب المقصوصة حديثاً، والقوية، بتأثير المطر، ورنين البطاقات المعدنية، ونصف قطعة «المالومار»: تلك كانت ذكريات ماقيس عن أول رفيقة طريق اصطحبتها في سيارتها. وفيما عدا الأخيرة، فإنها لاتتذكر الترتيب الذي التقت فيه مع بقية المسافرات. هل رأت رجلاً جالساً على مقعد، تحت بعض أشجار الصنوبر، في مكان للاستراحة في ولاية كولورادو؟ كان يأكل ببطء، ببطء شديد، وهو يطالع إحدى الصحف. أم قبل ذلك؟ كانت الشمس مشرقة، ولكنّ الطقس بارد. وعلى أية حال، فمن ذلك المكان، كانت قد اصطحبت الفتاة التي سرقت منها القرط المصنوع من الماس الاصطناعي. لكن قبل ذلك - هل حدث هذا قرب سان لويس؟ - سبق لها أن فتحت باب السيارة لفتاتين كانتا ترتجفان من البرد، على الطريق العام رقم 70. في مهب الرياح، وقد ضمّتا سترتيهما العسكريتين جيداً حتى الذقن، وتنتعلان حذائين ضخمين من الجلد، مع جوارب رمادية سميكة. مسحتا أنفيهما دون أن تُخرجا يديهما من جيوبهما.

قالتا بأنّ المكان ليس بعيداً. على مسافة بضعة أميال فقط.

والمكان مقبرة ذات خضرة زاهية تغص بالناس كأنها حديقة عامة. وصفوف من السيارات تحيط بمدخلها كالقلادة. جماعات وأفراد من المتنزهين يتحملون شدة الرياح، يختلطون بطلاب إحدى المدارس الحربية. شكرت الفتاتان ماقيس وغادرتا السيارة. ثم أسرعتا للّحاق بموكب دفنٍ قرب قبر غير بعيد. تريثت ماقيس بمغادرة المكان وقد أدهشها جمال الخضرة غير الاعتيادي. وأولئك الذين ظنّتهم طلاب إحدى المدارس الحربية، كانوا في الحقيقة جنوداً حقيقيين - لكنهم حديثو السن وبمثل نضارة شواهد القبور التي يقفون أمامها.

حدث ذلك دون شك بعد أن اصطحبت ماقيس بيني - الأخيرة، تلك التي فضّلتها على البقية والتي سرقت لها معطفها المطري وجزمة سال. شعرت بيني آنذاك بالسعادة، عندما علمت أنّ ماقيس ذاهبة إلى لوس أنجلوس. لأنها تقصد سان دييغو. لم يكن هناك من يتحدث حديثاً طويلاً أو قصيراً ولكن بيني كانت تغنّي. أغاني الحب الصادق، الحب المخدوع، الخلاص، أغانٍ تعبّر عن فرح لاحدود له، وأغانٍ تبعث على البكاء، وأخرى غيرها تبدو بلهاء بشكل مقصود. كانت ماقيس تغنّي معها من وقت لآخر، لكنها ظلت تصغي لها معظم الوقت، ولم تملّ من سماعها طيلة المئة واثنين وسبعين ميلاً. وكانت هذه الأميال تنساب بسرعة وقد لطّفَها الألمُ البديعُ في صوت بيني.

لم تكن تحب تناول الطعام في استراحات الطريق. وإذا توقفتا مع ذلك بناء على إلحاح ماقيس، لم تكن بيني تشرب سوى الماء، بينما تلتهم ماقيس شطائر الجبنة الذائبة والبطاطا المقلية. وقد جعلتها بيني مرتين تعرّج على بعض المدن، لتبحثا عن أحدِ أحياء الملونين، حيث تستطيعان، تناول مأكولات «صحية» كما تقول. وفي هذه الأماكن، تأكل بيني ببطء ونظام، تطلب عدة مرات بعض المقبلات، ودائماً توصي بأن يُهيّأ لها شيء تصطحبه معها. كانت تنتبه لنقودها جيداً دون أن يبدو عليها أنها قلقة بشأنها، وتشارك في كل مرةٍ تتزودان فيها بالوقود.

ولم تعرف ماقيس أبداً ماذا كانت تنوي أن تفعل ولامن تريد أن

تقابل في لوس أنجلوس (حسناً سان دييغو). فقد كان جوابها الوحيد على أسئلة ماقيس، هو قولها: «يجب أن أذهب إلى هناك». ومهما كان الأمر، فإنها في مكانٍ ما، بين توبيكا ولورنس في ولاية كنساس اختفت حاملةً معها المعطف المطري البلاستيكي الشفاف، وجزمة سال الصفراء. وقد استغربت ماقيس ذلك لأن الورقة النقدية من فئة الخمسة دولارات كانت ماتزال مثبتة بلاصق على ذراع تغيير السرعة المطاطي. كانتا قد انتهيتا من تناول الطعام المؤلف من الشواء وسلطة البطاطا، في مطعم بائس، يدعى هيكّز. وطلب بيني «الخارجي»، مغلف وموضوع على المنضدة. وقالت وهي تومئ برأسها بشأن الحساب: «أنا أتولى ذلك، اذهبي إلى دورة المياه قبل أن نستأنف السفر». وعندما رجعت ماقيس كانت بيني قد اختفت حاملة «الضلع على الماشي» معها.

«وكيف يمكنني أن أعرف بحق الجحيم؟» هذا ماأجابت به الخادمة، «إنها لم تترك حتى سنتاً واحداً كبخشيش».

فأخرجت ماقيس من جيبها ربع دولار ووضعته على طاولة المحاسبة، وانتظرت بضع دقائق في السيارة قبل أن تحاول تبيّن اتجاهها في العودة إلى طريقها الجميل الذي يحمل الرقم 70 .

الهدوء الذي تركته بيني في الكاديلاك كان لايطاق. فتركت ماقيس جهاز الراديو يعمل على الدّوام، وعندما كانت تذاع إحدى أغاني بيني، كانت تغنّي هي أيضاً، مع استيائها من أدائها السيء.

وفي إحدى محطات إسّو للوقود، استولى عليها الذعر.

فقد ألقت نظرة عبر النافذة وهي تعيد مفتاح غرفة الاستراحة: في الجانب الآخر، تحت الأضواء المتلألئة التي تغمر مضخات الوقود، رأت فرانك منحنياً على نافذة الكاديلاك. هل ازداد طول شعره إلى هذه الدرجة خلال خمسة عشر يوماً؟ وملابسه؟ سترة من الجلد الأسود، قميص مفكوكة أزراره حتى السرّة تقريباً، وسلاسل ذهبية. ترنّحت ماقيس وعندما نظر إليها المستخدم حاولت أن تتظاهر بأنها قد تعثّرت. ليس هناك أيّ مكان تهرب إليه. أخذت

تبحث في مصورات ولاية كولورادو المعلقة في لوحة العرض، وألقت من جديد نظرة أخرى: لقد انصرف. فظنّت أنه قد أوقف سيارته بالقرب من المكان، منتظراً ظهورها.

قالت لنفسها: سأصرخ وأدّعي أنني لاأعرفه، سأجادل وأتخبّط، وأستدعي الشرطة. السيارة لم تعد ذات لون أخضر نعناعي - ولكن، أوه ياإلهي! - لوحاتها المعدنية ماتزال هي نفسها. كانت أوراق السيارة بحوزتها. وماذا لو جلب معه أوراق الملكية. هل أذيعت عنها نشرة؟ لايمكنها البقاء جامدة، وليس هناك تراجعٌ. تقدّمت ماڤيس دون أن تحثّ الخطى ودون أن تركض، خافضةً رأسها وهي تبحث في حقيبة يدها عن ورقة نقود بعشرين دولاراً.

وأخذت تنتظر في السيارة أن يأتي عامل المحطة ليأخذ ثمن الوقود، وأثناء ذلك عمدت إلى تقصّي الجهات المجاورة عبر النافذة الخلفية والنوافذ الجانبية. لاشيء. دفعت، وأدارت محرك السيارة. وفي تلك اللحظة بالذات، ظهر الجذع ذو السترة السوداء والقميص المفتوح في المرآة العاكسة اليمينية. كانت السلاسل الذهبية تعكس الضوء المتلألئ. ورغم كل جهودها للتحكم بالكاديلاك والسيطرة عليها فقد زاغت وانحرفت عند مغادرتها موقف المحطة. وبسبب الخوف الذي انتابها فقد نسيت أي اتجاه يجب أن تسلك. وأي مفرق؟ هل تستدير إلى اليمين كي تذهب إلى الجنوب. كلا. بل إلى الغرب. أتسلك الطريق 70 ولكن لتذهب إلى أين؟ لكن هذا يؤدّي إلى الشرق. ومفرق الخروج المنحني إلى أين يقود؟

وبعد ساعة كانت منطلقة على طريق سبق لها أن سارت عليه مرتين. غادرته بأسرع مايمكن، فوجدت نفسها على جسر ضيق في شارع تحيط به المستودعات. واعتبرت على أية حال أنّ من الأفضل السير على طرق فرعية، كما قررت، حيث توجد الشرطة بأعداد أقل وتكون الأضواء أقل. غادرت المدينة وهي ترتجف عند توقفها قرب كل إشارة ضوئية. كانت تسير على الطريق رقم 18 عندما حلّ الظلام، واستمرت تسير أيضاً وأيضاً حتى لم يبق سوى بخار البنزين لتغذية المحرك. فلم تعطس الكاديلاك ولم تسعل، بل توقفت ببساطة في

حفرة سوداء بينما راحت مصابيحها تنير ثلاثين قدماً من الاسفلت. أطفأت ماقيس الأضواء وأغلقت الأبواب. وتمتمت قائلة لنفسها: لابد من قليل من الشجاعة. مثل الفتيات اللواتي يهربن من شيء ما، ويسرعن نحو شيء آخر، إذا استطعن الاكثار من السفر، والقفز في السيارات والذهاب من أجل المشاركة بموكب جنازة أحد الأموات، ثم البحث عن شيء يأكلنه في أحياء مجهولة، والسفر وحدهن أو بحماية واحدة أخرى، هي تستطيع بالتأكيد البقاء في الظلام منتظرة طلوع الصباح. وهذا مافعلته طيلة حياتها بعد أن بلغت سن الرشد، إذ لم تكن تنام نوماً جيداً وهنيئاً إلا في عز النهار. مرة وإلى الأبد لم تعد مراهقة، بلغت السابعة والعشرين من العمر، وأصبحت أمّاً لـ...

وشراب إرلي تايمس الذي شربته لم يفدها بشيء. فالدموع بلّلت ذقنها وسالت على عنقها. ولكنّ الكحول انتهى أخيراً بتنويمها.

عندما استيقظت ماقيس كان فمها جافاً، مزعجاً، وهي مشوشة الذهن تماماً، وشعرت أنها تكاد تموت جوعاً، لأن الشمس، التي بلون البطيخ الأحمر آنذاك بدت لها صالحة للأكل. والأفق ذو اللون الأزرق الصارخ الذي يحيط بها، لم يعد يشكل دعوةً أو توبيخاً، وكان يسنده مليار ميل من اللاشيء المطلق.

لم يكن لديها الخيار. فاسترخت كما علّمتها دستي أن تفعل وعادت إلى السيارة لتنتظر مرور أحد. بيني كانت حاذقة ومدبّرة: فلم تكن تذهب أبداً إلى مكانٍ ما، دون أن تحمل معها علبة ملأى بالمأكولات. شعرت ماقيس أنّ بلاهتها قد انغلقت على رأسها مثل كيس فارغ. امرأة بالغة، تعجز عن اجتياز البلاد. وتعجز عن القيام بتنبوّ يدوم أكثر من عشرين دقيقة. كان ينبغي أن تتعلم كيف تنشف جسدها بالأعشاب. بدت أكثر غباءً من أن تفتح نافذة السيارة كي يستطيع الطفلان الرضيعان أن يتنفّسا. والآن هاهي لاتعرف لماذا هربت من السلاسل الذهبية المتجهة نحوها. لقد كان فرانك محقاً وعلى صواب. منذ البداية كان مصيباً عندما قال عنها: «إنها أغبى عاهرة على هذا الكوكب».

وأثناء انتظارها لم تمرّ أية سيارة، أية شاحنة أو باص، غلبها النعاس، فغفت واستيقظت وقد راودتها أفكار مخيفة، فعاودت النوم، وفجأة انتفضت، وبدت مستيقظة تماماً وقررت ألّا تموت جوعاً. هل اللواتي يقفن على الطرقات بانتظار من يصطحبهنّ بسيارته يقبلن البقاء جالسات هكذا دون أن يفعلن شيئاً؟ ماذا عن دستي، بيني؟ أخذت تتفحص مايحيط بها. المليار ميل من اللاشيء على الإطلاق فيه أشجار في البعيد. لكن هل هذا عشب أم نوع من المزروعات؟ وكل طريق يؤدّي إلى مكانٍ ما، أليس هذا صحيحاً؟ تناولت ماقيس حقيبة يدها، وبحثت عن معطفها المطري، فلاحظت أنه اختفى. صرخت: «ياللمسيح» وصفقت الباب بقوة.

سارت على الطريق نفسه طيلة بقية ذلك الصباح. وعندما بلغت الشمس أقصى ارتفاع لها، انعطفت إلى طريق أضيق من الأول، لأنه ظليل. إنه مسفلت أيضاً، لكنه ليس من السعة بحيث تمر سيارتان عندما تلتقيان دون الخروج عن الاسفلت. وما إن خرج الطريق من تحت الأشجار، حتى رأت بيتاً في الجهة اليسرى، أمامها. كان يبدو صغيراً ولكنه قريب، وقد أمضت بعض الوقت قبل أن تتبينّ أنه لم يكن لاهذا ولاذاك. وكان عليها أن تجتاز عدة آكرات مزروعة بالذرة الصفراء، قبل أن تصل إلى ذلك البيت الذي إما أنه يدير لها ظهره أو أنه ليس هنالك طريق يوصل إليه. وعندما اقتربت منه، لاحظت أنه مبنيّ من الحجر الرملي ـ ربما ولكنه اسودّ بفعل الزمن، ولأول وهلة كان يبدو أنّه بلا نوافذ، لكنّ ماقيس لاحظت بعد قليل جانباً من إحدى الشرفات ورأت الأضواء التي بدت من النوافذ الكبيرة في الطابق الأرضي. استدارت نحو اليمين فاكتشفت ممراً لايؤدي إلى المدخل، بل يدور حول البيت. فتحولت باتجاه اليسار. كانت المرجة الخضراء الممتدة بجانب الشرفة معتنى بها جيداً. وحاجز الدرج مثبت بالدرجات الحجرية بواسطة كلاليب حديدية. صعدت ماقيس الدرج وقرعت الباب. لم يردّ عليها أحد. استدارت من جهة الممر، فرأت امرأة جالسة على كرسي خشبي أحمر، بجانب حديقة صغيرة للخضروات.

صرخت ماقيس وقد وضعت يديها حول فمها كمكبر للصوت: «اعذريني».

التفتت المرأة نحوها ولكنّ ماقيس لم تعرف إلى أين كانت تنظر. كانت تضع نظارة شمسية على عينيها.

«اعذريني»، اقتربت ماقيس أكثر. لاحاجة للصراخ الآن. «لقد تعطلت سيارتي على مسافة من هنا. فهل يستطيع أحد مساعدتي؟ وهل يمكنني أن أجري مكالمةً بالهاتف؟».

نهضت المرأة، أمسكت طرف مريلتها بيديها وتقدمت. كانت ترتدي فستاناً قطنياً أصفر اللون، معرّقاً بزهور بيضاء صغيرة ومزيناً بأزرار زائدة تحت مريلة تشبه قماش أشرعة الزوارق. حذاؤها ذو الكعب المسطح، محلول الرباط. على رأسها قبعة من القش جوانبها عريضة. كانت أشعة الشمس حارة شديدة الوطأة، وعصفت ريح حارة طوت جوانب قبعتها.

قالت المرأة: «لايوجد هاتف هنا في الخارج، ادخلي».

تبعتها ماقيس إلى المطبخ حيث أفرغت المرأة من مريلتها كمية من جوز البيكان في علبة كانت بقرب المدفأة ونزعت قبعتها. على كتفيها راحت تتدلّى ضفيرتان من طراز «هياواثا»(*). نزعت قدميها من حذائيها، ثبّتت الباب بقرميدة، ونزعت نظارتها الشمسية. كان المطبخ واسعاً جداً يطفح بالروائح والفوضى التي تتسم بها حياة امرأة تعيش وحيدة. وسألت ماقيس وهي توليها ظهرها: «هل أنت امرأة تشرب؟».

لم تعلم ماقيس ما إذا كانت المرأة تقدم لها الشراب أم تطلب منها أن تشرب.

«لا، أنا لاأشرب».

«الأكاذيب غير مسموح بها هنا. هنا نرحّب بكل ماهو حقيقي».

بُهِتَت ماقيس. نفخت في يديها: «أوه، لقد تناولتُ قليلاً من

(*) قبيلة من الهنود الحمر.

كحول زوجي منذ برهة، ولكني لست تلك التي يمكن أن توصف بأنها «امرأة تشرب». أخيراً، كنت متعبة بعض الشيء وحسب فقد قدت السيارة لفترة طويلة، ثم نفد الوقود مني».

تشاغلت المرأة بإشعال الموقد. سقطت ضفيرتاها إلى الأمام.

«لقد نسيتُ أن أسألك عن اسمك، أنا أدعى ماڤيس أولبرايت».

«الناس ينادونني كوني».

«أشتهي تناول قليل من القهوة ياكوني إذا كانت متوافرة لديك».

أومأت كوني برأسها دون أن تلتفت.

«أنت تعملين هنا؟».

«أنا أعمل هنا». ودفعت كوني ضفيرتيها عن صدرها إلى خلف كتفيها.

«ألديك أسرة هنا؟ لدي انطباع بأني قرعت الباب لزمنٍ، خُيّل لي أنه طويل».

«لايوجد أسرة هنا. هي وحدها فوق. وهي لا تستطيع أن تجيب حتى لو أرادت، وهي لاتريد».

«أنا ذاهبة إلى كاليفورنيا. فهل تعتقدين أنّ بإمكانك مساعدتي لجلب الوقود إلى سيارتي؟ وإرشادي إلى الطريق الذي يخرجني من هنا؟».

أخذت المرأة تنفخ على الموقد ولكنها لم تردّ.

«كوني؟».

«إني أفكر».

نظرت ماڤيس إلى المطبخ، الذي بدا لها باتّساع كافتيريا مدرستها المتوسطة، وله مثلها أبواب خشبية صفّاقة. وتصورت وجود غرف، العديد من الغرف، في الجانب الآخر من هذه الأبواب.

«ألا تشعران بالخوف وأنتما وحدكما هنا؟ يخيل لي أنه لايوجد شيء على بُعد أميال كثيرة في الخارج».

ضحكت كوني: «الأشياء التي تخيف ليست دائماً في الخارج. وتلك التي تخيف أكثر هي في الداخل». التفتت ووضعت صحناً أمام ماڤيس التي بدت منزعجة عندما رأت البطاطا يتصاعد منها البخار، وفوقها تذوب قطعة من الزبدة. وشراب الـ إرلي تايمس الذي تناولته حوّل جوعها إلى رغبة بالتّقيؤ، لكنها قالت شكراً وتناولت الشوكة التي قدمتها لها كوني. على كل حال، كانت قد استبشرت برائحة القهوة.

جلست كوني بقربها وقالت: «ربّما ذهبت معك».

رفعت ماڤيس نظرها. كانت هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها وجهها دون نظارة شمسية، وأعادته بسرعة إلى البطاطا وغرزت شوكتها في الوعاء.

«مارأيكِ بذلك، أن نذهب أنتِ وأنا إلى كاليفورنيا؟».

شعرت ماڤيس بابتسامة المرأة، ولكنها لم تستطع مجابهتها. هل غسلت يديها قبل أن تُسخِّن البطاطا؟ كانت تفوح منها رائحة جوز البيكان. «وعملك هنا؟» اضطرت ماڤيس إلى تذوّق قطعة صغيرة من البطاطا. مالحة جداً.

«هل كاليفورنيا على البحر؟».

«نعم! على الشاطئ تماماً».

«من الجميل رؤية المياه من جديد». لم تكن عينا كوني تفارقان وجه ماڤيس. «موجة بعد موجة بعد موجة، كثير من المياه. زرقاء، زرقاء، زرقاء، أليس كذلك؟».

«هذا مايقال. شمس كاليفورنيا، الشواطئ الرملية، البرتقال...»

«ربما كان هناك شمس أكثر مما ينبغي بالنسبة لي». نهضت كوني فجأة وذهبت إلى الموقد.

«لايمكن أن يكون هناك شمس أكثر من هنا». الزبدة، الملح والفلفل وقد أضيفت إلى البطاطا، لم يكن ذلك سيئاً أبداً. كانت ماڤيس تأكل بسرعة. «قطعتُ أميالاً كثيرة ولم أر بقعةً من الظل».

قالت كوني: «هذا صحيح!» ووضعت فنجاني قهوة وإناء عسلٍ على المنضدة. «شمس أكثر مما ينبغي في العالم. وهذا يزعجني، ولم أعد أستطيع تحمله».

اندفعت هبّة ريح من باب المطبخ وحلّت رائحة أكثر عذوبة محلّ رائحة البطاطا. واعتقدت ماقيس أنها ستبتلع القهوة بسرعة فور وصولها لكنّ المتعة التي كانت تتيحها لها البطاطا المالحة، جعلتها تتذرع بالصبر. واقتدت بما فعلته كوني فسكبت ملعقة عسل في فنجانها ثم أخذت تحركه ببطء.

«هل توصلتِ لمعرفة طريقة أستطيع بها تدبير الوقود للسيارة؟».

«لابدّ من الانتظار قليلاً. ربّما اليوم، ربّما غداً، يمكن أن يأتي جماعة ليشتروا».

«ليشتروا، ماذا يشترون؟».

«أشياء حدائقية. أشياء طبختها أنا. أشياء لايريدون أن يزرعوها بأنفسهم».

«وسيتمكن أحدهم من اصطحابي في سيارته لشراء بنزين؟».

«بالتأكيد».

«وإذا لم يأتِ أحد؟».

«يأتي دائماً، دائماً يأتي أحدهم. كل يوم. لقد بعت هذا الصباح، ثمانية وأربعين عرنوس ذرة صفراء وباونداً من الفليفلة...» تحسّست جيب مريلتها.

ذهبت ماقيس إلى باب المطبخ كي تنظر إلى الخارج، وهي تنفخ بهدوء على فنجان القهوة الذي تحمله بيدها. عندما وصلت أولاً سُرّت لأنها وجدت أحداً ما في المنزل فلم تنظر بانتباه إلى الحديقة حيث شاهدت شيئاً لم تره سابقاً. والآن وراء الكرسي الأحمر، رأت زهوراً موازية لصفوف الخضار أو مختلطة بها. وفي بعض الأماكن زُرعت بعض النباتات على شكل دوائر وليس على خطوط، فوق أكوام عالية من التربة. بعض فراخ الدجاج كانت تقوقئ

هناك دون أن تُرى. وجزء من الحديقة، الذي ظنّته لأول وهلة مغزوّاً بالحشائش البرية السيئة، بدا لها، بعد أن أمعنت النظر فيه بمزيد من الانتباه، أنه عبارة عن مسكبة كبيرة زُرعت بالبطيخ. وخلفها تمتد امبراطورية من الذرة المزروعة.

«أنت لاتزرعين كل هذا بمفردك، أليس كذلك؟». قالت ماڤيس هذا وأشارت بيدها إلى الحديقة.

فأجابتها كوني: «ماعدا الذرة الصفراء».

«واو!».

وضعت كوني وعاء الإفطار على حوض الجلي.

«أتريدين أن تغسلي يديك؟».

إنّ تتابعَ الغرف الذي لانهاية له والذي تخيلته ماڤيس خلف الأبواب الصفّاقة، منعها من أن تطلب الذهاب إلى الحمّام. لأنها، هنا، في المطبخ، كانت تشعر بالأمن، وتقلق لمجرد التفكير بمغادرته. «سأنتظر لأرى من سيأتي. وبعد ذلك سأحاول إصلاح زينتي، فلاينبغي أن أبدو مثيرة للسخرية». ابتسمت وهي تأمل ألّا ينمّ رفضها عن الخوف الذي كانت تشعر به.

قالت كوني: «كما تشائين» ثم وضعت نظارتها الشمسية، داعبت كتف ماڤيس وهي تلبس حذاءها المفلطح وخرجت إلى الباحة.

عندما ظلت ماڤيس وحدها توقّعت أن يفقد ذلك المطبخ الفسيح طابعه المُطمئن. ولكن لا، فقد استولى عليها شعور بأنّ المكان يغصّ بالأطفال - وهم يضحكون؟ يغنّون؟ - اثنان منهم كانا ميرل وبيرل. وعندما أطبقت أجفانها بقوة لتطرد هذا الانطباع جعله ذلك أكثر قوة. لمّا فتحت عينيها كانت كوني تدخل وهي تجرّ على الأرض سلّة تتسع لثمانية غالونات.

وقالت: «هيّا، ليكن منك بعض الفائدة».

قطّبت ماڤيس حاجبيها عندما رأت جوز البيكان وهزّت رأسها

إزاء كسارات الجوز، الأدوات الأخرى والأوعية التي هيأتها كوني. وأجابتها قائلة: «لا، أوجدي لي عملاً آخر أستطيع القيام به لمساعدتك. أما تقشير هذه الثمار، فإنه سيصيبني بالجنون».

«لا، حاولي!».

«أوه، أوه! ليس أنا». وأخذت ماڤيس تنظر إليها وهي ترتب الأدوات: «ألا تستطيعين فرش بعض الصحف على الأرض؟ فذلك يجعل التنظيف أكثر سهولة».

«لايوجد صحف في هذا المنزل. ولاراديو. والأخبار التي تصلنا، نسمعها من بعض الأشخاص وجهاً لوجه».

قالت ماڤيس أخيراً: «هذا حسن، أيضاً. فالأخبار لايمكن أن تكون أسوأ مما هي عليه اليوم. وعلى أية حال لانستطيع عمل أي شيء حيال ذلك».

«أنك تستسلمين بسرعة. تأمّلي أظافرك، إنها قوية ومعقوفة كمخالب طير - ويداكِ رائعتان لتقشير الجوز. وأظافر كهذه تُخرج في كل مرة لب الثمرة كاملاً. يدان جميلتان، وتقولين بأنك لاتستطيعين العمل، وأنّ ذلك يمكن أن يصيبك بالجنون. أمّا أنا، فإنّ مايمكن أن يُسبّب لي الجنون هو رؤية أظافر جميلة كهذه لافائدة لها».

وفيما بعد، عندما تأمّلت يديها اللتين أصبحتا فجأةً جميلتين وتعملان، تذكّرت ماڤيس مدرّستها في الصف السادس وهي تفتح أحد الكتب: كانت ترفع زاوية الغلاف، تتلمّس حافته، ثم تلمس الصفحة بأطراف أصابعها وتتابع بها الأسطر المطبوعة. وعندما كانت تنظر إليها يعتريها شعور بالذوبان وهي تراقبها. والآن، وهي منهمكة بتقشير الجوز، تحاول الاقتصاد بحركاتها دون أن تضحّي برشاقة تلك الحركات. وقد ذهبت كوني بعد أن درّبتها على هذا العمل المرهق قائلة بأنّ عليها أن تتفقّد «أمها». تساءلت ماڤيس وهي جالسة بجوار المنضدة، تستنشق الرائحة العذبة التي تحملها الريح عبر الباب المفتوح، عن عمر والدة كوني، فلو قدّرته اعتماداً

على عمر ابنتها، فلابدّ أنها قد تجاوزت التسعين. وبعد كم من الوقت سيأتي أحد الزبائن؟ وهل لاحظ أحدهم وجود سيارة الكاديلاك؟ وهل سيكون في محطة الوقود التي ستذهب إليها خريطة ترشدها إلى العودة لطريقها الجميل الذي يحمل الرقم 70 أو حتى إلى الطريق رقم 287 . ستتجه شمالاً، نحو دنفر، قبل أن تسرع إلى الغرب. وإذا حالفها الحظ، فهي ستستأنف السفر هذا المساء. ودون حظ ستكون مستعدة للسفر في الصباح الباكر. ستعود إلى الواقع، وتستمع إلى راديو السيارة الذي أتاح لها تحمّل الصمت الذي خلّفته بيني، خلال ساعات من السير دون توقف ـ إصبعاها تديران بفارغ الصبر زر المؤشر لكي تجد أغنية أفضل وصوتاً أجمل . الراديو الآن يجتاز حقلاً تحت الطريق ثم حقلاً آخر. بعيداً، بعيداً، في الفضاء الذي كان يجب أن يُسمع فيه صوت الراديو، لايوجد... شيء. غياب تام وحسب، لم تكن تعتقد أنها تستطيع أن تشغل نفسها بصورة صحيحة دون موجات الراديو المفرحة. امتدّ غياب الراديو بدءاً من المنضدة التي كانت تجلس بقربها وهي تتأمل بإعجاب يديها المنهمكتين بالعمل. نار هادئة سرية تتنفس ذاتها وتنفث أصوات اشتدادها: طقطقة الجوزات، وصوت ارتطام لبّها عندما يلقى في الإناء، وأصوات أوعية الطبخ وهي تعاد إلى أماكنها بشكل دائم، وأزيز الحشرات، وشوشات الأعشاب الطويلة وسُعال أغصان الذرة البعيد.

كل شيء كان هادئاً، ولكنها كانت تريد أن تعود كوني لأنها أخذت تخشى تكرار الأمر ـ متخيلة أطفالاً يغنون. وفي اللحظة التي بدأت مدة غياب المرأة تبدو طويلة جداً، سمعت ماڤيس صوت دواليب سيارة وهي تسحق الحصى. جلبة الكابح، وصفق أحد الأبواب.

«هاي أيتها السيدة العجوز». صوت امرأة، رشيق ومتراخٍ.

التفتت ماڤيس فرأت امرأة داكنة البشرة تسير بمرونة وسرعة، صعدت الدرجات وتوقفت عندما لم تر من كانت تتوقع وجودها هناك.

«أوه، اعذريني».

فقالت ماقيس: «لابأس بذلك، إن كوني هناك فوق».

«أرى هذا».

ظنّت ماقيس أن المرأة تتفحص ملابسها بانتباه شديد.

قالت وهي تقترب من المنضدة: «أوه، رائع، حقاً إن هذا رائع!» أدخلت أصابعها في وعاء الجوز وتناولت بعض الثمار. توقّعت ماقيس أن تراها تأكلها، ولكنها رمتها على الكومة. «أيّ طعم لوجبة عيد الشكر دون فطيرة بجوز البيكان؟ لاطعم لها أبداً».

لم تسمع أيّ منهما وقع الأقدام الحافية، ولأنّ الباب لايُحدث صوتاً عندما يفتح أو يغلق، فقد بدا دخول كوني كظهور سحري.

«ها أنت!» وفتحت المرأة السوداء ذراعيها. فألقت كوني بنفسها عليها في عناق طويل متأرجح. «لقد أخفتُ هذه الفتاة حتى الموت. إذ لم يسبق أن رأيت أي غرباء هنا».

فقالت لها كوني:

«إنها الأولى: ماقيس أولبرايت. هذه سوان مورغان».

«مرحباً ياحبيبتي».

«مورغان. السيدة مورغان».

سخن وجه ماقيس ولكنها ابتسمت على أية حال، قائلة: «إني آسفة، ياسيدة مورغان»، وقد لاحظتْ حذاءها الأنيق الغالي الثمن «ماركة أوكسفورد»، جراباتها الناعمة، صدريتها المصنوعة من خيوط الصوف وتفصيلة فستانها: من قماش الكريب الصيفي، لونه أزرق فاتح وياقته بيضاء.

فتحت سوان حقيبة يدها. «لقد جلبت لك المزيد»، قالت ذلك وأخرجت نظارة شمسية من النوع الذي يستخدمه الطيارون.

«جيد. لم يبق لديّ سوى نظارة واحدة».

ألقت سوان نظرة على ماقيس. «النظارات الشمسية. إنها تأكلها».

«ليس أنا. إن هذا البيت هو الذي يأكلها». ثبّتت كوني ساعدي

النظارة خلف أذنيها ثم ذهبت لتجربها عند الباب. وأدارت وجهها نحو الشمس، أطلقت: «ها!» بصوت مليء بالتحدي.

«هل هناك من أوصى على جوز البيكان المقشور، أم أن الفكرة خطرت لكِ أنتِ؟».

«إنها فكرتي».

«وستصنعين كثيراً من الفطائر».

«أكثر من الفطائر». سكبت كوني الماء من الصنبور على النظارة الشمسية ونزعت عنها اللصاقة.

«لاأريد معرفة شيء عن ذلك، فلاتحدثيني عنه إذن. وقد أتيت للأمر الذي تعرفينه».

أومأت كوني برأسها. «هل يمكنك أن تدبري لها وقوداً لسيارتها؟ تصطحبينها وتعيدينها إلى سيارتها؟» كانت تنظّف وتجفّف النظارة الجديدة وأخذت تدقّق لترى فيما إذا كان قد بقي بعض البقع أو بعض بقايا اللصاقة أو الخرقة التي نظّفتها بها.

سألت سوان: «أين سيارتك؟» كان في صوتها نبرة تنم عن الدهشة كما لو أنها تشك بأنّ شخصاً ينتعل صندلاً وبنطالاً عتيقاً مرقعاً وكنزة ولادية وسخة، يمكن أن يكون لديه سيارة.

أجابتها ماڤيس: «على الطريق رقم 18 . لقد مشيت خلال عدة ساعات حتى وصلت إلى هنا، ولكن بسيارة...»

أومأت سوان برأسها. «كان من الممكن أن أقوم بذلك بكل سرور. ولكن يجب أن أجد أحداً يوصلك إلى سيارتك. فلديّ كثير من الأعمال يجب أن أقوم بها. وقد أتى ولديّ لتمضية إجازتهما». ونظرت بزهو إلى كوني: «البيت سيمتلئ قبل أن أشعر بذلك». ثم: «كيف حال الوالدة؟».

«لايمكن أن يستمر ذلك».

«هل أنت متأكدة أنّ الذهاب إلى دمبي أو ميدلتون، ليس فكرة أفضل؟».

دسّت كوني نظارة الطيّار في جيب مريلتها وتوجهت نحو غرفة المؤن. «في المشفى لن تلفظ غير نفس واحد، أما نفسها الثاني فسيكون الأخير».

الكيس الصغير الذي وضعته كوني على سلة جوز البيكان قد يكون قنبلة يدوية. وعندما وُضع على مقعد سيارة الأولدزموبيل، بين ماقيس وسوان مورغان كان ينبعث منه نوع من التوتر. ولم تكف سوان عن تلمّسه كما لو أنها تريد أن تتذكر بأنه مازال موجوداً هناك. وقد انقطع الحديث المريح الذي بدأ في المطبخ. إذ فجأة أصبحت سوان رسمية جداً، لم تعد تتكلم إلّا نادراً، ولاتردّ على أسئلة ماقيس إلا باختصار وبإعطائها أقلّ مايمكن من المعلومات، دون أن تطرح هي أيّ سؤال.

«أليست كوني لطيفة؟».

نظرت سوان إليها: «نعم. لطيفة».

استمرّتا في السير خلال عشرين دقيقة. بدت سوان منتبهة لكل جانب وكل منعطف مهما كان يسيراً. وبدت كأنها تترصّد شيئاً ما. توقّفتا عند محطة وقود ذات مضخة واحدة في مكان غير معروف وطلبتا خمسة غالونات من البنزين، تأخذانها معهما، من الرجل الذي اقترب من نافذة السيارة وهو يعرج. وحصلت مناقشة طويلة، تخلّلتها فترات من الصمت، بشأن صفيحة الخمسة غالونات. الرجل يريد أن تدفع ماقيس ثمنها. فأجابته بأنها ستعيدها عندما ترجع لتملأ خزان السيارة. لم يصدقها. وأخيراً اتفقا على دفع دولارين كتأمين يُردّ عند إعادة الصفيحة. استأنفتا السفر، وسارتا في طريق آخر يتجه نحو الشرق، خلال فترة لاتقلّ عن ساعة. أشارت سوان إلى لوحة خشبية غريبة الشكل وقالت: «هاقد وصلنا». وقد كُتب على تلك اللوحة، في أعلاها: «روبي 360 نسمة»، وفي أسفلها: «لودج 16».

الأمر الذي أثّر في بداية الأمر بماقيس هو ذلك الهدوء المخيم على تلك المدينة الصغيرة، كما لو أنه لايسكنها أحد. وفيما عدا مخزن لبيع الأغذية ومصرف للإيداع والتسليف، لم يكن يُرى فيها

حي تجاري. اتّجهتا نزولاً في شارع عريض جداً، وسارتا بمحاذاة بعض المروج الخضراء الفسيحة التي قُصت أعشابها بشكل رائع، ومرّتا أمام بعض المنازل والكنائس المطلية بالباستيل. كان الهواء معطّراً، والأشجار فتية. وانعطفت سوان إلى شارع صغير تحيط به حدائق للزهور أكبر من البيوت التي كانت تتطاير حولها الفراشات كندف الثلج.

«صفيحة» الخمسة غالونات كانت تفوح منها رائحة قوية في سيارة سوان، ولكن لم يعد ممكناً تمييزها من الروائح الأخرى في شاحنة الشاب حيث كانت ماقيس تمسك بـ الصفيحة محصورة بين قدميها. وربما كان ذلك المزيج من روائح أبخرة الصمغ والزيت والمعدن، قد سبّب لها الغثيان لو لم يقم السائق من تلقاء نفسه بما لم تستطع ماقيس أن تطلبه من سوان مورغان وهو: أدارة جهاز الراديو. راح المذيع الذي يقدم البرنامج يعلن عن الأغاني، كما لو أنّ بعض أفراد أسرته أو أفضل أصدقائه يغنّونها: كينغ سولومون، براذر أوتيس، دينا بيبي، آيك آند تينا غيرل، سيستر داكوتا، ذاتمبس.

وبينما كانا منطلقين على الطريق، كانت ماقيس وقد أصبحت راضية حينذاك، تتذوّق الموسيقا، وتتأمل بإعجاب رأس الشاب الحليق. لقد بدا لها أكثر ظُرفاً من سوان ولكن ليس لديه الشيء الكثير ليتحدث عنه. كانا يستمعان إلى الأغنية السابعة من العشرين أغنية من سباق الأغاني الذي قامت به مجلة «جت»، وقد أصبحا على مسافة عدة أميال من مدينة «روبي 360 نسمة» الصغيرة، عندما انتبهت ماقيس إلى أنها لم ترَ رجلاً واحداً أبيض فيما عدا عامل محطة المحروقات.

«ألا يوجد بيض في مدينتكم؟».

«لايوجد بيض يعيشون فيها. يأتي إليها بعضهم من أجل الأعمال».

وعندما لمحا المنزل من بعيد، بينما كانا يتجهان نحو الكاديلاك سألها: «ماذا يشبه هذا، من الداخل؟».

فأجابته ماقيس «لم أدخل إلاّ إلى المطبخ».

«عجوزان تعيشان منفردتين في هذا البيت الكبير، ليس هذا حسناً».

لم يمسّ الكاديلاك أحد ولكنها كانت ساخنة جداً، لدرجة أن الشاب اضطر أن يلحس أصابعه قبل وبعد نزع غطاء خزان الوقود. ثم تلطّف فأدار لها المحرك، ونصحها بأن تترك أبواب السيارة مفتوحة بعض الوقت قبل أن تصعد إليها. ولم تجد ماقيس صعوبة بأن تجعله يقبل بعض النقود ـ وهذا أمر يُرعب سوان ـ وقد انصرف ترافقه أغنية: «هاي جود» تتردّد من راديو شاحنته.

شعرت ماقيس وهي وراء المقود، وقد ترطبت في جو السيارة المكيّف، بالأسف لأنها لم تسجّل رقم محطة الراديو من تابلوه الشاحنة. وأخذت تبحث عنها دون جدوى وهي في طريق العودة إلى بيت كوني. أوقفت السيارة، والكاديلاك، ذات اللون الأحمر الغامق، الذي يشبه الدم الجاف، بقيت هناك طيلة سنتين.

كانت الشمس قد أخذت تغيب عندما أدار الشاب المحرك. ونسيت ماقيس أن تسأله عن الاتجاه الذي يجب أن تسلكه. علاوة على ذلك، فهي لم تستطع أن تتذكّر أين توجد محطة المحروقات التي وضعت فيها الدولارين كتأمين، وهي لاتريد أن تبحث عنها في ظلام الليل. كانت كوني قد حشت فرّوجاً وطبخته. ولكنها إذا قرّرت أن تُمضي تلك الليلة هناك فذلك بسبب الأم خصوصاً.

البياض في المركز كان يعمي الأبصار. أمضت ماقيس بعض الوقت حتى استطاعت أن تتبينّ الشكل الكثير المفاصل وسط الوسائد، وأغطية السرير ببياضها الناصع، وكان من الممكن أن تظلّ لاترى شيئاً لفترة أطول لولا سماعها الصوت الآمر الذي قال:«لاتنظري هكذا ياصغيرتي».

انحنت كوني على قدم السرير ودسّت ذراعها تحت الغطاء.

رفعت بيدها اليمنى كعبيْ الأم وباليسرى رتّبت الوسائد التي كانت تحتهما. وتمتمت: «أظافر حادّة كموسى الحلاقة». ثم وضعتهما برفق.

عندما اعتادت عينا ماڤيس على الظلمة وعلى النور، رأت شكل سرير صغير جداً بالنسبة لامرأة مريضة - يكاد يكون سرير طفل - وتشكيلة متجانسة من الطاولات والكراسي عند حد الظلمة التي تحيط بها. تناولت كوني شيئاً ما عن إحدى الطاولات وانحنت في الضوء الذي يرسم دائرة حول المريضة. أخذت ماڤيس تتابع حركاتها وتراقبها وهي تضع بعض الفازلين على شفتي وجهٍ أكثر شحوباً من الوشاح الأبيض الذي يغطي رأس المريضة.

قالت الأم وهي تمرّ بطرف لسانها على شفتيها المطلّيتين بالفازلين: «لابدّ أن يكون هناك شيء طعمه أفضل من هذا».

أجابتها كوني:

«الطعام، أتريدين قليلاً منه؟».

«لا».

«القليل من لحم الفروج؟».

«لا. مَنْ هذه التي اصطحبتها إلى هنا؟ لماذا تأتين بأحد إلى هنا؟».

«لقد قلت لك: امرأة معها سيارة وهي بحاجة للمساعدة».

«كان ذلك البارحة».

«لا. قلت لك هذا الصباح».

« حسناً لقد مضى على ذلك عدة ساعات إذن، ولكن من الذي دعاها لتأتي إلى غرفتي الخاصة، إلى خلوتي؟ من؟».

«احذري. أنتِ، أنتِ التي دعوتها. أتريدين أن أدلّك لك رأسك؟».

«ليس الآن. ماهو اسمك يا صغيرتي؟».

تمتمت ماڤيس اسمها من الحيز المظلم الذي كانت تقف فيه.

«اقتربي. فأنا لاأرى شيئاً إذا لم يكن بقربي تماماً. وكأني أعيش في قشرة بيضة».

قالت كوني لـ ماقيس: «لاتعيريها انتباهاً. إنها ترى كل شيء في هذا الكون». ثم جذبت كرسياً إلى قرب السرير، جلست عليه وأمسكت يد المرأة وأخذت تمسد الجلد لكل أصبع معقوف واحداً تلو الآخر.

تقدمت ماقيس إلى دائرة الضوء ووضعت يدها على قدم السرير المعدنية.

«هل سوّي الأمر الآن؟ وسارت سيارتك؟».

«نعم يا سيدتي. لقد سوّي الأمر. شكراً».

«أين أطفالك؟».

لم تستطع ماقيس الإجابة.

«كان هنا كثير من الأطفال فيما مضى. كانت هذه مدرسة جميلة جداً، مدرسة بنات هنديات».

نظرت ماقيس إلى كوني، ولكن عندما نظرت إليها كوني بدورها أطرقت ماقيس وخفضت بصرها في الحال.

بدرت من المرأة التي في السرير ضحكة خفيفة وقالت: «صعب التحديق فيها والنظر في عينيها، أليس كذلك؟ عندما أتت إلى هنا، كانتا خضراوين بلون العشب.

فقالت كوني «وعيناك كانتا زرقاوين».

«ومازالتا كذلك».

«أنتِ تقولين هذا».

«ماهو لونهما إذن؟».

«لون عينيّ نفسه ـ لون حائل لامرأة عجوز».

«أعطني مرآة ياصغيرتي».

«لاتعطها شيئاً».

«مازلت أنا التي تعطي الأوامر هنا».

«بالتأكيد، بالتأكيد».

الثلاثة كنّ يراقبن الأصابع السمراء التي كانت تداعب الأصابع البيضاء. تنهدّت المرأة المستلقية في السرير. «انظري إليّ، لاأستطيع أن أجلس بمفردي دون أن يساعدني أحد، وأحتفظ بكبريائي حتى النهاية. لابدّ أن الرب يضحك إلى أن ينشقّ شدقاه».

«الرب لايضحك، وهو لايلعب».

«نعم، حسناً، إنك تعرفين كل شيء عنه، أنا متأكدة من ذلك. وفي المرة القادمة التي ترينه فيها، قولي له أن يدع الفتيات الصغيرات يدخلن. إنهنّ يتجمعن أمام الباب ولكن لايدخلن. وذلك لايزعجني أثناء النهار ولكنهنّ يعكّرن عليَّ النوم في الليل. هل تغذّيهن كما يجب؟ إنهنّ على الدوام جائعات جداً. يوجد عندنا كل مايلزم، أليس كذلك؟ لامن تلك الفطائر التي يحببنها، بل أطباق شهية ساخنة. لأنّ فصول الشتاء قاسية جداً، ونحتاج لكثير من الفحم، وإنها لخطيئة أن تُحرق الأشجار على المرج وبالأمس راح الثلج ينخل من تحت الباب فنستجدي السلام الآمن في اليوم الذي كانت المواطنة الأخت «روبرتا» تقشّر البصلات، وبسبب خطيئة أنفها الأفطس المفلطح دائماً، فإنه لا يمكنك النجاة من أي اضطراب».

ضمّت كوني يدي الأم على الغطاء ونهضت، ثم أشارت إلى ماڤيس أن تتبعها. أغلقت الباب، وسارتا في الممر.

«كنت أظنّ أنها أمك. بناءً على الطريقة التي كنت تتكلمين بها، كنت أعتقد أنها أمك الحقيقية». نزلتا على الدرج المركزي الواسع.

«إنها أمي. وأمك أيضاً. هل أنت أمّ؟».

لم تردّ ماڤيس، من جهة لأنها لم تكن تستطيع الكلام عن ذلك، ومن جهة أخرى لأنها كانت تحاول أن تتذكر من أين يأتي الضوء إلى غرفة الأم في بيت ليس فيه كهرباء.

بعد تناول طعام العشاء وأكل الفروج المحشي، اقتادت كوني ماڤيس إلى غرفة كبيرة. اختارت من بين الأسرّة الأربعة التي تُطوى، السرير الأكثر قرباً من النافذة، وانحنت على ركبتيها لكي تنظر إلى الخارج. قمران بلون الحليب، بدلاً من القمر الموجود في الأعالي،

كان يمكن أن يكونا شبيهين بعيني كوني. تحتهما عالم مرتّب يسوده النظام. بلا يوم حساب. حسن الترتيب. فسيح، وأبديّ.

أيّ الطرق إلى كاليفورنيا؟

أي الطرق إلى مريلاند؟

ميرل؟ بيرل؟

شبل الأسد الذي التهمها تلك الليلة، كانت عيناه زرقاوين وليستا كستنائيتين، ولم يكن، تلك المرة، بحاجة إلى إبقائها على الأرض. عندما وضع قائمته اليسرى حول كتفها، تركت بمل إرادتها رأسها يسقط إلى الخلف مبدية عنقها. ولم تبذل أي جه أيضاً للخروج من حلمها. كانت العضّة شهية ولكنها ظلت نائمة مثله تنام أشياء أخرى إلى أن يوقظها الغناء.

تركت ماڤيس أولبرايت الدير مراراً ولكنها كانت تعود إلي باستمرار، كما أنها كانت هناك أيضاً عام 1976 .

في صباح ذلك اليوم من شهر تموز كانت تعي منذ بضعة شهو العلاقات الصعبة الموجودة بين الدير والمدينة، وربما توقعت قدو تلك الشاحنة المحملة بالرجال، الذين أخذوا يتجولون بحثاً ع فريسة عبر الضباب. ولكنها كانت تفكر بأمور أخرى: ببحّار ازدانت سواعدهم بالوشم وأطفال يستحمون في مياه زمردية اللون ولأنها متعبة من ملذات الليلة السابقة، فقد نامت واستيقظت بعد ذل بساعة، وبينما كانت تطرد فراخ الدجاج من غرفة الدرس، شمّ رائحة دخان «سيجار» ورائحة خفيفة جداً من عطر أكواڤيلڤا.

غريس

إما أنّ الرصيف كان محرقاً، أو أنها قد خبّأت بعض الأحجار الكريمة في حذائها. «K.D.» الذي لم يكن قد رأى أبداً امرأة تتمايل وتتخلّع بهذا الشكل، اعتقد أنّ مشيتها هي التي تسبّب المشكلة. لاهو ولاأصدقاؤه الذين كانوا يتسكعون قرب الفرن رأوها تنزل من الباص، ولكنه عندما انصرف، كانت موجودة هناك ـ في الجانب الآخر من الشارع، قبالتهم، ببنطالٍ ضيق يشد كثيراً على جسمها، وكعبين عاليين جداً وقرط كبير الحجم، لدرجة أنهم نسوا أن يضحكوا من شعرها. عبرت الشارع المركزي وأتت نحوهم وهي تسير بخطوات صغيرة جداً فوق نعليْن ضخمين مضاعَفيْن لم يسبق لهم أن رأوا مثلهما منذ العام 1949 .

أخذت تمشي بسرعة، كما لو أنها تقفز على جمرٍ حارّ، أو أنّ شيئاً حُصر في حذائها ويؤلمها. فكّر «K.D.»: لابد أنّ هذا الشيء ذو قيمة كبيرة، وإلا لكانت انتزعته.

اجتاز غرفة الطعام حاملاً صندوق التجهيزات. مربعات صغيرة من الدانتيلا كانت تبدو من سلة وضعت على المنضدة. العمة سوان تنسج بالسنارة كالسجينات: يومياً، وبصورة منهجية ومجانية، كانت تصنع من الدانتيلا أكثر مما يمكن أن يكون منطقياً. الحديقة الممتدة خلف المنزل، إلى اليسار، نُزعت منها كل الأعشاب البرية، الضارة، ويبدو أنها تحظى بعناية فائقة. استدار «K.D.» إلى اليمين

ودخل إلى الحظيرة. هاجت الكلاب عندما رأته. وكان عليه أن يقف مباعداً ساقيه فوق الكلبة غود لكي يمسك بها. كانت أذناها وديعتين ليّنتين في يديه وهو يمسك بقوة قطعة القطن المبلّلة بالكافور. راحت القرادات تتساقط كحب القهوة. وضع يده تحت فكها، فلحست له ذقنه. بِنْ: الكلب الآخر، كان ينظر إليهما، وقد وضع رأسه على قائمتيه. ولأنّ هذه الكلاب تعيش في مزرعة ستيوارد مورغان كانت محمّلة بالأوساخ على الدوام، وتحتاج الكلاب إلى بضعة أيام في روبي حتى يتم تنظيفها وهي تنظّف مرتين في السنة، تناول «K.D.»، الفرشاة القاسية من العلبة وغرزها في شعر الكلبة غود وأخذ يرققه برفق بالفرشاة وهو يغني بنعومة بصوت «مونوتوني» عالٍ، الأغنية التي ابتدعها لها عندما لم تكن سوى جروٍ صغير وهي أغنية بلون وإيقاعية: «إيه، ياكلبي الجيد، ابق كلباً جيداً، كلباً عجوزاً جيداً، ياكلبي العجوز الجيد. الجميع بحاجة لكلب جيد، جيد، جيد، جميع الناس بحاجة لكلب جيد، جيد، جيد، جيد».

أخذت غود تتمطّى مسرورة.

سيأتي إلى الاجتماع هذا المساء أولئك الذين يعنيهم الأمر فقط. أي جميع الناس، عدا ذلك الذي أثار المشكلة. خالاه ديك وستيوارد، والمحترم ميسنِر، ووالد وآرنيت وأخوها . سيتحدثون عن الصفعة ولكن ليس عن الحَمْل وبالتأكيد ليس عن الفتاة ذات الأحجار الكريمة المخبأة في حذائها.

افترِضوا أنها لم تكن هنا. افترِضوا أنّ أحداً لم يرَ سُرّتها فوق حزام بنطالها الجينز وأنّ نهديها قد هدأا للتو، هدأا لبضعة ثوانٍ، كافية ليتصوروا خلالها كيف يتصرّفان - وأي وضع يتخذان. في العلن وبين الناس، دون فتيات متسكعات، كان يمكن أن يعرفا. وفي المجموعة، كان من الممكن أن يجدا على الفور النبرة المناسبة. ولكنّ آرنيت كانت هناك وقد أخذت تتباكى، وكذلك بيلي ديليا.

ابتعد «K.D.» وآرنيت عن الآخرين لكي يتحدثا، وقد وقفا قرب شجيرات السنديان القزمة، خلف مقاعد وطاولات النزهة وبدا الحديث أسوأ مما يظن أن يكون عليه أي حديث. وماراحت آرنيت

تقوله هو: «إذن، ماذا تنوي أن تفعل من أجل ذلك؟» كانت تعني: إني مسافرة إلى لنغستون في أيلول ولاأريد أن أكون حاملاً ولاأن أجهض، ولاأن أتزوج، ولاأن أكون تعيسة بمفردي ولاأن أجابه عائلتي. فقال: «إذن، ماذا تنوين أن تفعلي أنت من أجل ذلك؟» ثم مفكراً: لقد احتجزتني في العديد من الأمسيات، كانت كثيرة بحيث لاأستطيع أن أتذكر عددها، وعندما وافقت أخيراً، لم أُضطرَ حتى لأن أنزع عنكِ سروالك الداخلي، فقد فعلتِ ذلك قبلي، لذلك فالمشكلة ليست مشكلتي.

كانوا قد بدؤوا لتوّهم بحجب التهديدات وإظهار قرفهم المتبادل عندما اندفع الباص. جميع الرؤوس، جميعها التفتت. أولاً لأنهم لم يسبق لهم أن رأوا أبداً باصاً في تلك المدينة، فروبي لم تكن محطة على طريق عام يؤدي إلى مدينةٍ ما. وثانياً لكي يروا ببساطة لماذا توقّف. لفتَ المشهدُ الذي بدا عندما ابتعد الباص انتباه جميع من كانوا يتمشّون قرب الفرن: كانت تقف بجانب الطريق، بين المدرسة وكنيسة «هولي ريديمر». لم تكن تضع أحمر شفاه، ولكن على بعد مئة وخمسين قدماً، كان بالإمكان رؤية عينيها. والصمت الذي خيّم عند ذلك بدا أبدياً إلى أن قطعته آرنيت:

«إذا كان هذا هو نوع المتشردة التي تريدها، هيا، اقفز عليها أيها الزنجي».

انتقلت نظرات «K.D.» من قميص ثوبها الأنيق إلى شعرها المصفّف المسدل على جبينها، ثم إلى وجهها ـ المقطب، المشاكِس والذي ينم عن الاتهام ـ وصفعها. فتبدّلت تعابير وجهها، وكان الأمر يستدعي ذلك.

قال أحد الناس: «واو!» ولكنّ أكثر أصدقائه كانوا يتأملون الحلمتين الصارختين اللتين راحتا تقتربان منهم. آرنيت هربت، وكذلك بيلي ديليا، ولكنها، كصديقة مخلصة، التفتت لكي تراهم يُرغمون أنفسهُم على الإطراق والنظر إلى الأرض أو إلى سماء أيّار الصافية، أو إلى مدى طول أظافرهم.

انتهى «K.D.» من الاعتناء بالكلبة غود. وقد استدعى ذلك قص شعر بطنها قليلاً ـ ولولا ذلك كان يستحيل العناية به بسبب العُقَد ـ ولكنها كانت جميلة. ثم بدأ «K.D.» عمله في شعر بِنْ وهو يردّد دفاعه أمام عائلة آرنيت. وعندما وصف الحادث لخاليّه، قطّب كل منهما حاجبيه في الوقت نفسه. وكصورة في مرآة، فيما يتعلق بالحركات إن لم يكن بالمظهر، بصق ستيوارد عصارة مضغة تبغ «بلوبوي» كانت في فمه، وأشعل ديك سيجاراً. وأياً كانت درجة قرفهما، فإنّ «K.D.» يعرف بأنهما لن يساوما على حلٍّ يعرّضه للخطر، هو، أو أموال آل مورغان. فعندما سمّى جده توأميه: ديكون وستيوارد، لم تكن هذه التسمية عبثية. وأسرتهما لم تبنِ مدينتين، وتناضل ضد قوانين البيض، والـ«كولورد كريك» وقطّاع الطرق، وتقاوم التقلبات الجوية، لكي ترى المزارع، البيوت، ومصرفاً رُهنَ فيه مخزن للأغذية، وصيدلية، ومخزن للأثاث والمفروشات، تقع جميعها في جيب آرنولد فليتوود. ومنذ أن دُفنت عظام أبناء خاله المفككة، قبل ذلك بعامين، أصبح «K.D.» أملهما وضياع أملهما، فهو الذكَر الأخير في ذريّة أنجبت نائب حاكم ومفوضاً في ديوان محاسبات الولاية وعُمدَتَيْن. وكما هي العادة دائماً كان يجب تفحّص سلوكه بعناية من أجل توجيهه للسير في الطريق المستقيم. أو أنّ الخالين يمكن أن يريا الأمور بصورة مختلفة؟ ربما كان طفل آرنيت صبيّاً، حفيداً صغيراً لآل مورغان. فهل سيكون لـ أرنولد والد آرنيت حقوق يجب على آل مورغان أن يحترموها؟

وبينما أخذ «K.D.» يدسّ أصابعه في شعر الكلب بِنْ وينزع الأوساخ العالقة بالخصلات الحريرية، كان يحاول التفكير كخاليه ـ تمرين صعب. لذلك تخلّى عن هذا التفكير واستغرق في حلم خياراته. وفي تلك المرة فقط اشتمل حلمه على جيجي وحلمتيها الصارختين.

«هاي» وأخذت تطقطق بعلكتها كإحدى المحترفات. «هل هذه هي روبي؟ هذا ماقاله لي سائق الباص».

أجابها الشبان المتسكعون، جميعهم، بصوت واحد:

«نعم. بلى. أوه، هاه، بالتأكيد!».

«أيوجد فيها موتيلات؟».

أضحكهم هذا السؤال وشجّعهم على أن يسألوها عمّن تبحث ومن أين أتت.

أجابت: «من فريسكو. فطيرة بالراوند. هل لديكم نار؟».

سيكون الحلم إذن في فريسكو.

لم يقدّم رجال أسرة مورغان أي تنازلٍ ولكنّ مكان اللقاء الذي اختير جَعلهُم غير مرتاحين. إذ أنّ المحترم ميسنِر فكّر أنه من الأفضل احترام البروتوكول والذهاب إلى آل فليتوود بدلاً من تضخيم الإهانة التي وُجّهت إلى العائلة بإرغام المهانين على القدوم إلى بيت من أهانهم.

جلس «K.D.»، ديك وستيوارد في غرفة الجلوس في بيت الكاهن، ولم يفعلا شيئاً سوى هزّ الرؤوس والتمتمة بالكلام الذي يدعو إلى المصالحة، ولكنّ «K.D.» كان يعرف بماذا يفكر خالاه. ولاحظ أن ستيوارد قد غيّر مضغته، عندما انتحى جانباً، واحتفظ بالعصارة. حتى ذلك الحين، كانت جمعية التسليف التي شكلها ميسنِر لاتهدف لجني الأرباح - قروض صغيرة للحالات الطارئة تعطى للأعضاء التابعين للكنيسة، لآجال تُسدّد فيها دون غرامات بسبب التأخير. قال ديك: «إنها كالحصالة على شكل خنزير». ولكنّ ستيوارد أضاف: «نعم، في الوقت الحاضر!». كانت سمعة الكنيسة التي غادرها ميسنِر لكي يأتي إلى روبي تتبعه: فقد نظّم اجتماعات سرية لكي يحرّض الناس، وقد عارض قانون البيض وقاومه بدلاً من الالتفاف عليه. فقد سبق له أن وضع آماله بشكل صريح في ولاية كانت قد قررت فيما مضى بناء كلية حقوق جديدة لاستقبال طالبة

واحدة ـ زنجية ـ والمحافظة في الوقت نفسه على التمييز العنصري. فهو يأخذ على محمل الجدّ إمكانية التغيير في ولاية سبق لها أن بنت أيضاً غرفة مستقلة ومفتوحة بجانب قاعة الصف بالضبط، لكي يستطيع طالب زنجي آخر الجلوس فيها بمفرده. حدث ذلك في الأربعينات، في الوقت الذي لم يكن فيه «K.D.» سوى طفل حديث الولادة، قبل أن تغادر أمّه وأخوته وأبناء خاله وكل الآخرين مدينة هافن. واليوم، بعد انقضاء عشرين سنة، يُصغي خالاه لمواعظ ميسنِر كل أسبوع، ولكنهما بعد انتهاء كل موعظة، يندسّان خلف مقودي سيارتيهما الأولدزموبيل والأمبالا ويردّدان لازمة أغنية الآباء القدامى: «الأوكلاهوما هي: هنود، زنوج والله ممزوجون معاً. والباقي علف». والأمر الذي أذهلهم هو أنّ المحترم ميسنِر غالباً ماكان يعتبر العلف طبقاً يليق بمائدته، فرجل مثله كان يستطيع أن يشجّع الناس على القيام بتصرفات غريبة وأن يقف إلى جانب إحدى المراهقات أو أن يؤيد آل فليتوود. ورجل كهذا، على استعداد لإلقاء النقود في الطريق، يمكنه أن يوحي ببعض الأفكار للمودِعين، ويجعلهم يعتقدون أن باستطاعتهم أن يختاروا بين نِسَب الفائدة.

ولكنّ «المعمدانيين» كانوا يشكّلون أهمّ وأقوى طائفة في المدينة. لذلك أجرى آل مورغان فرزاً دقيقاً بين آراء المحترم ميسنِر لكي يعرفوا أيَّ التوصيات يمكنهم تجاهلها بسهولة وأيها عبارة عن أوامر يجب عليهم الانصياع لها.

كانوا في سيارتين، ولم يقطعوا أكثر من ثلاثة أميال من غرفة جلوس ميسنِر حتى بيت أسرة فليتوود.

في جهةٍ ما، من إحدى مدن أوكلاهوما كانت أصوات حزيران تتردّد على المياه المتلألئة في أحد المسابح، تحت أشعة الشمس وقد ذهب إليه «K.D.» في إحدى المرات. جاب ولاية ميسوري كنساس وتكساس في القطار مع خاليه وظلّ ينتظر بجانب الرصيف بينما هما يتحدثان عن الأعمال في بناءٍ شُيّدَ بالقرميد الأحمر. كانت تُسمع في الجوار أصوات مرحة، فذهب ليرى. خلف حاجزٍ من الشبك، يحيط به بلاط واسع من الإسمنت، رأى مسبحاً مياهه

خضراء. هو يعلم اليوم أنّ مساحته متوسطة، ولكنه في ذلك الزمن بدا كأنه يغطي الأفق. وخيّل له أنّ مئات الأطفال البيض يتخبّطون فيه، وأصواتهم تشبه أنقى شلالٍ من السعادة يمكن أن يوجد في هذا العالم، وتنمّ عن مرحٍ أحسّ به بقوةٍ جعلت الدموع تطفر من عينيه. والآن، بينما الأولدزموبيل تستدير أمام الفرن بشكل حرف U حيث طقطقت جيجي بعلكتها، شعر «K.D.» مرة ثانية بالإثارة التواقة للمياه المتلألئة وبأصوات المستحمين في شهر حزيران. لم يكن خالاه مسرورين من اضطرارهما للبحث عنه وإحضاره من الحي التجاري في المدينة، وقد وبّخاه في القطار بعد ذلك في السيارة وهم في طريق العودة إلى روبي. لم يكن الصراخ ثمناً غالياً في ذلك الزمن، ولاهو أغلى في أيامنا هذه. ـ «كيف قمت بهذه الخبصات حتى وقعت في هذا الجحيم؟ كان عليك أن تعاشر أناساً في مثل سنّك. ثم، وقبل كل شيء، لماذا رغبت بمضاجعة إحدى فتيات عائلة فليتوود؟ أترى أولاد هذا الفتى؟ اللعنة!» ـ كان الجميع يتفجّرون غضباً دون أن يسببوا له ألماً شديداً. ومثلما رأى المياه المتلألئة رأى جيجي. ولكن من المؤكد أنه سيرى هذه الفتاة ثانية بينما لن يرى المسبح.

ركنوا سياراتهم متلاصقة بجانب بيت عائلة فليتوود. وعندما قرعوا الباب، بدأ كلّ منهم ماعدا المحترم ميسنِر يتنفس من فمه لتخفيف حدّة رائحة المرض في البيت.

لم يعد أرنولد فليتوود منذ ذلك الحين يريد أبداً أن ينام تحت إحدى الخيام أو على فراش من القش أو على الأرض. ولذلك فقد خطّط لإيجاد أربع غرف في البيت الكبير الذي بناه في الشارع المركزي: واحدة له ولزوجته، وأخرى لكلٍ من ولديه، وغرفة ضيوف، كانوا يفخرون بها كثيراً. وعندما عاد ابنه جِفرسون من ڤييتنام وضاجع سويتي عروسه في سريره الخاص ، ظلّت غرفة الضيوف شاغرة. وكان من الممكن أن تصبح غرفةً للأطفال لو لم يحتاجوها كقاعة مشفى لأولاد جِف وسويتي. وقد تطورت الأمور بحيث أن فليت ينام الآن في جانب منعزل، في غرفة الطعام.

جلس الرجال على أرائك ذات أغطية نظيفة، منتظرين أن ينهي المحترم ميسِنر حديثه مع النساء اللواتي لم يرَهُنّ الرجال. السيدتان فليتوود كرّستا كلّ طاقتهما، كل وقتهما وكل حنانهما للأولاد الأربعة الذين بقوا على قيد الحياة حتى ذلك الحين. فليت وجِف اللذان كانت هذه المحبة تجعلهما معترفَيْن بالجميل ولكن غاضبَيْن، كانا يخفيان خجلهما. لأن مرافقة النساء، والجلوس قربهن أمر صعب، والتحدث إليهن أكثر صعوبة.

كان «K.D.» يعرف أن فليت مدين بمبلغ من المال إلى خالَيه. ويعرف أيضاً أن لدى جِف رغبة شديدة بقتل أحد لأنه لايستطيع أن يقتل إدارة المحاربين القدماء كما ربما كان آخرون سيفعلون. وبدا الارتياح على الجميع عندما نزل المحترم ميسِنر على الدرج وهو مبتسم.

«نعم. حسناً». ضمّ المحترم ميسِنر يديه وهزّهما قرب كتفيه كما لو أنه قد تغلّب على الخصومة. «لقد وعدَتْ السيدات أن يجلبن لنا القهوة، وأعتقد أنهنّ قد تحدّثن عن كاتو الأرز فيما بعد. وأظن أنّ هذا أفضل مبرّرٍ لكي نبدأ». ثم ابتسم من جديد. كان تقريباً يبدو أكثر أناقة مما ينبغي كرجل دين. ليس وجهه ورأسه فقط، ولكنّ جسمه حسن التكوين تماماً، كل ذلك كان عملياً يجذب انتباه الجميع ويثير إعجابهم. وكرجلٍ جادّ، كان يعتبر جماله الواضح كابحاً لكسله ـ فهو يرغمه على التصرف بحكمة مع المؤمنين التابعين له، وعلى ألّا يأخذ شيئاً مسلماً به: لاهيام النساء ولاحسد الرجال.

لم يبادله أحد ابتسامته التي استقبل بها الفاكهة. فتابع:

«اسمحوا لي أن أعرض الوضع كما أعرفه. أرجو أن تصحّحوا لي، جميعكم، إذا أخطأت أو إذا نسيت شيئاً. فحسب مافهمت، «K.D.» قد سبّب إساءة، إساءة شديدة إلى سمعة آرنيت. ولذلك نستطيع القول بأنّ «K.D.» لديه مشكلة لكي يحافظ على مزاجه وعليه التزام...».

فقاطعه جفرسون الذي يتميّز غضباً وهو يجلس على أريكة منخفضة، بعيداً عن المصباح، قائلاً:

«أليس هو أكبر سناً بعض الشيء من أن يُغضب فتاة صغيرة؟ أنا لاأسمي هذا مزاجاً: أنا أسميه خرقاً للقانون».

«حسناً، ولكنه في تلك اللحظة بالذات، لم يكن يملك نفسَهُ».

حدق جِف بشكل مباشر في عيني «K.D.». «أستميحك عذراً أيها المحترم، إنّ آرنيت في الخامسة عشرة من العمر».

وقال فليت: «هذا صحيح، إنّ أحداً لم يضربها منذ أن كانت في الثانية من عمرها».

«ربّما كانت هذه هي المشكلة». كان ستيوارد معروفاً بكلامه الاستفزازي، وقد أنذره ديك بأن يمسك لسانه ويدعه هو يتكلم، لأنه أكثر حذقاً ولباقة. ولكنّ كلماته الأخيرة جعلت جِف يقفز عن كرسيه.

«لا تأتِ إلى بيتي لتشتم عائلتي!».

«بيتك؟» تحوّلت نظرات ستيوارد من جِف إلى أرنولد فليتوود.

«لقد سمعتني! بابا! أعتقد أنه من الأفضل فضّ هذا الاجتماع قبل أن يتأذّى أحد!».

أجابه فليت: «معك حق ، إنّما يتحدثون عن طفلتي، طفلتي!».

جِف وحده كان واقفاً، ولكنّ ميسنِر نهض أيضاً: «أيها السادة هيّا، توقفوا!» ورفع يديه وقد علا بقامته الطويلة على الجالسين ثم استغلّ صوته كواعظ: «نحن رجالٌ هنا، رجال الله. هل ستلقون بما صنعه الله في المجاري؟».

«K.D.» رأى ستيوارد يصارع ضد رغبته بأن يبصق، فنهض بدوره وقال: «انظروا هنا، إني آسف. حقاً. كما قلت سأتراجع إن كنت أستطيع».

خفض ميسنِر يديه:

«ماحدث قد حدث ياأصدقائي».

تابع «K.D.» كلامه: «إني أحترم ابنتك...».

سأله جِف: «منذ متى؟».

«لقد احترمتها على الدوام. منذ أن كانت بهذا الطول». وأشار «K.D.» بيده إلى مستوى خصره. «اسأل أيّاً كان. اسأل صديقتها بيلي ديليا. ستقول لك ذلك بيلي ديليا».

أحدث هذا التصرف العبقري تأثيراً فورياً. الخالان مورغان كتما ابتسامتهما، بينما آل فليتوود الأب والابن أخذا يتحرّقان غيظاً. ذلك لأنّ بيلي ديليا كانت أكثر الفتيات تسرعاً.

فقال جِف: «كل هذا لايتعلق بـ بيلي ديليا. إنه يتعلّق بما فَعلْته بأختي الصغيرة».

عند ذلك قال ميسنر: «انتظرا دقيقة، ربما استطعنا فهم المشكلة بشكل أفضل لو قلت لنا يا «K.D» لماذا فعلْت ذلك. لماذا؟ وماذا حدث؟ هل كنت مخموراً؟ هل استفزّتك؟» ـ كان يتوقّع أن تفتح أسئلته المباشرة مجالاً للتكلم بصراحةٍ تجعل هؤلاء الرجال يكفّون عن اللعب كالدببة، وينتهي الأمر بهم إلى التفاهم. وقد أدهشه الصمت المفاجئ الذي تلا ذلك. راح ستيوارد وديك يتنحنحان في الوقت نفسه. أرنولد فليتوود أخذ ينظر إلى حذائه. فأدرك ميسنر أنّ هناك شيئاً ليس على مايرام. وعبر ذلك الصمت الثقيل أخذوا يسمعون، فوق رؤوسهم وقع الأقدام الخفيف ـ كانت النساء تمشين، تعملن، تبحثن، تقدمن الطعام ـ كل ماهو ضروري لإنقاذ الأطفال الذين لايستطيعون إنقاذ أنفسهم.

قال جِف: «لاتهمّنا معرفة «لماذا» وماأريد معرفته هو ماذا تنوون أن تفعلوا». وعندما لفظ كلمة «تفعلوا» غرز سبّابته في ساعد الأريكة.

استند ديك على مسنده وباعد مابين فخذيه كما لو أنه يريد أن يضمّ منطقة تخصه بصورة طبيعية، ثم سأل: «بماذا تفكرون؟».

قال فليت: «أولاً، بالاعتذار».

أجاب «K.D.»: «لقد قدمته لتويّ».

«ليس لي، يجب أن تقدمه لها!».

فقال «K.D.»: «موافق ياسيدي، سأطلب منها المعذرة».

تولّى ديك الحديث قائلاً:

«حسناً، هذه هي النقطة الأولى. فما هي الثانية؟».

أجاب جِف: «عليك ألّا تفكر بأن ترفع يدك عليها مرة أخرى».

«لن أرفع عليها بعد الآن أيّ شيء ياسيدي!».

سأل ديك: «أهنالك نقطة ثالثة؟».

أجاب فليت: «نريد أن نتأكد من أنّ هذا هو مايفكر به حقاً، أي أننا نطلب دليلاً على ذلك».

«تريدون دليلاً؟» حرص ديك أن يبدي الدهشة.

«لقد دُمّرت سمعة أختي، أليس كذلك؟».

«ايه. أفهم ذلك جيداً».

«لاشيء يمكن أن يُصلِح هذا، أليس صحيحاً ماأقول؟» اجتمع الاستفهام والاستفزاز في سؤال جِف.

انحنى ديك إلى الأمام: «حسناً، لاأدري، لقد سمعت أنها تذهب إلى الجامعة. وهذا يتيح نسيان كل شيء. وربما يصبح من الممكن مساعدتها قليلاً».

غمغم جِف: «لاأعرف شيئاً من كل هذا». نظر إلى والده: «مارأيك بذلك يا بابا؟ هل هذا...».

«يجب أن أسأل أمها. فهي أيضاً قد تأثرت كما تعلم، وربما بشكل أسوأ مما أصابني».

فقال ديك: «حسناً، لماذا لاتتحدث إليها إذن؟ فإذا كانت موافقة، توقفوا في المصرف. غداً».

حكّ فليت ذقنه: «لاأستطيع أن أعد بشيء. لأنّ مابل امرأة مزهوة بنفسها، مزهوة جداً».

أومأ ديك برأسه «لديها مايبرّر ذلك، ابنتها التي تذهب إلى الجامعة، وكل ذلك. ولانريد أن يعيق هذا أي شيء. إنه شرف للمدينة».

أحنى ستيوارد رأسه: «متى تبدأ الدروس في هذه المدرسة، يافليت؟».

«في آب على ماأعتقد».

«هل ستكون جاهزة في ذلك الوقت؟».

«ماذا تعني؟».

أجابه ستيوارد:«حسناً، آب مايزال بعيداً، فنحن في أيار. ويمكن أن تغيّر رأيها. وتقرّر البقاء».

«أنا والدها. إنها لن تغيّر رأيها».

قال ستيوارد: «حسن جداً!».

سأل ديك: «إذن، لقد سوّي الأمر؟».

«يجب أن أتحدّث مع أمها، كما سبق وقلت».

«بالتأكيد».

«إنها المفتاح. زوجتي المفتاح».

ابتسم ديك ابتسامة واضحة للمرة الأولى في تلك الأمسية: «النساء هنّ المفاتيح دائماً، ليباركهنّ الله».

تنهّد المحترم ميسنِر كما لو أنّ الهواء أصبح من جديد صالحاً للتنفّس، وقال: «محبة الله موجودة في هذا المنزل، أشعر بذلك في كل مرةٍ آتي إلى هنا. في كل مرة». ونظر إلى السقف بينما كان جِفرسون فليتوود يحدق فيه بعينين مرهقتين. «نحن نثمن كثيراً قوته تعالى، ولكن لاينبغي لنا أن نتجاهل محبته. وهذا مايجعلنا أقوياء أيها السادة. فلنصلّ ياأخوتي».

أحنوا رؤوسهم وأصغوا بانصياع إلى كلام ميسنِر المرتّب بشكل مدهش، وإلى وقع أقدام النساء اللواتي لم تكن رؤيتهنّ ممكنة.

في صباح اليوم التالي، دهش المحترم ميسنِر لكونه نام نوماً

هانئاً. إذ أنّ لقاء آل مورغان وآل فليتوود في الأمسية السابقة، قد سبّب له الاضطراب. كان هناك دبّ رمادي في غرفة جلوس فليتوود ـ هادئ، غير منظور، ولكنه كان يجعل القيام بأية مناورة ماهرة أمراً مستحيلاً. وفي الأعلى، كان قد أضحك النساء ـ في الحقيقة أضحك مابل. سويتي ابتسمت، ولكن كان من الواضح أنها لم تستمتع بمزاحه. لم تكن عيناها تفارق أطفالها. اقتراب. انحناءة، انجذاب ـ كانت تنحني على أحد الأسرّة وتقوم بالحركات السريعة والضرورية. لكنها ظلت تبدي تعبيراً ينم بعض الشيء عن التعطف كما لو أنها تريد القول ماالذي يمكنه أن يسلّيها، ولماذا سيحاول أن يفعل ذلك؟ وافقت عندما طلب منها أن تصلّي معه. أحنت رأسها، وأغمضت عينيها ولكنها عندما نظرت إليه، وهي تلفظ كلمة «آمين» بكل هدوء، حصل لديه انطباع بأنّ علاقته بالإله الذي يتوجه إليه غامضة أو حديثة أكثر مما ينبغي، بينما علاقة سويتي كانت أسمى، قديمة ومضمونة.

كان أوفر حظاً مع مابل فليتوود التي سرّت بزيارته لدرجة أنها أطالت الحديث معه دون مبرّر. وفي الطابق الأسفل كان الرجال الذين جمعهم، بعد أن علموا بما حدث قرب الفرن، مازالوا ينتظرون ـ مثلهم في ذلك مثل الدبّ الرمادي.

أوسع ميسنِر وسادته ضرباً بقبضته لبعض الوقت، ونجح بإقناع نفسه بأن النهاية كانت مُرْضية: فالحساسيات أزيلت آثارها، ووُجد الحل المناسب وعُقد الصلح. على الأقل هو يأمل ذلك. يبدو أن آل مورغان لديهم على الدوام نوعان من الكلام ـ حوار لايُسمع، تماماً إلى جانب الحوار الذي يلفظونه بصوت عالٍ. ويتصرّفون كرجل واحد، ولكن بسبب شيء ما في موقف ديك أخذ ميسنِر يتساءل فيما إذا لم يكن يتكلم نيابة عن أخيه ـ دافعاً إياه كأنه ولد متخلّف. والطابع الغالب على أرنولد هو الخجل: شيء ما يُتوقّع منه، ولكنه معروف بأنه قليل الأهمية. كان جِفرسون شديد الحساسيّة، ولكنّ «K.D.» هو الذي كان أكثر استفزازاً لـ ميسنِر. فهو أكثر تسرعاً من

أن يكون مُرضياً: اعتذارات معسولة، ابتسامة مخادعة. ميسنِر يحتقر الذكور الذين يضربون النساء ـ فكيف والفتاة في الخامسة عشرة من العمر؟ وماذا يعتقد «K.D.» أنه قد فعل؟ إنّ صلات قرابته بـ ديك وستيوارد كانت تحميه بالتأكيد، ولكن من الصعب محبة رجل يعتمد على هذا الأمر. متذلّل لخاليه، فظ وعنيف مع النساء. ثم، فيما بعد، في إحدى الأمسيات، بينما كان ميسنِر يعمل على تسخين أقراص اللحم المقلية والبطاطا التي جلبتها له آنّا فلوود لعشائه، ألقى نظرة عبر النافذة، فرأى «K.D.» يسرع السير في الشارع المركزي وهو وراء مقود سيارة ستيوارد، الأمبالا. كان يبتسم ابتسامته الخادعة، ويراهن عليها.

وقد اعتقد أنّ أفكاراً مزعجة بالقدر نفسه، هي التي ستبقيه مستيقظاً طيلة الليل تقريباً، لكنه استيقظ في الصباح كأنه خارج من أهنأ نوم. اعتقد أن هذا من تأثير الطعام الذي تحضره آنّا. ومع ذلك أخذ يتساءل: إلى أين كان «K.D.» يسرع على الطريق، خارج المدينة؟.

رجل وامرأة يتضاجعان بشكل دائم. عندما يتغيّر الضوء كل أربع ساعات، يفعلان شيئاً جديداً. يتضاجعان أمام سماء أريزونا عند حدود الصحراء. لاشيء يستطيع ايقافهما. لاشيء يريد ذلك. ضوء القمر يقوّس جذع الرجل. ضوء الشمس يسخّن لسان المرأة. لايمكن أن نتوه عنهما ولاأن تفوتنا رؤيتهما إذا عرفنا مكان وجودهما: عند نقطة الخروج من مدينة توكسون على الطريق العام (I ـ 3) في مدينة تدعى وِش(*). تعبرينها. تسلكين أول طريق على يسارك. عندما ينتهي الطريق وتبدأ الصحراء الحقيقية، عليكِ أن

(*) تعني الرغبة.

تتابعِي السير. الرّتيلات سامّة، ولكن من الضروري أن تسيري هناك على قدميك، لأنّ أي عجلات لاتستطيع السير على تلك الأرض. ساعة على الأكثر، وسترين ممارسة الحب تناطح السماء. أحياناً يكونان حنونينْ، وأحياناً فظّينْ. ولكنهما لايتوقّفان أبداً. لاعندما تهب العواصف الرملية، ولاعندما تبلغ الحرارة 108 درجات(*). وإذا كنتِ صبورة ورأيتهما تحت إحدى زخّات المطر النادرة الحصول في الصحراء، فسترين أنّ لون جسديهما أصبح غامقاً. لكنهما يستمران بفعل ذلك تحت المطر النادر والنقي ـ الزوجان الأسودان من سكان وِش، في الأريزونا.

لم يكفّ ميكي عن إخبار جيجي عنهما وعن كيفية العثور عليهما خارج بلدته الأم. وأنهما يمكن أن يكونا وسيلة لجذب السياح، كما يقول، إلا أنهما يربكان سكان المنطقة. وقد شُكلت لجنة من الطرائقيين المتشدّدين الذين أقلقهم وجودهما، لنسفهما أو لإخفائهما تحت ساتر من الإسمنت، بدأت عملها، لكنّ اللجنة حُلّت بعد إجراء بعض الأبحاث والدراسات الأولية. وقد أكّد أعضاء اللجنة أنّ اعتراضاتهم لم تكن موجّهة أبداً ضد الممارسات الجنسية، بل ضد الانحلال، لأنّ بعضهم، من الذين نظروا إليهما بانتباه شديد، اعتقدوا أنّ الاثنين كانا امرأتين تمارسان الحب في الغبار، وآخرون، بعد فحصٍ بالدقة نفسها: (عن قرب بالمنظار المقرّب) قالوا كلّا، إنهما ذكران ـ وقحان مثل سكان عمورة.

ومع ذلك، فإنّ ميكي سبق له أن لمس أعضاءهما التناسلية ويعرف جيداً أنّ أحدهما كان رجلاً، والآخر امرأة. فقال: «إذن، وماذا في ذلك؟ إنهما لم يكونا يمارسان ذلك على الطريق العام، وبعد كل شيء، فعلى من يريد رؤيتهما أن يبتعد كثيراً عن الطريق». ميكي يقول بأنّ الطرائقيين المتشددين يريدون التخلّص منهما ولكنهم يريدون أن يظلّا هناك. وأنه، حتى زمرة من الفلاحين المكبوتين

(*) المقصود درجة فهرنهايت وليس درجة مئوية.

الذين يظلّون أكثر خوفاً من أن يحلموا أحلاماً رطبة، يعرفون أنهم بحاجة للزوجين. حتى وإن لم يسبق لهم أن اقتربوا منهما أبداً، كما قال، فإنهم بحاجة ليعرفوا أنهما موجودان هناك. أكّد أنّهما، عندما تشرق الشمس، يصبح لونهما نحاسياً ويعرف الجميع أنهما لم يتوقفا طيلة الليل. وعند الظهر يتلوّنان بالرمادي الفضي. ثم الأزرق بعد الظهر، والأسود في المساء. يتحركان، يتحركان، يتحركان طيلة الوقت.

كانت جيجي تحبّ أن تسمعه يقول هذا: «يتحركان، يتحركان، يتحركان طيلة الوقت».

عندما افترقا، حُكم ميكي بالسجن لمدة ثلاثة شهور. جيجي أُطلق سراحها من غرفة الإسعاف وعلى رسغها ضماد. وقد حدث كل ذلك بمنتهى السرعة بحيث لم يتح لهما وقت لتحديد موعد للّقاء. وعاد المحامي الذي عينته المحكمة قائلاً لاتُقبل الكفالة، ولايمكن إخلاء السبيل المشروط، وأنّ موكله يجب أن يُمضي الأشهر الثلاثة بكاملها في السجن. وبعد أن حسبت مدة الحكم وأنقصت منها مدة التوقيف الاحتياطي قبل الحكم وهي ثلاثة أسابيع، أرسلت له رسالة بوساطة المحامي، الرسالة تقول: «وِش، 15 نيسان».

سألها المحامي: «ماذا؟».

«قل له هذا وحسب: وِش، 15 نيسان».

بماذا أجاب ميكي على رسالتها؟

قال: «موافق، موافق!».

لم يكن هناك من يدعى ميكي، ولامدينة تدعى وِش ولاطريق عام يحمل الرقم (I - 3) ولا أحد يضاجع أحداً في الصحراء. وجميع من تحدثت إليهم في توكسون ظنوا أنها مجنونة.

قالت: «ربما المدينة التي أبحث عنها صغيرة جداً، لدرجة أنها لم تُذكر على أية خارطة».

«إذن اسألي عنها الشرطة الذين يتجولون بسياراتهم في كل مكان، فليس هناك مدينة مهما كانت صغيرة إلا ويعرفونها».

«الصخور بعيدة عن الطريق. وهي تشبه زوجين يمارسان الحبّ».

«حسناً، لقد رأيت سحالي تفعل ذلك في الصحراء ياآنسة».

«ربما هي نباتات شوكية».

«الآن هذا ممكن».

وأخذا يضحكان ضحكاً مشعشعاً.

بعد أن مرّت بإصبعها على أعمدة الأسماء في دليل الهاتف، ولم تجد اسم ميكي رود في الولاية، تخلّت جيجي على مضض عن البحث. ومع ذلك، تابعت البحث بحماسة وجِدّة عن المضاجعة الأبدية التي تحدث في الصحراء. كان عاشقا الصحراء يحطّمان لها قلبها تحت تأثير أحلام بالعدالة الاجتماعية وبحراس للناس الشرفاء ـ أكثر قوة من ذكرى صبي يبصق دمه في يديه ـ لم يكن ميكي قد ابتدعهما. ربما وضعهما في المكان الخطأ، ولكن كل ما فعله هو أنه رفع إلى السطح ماعرفت أنه موجود طيلة حياتها... في مكانٍ ما. ربّما في المكسيك، إلى حيث تتجه.

جرعة المخدّر كانت ثقيلة، الرجال مستعدون دائماً، ولكنها بعد ذلك بعشرة أيام استيقظت وهي تبكي. هاتفت إلى ألكورن، في المسيسبي، عن طريق السنترال على حساب المتّصل به.

«اجلبي مؤخرتكِ إلى البيت يا فتاة. فهل تغيّر العالم بما يكفي ليلائمك؟ على أية حال لقد ماتوا جميعهم. كينغ، فردٌ آخر من آل كيندي، مدغار ايڤرس الزنجي الذي كانوا يدعونه: «مالكوم X»، ياإلهي، لم أعد أتذكّر مَنْ، منذ أن غادرت دون أن تقولي لي فعلاً بأنك تتذكرين (L.J.) الذي كان يعمل في المركز التجاري على الطريق عندما جاء أحد ما في وضح النهار حاملاً مسدساً لايشبه شيئاً مما رآه أحد على الإطلاق...».

أسندت جيجي رأسها على الحائط المطلي بالكلس، بجانب الهاتف.

أمام الحانة وقف بائع وأخذ يطرد بعض الأطفال بمكنسة. فتيات. دون سراويل داخلية.

«أنا آتية ياجدي. عائدة إلى البيت في الحال».

في معظم الأحيان كانت تحجز مقعدين لها وحدها. لتحصل على مكان تستلقي فيه. تنام. تعيد قراءة أعداد من صحيفة رامبارتس لفّتها في حقيبة ظهرها. عندما صعدت إلى قطار سنتافي استأنف سيره وهو يغصّ بالطيارين بألبستهم الزرقاء. وبعد قليل امتلأت المقصورات بـ (H'eres - 4). ولكنها عندما استقلّت قطار MKT لم تعد عرباته مكتظة بالمسافرين أبداً.

لم يأتِ الرجل الذي يضع قرطاً في أذنه ليراها. بحثت عنه. فقط لكي تتحدث إلى شخص لم يكن مكسواً بالبوليستر ويبدو عليه أنه يدخن سجائر ليست من نوع شسترفيلد.

إنه قصير القامة يكاد يكون قزماً، ولكنه يرتدي ملابس من آخر زيّ ظهر على الشاطئ الشرقي. تسريحة شعره الأفريقية كانت مرتبة وشعره ليس مشعثاً، ويضع سلسلةً ذهبية حول عنقه متلائمة مع قرط أذنه الذهبي.

كانا يقفان الواحد بعد الآخر في السناك بار الذي يصرّ المستخدَم على تسميته: عربة العشاء. طلبت زجاجة كوكا بدون ثلج وقطعة كاتو بالشوكولا. أما هو فدفع ثمن كأس كبيرة من الثلج وحسب.

قالت جيجي للرجل الجالس وراء طاولة المحاسبة: «ينبغي أن يكون هذا مجاناً، وماكان عليه أن يدفع ثمنها».

«اعذريني ياسيدتي، إني أطبّق النظام وحسب».

«لم أطلب ثلجاً، هل حسمت لي شيئاً؟».

«بالتأكيد، لا».

قال الرجل القصير: «لاتزعجي نفسك!».

قالت له جيجي: «لست منزعجة» ثم قالت للآخر الذي يواجهه: «اسمع. أعطه الثلج الذي ماكان ينبغي أن تجعلني أدفع ثمنه، مفهوم؟».

«آنسة، أيجب أن أستدعي المسؤول عن القطار؟».

«إذا لم تستدعه، فإني، سأفعل أنا ذلك، هذه سرقة في القطار. حسناً، القطارات هي التي تسرق الناس».

قال الرجل:«حسناً، المبلغ مجرد خمسة سنتات».

فقالت جيجي: «إنّها مسألة مبدأ».

«مبدأ بشأن خمسة سنتات، هذا ليس مبدأ. هذا الشخص بحاجة إلى السنتات الخمسة. هو حقاً بحاجةٍ إليها». وابتسم الرجل القصير.

قال مستخدم القطار: «لستُ بحاجة لشيء، إنه النظام».

قال الرجل، وقذف بخمسة سنتات في الصحن: «إليك اثنتين».

غادرا السناك بار معاً، جيجي غاضبة، بينما كان الرجل ذو القرط يبتسم. جلست بقربه، في الجانب الآخر من الممر، للتعليق على الحادثة، بينما كان يُهشم الثلج الذي اشتراه.

«أنا أدعى جيجي!» ومدّت يدها، «وأنت؟».

قال: «دايس»(*).

«تعني الحجر الصغير المدحرج؟».

«بل زوج منه».

لمسها بيد باردة، وأخذا يتبادلان رواية الحكايات مسافة أميال. حتى أنَّ جيجي شعرت في نهاية الأمر بما يكفي من الارتياح

(*) dice وتعني النرد في العربية.

لكي تسأله فيما إذا رأى أو سمع بوجود صخرة تشبه رجلاً وامرأة يتضاجعان. ضحك وقال كلا، ولكنه سمع بمكان توجد فيه بحيرة وسط حقل قمح. وأنّ شجرتين نبتتا بجانب البحيرة مُتَعانقتين. وأنه إذا اندسّ أحد، تماماً كما ينبغي، بينهما، يمكن أن يشعر بنشوة لايستطيع أي كائن بشري أن يخترعها أو يقلدها. «ويقال إنه بعد ذلك لن يستطيع أحد أن يُهملكِ».

«لاأحد يهملني الآن».

«لاأحد؟ أعني لا ـ أ ـ حد؟».

«وأين يقع هذا المكان؟».

«روبي. روبي في ولاية أوكلاهوما. تماماً وسط اللامكان».

«هل كنت هناك؟».

«ليس بعد. ولكني أخطط أن أفعل ذلك. يقال أن لديهم أفضل فطائر بالراوند، في البلاد كلها».

«أنا أكره الراوند».

«تكرهينها ؟ أيتها الفتاة أنت لم تحيي بعد، لم تحيي بعد على الإطلاق».

«إني عائدة إلى بيتنا. ذاهبة لأرى أهلي».

«أين البيت بالنسبة لك؟».

«في فريسكو. جميع أفراد عائلتنا يعيشون في فريسكو. لقد هاتفت جدي. إنهم ينتظرونني».

هزّ دايس رأسه ولكنه لم يقل شيئاً.

حَشَرَت جيجي غلاف الكاتو في فنجانها الورقي. وفكرت، إني لست تائهة، أبداً، لست تائهة. أستطيع الذهاب لزيارة جدّي أو العودة إلى «بي» «Bay» أو...

خفّف القطار من سرعته. نهض دايس ليتناول حقيبته من شبكة الأمتعة. كان قصيراً جداً لدرجة أنه وقف على رؤوس أصابعه، كي يستطيع الوصول إليها. ساعدته جيجي في ذلك ولم يبدُ عليه أنه انزعج.

«حسناً، سأنزل هنا. لقد سررت بالتحدث إليك».

«وأنا أيضاً».

«حظاً طيباً. انتبهي الآن. لاتتبللي».

لو أنّ الفتيان الذين يقفون أمام محل للشواء، قالوا لا، هذه ألكورن في ولاية المسيسبي لكانت دون شك قد صَدّقتهم: قصّات الشعر نفسها، النظرات نفسها، ابتسامات القرويين السائجة نفسها. ذلك ماكان جدّها يدعوه: «ريف الريف». كان هنالك أيضاً بعض الفتيات اللواتي، على مايبدو، كنّ يتجادلن مع واحدة منهن. وعلى أية حال، لم يقدّمن لها مساعدة تذكر. ولكنها استمتعت بموجات الإثارة الممضة التي كانت تصفع قفاها وهي تسير في الشارع.

غبار، ناعم كالطحين، دخل في عينيها وفي فمها في بداية الأمر. ثم شعّثت لها الريح شعرها. وفجأة وجدت نفسها خارج المدينة. ومايسميّه الناس هناك الشارع المركزي ينتهي بشكل مفاجئ، وجيجي كانت عند حدود روبي في الوقت نفسه الذي وصلت إلى مركزها. والريح التي لاتُحدث أي صوت تبدو قادمة من الأرض بدلاً من الأجواء. وفي إحدى اللحظات أخذ كعباها يطقطقان، ثم في اللحظة التالية أخمد الغبارُ المتطايرُ صوتهما. ومن الجانبين، كانت الحشائش تموج كالمياه.

قبل ذلك بخمس دقائق توقفت في مخزن يسمي نفسه صيدلية واشترت علبة سجائر وعلمت أنّ الفتيان الذين كانوا قرب محل الشواء قالوا الحقيقة: ليس هنالك موتيل. وإذا كان يوجد فطائر، فإنها لاتُقدَّم في مطعم، لأنه ليس هناك مطعم أيضاً فيما عدا المقاعد المعدّة للمتنزهين، بجانب مايسمى محل الشواء، لايوجد أي مكان عام للجلوس. وحولها من جميع الجهات أبواب مقفلة ونوافذ مغلقة بستائر مُزاحة ولكنها تستبدل بسرعة.

هذا كثير على روبي، فكرت، لابدّ أنّ ميكي هو الذي أرسل لها

قزم القطار، الكاذب. كانت تريد أن ترى، وحسب. ليس فقط ذلك الشيء الغريب في حقل القمح، ولكن فيما إذا كان يوجد شيء يستطيع العالم أن يدعيه له (في الصخر أو الشجر أو الماء) وليس حقائب شخصية أو أولاداً صغاراً يبصقون الدم في أيديهم لكي لايلوّثوا أحذيتهم. ثم هناك ألكورن. تستطيع أيضاً الذهاب إليها في ولاية المسيسبّي. عاجلاً أم آجلاً، إحدى الشاحنات المتوقفة أمام مخزن الأغذية والبذار ستستأنف السفر، وعند ذلك ستغادر الجحيم خارجة من هناك.

فكرت جيجي التي تمسك بشعرها وتتلفّت بوجه الريح، بالعودة إلى مخزن الأغذية، كانت الحقيبة التي تحملها على ظهرها تُثقِل كعبي حذائها العاليين، وإذا لم تتحرك فإن الرياح يمكن أن توقعها. وكما هبّت تلك الرياح بشكل مفاجئ فقد هدأت بالطريقة نفسها. وعبر الصمت الذي خيّم عندئذٍ، سمعت هدير محرك يقترب نحوها.

«أتذهبين إلى الدير؟» فتح رجل يضع على رأسه قبعة عريضة الجوانب باب شاحنته.

ألقت جيجي حقيبتها على المقعد وصعدت إلى الشاحنة. «إلى الدير؟ أتمزح؟ كل شيء إلّا هذا. يمكنك أن تنزلني قرب موقف حقيقي للباصات، أو محطة قطار، شيء من قبيل ذلك».

«لقد حالفك الحظ. سوف أصطحبك مباشرة إلى الطريق».

«عظيم!» أخذت جيجي تفتش في حقيبتها التي وضعتها بين ركبتيها: «تبدو جديدة».

«إنها جديدة. أنتما أول المسافرات في سيارتي».

«المسافرات؟».

«يجب أن أتوقّف. هناك مسافرة أخرى ستستقل القطار». ابتسم. «اسمي روجر. روجربيست».

«جيجي».

«أنتِ بالمجان. أمّا الأخرى فسأجعلها تدفع». قال ذلك وقد

حوّل نظره عن الطريق. تظاهر بأنه يتأمّل المنظر الطبيعي عبر النافذة التي بجانب الراكب، ونظر أولاً إلى سرّة جيجي ثم إلى الأسفل، ثم إلى الأعلى.

أخرجت جيجي مرآةً، وأصلحت، بقدر ماستطاعت الضرر الذي ألحقته الرياح بشعرها، وفكرت: نعم، أنا حرة، حسناً.

وكان هذا صحيحاً، تماماً كما قال روجربيست، الرحلة لاتكلّف المسافرة الحيّة شيئاً، ولكنها تكلّف الميتة خمسة وعشرين دولاراً.

كانت المرأة الجالسة على درجات الشرفة ترفع نظارتها الشمسية من وقت لآخر لكي تمسح عينيها. وجديلة تبرز من تحت قبعتها متدلية على ظهرها. ركع روجر على ركبتيه وتحدّث إليها بعض الوقت الذي بدا لجيجي طويلاً، ثم دخل الاثنان إلى المنزل. وعندما خرج روجر كان يُغلق محفظته وقد قطّب حاجبيه.

«ليس هنالك من يساعدني. فمن الأفضل أن تنتظري في الداخل، لأن إنزال الجثمان سيأخذ بعض الوقت».

التفتت جيجي كي تنظر إلى الخلف ولكنها لم تر شيئاً من خلال الحاجز.

«يايسوع!! اللعنة! إنها سيارة دفن الموتى؟».

«أحياناً وأحياناً أُخرى سيارة إسعاف. اليوم هي سيارة لدفن الموتى». كان منهمكاً في عمله تماماً. لم يعد ينظر خلسةً إلى نهديها. «يجب أن أحمّلها على القطار MKT الساعة الثامنة وعشرين دقيقة. وينبغي أن أصل إلى هناك ليس في الوقت المناسب تقريباً، بل في الموعد المحدد بالضبط».

نزلت جيجي بسرعة ورعونة من السيارة التي أصبحت عربةً لدفن الموتى، ولكنها قامت بجولة حول المنزل، صعدت الدرجات الخشبية العريضة ودخلت من الباب الرئيسي خلال بضعة ثوانٍ. لقد قال «دير»، ولذلك أخذت تتصور نساءً وديعات ولكنّهن متشدّدات، يمشين عائمات بقبعات كالقوارب الشراعية، فوق أكمام طويلة

سوداء. ولكن لم يكن هناك أحد والمرأة ذات قبعة القش قد اختفت. اجتازت جيجي مدخلاً رُصفت أرضه بالرخام وعبرت مدخلاً آخر أكبر مرتين من الأول. وعبر الغبش تبينت ممراً يتجه بعيداً إلى اليمين وإلى اليسار. أمامها يوجد درج أكثر عرضاً كذلك. وقبل أن تقرّر أيّ اتجاهٍ تسلك كان روجر قد أصبح خلفها وهو يدفع شيئاً معدنياً مزوّداً بدواليب. اقترب من الدرج وهو يغمغم متذمراً: «أليس هناك أية مساعدة أبداً». اتّجهت جيجي إلى اليمين وأسرعت نحو ضوءٍ يتسرّب من تحت بابين صفّاقين. في الجانب الآخر كانت توجد أطول طاولة في أكبر مطبخ رأتهما طيلة حياتها. جلست هناك وأخذت تمضغ ظفر إبهامها متسائلةً فيما إذا كان السفر مع أحد الأموات أمراً سيئاً. كان لديها بعض الأعشاب في حقيبتها، ليس كثيراً، كما فكرت، ولكنها تكفي لمنعها من الاسترسال في الأوهام. مدّت يدها وكسرت قطعة صغيرة من قشرة فطيرة موضوعة أمامها ولاحظت، للمرة الأولى، أنّ المكان طافح بالمأكولات التي لم تُمسّ: عدة أقراص كاتو، فطائر أخرى، سلطة بطاطا، لحم الخنزير، طبق فاصولياء كبير. فكرت، من المؤكّد أنهنّ راهبات صالحات. أو ربما كان كل هذا من أجل الجنازة. وفجأة، كأنها أحد أقرباء المتوفى الأصليين، استولى عليها جوع شديد.

كانت جيجي تلتهم الطعام وتكوم المزيد منه في صحنها وهي تغرف منه، عندما دخلت المرأة دون قبعتها القش ونظارتها واستلقت على البلاط البارد.

كان فم جيجي ممتلئاً بالفاصولياء والكاتو بالشوكولا، فلم تستطع الكلام. سُمع عند ذلك صوت زمور سيارة روجر. وضعت جيجي ملعقتها ولكنها لم تترك قطعة الكاتو، عندما اقتربت من المرأة المستلقية على الأرض. جلست القرفصاء، مسحت فمها، انحنت على المرأة وقالت لها: «هل أستطيع أن أساعدك؟». كانت عينا المرأة مغمضتين، ولكنّها أشارت برأسها أن لا.

«هل يوجد هنا من أستطيع استدعاءه؟».

فتحت المرأة عينيها ولم ترَ جيجي شيئاً ـ سوى دائرة شاحبة حيث كانت توجد حافة القزحية.

كان روجر يصيح «هاي! أيتها الفتاة. أتأتين؟» بصوت ضعيف وبعيد، يكاد لايُسمع بسبب هدير محرك سيارته. «لاأستطيع أن أتأخر عن موعد القطار! يجب أن أكون في المحطة في الساعة المحدّدة بالضبط!».

انحنت جيجي أكثر قليلاً وهي تحدق في العينين دون أن يكون لديها ما تنصحها به.

«لقد سألتك فيما إذا كان هنا شخص آخر.»

«أنتِ. أنتِ هنا». هذا ماتمتمت به، وكانت كلماتها تتجه نحو جيجي على موجة من الأنفاس المشبعة برائحة الكحول.

أنذرها روجر: «أتسمعينني؟ لاأستطيع الانتظار طيلة النهار!».

هزّت جيجي يدها أمام وجه المرأة لكي تتأكد من أنها كانت عمياء بقدر ماكانت سكرى.

قالت المرأة متمتمة بشكل ينم عن الانزعاج: «توقّفي، كفّي عن هذا!».

قالت جيجي: «أوه، كنت أعتقد. لماذا لم تنتظري حتى أعطيك كرسياً؟».

«أنا ذاهب، أتسمعين؟ أنا ذاهب!» سمعت جيجي هدير المحرك، والسائق أخذ يسير بسيارته إلى الخلف.

«ستفوتني فرصة الركوب بالسيارة. ماذا تريدين أن أفعل؟».

استدارت المرأة على جنبها ودسّت يديها تحت خدها: «كوني لطيفة احرسي البيت فقط. إني لم أغمض عينيّ منذ سبعة عشر يوماً».

«أليس السرير أفضل لك؟».

«كوني لطيفة. كوني لطيفة. لاأريد أن أنام عندما لايكون هنا أحد لمراقبة البيت وحراسته».

«على الأرض؟».

ولكنها استغرقت في النوم، وأخذت أنفاسها تتردد كطفلة.

نهضت جيجي وأدارت نظرها في المطبخ وهي تبتلع ببطء مابقي من قطعة الكاتو. على الأقل لم يعد يوجد ميت هنا. أخذ صوت السيارة التي تنقل الميتة يخفّ تدريجياً، ثم اختفى.

الخوف، وليس الفوز، كان ينضح لدى كل خطوةٍ في مسكن المختلس الذي كان يتقوّس على شاكلة خرطوشة حية ليبلغ نقطةً مميتةً في أقصى الطرف الشمالي، حيث كان يوجد، في الأصل، غرفة الجلوس والطعام. فلابدّ أنه كان يعتقد أنّ مضطهديه يمكن أن يأتوا من جهة الشمال لأن جميع نوافذ الطابق الأرضي بدت مجمّعة في هاتين الغرفتين كمراكز مراقبة. والطرف الجنوبي كان يحتوي بعض الدلائل على رغباته متمثلة في غرفتين: مطبخ كبير الاتساع، وغرفة يستطيع أن يمارس فيها ألعاب الأغنياء. وأية غرفة من هذه الغرف لاتطلّ على الخارج، لكن كان في المطبخ أحد مدخلَي المنزل. وهناك شرفة تدور من طرف القاعة شمالاً، تستمر متابعة الجدار، وتمرّ أمام المدخل الرئيسي وتنتهي عند آخر الخرطوشة ـ جنوباً ـ. في البيت لايمكن أن تُرى الشمس وهي تشرق سوى من الغرف، ولايمكن أن تُرى وهي تغرب من أيّ مكان. ولذلك يظل الضوء على الدوام غير مستقر ومضلل.

لابدّ أنه كان يتوقع أو يحدوه الأمل بأن يحظى بأصدقاء مرحين في معقله هذا: ثماني غرف، حمامان فسيحان، مستودعات في قبو أرضي يشغل مساحة تعادل مايشغله الطابق الأول. وكان مهتماً بأن يعامل مدعويه معاملة رائعة لكي لايفكروا بالانصراف لأيام لانهاية لها. وجهوده لتسليتهم لم تكن أكثر تعقيداً ولاأكثر أهمية منه ـ وهي تتألف أساساً من المأكولات والجنس والألعاب. وبعد عامين ونصف العام من أعمال البناء التي تمّت بصورة شبه سرّية، أقام حفلة شهوانية قبل أن يُلقي القبض عليه، تماماً كما كان يخشى، رجالُ القانون القادمون من الشمال، الذين كان أحدهم قد حضر حفلته الأولى والوحيدة.

أما الراهبات المعلّمات الأربع اللواتي انتقلن إلى المنزل بعد أن

عُرض للبيع بثمن زهيد، فقد بذلن جهوداً كبيرة لإخفاء الآثار الواضحة لملذاته ولكنّهنّ عجزن عن إخفاء رعبه. «خلفية» البيت المغلقة والمحمية، و«رأسه» المتوازن واليقظ. مدخل لاتحرسه الآن سوى مخالبُ تمثال وحشي أزالتهُ الراهبات على الفور. باب مطبخ غير مثبّت جيداً ويُشكل نقطة الضعف الوحيدة.

جيجي التي اقتصدت غاية الاقتصاد بالكمية المحدودة التي بقيت معها، أخذت تتجوّل في المنزل بينما المرأة السكرانة نائمة على أرض المطبخ، وتبينّ لها على الفور أنّ غرفة الطعام قد تحولت إلى غرفة درس، وغرفة الجلوس إلى مصلّى، وغرفة الألعاب إلى مكتب. كان هناك عصي وكرات لعبة البلياردو، لكن لايوجد طاولة. ثم اكتشفت أثار الصناعة الفاشلة للراهبات: حاملات الشموع وهي على شكل جذوع نساء في الثريات المعلقة في السقف. خصلات الشعر، الملتفة عبر أوراق الكرمة، التي داعبت فيما مضى وجوهاً أزيلت. تماثيل صغيرة لملائكة تبرز من طبقات الطلاء حول الموقد. قبضات أبواب على شكل حُلمات نهود. أشخاص لاهون شبه عراة إلاّ من بعض ملابس قديمة الطراز، يشربون ويداعب أحدهم الآخر في لوحات مطبوعة صُفّت في خزائن. تمثال أو تمثالان لـ ڤينوس بين تماثيل عارية أخرى تحت درج القبو. بل لقد وجدت أيضاً بعض الأعضاء التناسلية الذكورية المصنوعة من النحاس والتي انتُزعت عن المغاسل وحوض الحمام، وقد كُدّست في صندوق مملوءٍ بالنشارة، كما لو أن الراهبات، وإن استبعدنها من مجال عملها في ضبط وتصريف المياه، عرفن قيمة المعدنِ الذي صُنعت منه. لعبت جيجي بتلك الأدوات وبرمت الخصيتين المعدّتين لإسالة المياه من القضيب. وامتصت سيجارة الحشيش حتى آخرها - مينغ ون - أطفأت عقبها في أحد المهابلِ المصنوعة من المرمر، والكائنة في غرفة الألعاب. وتخيلت رجالاً ينفضون فيها سجائرهم برضى. أو ربّما كانوا يضعونها هناك وحسب، وهم يعرفون دون الحاجة للنظر إليها أنّ طرفها المحمّر يشكّل ببطء رأساً ظريفاً من الرماد.

تحاشت الدخول إلى الغرف لأنها لم تكن تعرف أيّها تخصّ

الشخص الميت، ولكنها عندما أرادت استعمال أحد الحمّامات، لاحظت أنّ مايجري من حركات وأعمال على المغاسل ينعكس في مرآة تعكسه مرآة أخرى. وأكثرها وهي مثبتة جيداً في بلاط الجدران غطيت بالطلاء. وعندما انحنت لتتفحّص الحوريات اللواتي يحملن حوض الحمّام، لاحظت وجود مقبض معلّق بلوحة من الخشب يحيط بها بلاط الأرض. استطاعت الإمساك بالمقبض ورفعه، ولكنها عجزت عن تحريكه.

فجأة شعرت من جديد بجوع شديد، فرجعت إلى المطبخ لكي تأكل وتعمل ما طلبته منها المرأة: أن تكون لطيفة وتحرس البيت أثناء نومها ـ كما جاء في الرواية القديمة عن تلك المتنزّهة التي خافت من النزول بمفردها. فقد أنهت المعكرونة، وتناولت قليلاً من لحم الخنزير وقطعة أخرى من الكاتو عندما تحركت المرأة المستلقية على الأرض وجلست. ظلّت لبعض الوقت واضعة وجهها بين يديها، ثم فركت عينيها.

سألتها جيجي: «ألست أحسن حالاً؟».

أخرجت نظّارة شمسية من جيب مريلتها ووضعتها على أنفها: «لا. ولكني ارتحت قليلاً».

«حسناً، هذا أفضل».

نهضت المرأة: «أظن ذلك. شكراً... لبقائك».

«بالتأكيد، إن آثار السكر عاهرة. اسمي جيجي. من هو الميت؟».

قالت المرأة: «إحدى أحبّتي. لقد رزقت باثنتين، كانت هذه هي الأولى والأخيرة».

فقالت جيجي: «أوه، إني آسفة، إلى أين يأخذها سائق سيارة دفن الموتى؟».

«بعيداً، إلى بحيرة تحمل اسمها. هكذا أرادت شيئاً مميّزاً».

«هل يعيش أحد غيرك هنا؟ إنك لم تُحضّري وحدك كل هذه المأكولات، أليس كذلك؟».

ملأت المرأة القِدر ماء وهزّت رأسها.

«ماذا ستفعلين الآن؟».

«جيجي جيجي جيجي جيجي جيجي جيجي. هكذا تغنّي الضفادع. ماذا سمّتك أمك؟».

«هي؟ لقد أعطتني اسمها».

«وماهو؟».

«غريس»(*).

«غريس. وما الاسم الذي يمكن أن يكون أفضل منه؟».

لاشيء. لاشيء على الإطلاق. وإذا حدث ذات صباح واستدارت النعمة والحظ الطيب البسيط وابتعدا لكي يهربا، ربما كانت النعمة وحدها تكفي. ولكن من أين يمكن أن تأتي؟ وبأية سرعة؟ وهل تستطيع النعمة أن تندسّ في ذلك الحيز المقدّس بين رؤية الأمر ومتابعته؟

كانت المرأة الواهبة التي تقدّم نهديها ككرتين من البوظة على طبق من بلّور هي التي انتزعت كل البريق من عيني الشاب. جيجي راقبته وهو يقاوم تحديقه بها، ويخسر في كل مرة. قال إنه يدعى «K.D.» وحاول أن يستمتع بوجهها وبالشق بين نهديها وهو يتكلم. كانت هذه عبارة عن معركة توقعتها، تصدت لها بكل سرور ـ بصورة طبيعية. لكنّ الصورة التي استيقظت أمامها، قبل ذلك بساعة، أفسدت كل شيء.

رفضت جيجي أن تنام في الطابق الذي مات فيه للتو أحد الناس، واختارت الأريكة المكسوّة بالجلد في الغرفة التي كانت سابقاً للألعاب، والتي أصبحت مكتباً، وهي بدون نوافذ، وتعتمد على الكهرباء، التي لم تعد متوافرة للإنارة في المنزل، وهذا

(*) كلمة (GRACE) لها عدة معاني بالعربية، المنّة والجمال والرشاقة واللطف والكياسة والنعمة الإلهية ... والمقصود بها هنا «النعمة الإلهية».

ماساعدها على أن تنام نوماً عميقاً لزمن طويل. وقد فاتها الاستيقاظ في الصباح، فاستيقظت بعد الظهر في عتمة تشبه تقريباً العتمة التي كانت سائدةً عندما نامت. كانت هُناك الصورة المحفورة، التي لم تكد تنظر إليها عندما تجوّلت في البيت بالأمس، معلقةً على الجدار أمامها. أما الآن فهي تتبيّنها عبر الضوء الضعيف الذي يأتي من المدخل: امرأة جاثية على ركبتيها وقد خفضت بصرها، متضرعةً، وبسطت ذراعيها رافعة هديتها على طبق إلى مولاها. اقتربت جيجي على أطراف أصابع قدميها وانحنت لترى من هي تلك المرأة ذات الوجه الذي يعبّر عن الاستسلام. كانت عبارة «القديسة كاترين السيناوية» منقوشة على لوحة صغيرة في الإطار الذهبي. ضحكت جيجي ـ أعضاء تناسلية من النحاس خُبّئت في صندوق، حلمات نهود من الحلوى عُرضت على طبق ـ ولكن، في الواقع، لم يكن ذلك طريفاً. ولذلك عندما قام الفتى الذي رأته في اليوم السابق في المدينة، بإيقاف سيارته قرب باب المطبخ وأخذ يزمّر، تحول الاهتمام الذي كانت توليه إياه إلى انزعاج. راحت تأكل فطيرة مربى، مستندة في المدخل وهي تصغي إليه وتراقب المعركة التي كانت محتدمة في عينيه.

كان له ابتسامة عذبة وصوت فاتن: «لقد بحثت عنكِ في كل مكان. قيل لي بأنك هنا، فظننت أنكِ ربما لم تغادري هذا المكان بعد».

«من قال لك هذا؟».

«أحد الأصدقاء. حسناً صديق صديقي».

«أتقصد أنه سائق سيارة دفن الموتى؟».

«اهاهه! لقد قال بأنك غيّرتِ رأيكِ، وأنك لم تعودي تريدين الذهاب إلى محطة القطار».

«الأخبار تنتشر بسرعة هنا، هذا مؤكد، حتى وإن كانت هي الشيء الوحيد الذي يسير بسرعة».

«نتدبر أمورنا. هل تريدين القيام بجولة؟ سأقود بالسرعة التي تريدينها».

لحست جيجي المربى عن إبهامها وسبابتها. التفتت إلى اليسار نحو الحديقة واعتقدت أنها رأت في البعد بريق آنية معدنية أو ربما مرآة تعكس ضوء الشمس، كما ينعكس على النظارات خاصة الشرطة الخيّالة.

أخيراً قالت له: «دقيقة واحدة لأغيّر ملابسي».

في غرفة الألعاب، لبست تنورة صفراء وقميصاً أحمر، غامق اللون. ثم استشارت طالعها قبل أن تحشر حوائجها (وبعض الهدايا التذكارية) في حقيبة ظهرها، وألقتها على مقعد السيارة الخلفي.

قال «K.D.»: «هاي. سنقوم بجولة صغيرة فقط».

أجابت: «نعم، ولكن من يدري؟ ربما غيّرت رأيي مرة أخرى».

سارا عدة أميال تحت سماء صافية زرقاء. لم تكن جيجي في الحقيقة قد تأمّلت المناظر الطبيعية من نوافذ القطار أو الباص. بالنسبة لها لم يكن يوجد شيء في الخارج. ولكنّ الانطلاق في سيارة الأمبالا كان أشبه بالسفر في طائرة DC 10 واللاشيء بدا أنه السماء ـ سماء، يستحيل تجاهلها، ديكور مصنوع بدقة. ليست فراغاً كذلك، بل مليئة بالنفحات. والعين إنّما خُلقت لتنظر إليها.

وجّه لها ابتسامته العذبة: «إنّها أقصر تنورة رأيتها في حياتي».

قالت جيجي: «هذه ميني، في العالم الحقيقي يسمونها ميني ـ سكيرت».

«ألا يسبب ذلك تحديق الناس إليك؟».

«يحدقون إليّ. ويسيرون العديد من الأميال، يتعرضون لحوادث الطرق. ويتفوّهون بالسخافات».

«لابد أنك تحبينها. وأعتقد أنها صُمّمت من أجل هذا».

«حدثني عن ملابسك، وسأحدثك عن ملابسي، من أين حصلت على هذا البنطال، مثلاً؟».

«ما الخطأ فيه؟».

«لاشيء. اسمع، إذا كنت تريد أن تجادل هيا أرجعني».

«لا، لا، لاأريد الجدال، أريد فقط... متابعة السير».

«حسناً؟ وبأية سرعة؟».

«قلت لكِ: بأسرع ما أستطيع.».

«ولكم من الوقت؟»

«بقدر ماتريدين».

«إلى أين؟».

«كل الطريق».

قال ميكي: زوجا الصحراء كبيران. وقال: من أية زاوية ننظر إليهما، نراهما يملآن السماء، ويتحركان، يتحركان. فكّرت جيجي: كذاب، ميكي كذاب! ليس هذه السماء، هذه السماء أكبر من كل شيء، بما فيه امرأة ونهداها على طبق.

عندما دخلت ماڤيس الممشى الكائن قرب باب المطبخ ضغطت بقوة كبيرة على المكابح لدرجة أنّ حوائجها انزلقت عن المقعد وسقطت تحت تابلوه السيارة. القامة الجالسة على الكرسي الأحمر في الحديقة كانت عارية تماماً. لم تكن ترى الوجه الذي تحجبه جوانب القبعة، ولكنها عرفت بأنها لاتضع نظارة شمسية. لم تكن قد غادرت هذا المنزل إلّا منذ شهر، وطيلة ثلاثة أسابيع لم تنقطع عن التفكير بالعودة إليه. فكرت أنه لابدّ قد حدث أمرٌ ما، للأم، لـ كوني. ورغم صرير مكابح السيارة، فإنّ الجالسة في الشمس لم تتحرك، ولكن عندما صفقت باب الكاديلاك وقفت ورفعت قبعتها. أسرعت ماڤيس نحو مدخل الحديقة وهي تصرخ: «كوني! كوني؟ بحق الجحيم من أنت؟ أين كوني؟».

تثاءبت الفتاة العارية، حكّت شعر عانتها وسألت: «ماڤيس؟».

ارتاحت عندما تبينّ لها أنّ الفتاة قد عرفتها، وأنّ هناك من

تحدّث عنها على الأقل، فخفضت صوتها: «ماذا تفعلين في الخارج بهذا الشكل؟ أين كوني؟».

«بهذا الشكل؟ إنها في الداخل».

«أنت عارية!».

«أجل. وماذا في ذلك؟ أتريدين السيجار؟».

ألقت ماڤيس نظرة نحو البيت وقالت:

«هل عَرِفْنَ؟» وألقت ماڤيس نظرة باتجاه المنزل.

قالت جيجي: «سيدتي، أتنظرين إلي شيء لم يسبق لك أن رأيته؟ أم شيء لم تملكيه؟ أم أن عندك هوساً بالملابس أم ماذا؟».

«ها أنت». كانت كوني تنزل على الدرج باسطة ذراعيها نحو ماڤيس: «لقد اشتقت إليك!» تعانقتا، واستسلمت ماڤيس لخفقات قلب هذه المرأة وهي تتجاوب مع خفقات قلبها.

«من هذه يا كوني وأين ثيابها؟».

«أوه، إنها الصغيرة غريس. لقد وصلت في اليوم التالي لوفاة الأم».

«توفيت؟ متى؟».

«منذ سبعة أيام. سبعة».

«ولكني جلبت الأغراض. كلها معي في السيارة».

«لاجدوى من ذلك. بالنسبة لها على أية حال. كان قلبي محطّماً تماماً ولكن، الآن وقد عدتِ، فإني أشعر بالرغبة بالطهو».

«ألم تأكلي شيئاً؟». ألقت ماڤيس نظرة باردة على جيجي.

«القليل من الطعام الذي حُضّر للمشاركين بالجنازة. ولكني الآن سأحضّر شيئاً طازجاً».

قالت جيجي: «يوجد الكثير من الطعام، مأكولات لم يمسّها أحد...».

«اذهبي وارتدي ملابسك!».

«قبّلي مؤخرتي!».

قالت كوني: «افعلي ذلك يا غريس، هيا افعلي ذلك كفتاة طيبة. غطي نفسك، ونحن نحبّك على أية حال».

«هل سبق لها أن سمعت بحمّام الشمس؟».

«أكملي عملك الآن».

ذهبت غريس وهي تبالغ في أرجحة ردفيها وقد وجّهتهما نحو ماڤيس التي تساءلت عند ذلك:

«من تحت أي صخرة خرجت؟».

قالت كونيّ: «صه، إنها ستروق لك بسرعة».

فكرت ماڤيس: بالتأكيد، لا، كلا إنها لن تعجبني مطلقاً. لقد رحلت الأم، ولكنّ كوني بخير. وقد أمضيتُ زهاء ثلاث سنوات هنا، وهذا المنزل هو حيث نحن. نحن وليس هي.

فعلنا كل شيء سوى تبادل الصفعات، ولكن في النهاية فعلنا ذلك. والأمر الذي أخّر حدوث الشيء المحتوم كان أشكالاً يائسة من الحب وفتاةً صغيرة السنّ ترتدي ملابس ضيقة جداً، قرعت الباب المنخلي وقالت:

«يجب أن تساعدوني، يجب ذلك. لقد اغتُصبت في شهر آب تقريباً».

كان جزء من هذا صحيحاً فقط.

سينيكا

كان شيءٌ ما يحتكّ بزجاج النافذة ثانيةً. استلقت دوقي على بطنها رافضةً النظر عبر النافذة في كل مرة تسمع فيها ذلك الاحتكاك. لم يكن هناك. فهو لايأتي أبداً في الليل. وعن عمدٍ أخذت تفكر بالشؤون اليومية: ماذا ستحضّر لعشاء الغد؟

ليس أمراً مهما زراعة البازلاء في الحديقة. يمكن أن نجدها محفوظةً في العلب ونأكلها. ليس لدى ستيوارد حليمة تذوق في فمه تجعله يشعر بالفرق. فمضغة «البلوبوي» التي تظل طيلة الوقت محصورة داخل خده، منذ عشرين سنة قلّصت في البداية حاسة ذوقه إلى حاجة للبهارات، ثم إلى مطلب وحيد يقتصر على الفليفلة الحارّة.

عندما تزوّجا، كانت دوقي واثقةً بأنها مهما أجادت الطبخ فإنها لن تُرضي أحد التوأمين، المعروف بأنه أكثر حساسية من أخيه التوأم الآخر ديك وعند عودتهما من الحرب كان الرجلان يشعران بجوع للطبخ المنزلي، ولكنهما وقد ظلّا يحلمان به طيلة ثلاث سنوات، فإن ذلك عَظّم توقعاتهما، وغالى في مقدرة شحم الخنزير في صنع بسكويت أخف من الثلج، ومسؤولية الجبن الحاد في دقيق الذرة الصفراء. عندما سُرّحا وعادا، أخذ ديك يدندن مسروراً وهو يمتصّ نخاع عظام فراخ الدجاج أو وهو يسحقها. ولكن ستيوارد يتذكّر الأمور بصورة مختلفة. ألم يكن ينبغي أن يُشكّ

كبش القرنفل في اللحم بدلاً من أن يوضع على لحم الخنزير؟ والفروج المقلي ـ مع بصل ڤوداليا أم بصل إسباني؟

وقفت دوڤي يوم زفافها مقابل الورق الذي يغطي الجدران، وقد أدارت ظهرها للنافذة لكي تستطيع أختها سوان أن ترى بشكل أفضل. رفعت دوڤي طرف شلحتها بينما سوان تحدد موضع الدرزات. كانت الفرشاة الصغيرة تدغدغ مؤخرة ساقيها. لكنها ظلت ثابتة تماماً لاتتحرك. لم يكن هناك جوارب حريرية في هاڤن ولافي العالم عام 1949 ولكن أن تُزفّ إلى زوجها وساقاها عاريتان بشكل واضح، فذلك أمر يُغضب الله ويسيء إلى حفل الزفاف.

قالت دوڤي لأختها: «لاأتوقع أن يكون مسروراً على المائدة».

«لم لا؟».

«لاأدري. إنه يمتدح مجاملةً طبخي، ثم يشرح لي كيف يمكنني تحسينه في المرة القادمة».

«ابقِ كما أنت يادوڤي».

«ألا يفعل ذلك ديك معك أيضاً؟».

«ليس هذا. إنّه حسّاس بطريقة أخرى. ولكني مكانك لاأقلق بسبب هذا الأمر. لأنه إذا كان راضياً في السرير فلن يكون لمسألة المائدة شأن كبير».

أخذتا تضحكان، وكان على سوان أن تعيد تحديد الدرزات من جديد.

الصعوبة التي كان يبدو أنها قد ظهرت عام 1949، تم التغلّب عليها بوساطة التبغ المعدّ للمضغ. ولاأهمية أن تكون البازلاء طازجة من الحديقة أو من العلب. لأن فليفلة الدير الحارّة كنار الجحيم تطهو لها طعامها. فزراعة البازلاء تظل جهداً ضائعاً. ملعقة صغيرة من السكر وقطعة زبدة بحجم الجوزة على محتويات علبة بازلاء، يفيان بالغرض تماماً لأنّ مذاق مسحوق الفليفلة السوداء الأرجوانية القوي، الذي يُرشّ فوق البازلاء يطغى على أي مذاق أقل قوةً مثلما طغى على طعم القرع، في المرة الأخيرة، مثلاً.

في الليل، عندما تفكّر دوڤي مورغان بزوجها، كانت معظم الوقت تفكّر بما خسره. لم يكن حسّه بالتذوق سوى مثال من بين أمثلة أخرى. وعلى عكس تقييمه (وتقييمات روبي) كلما اكتسب ستيوارد المزيد، أصبحت خسائره المنظورة أكثر. فقد ترافق بيع قطيعه، عندما كان الدولار في أوج قيمته عام 1958 ، مع هزيمته في انتخابات الولاية على منصب أمين سر الكنيسة، بسبب احتقاره الذي لم يكن يكتمه للطلاب الذين كانوا يترددون على مخزن الأدوية في مدينة أوكلاهوما. حتى أنه كتب أيضاً رسالة حاقدة إلى النساء المسؤولات عن الفتيان. وموقفه هذا لم يدهش دوڤي، لأنه قبل ذلك بعشر سنوات، وصف «ثُرجوود مارشال»(*) بـ «الزنجي المحرض» لأنه كان قد ارتدى بزّة التمييز العنصري الخاصة بجمعية (NAACP)(**) في نورمان. وفي عام 1962، ملأ الغاز الطبيعي الذي اكتُشف على عمق عشرة آلاف قدم في مزرعته، جيوبه، ولكنه جعل مزرعته بحجم دمية وخسر الأشجار التي كانت تضفي عليها جمالاً يخلب الأنظار. وقد اختفى مع الزمن «فَرْق» شعره، وحليمات التذوق عن لسانه. خسارات صغيرة توّجتها الخسارة الكبرى: عام 1964 ، وقد بلغ الأربعين من العمر، تحققت لعنة فيري: فقد علم الأخوان أنّ أيّاً منهما لايمكن أن يُنجب.

واليوم بعد ما يقرب من عشر سنوات صار «طفراناً»، كما كان يقول، بصفقة عقارية بمدينة موسكوغي، ولم يعد على دوڤي أن تتساءل ماذا سيخسر الآن، لأنه سبق له أن خسر المعركة مع المحترم ميسِنر بشأن النصّ المكتوب على فتحة الفرن. كانت دوڤي تظنّ أن تلك المعركة تغتذي جزئياً من مصدر لايتحدث عنه أحد. الشبان الحائرين اليائسين، أو الذين يقومون بأي عمل. آرنيت التي عادت من الجامعة ولاتريد مغادرة السرير. مينوس ابن هاربر جوري الذي يسكر في نهاية كل أسبوع بعد عودته من ڤييتنام. بيلي

(*) «ثرجوود مارشال» (1908 ـ 1993): أحد رجال القانون، عضو المحكمة العليا من سنة 1967 إلى سنة 1991 .

(**) (NAACP): الجمعية الوطنية العاملة من أجل تقدم الملوّنين.

ديليا حفيدة روجر وقد اختفت دون أن تترك أثراً. سويتي زوجة جِف التي تضحك وتضحك على نكات لم يتفوّه بها أحد. وقصة «K.D.» المؤسفة مع تلك الفتاة التي تقيم في الدير. كل هذا بالإضافة إلى وقاحة وشكوك وغمغمات أناس آخرين، أولئك الذين يريدون تسمية الفرن: «مكان كذا وكذا» والذين قرروا أن الكلمات الأصلية المكتوبة عليه تقول مايُغضِب ستيوارد وديك. وقد تحدثت دوڤي عنها إلى أختها (وهي زوجة أخي زوجها أيضاً)، إلى مابل فليتوود، إلى آنّا فلود وإلى امرأتين من أعضاء النادي. كانت الآراء متنوعة، مشوشة، بل وغير متجانسة، لأن هذا الموضوع كان مثيراً بالنسبة للجميع، وأيضاً لأنّ بعض الشبان، وهم يسخرون من ذكرى إصبع الآنسة إستير كانوا يشتمون كل الأجيال التي سبقتهم. فهم لم يقترحوا بلطف أنّ الآنسة إستير ربما تكون قد أخطأت، وسخروا من فكرة تذكر كلمات غير مرئية لا تستطيع حتى أن تقرأها من خلال رسم الأحرف التي لاتستطيع لفظها.

سأل الأبناء: «هل رأتها؟».

صاح الآباء: «أكثر من ذلك! لقد شعرت بها، لمستها ووضعت إصبعها عليها».

«لو كانت عمياء ياسيدي لأمكن تصديقها، واعتبار الأمر شبيهاً بالقراءة على طريقة برايل. ولكنّ طفلة في الخامسة من عمرها لن تستطيع حتى أن تقرأ ماكُتب على شاهدتها لو خرجت من قبرها ووقفت قبالتها؟».

قطّب التوأمان حاجبيهما. فليت وقد تذكّر طيبة القلب التي اشتهرت بها حماته قفز عن مقعده، وكان لابدّ من الإمساك به.

في بداية الأمر ابتسم الطرائقيون المتشددون(*) لهذا الانشقاق الذي حصل بين المعمدانيين وضحك البنديكتيون(**) ملء أفواههم.

(*) «الطرائقييون المتشددون» الميثوديون: أتباع نظرية كنسية، وهي حركة إصلاحية تهدف لإحياء كنيسة إنكلترا.

(**) البنديكتيون: طائفة من الطوائف المسيحية ينسب اسمها لعيد العنصرة.

ولكنّ هذا لم يدم. فقد بدأ بعض الشبان التابعين لكنائسهم بالذات، بإبداء آرائهم بالكلمات التي كُتبت على الفرن. ففي كل طائفة كان هناك أناس ينتمون إلى الخمس عشرة عائلة التي غادرت هاڤن لكي تبدأ العمل من جديد، أو أناس منحدرون من تلك العائلات: الفرن لايخصّ أية طائفة بعينها، إنه يخصها جميعها، ولذلك طُلب من الجميع أن يحضروا إلى كنيسة كالڤاري لمناقشة هذا الموضوع، كما قال المحترم ميسنِر. كان الجو بارداً والحدائق تعبق بالروائح العطرية، وعندما اجتمع الناس عند الساعة السابعة والنصف، في جو لطيف، لم يكن يدفعهم إلى ذلك سوى الفضول. وقد ظلّ الموقف على هذه الحال خلال الملاحظات الأوّلية التي أبداها ميسنِر. ربّما كان الشبان قلقين، لكنّهم عندما بدؤوا الكلام وكان أول من تكلم رويال وديستري ابنا لوثر بوشامب، بدت أصواتهم حادة جداً. لدرجة أن النساء انزعجن من ذلك وخفضن بصرهن نحو كتب الجيب خاصتهن، كما أنّ الرجال استنكروا هذا الأمر لدرجة أنهم أبقوا عيونهم مفتوحة دون أن يرف لهم جفن.

كل شيء كان يمكن أن يتم بصورة أفضل بالنسبة للجميع لو أنّ الشبان تكلموا بلطف، واعترفوا بنشأتهم وهم يعرضون وجهات نظرهم. ولكنهم لم يكونوا راغبين بالمناقشة، بل يريدون إعطاء التعليمات.

«لن يطلب منا أيّ عبد سابق أن نخاف طيلة الوقت. أن «نحذر» الله، أن نخفض رؤوسنا، نغوص محاولين أن نبقى متحفزين إلى الوقت الذي يستعد الله فيه ليلقي إلينا شيئاً ما، ليُبقينا مسحوقين».

قال سارجنت بيرسون: «عليك أن تقول: «أيها السيد» عندما تخاطب الرجال».

«اعذرني، ياسيدي، أي نوع من الرسائل هي؟ ليس هناك أيّ عبد سابق كانت لديه الهمّة ليشق طريقه ويبني مدينة من لاشيء يمكن أن يفكّر هكذا، لايمكن لعبد سابق...».

قاطعه ديكون مورغان: «إنك تتحدث عن جدّي. كفّ عن تسميته «عبد سابق» وكأنه لم يكن سوى ذلك. لقد كان أيضاً نائب حاكم ولاية سابق، صاحبِ مصرف سابق، شماساً سابقاً، وشَغِلَ مناصب كثيرة أخرى سابقاً، ولم يشقّ طريقه منفرداً، لقد كان فرداً في مجموعة شقّت طريقها».

رغم التقاء نظراته بنظرات المحترم ميسنِر فقد ظلّ الفتى ثابتاً: «لقد ولد في عصر العبودية أيها السيد، كان عبداً، أليس كذلك؟».

«ليس كل الذين وِلدوا في عصر العبودية عبيداً، ليس بالطريقة التي تعنيها».

قال ديستري: «ليس هناك سوى طريقة واحدة أعنيها ياسيدي».

«إنك لاتدري عمّ تتحدث!».

صاح هاربر جوري: «لاأحد يعرف شيئاً! إنهم لايعرفون حتى الخراء!».

قاطعهم المحترم ميسنِر: «هو، هو يا أخوتي وأخواتي. لقد اجتمعنا في بيت الله لكي نحاول إيجاد...».

زمجر سارجنت: «في أحد بيوت الله».

«حسناً، في أحد بيوته، ولكنه يطالب الموجودين في أيّ من هذه البيوت بالاحترام. هل أنا على صواب أم لا؟».

جلس هاربر ثم قال وهو يشير بإصبعه إلى أعلى: «إني أعتذر من الله عن كلامي».

قال ميسنِر: «ربما يرضيه ذلك، وربما لايرضيه. يجب ألّا يقتصر احترامك عليه وحده أيها الأخ جوري. فهو يحذّر مما يخالف ذلك».

نهض المحترم بوليام وهو رجل عبوس وعصبي ـ يبدو وقوراً بشعره الأبيض:

«يامحترم، لدينا مشكلة. أنت وأنا والجميع. إنها الطريقة التي يتحدث بها بعضنا. فعلى الكبار، بالتأكيد، أن يستعملوا أسلوباً لائقاً

في كلامهم. ولكن ما يقوله الشبان هو أشبه ما يكون بالمهاترات منه بالحديث. ونحن هنا من أجل...».

في الواقع قاطع رويال بوشامب المحترم: «ماذا نتكلم، إن لم نردّ؟ وماتريدونه أنتم جميعكم هو ألاّ نتكلم أبداً. كل مايقال تعتبرونه مهاترة إذا لم يتفق مع ماقيل للتو... أيها السيد».

ذُهل الجميع من قلة أدب الشاب، لدرجة أنهم بالكاد سمعوا ماقاله.

لم يكن بوليام يتصوّر إمكانية حضور أهل روي ـ لوثر وهيلين بوشامب ـ لذلك التفت بهدوء نحو ميسنِر وقال له: «أيها المحترم، هل تستطيع أن تطلب منه أن يسكت؟».

فسأله ميسنِر: «لماذا؟ لسنا هنا لنتكلم وحسب، بل لنصغي أيضاً».

وقد شعروا بلهاث المفاجأة والدّهشة أكثر مما سمعوها.

ضيّق بوليام عينيه واستعدّ للإجابة عندما غادر ديك مورغان مقعده في الممشى: «حسناً ياسيدي، لقد أصغيت وأعتقد أني سمعت أكثر مما أحتاج لسماعه. والآن عليكم أن تصغوا إليّ جميعكم بانتباه. لاأحد، أقول بالضبط لاأحد، سيمسّ الفرن أو يعطيه اسماً غريباً. لاأحد سيأتي ليخرّب عملاً أقامه أجدادنا. لقد صنعوا كل قرميدة فيه، واحدةً واحدة، بأيديهم». حدّق ديك برويّ. «هم الذين استخرجوا الصلصال ولست أنت. وهم الذين نقلوا هذه المواد بالقفّة على ظهورهم، وليس أنت». ثم التفت ليوجّه كلامه أيضاً إلى ديستري، هرستون وإلى كالين بول، إلى لوركاس وليندا ساندز، «لقد مزجوا الملاط، ولم يفعل ذلك أحد منكم. صنعوا قرميدات جيدة صلبة لهذا الفرن، بينما كان مأواهم العصي والأعشاب. أتفهمون ما أقوله لكم؟ وقد احترمنا الشيء الذي عاشوا لكي يعملوه. ولاشيء عومل برفق أكثر من هذه القرميدات التي صنعها أولئك الرجال ـ الرجال، هل تسمعونني، ليس العبيد سابقاً وما إلى ذلك. قل لهم

ياسارجنت كيف تمّ الهدم بعناية وأناة، وكم كان انتباهنا شديداً، وكيف غلّفنا القرميدات واحدة واحدة. قل لهم يا فليت وأنت ياسيرايت وأنت أيضاً ياهاربر قل له إن كنت أكذب. وقد رفعنا أنا وأخي اللوحة الحديدية. نحن الاثنين. وإذا سقطت بعض الحروف فلم يكن ذلك بسببنا، لأننا غلّفناها بالقش، كأنها حمل يثغو. لذلك افهموني جيداً عندما أقول لكم بأن لاأحد سيأتي بعد ثمانين عاماً ويدّعي أنه يستطيع إعطاء الدروس للرجال الذين عاشوا حياة الجحيم لكي يعرفوا هذه الأمور. افعلوا بي ماتشاؤون، ولكنكم سوف تتعرضون لمتاعب شديدة إذا فكرتم أنكم تستطيعون عدم احترام خط محراث لم يسبق لكم أن اعتنيتم به أبداً».

نحو عشرين «آمين» مختلفة تلت تصريح ديك. وماقاله كان يمكن أن ينهي جميع المناقشات، لو لم يضف ميسنِر:

«يبدو لي يا ديك أنهم يحترمون كل هذا. بالضبط لكونهم يعرفون قيمة الفرن، فهم يريدون منحه حياة جديدة».

الهمهمة التي أثارها هذا الردّ الثاني لصالح الشبان تحوّلت بسرعة إلى زمجرة لم تهدأ إلّا ليسمع الحاضرون كيف سيردّ الخصوم.

«إنهم لايريدون منحه شيئاً أبداً، بل يريدون قتله وتحويله إلى شيء من ابتكارهم».

قال رويّ: «إنه أيضاً تاريخنا. وليس تاريخكم وحدكم».

«تصرّفوا إذن على شكل مشابه له! لقد قلت لكم للتو! فهذا الفرن له تاريخ ولايحتاج إليكم لتثبيته».

فقال ريتشارد ميسنِر: «انتظر يا ديك. فكّر بما قيل. انسَ الاسم، اسم الفرن، المشكلة هي توضيح الشعار».

أشار المحترم بوليام بإصبعه الأنيق إلى السماء: «الشعار؟ الشعار؟ تتحدثون بلغة الأمر، «احذروا غضبة الله!» هذا ماهو مكتوب، على نحو واضح وضوح النهار. إنه ليس اقتراحاً، إنه أمر!».

قال ميسنِر:«حسناً، كلّا، هذا ليس واضحاً وضوح النهار. فالمكتوب هو: «... غضبة الله». ولاوجود لكلمة «احذروا».

لوّح أرنولد فليتوود بيده اليمنى محذّراً: «لم تكن موجوداً هناك! إستير كانت موجودة! ولم تكن أنت هناك في البداية أيضاً! أما إستير فكانت هناك!».

قال ميسنِر: «لقد كانت طفلة صغيرة، وربما أخطأت».

لحق فليت بـ ديك إلى الممشى: «لم يسبق لإستير أن ارتكبت خطأ من هذا النوع طيلة حياتها. وهي تعرف كل مايجب معرفته عن هافن وعن روبي أيضاً. وقد أتت قبل أن يكون هناك طريق. وهي التي سمّت هذه المدينة، اللعنة! اعذروني ياسيداتي».

أما ديستري الذي كان يبدو متوتر الأعصاب، تكاد الدموع تطفر من عينيه، فقد رفع يده، وسأل: «اعذرني، ياسيدي. ما الخطأ في عبارة «كونوا الغضبة»؟ «كونوا غضبته»؟

تكلم ناثان دوبريس بهدوء وهو يهز رأسه: «لاتستطيع أن تكون الله، يابُنيّ».

«والفرن لن يصير هو الله، ياسيدي، إنه يصبح أداته، عدالته، ونحن كعِرق...»

«عدالة الله له وحده. كيف ستصبح أداته إذا كنت لاتفعل مايقول؟» هذا ماقاله المحترم بوليام متسائلاً، وأضاف: «يجب علينا أن نطيعه».

قال ديستري: «نعم ياسيدي ولكننا نطيعه. إذا اتّبعنا وصاياه نكون صوته وعقوبته. وكأناس...».

أسكته هاربر جوري: «إنه يقول: «احذروا» وليس «كونوا». واحذروا تعني «انتبهوا». إني أملك السلطة. يجب أن تعتادوا عليها!».

قال سارجنت: ««كونوا» تعني أنك تستبعد الرب وأنك أنت السلطة!».

«نحن السلطة لو أننا فقط...».

«أترى ما أعني؟ أترى ما أعني؟ اصغ إلى ذاك! أتسمع أيها المحترم؟ ذلك الفتى بحاجة للإصلاح. لأنّ ماقاله تجديف!».

وكما كان متوقعاً، ستيوارد هو الذي كانت له الكلمة الأخيرة ـ على الأقل الكلمات التي سيتذكرها الجميع باعتبارها الأخيرة لأن الاجتماع قد انفضّ. قال بصوت جعلته مُضغة «البلوبوي» يبدو أجشاً:

«أصغوا إليّ. إذا تجاهَلَ أيّ واحد منكم، إذا غيَّرَ، إذا أزال أو أضاف أي شيء على كلمات هذا القرن، سأنسف دماغه كما لو أنه أفعى ذات قنزعة».

دوڤي مورغان التي جعلتها تهديداتُ زوجها تقشعرّ رعباً، لم تستطع سوى النظر إلى ألواح الأرضية، متسائلةً أيّ شكل منظور ستأخذه الآن خسارته.

بعد ذلك ببضعة أيام، كانت ماتزال تجهل أيّه جهة هي على صواب. وخلال المناقشات مع الآخرين، بمن فيهم ستيوارد كانت تميل إلى الإتفاق مع من تصغي إليه. وتلك مسألة من بين مسائل أخرى قد تطرحها على صديقها عندما يعود إليها.

لدى مغادرة ستيوارد ودوڤي الاجتماع الذي عُقد في كنيسة كالڤاري حدثت بينهما مشادّة اعتيادية لمعرفة إلى أين يتجهان. اتّجه نحو المزرعة. التي تقلصت إلى مزرعة للعرض فقط بعد أن بيعت حقوق استخراج الغاز، ولكن يبقى في ذهن ستيوارد أنّها المنزل، حيث يخفق علم الولايات المتحدة في أيام العطل، وحيث علّق شهادة تسريحه المشرّفة، بعد أن وضعها في إطار جميل، هنا يبقى واثقاً أنّ كلبيه: بِنْ وغود سيلوّحان بذنبيهما كالمسعورين عندما سيظهر لهما. ولكنّ بيتهما الصغير في شارع سان ماتيو، الذي كان

بيتاً مرهوناً اشتراه التوأمان، ولم يبيعاه ثانية قط، أخذ يصبح شيئاً فشيئاً بيتاً خاصاً لـ دوقي. كان يقع جانب بيت أختها، وبالقرب من كنيسة كالقاري والنادي النسائي. وهو المكان الذي اختاره صديقها لزيارتها أيضاً .

«أنزلني هنا يا ستيوارد أريد أن أقطع بقية الطريق سيراً على قدميّ».

«ستموتين».

«لا، إنّ هواء الليل البارد سينعشني».

فقال لها، ولكن بعد أن ربّت على فخذها قبل نزولها من السيارة. «أيتها الفتاة، أنت عذاب!».

سارت دوقي متمهلةً في الشارع المركزي. من بعيدٍ كانت ترى مصابيح «منتزه جونتينث» معلقة بالقرب من الفرن. وقد مضى على تعليقها أربعة أشهر، ولم يُزلها أحد لكي تُصان إلى العام المقبل. والآن أصبحت تنير ـ قليلاً فقط، إلى الحد الأدنى وحسب ـ أعياداً أخرى للحرية، يُحتفل بها في ظلالها. على يسارها يوجد المصرف، بناؤه أقل ارتفاعاً من الكنائس، ولكنه مع ذلك يبدو نجم الشارع. لم يشأ أحد من الأخوين بناء طابق ثانٍ، مثل مصرف هاقن حيث مقرات شركة لودج. لم يكونا يريدان أن يتجول أحد في مؤسّستهم لغرض آخر سوى الأعمال المصرفية. وقد أفلس مصرف هاقن الذي كان يملكه والدهما لأسباب عديدة، ويؤكد ستيوارد أنّ أحدها كان اجتماعات لودج، ويضيف قائلاً: «يشوش التركيز». على يمينها، بعد ثلاثة شوارع، جانب بيت باتريسيا بيست توجد المدرسة التي قامت دوقي بالتعليم فيها، إلى أن تمّ بناء بيت المزرعة. ولكنّ سوان علّمت لفترة أطول لأنها تسكن جوار المدرسة تماماً. أما الآن فإنّ بات تدير المدرسة بمفردها، والمحترم ميسنر وآنّا فلود يدرّسان تاريخ الزنوج، ويعلّمان الضرب على الآلة الكاتبة في دروس مسائية. بدت الزهور والخضار الموجودة جانب المدرسة تشكل امتداداً للحديقة الكائنة أمام منزل بات.

اتّجهت دوقي إلى اليسار في شارع سان ماتيو. كان نور القمر يضيء الحواجز البيضاء التي تنحني محاولةً احتجاز مختلف أنواع الزهور كالأقحوان والقمعية ودوّار الشمس وحشيشة القمر والزهارة الفضية بينما النعناع والملك الفضي تبرز من بين قضبان الحواجز. كانت السماء في تلك الليلة تبدو كغطاء رائع، يحتجز الروائح العطرية قرب الأرض، يدخرها، يكثفها ويردّ عنها أي نسمة هواء يمكنها أن تهرب بها.

إنّ معارك الحدائق ـ وما فيها من ربح وخسارة وغموض ـ كانت قد انتهت جميعها تقريباً. فقد احتدمت طيلة عشر سنوات، بعد أن بدأت بشكل مفاجئ عام 1963، عندما سنحت الفرصة لذلك. فالنساء اللواتي كنّ في سنّ العشرين عند تأسيس روبي عام 1950 ، انتظرن على مدى ثلاث عشرة سنة كرماً لم يحلمن به أبداً. فاشترين الورق الصحي الناعم، واستعملن قماش التنظيف في الأعمال المنزلية بدلاً من الخرق، والصابون لغسيل الوجه وحده، أو الحفاضات فقط. وفي كل بيت من بيوت روبي كانت الأجهزة المختلفة تعمل تضخُّ، تدوي، تمتص، تموء، توشوش وتَنْضح. وكان هذا يوفّر الوقت خمس عشرة دقيقة عندما لايحتاج الأمر لتزويد الموقد بالحطب. وساعة كاملة عندما لم يعد هناك حاجة لكشط وفرك الأغطية وملابس العمل على خشبة الغسيل. عشر دقائق تكتسب لأنه لم يعد من الضروري نَفْضُ سجادة أو تعليق ستائر على سِكّة، وساعتين لأن الطعام يُحفظ في البراد، ويمكن جمع أو شراء كمية أكبر منه. أزواجهنّ وأبناؤهن الذين كانوا يتلوون من الضحك والذين لم يكونوا أقل زهواً من النساء، يترجمون الزيادة للأسعار بِخَمسة أضعاف والسعر لكل باوند أو بالة أو وزن حي إلى كلفيناتور أو جون دير، إلى علامة فيلكو(*) أو بَدي باي فيشر(**).

(*) فيلكو: علامة أجهزة منزلية.
(**) بَدي باي فيشر: علامة ألبسة.

طبقات البورسلان الأبيض فوق الفولاذ، السُيور، الصِّمَّامات وأقسام البيكلايت كانت تمنحهم رضىً عميقاً. وكان الدويُّ والضخُّ والمواء اللطيف تمنح النساءَ الوقتَ.

الباحات الترابية التي كانت تُكنس بعناية وترش بالماء في هاڤن أصبحت مروجاً خضراء في روبي، إلى أن امتلأت المساحات الموجودة أمام المنازل بالزهور في نهاية الأمر، دون أي مبرر لذلك سوى وجود الوقت للعناية بها. انتشرت العادة وازداد الاهتمام بزراعة نباتات لاتؤكل، وكذلك مساحة الأرض التي تُترك للقيام بذلك. وأدى تبادل أو إعطاء فسيل هنا وجذير هناك، بصيلة أو اثنتين، إلى الاستئثار الحماسي بالأرض، لدرجة أنّ الأزواج أخذوا يتذمّرون من الإهمال ومن المحصول المخيّب للآمال من الفجل أو الخطوط القصيرة جداً من الملفوف أو الشوندر. واستمرت النساء بالاهتمام بحدائق الخضراوات الكائنة خلف المنازل، ولكن، بالتدريج، تحوّل ماكانت تنتجه هذه الحدائق إلى مايشبه الزهور - وقد دفعت إلى ذلك الرغبة وليس الضرورة. أزهار السوسن والقبس والورود وعود الصليب أخذت وقتاً متزايداً، الكثير من الزهو والكثير من الحجم لدرجة أن فراشات جديدة صارت تقطع أميالاً عديدة لكي تأتي وتضع بيوضها في روبي. حيث تظل شرانقها معلقة ومختبئة تحت أشجار الأكاسيا، ومن هناك، راحت تلتحق الفراشات الزرقاء والصفراء التي كانت تتغذّى منذ عدة عقود من أزهار القمح الأسود والنفّل. أما زمر الفراشات الحمراء التي تمتص أزهار السمّاق فأخذت تنافس الفراشات البيضاء والسكرية اللون القادمة أخيراً والتي تحبّ زهور الجواهر والكَبّوسين. أجنحة كبيرة برتقالية اللون تغطيها الدانتيلا السوداء، تطير فوق أزهار الثالوث والبنفسج. ومثلما مضت سنون التنافس بين الحدائق، فإنّ الفراشات رحلت في تلك الأمسية الباردة من شهر تشرين الأول. ولكنّ النتائج بقيت: ساحات خصبة صيغت بعناية، باقات وسلاسل البيض. مخبّأة حتى الربيع.

صعدت دوڤي الدرجات، وهي تلامس الأوتاد التي تحدّد مسار

الممر. على الشرفة ترددت وفكرت بالعودة لمناداة سوان التي غادرت الاجتماع قبلها. كانت سوان تسبب لها القلق، فقد بدت أنها تمر بفترات من الهشاشة والكآبة لاعلاقة لها بموت ولديها قبل ذلك بخمس سنوات. ربما شعرت سوان بما أحسته دوقي ـ وطأة كونها ذات زوجين لاواحد وحسب. توقفت دوقي ثم غيّرت رأيها وفتحت الباب، أو حاولت أن تفعل ذلك. كان مقفلاً من جديد. إنه عمل بدأه ستيوارد منذ بعض الوقت، وهو يثير غضبها: يغلق المنزل بالمفتاح كأنه أحد المصارف. كانت دوقي متأكدة أنه البيت الوحيد في روبي الذي له باب مقفل، فما الذي يخشاه؟ رفعت الصحن من تحت أصيص شجرة التنّين، وتناولت المفتاح الرئيسي.

قبل المرة الأولى تلك، ولكن ليس بعد ذلك أبداً، كانت هنالك علامة. في الطابق العلوي، حيث كانت ترتّب البيت الصغير المرهون، وتوقفت لتلقي نظرة عبر نافذة غرفة النوم. تحت، في الأسفل كانت الأشجار كثيفة الأوراق ساكنة لاتتحرك، كأنها لوحة زيتية. تموز حرّ وجفاف. 101 درجة. مع ذلك، فإنّ فتح النوافذ سيلطّف جو الغرفة المهجورة منذ عام. أخذ منها هذا العمل بعض الوقت ـ دفعة هنا، هزة أو اثنتان ـ ولكنها نجحت أخيراً بفتح النوافذ كلها. ثم انحنت إلى الخارج لكي ترى ماذا بقي من الحديقة. من مكانها قرب النافذة كانت الأشجار تحجب عنها القسم الأكبر من الباحة فمدّت رأسها لترى ماوراء امتدادها. عند ذلك دخلت يد قوية في كيس ضخم وقذفت حفنة من بتلات الزهور في الجو. أو أنّ هذا مابدا لها: فراشات. درب كبير متأرجح من أجنحة بلون البرسيمون(*) اجتاز أعالي الأشجار الخضراء، ثم اختفى.

فيما بعد، وبينما كانت جالسة على كرسي هزاز تحت تلك الأشجار، مرّ. لم تكن قد رأته فيما مضى أبداً ولم تتعرف في ملامح

(*) البرسيمون: شجر ذو ثمر أصفر.

وجهه على صفات أية عائلة محليّة. وقد ظنّت في بادئ الأمر أنه ربما يكون مينوس بن هاربر، السكّير، الذي كان سابقاً يملك هذا البيت. ولكنّ هذا الرجل يمشي بسرعة وبخط مستقيم كما لو أنه متأخر عن موعد، فقطع الباحة مثل من يقطع طريقاً مختصراً إلى مكان آخر. ربما سمع صرير كرسيها الخافت. وتساءل فيما إذا كان من الحكمة بشيء مروره من هنا. على أي حال فهو عندما التفت ورآها ابتسم، ورفع يده بالتحية.

فقالت بأعلى صوتها: «مساء الخير».

غيّر اتجاهه واقترب من المكان الذي تجلس فيه.

«هل أنتَ من هنا؟».

أجاب ولكنه لم يحرّك شفتيه عندما تكلّم. «من مكان قريب».

كان بحاجة لأن يقصّ شعره.

أشارت دوقي بإصبعها وقالت: «رأيت فراشات هناك قبل قليل، في الأعلى: حمراء برتقالية اللون. زاهية جداً. لم يسبق لي أن رأيت هذا اللون في حياتي. إنه يشبه ماكانوا يسمونه المرجان عندما كنت صغيرة، وبلون اليقطين، ولكنه أقوى». كانت تتساءل في الوقت نفسه عن معنى وهدف ثرثرتها، ولو لم يبدُ لها أنه مهتم جداً بما كانت تصفه له لتمتمت بعبارة تنهي بها كلامها بصورة مهذّبة ـ ملاحظة عن حرارة الجو، أو ربما عن الانفراج الذي يتيحه المساء ـ كان يرتدي ملابس عمل نظيفة ومكوية حديثاً. وقد شمّر أكمام قميصه الأبيض عن ساعديه. هذان الساعدان بعضلاتهما الملساء والنحيلة جعلتها تعيد النظر في الانطباع الذي حصل لديها عن وجهه: إنه يشكو من سوء التغذية.

«هل سبق لك أن رأيت فراشات كهذه؟».

هزّ رأسه ولكن كان واضحاً أنه قد اعتبر السؤال جديّاً، فجلس القرفصاء أمامها.

«لاأريد أن أمنعكَ من متابعة طريقك. ولكن كان ذلك مشهداً مدهشاً، يا إلهي...».

ابتسم ابتسامة ودّية والتفت نحو المكان الذي أشارت إليه. ثم نهض ونفّض مؤخرة بنطاله وإن كان لم يجلس على العشب وقال:

«هل سيكون الأمر على مايرام إذا مررت من هنا؟».

«طبعاً. في أي وقت تشاء. لاأحد يسكن هنا الآن. والذي كان يملك هذا المنزل فقده. مع أنه جميل، أليس كذلك؟ نفكر بالإقامة فيه من وقت لآخر. ولكن زوجي...» كانت تثرثر وتهذر، وتشعر بذلك، ولكنه بدا مصغياً باهتمام لكل كلمة تقولها. وأخيراً توقفت ـ وهي أكثر خجلاً بسبب حماقتها من أن تستطيع متابعة الكلام ـ وكرّرت دعوتها له لاستخدام هذا الطريق المختصر عندما يحلو له ذلك.

شكرها وغادر الباحة، واختفى بسرعة بين الأشجار. فراقبت دوقي ظله يذوب عبر ستار الظلام الذي يحجب البيوت البعيدة.

لم ترَ أجنحة البرسيمون بعد ذلك أبداً. ولكنّ الرجل عاد ثانية. بعد شهر على وجه التقريب، ثم على فترات متفاوتة، كل شهر أو كل شهرين. ظلّت دوقي تنسى دائماً أن تسأل ستيوارد أو أيّ شخص آخر، عن هذا الرجل، ومن يمكن أن يكون. فقد أصبح من الصعوبة بمكان معرفة هُوية الشبان، بل إنّ هذا الأمر يزداد صعوبة، لأن الأصدقاء أو الأقارب عندما يأتون للقيام بإحدى الزيارات لبعض أصدقائهم أو أقاربهم في روبي لايحضرون دائماً، كما كانوا يفعلون في الماضي، الصلوات التي تقام في الكنائس لكي يتعرّفوا على جميع المؤمنين ولكي يتعرّف عليهم هؤلاء. ولم تستطع أن تسأله عن عمره ولكنها تفترض بأنه أصغر منها بعشرين سنة على الأقل، وربما هذا السبب وحده يفسر لماذا أحاطت زياراته بالسرية التامة.

عندما كان يأتي يحدث معها أن تروي كثيراً من السخافات. فتتحدّث عن أمور لم تكن تعرف أنها موجودة في ذهنها: ملذات، ومتاعب، وأمور لاعلاقة لها بمشاكل العالم الخطيرة. ومع ذلك فقد كان يصغي بانتباهٍ شديد إلى كل ماتقوله. وبكشف لا تستطيع

تفسيره، عرفت أنها لو سألته عن اسمه، فإنه لن يعود أبداً.

أعطته مرةً فطيرةً بمربى التفاح، فأكلها.

أخذت تجد في معظم الأحيان مبرّرات متزايدة للبقاء في البيت الكائن في شارع سان ماتيو. ودون أن تنتظره أو تبحث عنه، تظل راضية ومسرورة لمجرد كونها تعرف أنه قد أتى وأنه قد يعود ليستمع لبعض الأحاديث أو ليأكل فطيرة، أو ليشرب قليلاً من الماء البارد عند ظهر أحد الأيام الحارّة. لم تكن تخشى سوى أمر واحد، أن يتحدث أحد عنه أو يأتي معه، أو يدّعي الأولوية في صداقته. ولكن لم يفعل ذلك أحد. فبدا أنه لها وحدها دون سواها.

ولذلك فإنّ دوقي مساء يوم الجدل مع الشبان في الكنيسة، وضعت المفتاح في قفل باب البيت المرهون، منزعجة من ستيوارد الذي جعل ذلك ضرورياً، ومستاءة من الطريقة التي سار عليها الاجتماع. أخذت تفكر بالبقاء جالسة مع كأس من الشاي الحارّ، وتقرأ بعض الآيات أو المزامير وتركز أفكارها في القضية التي كانت تغضب الجميع، في حال مرور صديقها صبيحة ذلك اليوم. إذا أتى فإنها ستسأله عن رأيه. ولكنها عدلت عن تناول الشاي أو القراءة، وبعد أن تلت صلواتها أوت إلى السرير، حيث كان هناك سؤال دون جواب منعها من النوم: هل يستطيع رجل غني أن يكون صالحاً، دون أن يتخلى عن ثروته؟ ستسأل «صديقها» عن ذلك.

الآن على الأقل، أخيراً، أصبحت الباحة الخلفية جميلة كفاية لاستقباله. عند زيارته الأولى كانت في حالة سيئة من الفوضى، بلا صياغة، مزبلة حقيقية ـ وكانت الهررة، الأفاعي وفراخ الدجاج الشاردة تعتبرها مأوىً مناسباً لها ـ والأجنحة المرجانية وحدها هي التي تزيّنها. كان على دوقي أن ترتّب كل شيء بنفسها. إذ أن «K.D.» يتهرب مبدياً أعذاراً تافهة. ومن الصعب إيجاد بعض الشبان الذين يهتمون بالأمر. لقد ساعدتها بيلي ديليا مرة في الماضي، الأمر الذي أدهشها كثيراً، لأنها لم تكن تفكر إلّا بالشبان. ولكن هنا

أيضاً كان شيء ما خطأً. فمنذ بعض الوقت لم يرَ أحد هذه الفتاة، وقد امتنعت أمها بات بيست عن الإجابة على الأسئلة. وفكرت دوقي: إنها ناقمة دائماً، بسبب الطريقة التي عاملت بها المدينة والدها. رغم أنّ بيلي ديليا لم تحضر الاجتماع، فإنّ موقفها كان حاضراً. حتى عندما كانت طفلة صغيرة، ذات بشرة غريبة اللون، وردية وسمراء لوّحتها الشمس، وشعر بني مشعث، كانت تتبرّم إزاء كل شيء ـ فيما عدا العناية بالحدائق. ودوقي تفتقدها، متسائلة عن رأيها في تغيير رسالة الفرن.

«احذروا غضبة الله»؟ «كونوا غضبة الله»؟ كان رأيها أنّ «غضبة الله» عبارة تكفي وحدها، وتظلّ صالحة لأي عصر ولأي جيل. ومن غير المجدي تخصيص المعنى وتحديده وتسميره. المسامير الوحيدة التي كان يجب أن تُدّق قد دُقّت. على الصليب. أليس كذلك؟ ستسأل صديقها ثم ستقول ذلك لسوان. كانت الخربشة على زجاج النافذة قد توقّفت، وأدركت وهي تكاد تغفو أن البازلاء المعلّبة يمكن أن تفي تماماً بالغرض.

أنزل ستيوارد زجاج النافذة وبصق منتبهاً كيلا تعيد الريح البصاق إلى وجهه. كان متقزّزاً خائر العزيمة. «دعني أعش» هو الشعار الذي أراد حقاً أولئك الشبان كتابته على باب الفرن. مثلهم في ذلك مثل ابن أخته «K.D.»، لم يكن لديهم أية فكرة عما تطلّبه بناء هذه المدينة. من أي شيء كانوا محميين. وماهي المذلات التي لم يضطروا لمجابهتها. وبينما كان يقود سيارته كالعادة، بالسرعة التي تسمح بها تلك السيارة على الطريق المؤدي إلى مزرعته، أخذ ستيوارد يفكّر بالفرق بين «احذروا» و«كونوا» وبالطريقة التي كان «بيغ بابا» سيفسّر بها ذلك. أما هو، شخصياً، فلم يكن يبالي بهذا الأمر أبداً. المشكلة لم تكن لماذا كان ينبغي أو لاينبغي تغيير الجملة، ولكن فيما يربحه الأب ميسبِر بطرحه هذه الفكرة. بصق ثانية وفكر،

إن المحترم ميسنر قد أصبح، بالفعل، معتوهاً. معتوه وربما حتى خطير. وأخذ يتساءل فيما إذا كان هذا الجيل ـ جيل ميسنر و«K.D.» ـ ينبغي أن يُضحّى به لكي يكرس الناس جهودهم للجيل اللاحق: للأحفاد وأبنائهم الذين يمكن تأهيلهم وتربيتهم، كما فعل أبوه وجدّه لجيل ستيوارد. فلا فترات راحة، ولا «دعني أعش» آنذاك. التوقعات كانت عالية وتحققت. لم يتحمل أحد المزيد من المسؤولية عن سلوكهم مثل أولئك الرجال الطيّبين. تذكّر قصة أخيه ايلدر مورغان، عندما نزل من السفينة القادمة من ليفربول في أحد مرافئ ولاية نيوجيرسي: (هوبوكن)، عام 1919 . إذ بينما كان يقوم بجولة في مدينة نيويورك قبل أن يستقلّ قطاره، رأى رجلين يتشاجران مع إحدى النساء. قال ايلدر بأنه من ملابس المرأة، خمّن أنها امرأة شوارع، ولأنه لم يشعر إلا بالاحتقار لعملها فقد تعاطف في بداية الأمر مع الرجلين اللذين يصرخان. وفجأة وجّه أحدهما لكمة للمرأة في وجهها فسقطت. وبشكل مفاجئ أيضاً تحولت ألوان المشهد من الألوان اليومية إلى الأسود والأبيض. وقال ايلدر بأنه شعر عند ذلك بجفاف في حلقه. ابتعد الرجلان الأبيضان وتركا المرأة الزنجية ملقاة على الرصيف. وقبل أن يبدر أي ردّ فعل من ايلدر غيّر أحدهما رأيه ورجع فوجه رفسة للمرأة على معدتها. لم يعرف ايلدر أنه كان يركض حتى وصل وأبعد الرجل. فقد كان يندفع ويقاتل طيلة عشرة أشهر متوالية، وظل بلا فطام عن العنف التلقائي. ضرب ايلدر الرجل الأبيض على فكّه، واستمرّ في توجيه اللكمات له إلى أن هاجمه الأبيض الآخر. لم يخرج أحد من المعركة منتصراً. فالكل تلقوا اللكمات. كانت المرأة ماتزال ممدّدة على الرصيف حتى استدعى أحد الأشخاص الذين تجمعوا رجال الشرطة. خاف ايلدر، ركض، وارتدى معطفه العسكري حتى وصوله إلى أوكلاهوما خيفة أن يرى أحد الضباط حالة بزّته الرسمية. فيما بعد، عندما غسلتها زوجته سوزانا ورقعتها وكوتها، طلب منها أن تنزع عنها قطب الخياطة، وأن تترك جيب السترة تتدلى، وألّا تصلح ياقة القميص، وعدم لمس الأزرار

المدلّاة أو عدم تعويض ما فُقد منها. كان قد فات الأوان لإزالة بقع الدم، وحين دفع إلى جيب بنطاله المنديل الذي يحمل بعض تلك البقع مع ميداليتيه، ظلّت صورة قبضة ذلك الرجل الأبيض التي وجهت اللكمة إلى وجه تلك المرأة الملوّنة ماثلةً في ذاكرته لاتفارقها. وبصرف النظر عن شعوره نحو نشاطات تلك المرأة، فإنه ظل يفكر بها ويصلّي من أجلها حتى آخر حياته. وقد حاولت سوزانا معارضة ذلك زمناً طويلاً، ولكن الغلبة كانت لرجال أسرة مورغان. دُفن ايلدر كما طلب: ببزّته الرسمية وشقوقها الظاهرة. لم يغفر لنفسه هربه وتخليه عن المرأة، ولم يكن يتوقع من الله أن «يدعه يعيش» بسبب ذلك. وكان على استعداد للإجابة فيما لو سأله كيف حدث ذلك. كان ستيوارد يحب هذه القصة، ولكنه لم يكن يطيق أن يعرف أنها تقوم على الدفاع عن عاهرة والصلاة من أجلها. لم يكن يتعاطف مع الرجلين الأبيضين ولكنه كان يفهم وجهة نظرهما، حتى إنه يشعر بالأدرينالين يتصاعد في جسمه عندما يتخيل أن القبضة كانت قبضته.

ركن ستيوارد سيارته ودخل إلى المنزل. لم يكن يحب فكرة الإيواء إلى السرير بدون دوقي وقد حاول مجدداً أن يجد حجة تمنعها من البقاء كثيراً من الوقت في المدينة. ولكنّ ذلك دون جدوى لأنه لم يكن يرفض لها طلباً. ذهب فأتى بالكلاب وأخذها معه ليرى فيما إذا كان العمال قد قاموا بعملهم كما ينبغي. كان هؤلاء العمال محليين، وهو يعرف نساءهم وآباءهم. وكلهم يتردّدون على الكنيسة ذاتها أو كنيسة قريبة، ويكرهون مثله الفكرة القائلة: «دعني أعش». وشعر بالمرارة من جديد: لو أنهما رزقا أولاداً، لأصبحا مثالاً يحتذى بالاستقامة، ولضحكا من أفكار ميسنِر عن الرجولة: الردود الوقحة، تغيير الاسم ـ كما لو أنّ سحر الكلمات له علاقة ما بالشجاعة اللازمة لشخص حتى يكون رجلاً.

ربط ستيوارد الكلاب وفتح الاسطبل. فهو يفضل أن يمتطي «نايت» فرسه المفضلة عند الساعة الرابعة صباحاً ليقوم بنزهة

صباحية تستمر حتى شروق الشمس، كان يحب التجول في المراعي حيث كل شيء مفتوح. ويكتشف من جديد في كل مرّة، وهو على ظهر فرسه «نايت»، الدهشة من معرفته أن المرء لايمكن أن يضل سبيله أبداً على أرضه كما ضاع «بيغ بابا» و «بيغ دادي» وكل التسعة والسبعين الآخرين، بعد أن غادروا فيرلي في ولاية أوكلاهوما سيراً على الأقدام، تائهين تماماً، وغاضبين. ولكن لم يكن يخيفهم شيء سوى حالة أقدام الأطفال. فقد كانوا إجمالاً بصحة جيدة، ولكنّ النساء الحوامل أصبحن بحاجة أكثر فأكثر للراحة. فزوجة دروم بلاكهورس: سيلست، وجدّته: الآنسة ميندي وبيك وأمه، جميعهن كنّ ينتظرن مولوداً. وكان من العار أن يرى أحدهم زوجته أو أخته أو ابنته الحامل، مرفوضات في المأوى الذي هَدْهَدَهُنَّ وغَيَّرَهُنَّ طوال الوقت. وكانت المذلة لاتثير لديهم الحقد وحسب، بل تكاد تهشم عظامهن.

تذكر ستيوارد أدقّ تفاصيل الحكاية التي رواها له أبوه وجدّه. ولم يجد صعوبة بتصور العار الذي لحق بهما جراء ذلك. فدوفي مثلاً، قبل كل إجهاض، كانت تضع يدها على خاصرتها. عيناها ضيقتان، نظراتها متجهة إلى الداخل، دائماً إلى الداخل نحو الجنين الذي في داخلها. فماذا سيكون شعوره إذا أتى رجال مدّعون بقمصانهم ذات الياقات وأحذيتهم الجيدة وقالوا لها: «انقلعي من هنا»، دون أن يستطيع هو ستيوارد أن يفعل شيئاً؟ حتى الآن، عام 1973 وهو يتجول في أرضه، والريح تعصف في الشعر الذي يعلو رقبة فرسه «نايت»، كان التفكير بهذا العجز يثير لديه الرغبة بأن يطلق النار على أحد. تسعة وسبعون. جميع حوائجهم مربوطة على ظهورهم أو محمولة على رؤوسهم. الفتيان يتناوبون لبس الأحذية كل منهم بدوره. لايتوقفون إلا ليأخذوا قسطاً من الراحة، لكي يناموا أو يأكلوا الفضلات. فضلات مع ذرة مسلوقة أو فضلات مع حلوى الذرة أو فضلات مع لحم طرائد أو فضلات مع هندباء بريّة. كانوا يحلمون بسقف يؤويهم، بالسمك، بالأرز، بشراب حلو. ويحلمون، وهم بأسمالهم البالية، الشبيهة بأوراق الملفوف المخلل،

بثياب نظيفة تزينها الأزرار وبقمصان ذات كمّين. كانوا يسيرون صفاً أحادياً، الواحد تلو الآخر: وفي مقدمتهم دروم وتوماس بلاكهورس، و«بيغ بابا» الذي أصبح يعرج الآن، محمول على لوح خشبي، في المؤخرة. بعد فيرلي لم يعرفوا في أيّ اتجاه يجب أن يسيروا، وماكانوا يريدون أن يلتقوا بأحدٍ يمكن أن يأمرهم أو أن تكون لديه فكرة أخرى. لذلك كانوا يبتعدون عن طرق العربات ويحاولون البقاء أقرب إلى غابات الصنوبر والأنهار، متّجهين نحو الشمال دون سبب محدد سوى أن ذلك كان يبدو لهم أفضل طريقة للابتعاد عن فيرلي.

في الليلة الثالثة، أيقظ «بيغ بابا» ابنه ريكتور، وأشار إليه أن ينهض. ابتعد عن المخيم وهو يتكئ على عكازين، ثم همس، قائلاً: «اتبعني، أنت».

عاد ريكتور فأحضر قبعته وتبع والده الذي كان يسير ببطء شديد وبشكل ينم عن الألم. والأمر الذي أقلق الشاب، هو خشيته من أن يكون الرجل العجوز يحاول الوصول إلى إحدى المدن في منتصف الليل، أو أنه ذاهب ليبحث عن نجدةٍ من إحدى المزارع حيث البيوت مستكينة على رابية هناك. ولكنّ «بيغ بابا» اقتاده إلى عمق غابة الصنوبر حيث لم تلبث رائحة الراتنج التي كانت طيبة في البداية أن سببت له صداعاً. كانت النجوم تتلألأ في السماء بحيث يبدو الهلال ضئيلاً. توقّف «بيغ بابا» وجثا على الأرض يئن من الجهد.

قال: «أبي، زكريا هنا». ثم بعد بضعة ثوانٍ من الصمت المطلق أخذ يدندن بأشد الألحان التي سمعها ريكتور طيلة حياته عذوبة وحزناً. لحق ريكتور «بيغ بابا» زاحفاً على ركبتيه وظل هكذا طيلة الليل، لم يكن يجرؤ أن يلمس العجوز، ولا أن يقطع له صلواته. ولكنه لم يكن يستطيع أيضاً أن ينهض لكي يقرفص ويريح ركبتيه اللتين كانتا تؤلمانه. بعد فترة جلس صراحة على الأرض، ممسكاً قبعته بيديه وقد طأطأ رأسه محاولاً الإصغاء والبقاء مستيقظاً ليفهم. وأخيراً استلقى على ظهره وأخذ ينظر إلى النجوم فوق الأشجار. كانت الموسيقا الحزينة تغمره، وقد شعر بأنه يطفو على ارتفاع

بضعة بوصات فوق الأرض. وأقسم فيما بعد أنه لم ينم. وأنه ظلّ طيلة الليل يصغي ويراقب. ولأنّ أشجار الصنوبر كانت تحيط به، فقد شعر دون أن يرى أن السماء تبهت عند خط الأفق. آنذاك سمع وقع الأقدام ـ كما لو كان ناجماً عن مشية مارد. أما «بيغ بابا» الذي لم يحرك أية عضلة من جسمه ولم يوقف غناءه، فصمت في الحال. جلس ريكتور وأخذ ينظر حوله. كان وقع الأقدام كالرعد، ولكنه ظلّ عاجزاً عن معرفة الجهة التي يأتي منها. وعندما اتسع نطاق الضوء في السماء، استطاع أن يميّز أطياف جذوع الأشجار.

لقد رأياه معاً في الوقت نفسه: كان على مايبدو رجلاً ضئيلاً، ضئيلاً جداً بالنسبة للصوت القوي الذي يحدثه وقع خطواته. أخذ يبتعد. كان يرتدي بزة سوداء، ويضع السترة على كتفه ممسكاً بها بسبّابة يده اليمنى. قميصه الأبيض يلمع بين حمّالتي بنطاله العريضتين. نهض «بيغ بابا» دون أنين ودون الاستعانة بالعصا. أخذا يراقبان معاً الرجل الذي يمشي مبتعداً، عبر الجانب الأكثر شحوباً من السماء. أبطأ مرةً في مشيته والتفت لينظر إليهما، ولكنّهما لم يستطيعا أن يتبيّنا ملامح وجهه. وحين استأنف السير لاحظا أنه يحمل جعبته بيده اليسرى.

قال «بيغ بابا»: «هيا، أسرع وأحضر الناس!».

فقال ريكتور: «لايمكنك أن تبقى وحدك هنا».

«أسرع!».

وركض ريكتور مسرعاً.

عندما استيقظوا جميعهم، اقتادهم ريكتور إلى حيث أمضى تلك الليلة هو و«بيغ بابا». وجدوه في المكان نفسه تماماً، أكثر استقامة من جذوع أشجار الصنوبر، وقد ألقيت عصاه بعيداً، ويدير ظهره نحو الشمس المشرقة. لم يروا أي رجل يمشي هناك، ولكنّ السلام الذي كان يغسل وجه زكريا اتسع ليشمل أرواحهم ويبعث فيها الطمأنينة.

قال زكريا: «إنه معنا. وهو يدلنا على الطريق».

ومنذ تلك اللحظة، أصبح للرحلة هدف، ولم يعد يتخللّها أية شكوى. ومن وقت لآخر كان الرجل الذي يمشي يظهر من جديد: على ضفة أحد الأنهار، أو عند قمة إحدى التلال مستنداً على بعض الصخور. وفي إحدى المرّات تشجّع أحدهم وسأل «بيغ بابا» كم من الوقت سيستغرق ذلك. فأجاب:

«إنه زمن الله، لايمكنك أن تبدأه، ولايمكنك أن توقفه. وهناك أمر آخر: إنه لايقوم بأعمالكم بالنيابة عنكم، لذلك عليكم أن تخطوا بحيوية».

ما عاودوا يسمعون وقع الأقدام الثقيلة ولو كانت مستمرة. ولم يكن أحد يرى الرجل الذي يمشي سوى زكريا وأحياناً يراه أحد الأطفال. أما ريكتور فلم يره ثانية حتى نهاية الرحلة. بعد ذلك بتسعة وعشرين يوماً. بعد أن أنذروا بطلق ناريّ، وبعد أن قدَّمَت لهم بعض النسوة السوداوات الطعام في حقل، وسرق اثنان من رعاة البقر بنادقهم ـ ولكن، دون أن يعكّر صفو سلامهم ـ بعد كل ذلك، رآه ريكتور وأبوه.

كانوا آنذاك في شهر أيلول. وأي مسافرين آخرين كانوا سيحذرون قبل الدخول إلى منطقة الأراضي الهندية دون هدف محدد مع اقتراب فصل الشتاء. ولكنهم إذا كانوا قلقين، فإنّ ذلك لم يكن بادياً عليهم. كان ريكتور مستلقياً بين العشب الطويل منتظراً أن يصطاد له الفخ البدائي الذي نصبه أرنباً، كما يأمل، أو مرموطاً أو حتى سنجاباً ـ حين رأى في تلك اللحظة بالذات الرجل الذي كان يمشي، واقفاً بين الأعشاب النامية، وقد أخذ ينظر حوله. ثم جلس الرجل القرفصاء، فتح جعبته وأخذ يفتّش فيها. راقبه ريكتور لبعض الوقت، ثم ذهب زاحفاً بين الأعشاب الكثيفة قبل أن يقفز ويعدو عائداً إلى المخيم حيث كان «بيغ بابا» ينتهي من تناول إفطاره البارد. وصف ريكتور مارآه واتّجه الاثنان إلى المكان الذي نصب فيه الفخ. كان الرجل الذي يمشي مايزال هناك يُخرج أشياءً من جعبته ويضع فيها أشياءً أخرى. وفي الوقت الذي كانا يراقبانه فيه،

أخذ الرجل يتلاشى. عندما اختفى تماماً أخذا يسمعان من جديد وقع الأقدام الذي كان يتردّد مدوياً في جهة لم يستطيعا تحديدها: أمن الجهة الخلفية؟ أم من اليسار؟ الآن من اليمين. أم أنه يأتي من فوق رؤوسهم؟ ثم ساد الصمت فجأة. تقدم ريكتور زاحفاً على ركبتيه، وكان «بيغ بابا» يدبّ أيضاً لكي يرى ماذا ترك الرجل الذي يمشي. وقبل أن يقطعا مسافة ثلاث ياردات سمعا صوت شيء بين الأعشاب. هناك في الفخ، الذي لم يُمسّ خيطه ولاالطعم الذي وُضع فيه، شاهدا ديكاً رومياً، ريشه يخلب الألباب بجماله الساحر. وبعد أن تبادلا نظرةً، تركاه في مكانه وذهبا إلى الموضع الذي ظنّا أن الرجل قد وضع فيه الأشياء التي كانت في جعبته. لم يجدا شيئاً هناك: مجرد انخفاض صغير بين الأعشاب. انحنى «بيغ بابا» عليه وأخذ يتحسّسه. ضغط بيده على الحشائش التي وطأتها قدما الرجل وأغمض عينيه ثم قال:

«هنا، هذا هو مكاننا».

حسناً، هذا لم يكن مكانهم بالتأكيد، ليس بعد على أية حال، فهو يخصّ عائلة من هنود تلك الولاية، وقد احتاج الأمر سنة وأربعة أشهر من المفاوضات، والكثير من العمل الشاق في الأرض، للحصول أخيراً على هذا الموقع خالياً ونظيفاً. والقُدوم من موضع غزير النباتات إلى فراغ واسع جداً جعلهم يشعرون بأنهم صغار لأنهم رأوا من السماء، أكثر مما رأوا من الأرض، إضافة إلى أن العشب يصل إلى أوراكهم. اما بالنسبة للآباء القدامى فكان هذا يعتبر ترفاً ـ ومدى متسعاً للروح والجسد مساوياً لحرية بلا حدود، وبلا غابات كثيفة تخفي الأخطار، ويمكن أن يختبئ فيها الأعداء. هنا لم تكن الحرية لعباً، كأحد الكرنفالات أو حفلات الرقص التي لاتقام إلّا مرة واحدة كل عام. ولم تكن أيضاً كفضلات الطعام التي تُلقى عن موائد المُترفين. فالحرية هنا اختبار تديره الطبيعة وعلى الإنسان أن ينجح فيه بمفرده كل يوم. وإذا نجح في هذه الاختبارات خلال فترة كافية من الزمن فإنه يصبح ملكاً.

ربما لم يعد زكريا يريد أن يأكل لحم الأرنب المشوي على السفّود، ولا لحم البوفالو البارد أبداً. وربما بعد أن طرده من المكتب جماعة من البيض ورفض بعض الملونين منحه مرزعةً، أراد إقامة شيء دائم في هذا البلد المفتوح المختلف والمختلف كثيراً عن ولاية لويزيانا. وعلى أي حال، فبينما كانوا يبنون مساكن مؤقتة - سقائف وملاجئ تحت الأرض - وينقلون الخشب على عربة يجرها حصانان أعارهما لهم الهنود، جمع زكريا بعض الرجال لكي يبنوا فرناً. كان من دواعي فخرهم أنّ أية امرأة من نسائهم لم تشتغل أبداً في مطبخ أحد الرجال البيض، ولم تُرضع أيّ طفل أبيض. مع أنّ العمل في الحقول أشد قسوة وأقل اعتباراً، فقد اعتقدوا أن اغتصاب النساء اللواتي يشتغلن في مطابخ الرجال البيض لم يكن يقيناً بل احتمال جليّ - لايستطيعون تحمله. لذلك كانوا يستبدلون هذا الخطر بالأمن النسبي الذي يتيحه العمل الشاق. هذه الفكرة هي التي جعلت إقامة مطبخ مشترك، تبدو مقبولة بهذا القدر. لقد كانوا رجالاً استثنائيين: خدموا وحفروا وحرثوا وتعاطوا الأعمال التجارية في ولاية لويزيانا منذ عام 1755 ، حين كانت المنطقة تشمل المسيسبي، وبعد انقسام المنطقة إلى ولايات، ساعدوا الحكومة من عام 1868 وحتى عام 1875 ، وبعد ذلك اقتصر نشاطهم على العمل في الحقول. وطيلة فترة تزيد على مئتي عام، حافظوا على ازدهار ثمرة جهودهم. ولم يمنع أحد منهم شيئاً عن الآخرين، لم ينحنوا أمام أحد، لم يركعوا إلّا أمام خالقهم. والآن، بينما كان ستيوارد يتذكر أعمالهم وكيف قضوا حيواتهم، شعر بالقوة، وأنه يتمتع بتصميم لايتزعزع. وأخذ يفكر: تصور، ماذا كان سيقول: «بيغ بابا» أو دروم بلاكهورس أو جوفينال دوبريس عن هؤلاء المغرورين الذين يريدون تغيير كلمات صُنعت من الحديد المطروق.

لم يستطع ستيوارد الاستمرار في نزهته زمناً طويلاً بعد أن أوشكت الشمس على الشروق. لذلك لوى عنان فرسه «نايت» وسار في طريق العودة، متفكراً بشيء يقوله أو يعمله لـ دوڤي كي يقنعها

بأن تكفّ عن تمضية الليل في المدينة. فالنوم دون عطرِ شعرها بقربه أمر مستحيل.

في اللحظة ذاتها، قبل أن يبزغ ضوء الفجر الأول، كانت سوان تقف في مطبخ أكبر منزل في روبي وتتكلم بصوت خافت عبر الجانب الآخر المظلم من النافذة.

«انتبهن، ياسمّاناتي. «Deek» يبحث عنكنّ ببندقيته، وعندما يعود يلقي بكيس مليء على أرض مطبخي النظيفة، ويقول شيئاً كهذا: «لابدّ أنّ هذه ستفي بالغرض، من أجل العشاء!» يقول ذلك مزهواً، كما لو أنه يقدّم لي هديةً. كما لو كنتن وقد نُتف ريشكّن ونظّفت بطونكنّ وطُبختنّ».

لم تكن سوان تستطيع أن ترى شيئاً عبر الظلام في الخارج بسبب الضوء المنتشر في المطبخ من مصباحِ النيّون الذي رُكّب فيه حديثاً، وظلّت تنتظر أن يسخن الماء في الغلّاية، فهي تريد أن ينْخَلّ الشراب المقوي بصورة صحيحة قبل عودة زوجها. كانت تمسك بروؤس أصابعها إحدى مستحضرات كوني في كيس صغير من القماش مغلف في علبة من الورق المطليّ بالشمع. وهذه هي المرة الثانية التي تنقذها فيها كوني. أمّا المرّة الأولى فكانت غلطة فظيعة، كلّا، لم تكن غلطة، بل خطيئة.

ظنّت أن الوقت كان منتصف الليل عندما انسلّ ديك من السرير وارتدى ملابس الصيد، وعندما نزل بالجوارب ألقت نظرة على رقاص الساعة المضيء: الثالثة والنصف، ففكرت: مازال لديّ ساعتان من النوم، ولكنّها استيقظت في السادسة صباحاً، وكان عليها أن تسرع لتتناول افطارها، وتحضر له ملابس العمل. لكن قبل ذلك، المقوّي، فهي بأشد الحاجة إليه الآن لأنّ الهواء كان واهناً من جديد. كان قد بدأ واهنا كما لو كان قادماً من ثوب بالٍ، ليس عندما

قُتل سكوت ولكن بعد ذلك بخمسة عشر يوماً ـ وحتى قبل إعادة جثمانه ـ عندما أبلغوهم أن إيستِر قد مات هو أيضاً. كانا مجرد طفلين: الأول في التاسعة عشرة، والآخر في الحادية والعشرين. أيّ فخر وزهو وأية سعادة عندما تطوّعا، وقد شجّعتهما بقوة على أن يفعلا ذلك. خدم والدهما في الأربعينات، وعمّاهما أيضاً. جِف فليتوود عاد من ڤييتنام سليماً معافى، وعاد مينوس جوري حياً وإن بدا مصدوماً قليلاً. وكأيّ حمقاء كانت تعتقد أن ولديها سيكونان في مأمن، أكثر من أي مكان من ولاية أوكلاهوما فيما عدا روبي، أكثر أمناً في الجيش ممّا في شيكاغو التي كان إيستِر يريد الذهاب إليها، وأكثر أمناً مما في بيرمنغهام، ومونتغمري، وسلمى وواتس[*] وأكثر أمناً مما في موني في ولاية المسيسبّي عام 1955، وفي جاكسون في المسيسبي عام 1963 وأكثر أمناً ممّا في نيوارك وديترويت، أو واشنطن .D.C وقد اعتقدت أن الحرب تشكل ملجأً أكثر أمناً من أي مدينة في الولايات المتحدة. واليوم بقي لديها أربع رسائل لم تُفضّ، أودعت في البريد عام 1968، وسُلمّت إلى بريد دمبي بعد أربعة أيام من دفنها لابنها الأخير. ولم تستطع أبداً فضّ هذه الرسائل. لقد حضر الاثنان في إجازة، أرادا أن يمضياها في عيد الشكر عام 1968، بعد سبعة أشهر من اغتيال مارتن لوثر كينغ، بكت سوان كالتي تحقق خلاصتها برؤية ولديها على قيد الحياة. ولدان لطيفان أسودان، لم يُقتلا أو يُسَحلا أو يُجرحا أو يُسجنا. صرخت عندما نزلا من السيارة: «الصلاة تفعل فعلها!» وكانت تلك آخر مرة تراهما فيها كاملين. لقد باعتها كوني كثيراً من جوز البيكان المقشور من أجل فطائر عيد الشكر. كانت هناك في ذلك اليوم فتاة تعطلت سيارتها، ورغم أن سوان اصطحبتها لشراء البنزين الذي كانت بحاجة إليه لكي تذهب إلى حيث هي متّجهة، فالفتاة بقيت هناك. ومع ذلك، سافرت إلى مكان ما قبل وفاة الأم، وإلّا لما اضطرت كوني لإشعال النار في الحقول. فلولا تصاعد دخان تلك

(*) هذه المدن حدثت فيها اضطرابات ضدّ السود في الستّينات: 1960 ومابعدها.

النار لما عرف أحد نبأ الوفاة. وقد رأت آنّا فلود الدخان، فذهبت بالسيارة وعرفت الخبر.

وكان على سوان أن تسرع هي أيضاً. تحدثت إلى روجر وذهبت إلى المصرف لكي تتصل بمجهولين في الشمال، وجمعت الطعام من عند الجيران، وحضّرت طعاماً بنفسها. وقد حملته هي ودوقي وآنّا إلى هناك، وهنّ يعلمن جيداً أنّه ليس هناك من سيأكله غيرهنّ. بسرعة وبسرعة أكثر، لأن الجثمان يجب أن يرسل إلى الشمال بمنتهى السرعة، بعد حفظه بالثلج. بدت كوني غريبة الشكل، محطّمة نوعاً ما، وقد أضافتها سوان إلى قائمة الأشخاص الذين ينكّدون عيشها، منهم على سبيل المثال «K.D.» وآرنيت وسويتي. والآن هي لاتكفّ عن التفكير بـ الفرن. فقد روى الناس أن بعض الشبان اعتادوا الاجتماع فيه ليحتسوا البيرة التي تبلغ درجة كحولها «3,2» وكانوا يطلبون من الأولاد الذين يلعبون هناك أن يذهبوا إلى بيوتهم. أو أنّ أمهاتهم قُلن ذلك. كما أنّ بعض الفتيات (كانت سوان تعتقد أنهنّ بحاجة للصفع) وجدن أسباباً للذهاب إلى هناك، ومنهن آرنيت وبيلي ديليا.

كثيراً ماقال الناس بأنّ هؤلاء الشبان بحاجة لما يشغلهم. ولكنّ سوان التي تعرف أن هناك الكثير مما يجب القيام به، لم تكن تؤمن بذلك. كان يحدث شيء ما، شيء آخر علاوة على القبضة السوداء الفاحمة، ذات الأظافر الحمراء التي رُسمت على جدار الفرن الخلفي. لم يعلن أحد مسؤوليته عن ذلك، ولكنّ الأمر الأكثر صدماً من الإنكار الجماعي، هو رفض الجميع إزالتها. أولئك الذين يتسكعون هناك، يقولون كلّا، إنهم لم يرسموها على جدار الفرن ولذلك، كلّا، لن يزيلوها. ومع أن كيت غولايتلي وآنّا فلود مع، برييلو، تولوا إزالتها بمزيل للدهان وبسطل من ماء الصابون المغلي تدريجياً خلال خمسة أيام، كان زعماء المدينة خلالها يمنعون بكل غضب أي امرئ أن يمحوها إلا المتسكعين. الأصابع المضمومة ذات الأظافر الحمراء المتجهة إلى الجانب وليس إلى الأعلى، كانت تؤلم أكثر من لكمة

قوية، وقد دام ذلك لزمن طويل. ولم تستطع عملية التنظيف التي قامت بها كيت وآنّا أن تمحو الألم المثير والكريه الذي أحدثه ذلك. لم تتمكن سوان من فهم ماحصل. إذ لا يوجد في تلك الجهات بيض يشوشون أذهانهم (أخلاقيون أو شريرون) أو يحرضونهم عليهم، فيجعلونهم يشوهون الفرن ويتحدّون الكبار. الحقيقة أنّ السكان في تلك المنطقة كانت أحوالهم تزدهر، والحظ يحالفهم منذ أكثر من عشر سنوات: دولارات جيدة مقابل الثيران والقمح وبيع حقوق استثمار الغاز الطبيعي والنفط، كل هذا يموّل المشتريات ويدعم المضاربات. ولكن أثناء الحرب عندما راحت روبي تنمو وتزدهر، كان الغضب يغزو أماكن أخرى. قال المحترم بوليام وهو يقف على منبر كنيسة «صهيون الجديدة»: «إنها أزمنة شريرة». وقال القسّ كاري في كنيسة «هولي ريديمر»: إن هذه الأيام أشبه بيوم الحساب الأخير. ولم يقل أحد شيئاً آنذاك في كنيسة كالڤاري لأن روّاد الكنيسة كانوا مازالوا ينتظرون القسّ الجديد، الذي أعلن عند وصوله عام 1970 ، أخباراً طيبة: «سأقهر أعداءك أمام ناظريك»، هذا ماقاله الرب، الرب، الرب.

هذا قبل ثلاث سنوات. وهم الآن في العام 1973 . ابنتها الصغيرة ـ أليس كذلك؟ ـ كانت ستبلغ التاسعة عشرة الآن لو لم تذهب سوان إلى الدير طلباً للعون الذي تحتاجه الخطيئة دوماً. وبعد ذلك بوقت قصير، بينما سوان تقف تحت حبل الغسيل وتتعارك ضد الرياح لكي تنشر الشراشف، رفعت نظرها فرأت سيدة تبتسم لها في الباحة. كانت ترتدي فستاناً صوفياً بنيّ اللون وقبعة قديمة من القماش الأبيض وتحمل بيدها سلة كبيرة. لوّحت لها السيدة بيدها، فردّت سوان على تحية السيدة المجهولة بأفضل ماستطاعت وفمها مليء بملاقط الغسيل، بانحناءة من رأسها حاولت أن تجعلها مهذبة. استدارت السيدة وانصرفت. لاحظت سوان أمرين: السلّة بدت فارغة ولكنّ السيدة كانت تمسكها بيديها الاثنتين كما لو أنها ملآنة، وهو الأمر الذي أصبحت تعرفه الآن، على أنه إشارة إلى ماسوف يحدث ـ

فراغ يمكن أن تسحقها وطأته، وغياب أثقل من أن يحتمل. وكانت تعرف من أرسل السيدة لتبلغها ذلك.

صفّر البخار وقطع على سوان تحسُّراتها، فصبّت الماء الذي يغلي في فنجانٍ على كيس الموسلين الصغير. وضعت طبقاً على الفنجان وتركت الدواء يُنقع.

ربما كان عليهم أن يعودوا إلى الطريقة التي كانوا يصرّفون بها الأمور عندما ولد طفلاها. لمّا كان الجميع أكثر انشغالاً بأعمال البناء وتخزين المحصول في المستودعات وحصاد المزروعات، من أن يتشاجروا أو يفكروا بالأعمال الشريرة. الطريقة التي كانوا يصرّفون بها الأمور قبل الانتهاء من بناء كنيسة كالڤاري. عندما كان تعميد الأطفال يتمّ بالماء النظيف. حفلات تعميد رائعة، تثير المشاعر وتؤثر في القلوب بأناشيدها التي يرددها الكبار وهم يرتعشون والدموع تترقرق في أعينهم وهم يفكرون بخلاص أطفالهم أخيراً. حين كان القسّ يرفع الفتيات الصغيرات بين ذراعيه ثم يغطّسهن في الماء الواحدة بعد الأخرى بعد مباركته للماء ودون أن يوقعهنّ أبداً. كان الآخرون يتأملون هذا المشهد وهم يحبسون أنفاسهم. تنهض الفتيات بعد ذلك الواحدة تلو الأخرى، وقد حبسن أنفاسهنّ أيضاً، وفساتينهنّ البيضاء المبللة تتثنّى في الماء الذي تلتمع فيه أشعة الشمس. بينما يسيل الماء على شعرهنّ وعلى وجوههنّ، يرفعن أنظارهن نحو السماء قبل أن يحنين رؤوسهنّ بانتظار الأمر: «هيّا، اذهبن الآن!»، ثم لتطمينهنّ: «لقد نجوت يالبنتي!». وعندما تلمس الفتاة الماء المقدس، تتضاعف ثم تتضاعف ثلاث مرات أعذب نغمة، ثم تتعالى نغمات أخرى من حناجر أخرى وتنضم بانسجام رائع إلى الأولى. العصافير تلتزم الصمت على الأشجار وتحاول أن تتعلم. بعد كل هذا كانت الفتيات اللواتي بوركن ونَجَوْن يمشين متمهّلات يداً بيد، رؤوسهن مستندة إلى الأكتاف في الماء متّجهات نحو الضفة حتى الوصول إلى الفرن لتجفيف ملابسهنّ وهناك يتعانقن ويتبادلن التهاني.

أما الآن فيوجد حوض داخل كنيسة كالڤاري، بينما هناك

أوعية خاصة في كنيستي «صهيون الجديدة» و«هولي ريديمر» لصب الماء على الرؤوس المنتصبة لتلقي بَرَكة التعميد.

لولا حفلات التعميد، لما كان للفرن بعد ذلك قيمة حقيقية. لأن الناس في روبي ما عادوا بحاجة لما هو ضروري في أيام هاڤن القديمة. فالشاحنات التي قَدِموا بها إلى روبي جلبت أيضاً مواقد وأفراناً. واللحم الذي يأكلونه يحصلون عليه من الدواجن التي تصيح وتقوقئ في الباحة أو التي تنهار على رُكبها تحت ضربة مطرقة أو التي تحشرج من حزّةٍ في عنقها. وخلافاً للبدايات في هاڤن، أصبحت الطرائد صيداً عندما أسّسوا روبي. لقد هزّت النساء رؤوسهنّ عندما فكّك الرجال الفرن، أحضروه، ثم جمّعوه من جديد. ولكنهنّ في قرارة نفوسهنّ كنّ يلمنهم على المكان الذي أفردوه له في الشاحنة ـ بدلاً من بعض أكياس البذار الإضافية، أو خنوص، أو حتى بدل سرير صغير لأحد الأطفال. وكما لُمْنَهُم أيضاً على الساعات التي أمضوها في إعادة تجميعه ـ ساعات كان يمكن تكريسها لتركيب أبواب الغرف. وإذا كان للّوحة كل هذه الأهمية ـ وهي تقدّر ذلك من الاجتماع الذي حضرت قسماً منه وترى أنه مهم ـ فلماذا لم يأخذوها وحدها ويتركوا القرميدات في مكانها الذي ظلت فيه طيلة خمسين سنة؟

أوه، كم راقَ لهؤلاء الرجال إعادة بناء الفرن وكم كانوا مزهوّين بذلك، وكم اجتهدوا له. وفكرت: أمر جيد حتى هذا الحد، ولكن صار مبالغاً فيه. شيء نافع أصبح مذبحاً (الأمر الذي لم يُحَذِّرْ منه سِفْر التثنية وحسب، بل الرسالة البديعة الموجهة للكورنثيين2). وقد دمّر نفسه بنفسه مثل كل من أساء إلى الرب. ولم يكشف أحد الأمور على نحو أفضل مما فعل ذلك الشاب الوقح الذي حوله إلى فرن من نوع آخر. فرن يُشوى فيه لحم بشري.

عندما طالب رويال والآخران: ديستري وإحدى بنات بيوس دوبريس بعقد الاجتماع، تمت الموافقة على ذلك بسرعة. فلم يكن أحد قد طلب عقد اجتماع في المدينة منذ عدة سنوات. وظنّ الجميع، بمن فيهم سوان ودوقي أنّ الشبان سيبادرون إلى الاعتذار عن

سلوكهم ويلتزمون بتنظيف المكان وصيانته. ولكنهم بدلاً من ذلك أتوا ومعهم مخططهم. وهو مخطط ينجز ما كانت القبضة قد بدأته. فبدأ رويال، الذي يدعونه روي، الكلام بصورة ارتجالية، وألقى خطاباً كاملاً من كل الوجوه، لكنه لم يكن مفهوماً. لم يعرف أحد عمَّ يتكلم، والمقاطع التي استطاعوا فهمها كانت جنوناً محضاً بلا قيد أو شرط. قال بأنهم جميعهم خارج اللعبة تماماً، وأنّ الأمور قد تغيّرت في كل مكان باستثناء روبي. كان يريد إعطاء اسم لـ الفرن وأن تُعقد الاجتماعات فيه، لكي يقولوا لبعضهم كم هم أنيقون وهم يعطون لأنفسهم أسماءً بشعة، ليس كالأسماء الأمريكية. بل كالأسماء الأفريقية. إنَّ كلّ ماتعرفه سوان عن أفريقيا هو الخمسة والسبعون سنتاً التي كانت تتبرع بها للجمعية التبشيرية. واهتمامها بالأفريقيين، يعادل اهتمام هؤلاء بها: معدوم. ولكنّ روي كان يتحدث عنهم كما لو أنهم من الجيران أو أسوأ، كأنهم من أفراد العائلة. ثم تحدّث عن البيض وكأنه قد اكتشفهم لتوّه فقط، معتقداً أنّ ماعَرفَهُ كان أخباراً.

ومع ذلك كان هناك شيء آخر في خطابه. ليس مما يمكن الموافقة عليه أو رفضه، بل نوع من الاتهام. ضد البيض نعم، ولكن ضدّ أهل المدينة أيضاً الذين كانوا يصغون، ضد أهلهم وأجدادهم وجميع الراشدين في روبي. كما لو أنّ هناك طريقة جديدة وأشد رجولية للتصرف مع البيض. ليس على طريقة بلاكهورس أو مورغان بل نوع من الشيء الأفريقي الذي يطفح بالكلمات الجديدة، وبتركيبات جديدة للألوان وقصّات شعر جديدة. لمّح إلى أنّ الرغبة بتجاوز البيض أمر يتّسم بالجُبن. وأنه يجب التحدث إليهم، رَدُّهم والتصدّي لهم. لأن الأسلوب القديم كان بطيئاً، يقتصر على بضعة أشخاص، وضعيفاً. هذا الاتّهام الأخير جعل عنق ديك ينتفخ، وذات يوم من ذلك الأسبوع كان عليه أن يفجّر دماغ السمّانات كيلا ينفجر دماغه هو.

بين لحظة وأخرى سيجلب كيساً مملوءاً بهذه الطيور، وستقدم له سوان فيما بعد طبقاً من أنصاف السمّانات البنيَّة اللون والطرية. وقد تردّدت في إضافة الرز أو البطاطا، بينما كانت محتويات كوبها

تنحلّ. وعندما ابتلعت آخر نقطة منه فتح الباب الخلفي.

«ماهذا؟».

إنها تحب رائحته. رائحة الهواء الرطب والأعشاب. «لاشيء».

ألقى ديك كيسه على الأرض: «أعطني بعضاً منها، إذن».

«هيا ديك كم واحدة؟».

«اثنتا عشرة، لقد أعطيت ستة إلى سارجنت». جلس ديك وقبل أن يخلع سترته، فك رباط بوطه. «إنها تكفي لتحضير عشائين».

«هل ذهب «K.D.» معك؟».

«لا. لماذا؟» وغمغم متذمراً وهو يبذل جهداً ليخلع بوطه.

التقطته سوان وأخذته لتضعه على مدخل الدرج الخلفي. «يصعب العثور عليه في هذا الوقت. وأنا أراهن أنه الآن يخطّط لأمرٍ ما».

«هل حضّرت القهوة؟ مثل ماذا؟».

أخذت سوان تشم رائحة الهواء عبر الظلام لتختبر ثقله قبل أن تغلق الباب «لاأستطيع أن أقول شيئاً بالضبط. ولكنّ لديه الكثير من المبرّرات لكي ينتعل حذاءً خفيفاً».

«أظنّ أنه يطارد المؤخرات. أتذكرين تلك الفتاة التي كانت تتسكّع في المدينة منذ بعض الوقت ثم ذهبت إلى الدير؟».

التفتت سوان نحوه وهي تحمل غلاية قهوة أمام صدرها، ثم رفَعت غطاءها: «لماذا تقول إنها كانت «تتسكّع»؟ لماذا تقول «تتسكّع»؟ هل رأيتها؟».

«لا، ولكن هناك آخرين رأوها».

«ثم؟».

أخذ ديك يتثاءب: «ثم لاشيء، القهوة يا حبيبتي. القهوة، القهوة!».

«اذن لاتقل «تتسكّع».

«حسناً، حسناً: لم تكن تتسكّع». ضحك ديك وهو يلقي ثيابه على الأرض: «لقد كانت تعوم».

«ماهو الخطأ في خزانة الملابس، يا ديك؟».

أخذت سوان تنظر إلى البنطال المشمع، السترة الحمراء والسوداء وقميص الفانيلا. «ماذا يعني هذا؟».

«لقد قيل لي بأنّ كعب حذائها بطول ست بوصات».

«أنت تكذب».

«وأطير».

«حسناً. ولكن إذا كانت ماتزال في الدير، فلا بُدُّ أنها بخير».

أخذ ديك يدلك أصابع قدميه: «لديكِ نقطة ضعف حيال تلك النسوة المقيمات هناك. لو كنت مكانك لأخذت حذري، كم عددهن الآن؟ أربع؟».

«بل ثلاث، لقد توفيت السيدة العجوز، ألا تتذكّر ذلك؟».

حدق ديك فيها ثم حول نظره. «أية سيدة عجوز؟».

«الأم الرئيسة. من تظن؟».

«آه، صحيح. نعم». وتابع ديك تنشيط الدورة الدموية في قدميه. ثم قهقه ضاحكاً: «كانت تلك المرة الأولى التي استخدم فيها روجر شاحنته الجديدة».

فقالت سوان وهي تلتقط ملابس ديك: «إنها سيارة إسعاف».

«لقد سدّد ثلاثة أقساط في اليوم التالي. أرجو أن يستطيع تسديد الباقي، إذ لاتوجد حركة نقل إلى المشفى ولا إلى المقابر في هذه المنطقة تكفي لتبرير الثمن الباهظ الذي اشترى به سيارته».

فاحت رائحة القهوة، فأخذ ديك يفرك راحتيه.

سألته سوان: «هل أصيب بأذى؟».

«ليس بعد. ولكن بما أن أرباحه تتوقف على المرضى والموتى، فإني أفضّل أن يتعرّض للإفلاس».

«ديك!».

«إنه لم يقدم ولو شيئاً رديئاً من أجل ولديّ اللذين دفنا في كيس، كالهررة الصغيرة».

«لقد كان لهما تابوتان جميلان، جميلان جداً!».

«نعم، ولكن في الداخل...».

«كفّ عن هذا ياديك، لماذا لاتكفّ». وضعت سوان يدها على عنقها.

«آمل أن يتخلص من ورطته. وإذا رحلتْ قبله، في هذه الحال، حسناً، تعرفين ماذا يجب عمله. لايهمني على الإطلاق أن أذهب في شاحنته، ولكني أريد تابوتاً من الطراز الأول. وهذا يحل له المشكلة تماماً. فليت هو الذي يعاني من المشاكل». ثم ذهب ليغسل يديه على المغسلة.

«إنك تقول هذا طيلة الوقت. فكيف يتم ذلك؟».

«عن طريق الطلب بالبريد».

«ماذا؟» صبّت سوان القهوة في الفنجان الأزرق الكبير الذي يفضله زوجها.

«ألا تذهبن جميعكنّ إلى دمبي عندما ترغبن بشراء محمصة خبز أو مكواة كهربائية، توصون عليها بعد الإطلاع على الكاتالوغ ثم تذهبن إلى هناك لإحضارها. فمالذي يجنيه من ذلك؟».

«لم يكن فليت يمتلك الشيء الكثير وما يمتلكه كان هناك منذ زمن طويل. فقد تغيّر لون الأريكة ثلاث مرات وهي تقبع في الواجهة».

قال ديك: «هذا هو السبب، إذا لم يستطع التخلص من مخزونه القديم لن يتمكن من شراء مخزون جديد».

«اعتاد أن يفعل الشيء الصحيح».

صبّ ديك قليلاً من القهوة في صحن فنجانه: «قبل عشر سنوات. خمس». أخذ السائل الغامق اللون يرتعش عندما نفخ عليه. «الشبان

العائدون من ڤييتنام، كانوا يتزوجون ويستقرون بنقود الحرب، وتزدهر المزارع. كانت أحوال الجميع جيدة». رشف القهوة من حافة الصحن، وتنهّد من المتعة. «والآن، حسناً...».

«أنا لاأفهم، ياديك».

«أمّا أنا فأفهم». ابتسم لها. «لستِ بحاجة لأن تفهمي».

هي لم تقصد أنها لم تفهم عمّا يتحدث، بل تقصد أنها لاتفهم لماذا لم يعد يحاول مساعدة أصدقائه على حل مشاكلهم المالية. على سبيل المثال، لماذا لم يستطع مينوس الاحتفاظ بالبيت الذي اشتراه؟ ولكنّ سوان لم تحاول الشرح، بل اكتفت بتفحّص وجهه: وجه لطيف ومايزال جميلاً بعد ستة وعشرين عاماً، وهو الآن يشع سروراً. الصيد الموفق الذي قام به هذا الصباح هدّأه وأعاد كل شيء إلى مكانه. لون القهوة كان جميلاً ودرجة حرارتها مناسبة. وبعد قليل ستذوب في فمه شمّانات دون أدمغتها.

في كل مرة يسمح فيها الطقس، كان ديكون مورغان يقطع ثلاثة أرباع الميل بسيارته السوداء اللماعة. انطلاقاً من منزله في شارع سان جون. يستدير إلى اليمين عند زاوية الشارع المركزي، ويجتاز شوارع لوك، مارك وماتيو، قبل أن يوقف سيارته بكل دقة أمام المصرف. أما الحماقة المتمثلة باستخدام السيارة لاجتياز مسافة كان بوسعه اجتيازها سيراً على قدميه في وقت أقل من الوقت اللازم لتدخين سيجار، هذه الحماقة في نظره تُلغيها أهميةُ ذلك التصرف. سيارته كبيرة، وكل مايهمه فيها قوتها، وأمر آخر يستحق التعليق: كيف يغسلها ويلمّعها بنفسه ـ دون أن يترك «K.D.» أو أي عامل آخر، يلمسها. كيف يمضغ التبغ فيها دون أن يشعل فيها سيجاراً على الإطلاق، وكيف لم يكن يستند عليها أبداً. ولكن إذا تناقش بعض الناس معه واقفين بجانب السيارة، كان يداعب غطاءها بأطراف أظافره، يزيل عنها غباراً لايراه أحد سواه، ويزيل بمنديله بعض

البقع غير المرئية. وبين أصدقائه يضحك من غروره، لأنه يعرف أن سرورهم إزاء ضعفه يسير جنباً إلى جنب مع خوفهم من الأسلوب السحري الذي يكدّس به الأموال (هو وأخوه التوأم). حكمته التنبُّؤية. وذاكرته التي لاتخطئ. وأقوى ذكرياته، هي واحدة من ذكرياته الأقدم.

قبل اثنتين وأربعين سنة، تعارك معهم ليتركوا مكاناً ليده قرب النافذة الخلفية في السيارة (نموذج T) العائدة لـ «بيغ دادي» مورغان» لكي يلوّح مودِّعاً لأمه وأخته الصغيرة روبي. وبقية أفراد العائلة ـ الأب، العم بريور، أخوه الأكبر ايلدر وتوأمه ستيوارد ـ جميعهم كانوا متجمعين بجانب سلّتين كبيرتين ملآنتين بالمأكولات. لأن الرحلة التي يقومون بها يمكن أن تستغرق عدة أيام، وربما أسبوعين. قال الأب إنها الرحلة الكبرى الثانية، فأضاف العم بريور ضاحكاً، إنها الرحلة الكبرى الأخيرة.

الرحلة الأولى حصلت عام 1910 قبل ولادة التوأمين، يوم كانت هافن تناضل من أجل العيش. وقد اصطحب «بيغ دادي» آنذاك أخاه بريور وابنه البكر ايلدر في جولة بالسيارة عبر الولاية وخارجها، من أجل دراسة وتفحّص وتقييم مدن السود الأخرى. خططوا لزيارة مدينتين خارج أوكلاهوما وخمس مدن داخلها: بولي، لنغستون سيتي، رانتيسفيل، تافت، كليرفيو، موندبايّو، ونيكوديموس. ولكنهم في نهاية الأمر لم يزوروا سوى أربع. ولم يكفّ «بيغ دادي» والعم بريور وايلدر عن الحديث عن هذه الرحلة، كيف تفوقوا في النقاش والجدال مع قساوسة وصيادلة وأصحاب مخازن الملبوسات الجاهزة وأطباء وناشري صحف ومعلمين ومصرفيين. لقد تحدثوا عن الملاريا وقانون حظر المسكرات، وخطر المستوطنين البيض والمشاكل مع جماعة «الكريك»: المحرَّرين، عن إخلاص رجال الإدارة العسكرية، والطابع العملي للمعرفة، عن الحاجة للتدريب التقني والمهني، والنتائج المترتبة على إنشاء الولاية، وإقامة النوادي، وعن العنف الذي يمارسه البيض الذين يتجوّلون حولهم، بصورة عشوائية، أو منظمة. توقفوا بجانب حقول الذرة،

وساروا بمحاذاة مزارع القطن، زاروا ورشات الطباعة، وصفوف بعض المدارس، وبعض الكنائس والمناشر، درسوا طرق الريّ وأنظمة التخزين. وقد نظروا بشكل خاص إلى الحقول والبيوت والطرقات.

وبعد أحد عشر عاماً، قُصِفت تولسا بالقنابل، وقد زالت من الوجود بعض المدن التي زارها «بيغ دادي» وبرفقته بريور وايلدر. ولكن خلافاً لجميع التوقعات كانت هاڤن تزدهر عام 1932 ، إذ أنّ الكساد الاقتصادي لم يطلها: فالمدّخرات الفردية الخاصة كانت كبيرة، ومصرف «بيغ دادي» لم يَقُم بأية مجازفة. (جزئياً لأنّ أصحاب المصارف البيض أغلقوا دونه أبواب مصارفهم، وجزئياً لأنّ قيمة الأسهم كانت تتمتع بتغطية جيدة) والعائلات تتقاسم فيما بينها كل شيء، وتسعى دائماً للتأكد بأنّ لاأحد ينقصه شيء. إذا تعرض محصول القطن للدمار؟ يتقاسم الذين يزرعون الذرة أرباحهم مع الذين زرعوا قطناً. هل احترق مستودع للحطب؟ عند ذلك يعمد أولئك الذين يقطعون أشجار الصنوبر إلى جعل بعض قطع تلك الأشجار تسقط «عَرَضاً» من عرباتهم في بعض الأماكن لكي يتم التقاطها أثناء الليل. هل اجتاحت الخنازير حقل أحد الجيران؟ في هذه الحالة كان هذا الجار يتلقى تعويضاً عن محصوله، وتأكيداً بأنه سيحصل على لحم الخنزير عندما يذبحون الخنزير. والرجل الذي تجرح يده بضربة بلطة خاطئة ويتعطل عن العمل، لايكاد يضع لها الضماد الثاني حتى يأتي من يقطع له حزمة كبيرة من الحطب ويكدّسها له في مستودعه. وبما أن الناس نبذوهم في عام 1890 أثناء رحلتهم إلى أوكلاهوما، فإنّ سكان هاڤن كانوا لايرفضون شيئاً فيما بينهم، ويظلّون منتبهين لأقلّ حاجةٍ أو لأدنى نقص.

ولم يكن يرضي آل مورغان أن يُسرّ أحد من فشل بعض تلك المدن الملوّنة ـ لأنهم كانوا يتذكرون الرفض الذي جوبهوا به عام 1890 وكأنه رصاصة في أدمغتهم. وقد أشاروا فقط إلى لغز العدالة الإلهية، وقرروا اصطحاب التوأمين في رحلة ثانية لكي يشاهدوا كل شيء بأنفسهم.

وماشاهدوه في بعض الأحيان كان لاشيء، وأحياناً كان يبعث على الحزن. وظل ديك يذكر كل ذلك: مدن تشبه أحياءً للعبيد نُقلت وحُرّكت. مدن ثملة من الثراء. ومدن أخرى تتظاهر بالنوم مكدّسة الأموال والسندات والعقود المسجلة لدى كاتب العدل في بيوت غير مطلية على شوارع غير مرصوفة.

في إحدى المدن المزدهرة لاحظ هو وستيوارد وجود تسع عشرة امرأة زنجية يقفن صفاً على درج دار البلدية. كنّ يرتدين فساتين صيفية فُصلت من قماش لم يرَ أحد منهما في حياته قماشاً بمثل خفته ورقّته. معظم فساتينهن بيضاء عدا اثنين أحدهما أصفر ليموني والآخر ورديّ. كن يرتدين قبعات صغيرة بيج وردي وأزرق مغبر: قبعات تجذب الانتباه إلى العيون الواسعة والبرّاقة للنساء اللواتي يرتدينها. خصورهن تكاد لاتكون أضخم من أعناقهن. كنّ يتضاحكن ويتمازحن ويستعرضن أمام مصور لم يكن يُخرج رأسه من تحت غطائه الأسود حتى يعود ليخبئه تحته من جديد. وبعد وضعية مُرضية لأخذ الصور، تفرقت السيدات بمجموعات صغيرة وهنّ يثنين خصورهن النحيفة مسترسلات في الضحك، ويمشين متخاصرات. سوّت إحداهن وضع مشبك صديقتها، وتبادلت أخرى كتاب جيبها مع جارتها. أقدام صغيرة تستدير وتلامس الأرض بأحذية من الجلد الرقيق. وحيال بشرتهن البضة والمتلألئة تحت أشعة شمس العصرِ شعر ديك بانحباس أنفاسه. اجتاز بعض من أصغرهن سناً الشارع ومررن قريباً جداً من الحاجز الذي كان يجلس عليه هو وستيوارد. كن ذاهبات إلى مطعم ليس بعيداً من هناك. سمع ديك أصواتهن الموسيقية، الخافتة، المشبعة بالبهجة والأسرار، وتركن خلفهن نفحاتٍ من عطر زهرة رعي الحمام. لم يتبادل التوأمان النظرات. ودون أن يتلفّظا بكلمة واحدة، اتفقا على السقوط عن الحاجز. وبينما هما يتخبّطان على الأرض، ويوسّخان بنطاليهما وقميصيهما، التفتت السيدات الزنجيات لكي ينظرن. فحصل الشابان على الابتسامات التي يتمنيّانها، قبل أن يقطع «بيغ دادي» حديثه مع الآخرين وينزل من السقيفة لكي يأتي ويمسك كلاً

منهما من نطاق بنطاله ويقودهما إلى السقيفة ليضربهما بعكازه على مؤخرتهما.

وحتى اليوم مايزال عطر زهرة رعي الحمام ماثلاً في الذاكرة، وحتى اليوم ماتزال تلك الفساتين الصيفية، وتلك البشرات النضرة الوضّاءة تثير اضطراب ديك، ولو أنه وستيوارد لم يرتميا عن الحاجز، لانفجرا بالنحيب. ولذلك فإن بين تفاصيل الذكريات التي ماتزال محسوسة من تلك الرحلة ـ الأسف، العناد، الخداع، الثراء ـ ظلت الصورة التي يحتفظ بها ديك في ذاكرته للسيدات التسع عشرة بفساتينهنّ الصيفية تختلف عن الصورة التي أخذها المصوّر لهنّ. كانت ذاكرته ملوّنة بألوان الباستيل وأبدية.

في صباح اليوم التالي، بعد الاجتماع في كنيسة كالفاري ولأنه كان راضياً عن حصيلة الصيد، ولم يكن متعباً ولايشعر برغبة بالنوم، فقد قرّر الذهاب لتفقّد الفرن قبل أن يفتح المصرف. ولذلك انعطف إلى اليسار وليس إلى اليمين في الشارع المركزي، ومرّ بالمدرسة على الجانب الغربي، أمام بقّالية إيس ومخزن المفروشات والأدوات المنزلية الذي يملكه فليتوود، وأمام عدة منازل في الجانب الشرقي. وعندما وصل إلى الفرن، قام بجولة حوله: المكان نظيف، عدا بعض علب الصودا والأوراق التي سقطت من حاوية القمامة. لا قبضة، ولا شبان يتسكعون في ذلك المكان. رأى أنّ عليه أن يتحدّث مع آنّا فلود التي كانت تدير حينئذٍ بقالية إيس ـ لكي تلتقط العلب الفارغة والأوساخ التي تنجم عن المشتريات التي تحصل في دكانها. هذا ماكان يقوم به والدها إيس في الماضي إذ يكنس المكان كلياً كما لو أنه مطبخه الخاص، ولو تُرك يعمل كما يريد لعمد إلى تكنيس الشارع من الرصيف إلى الرصيف المقابل. وعند عودته إلى الشارع المركزي لاحظ ديك سيارة ميسيز الفورد العتيقة متوقفة أمام منزل آنّا. بعد ذلك سمع، من جهة اليسار، أصوات مجموعة من التلاميذ ينشدون قصيدة سبق له أيضاً أن حفظها غيباً، وهو لم يكن

بحاجةٍ لسماع أبيات «دنبار»(*) سوى مرة واحدة حتى يحفظها جيداً عن ظهر قلب وبصورة دائمة. وحين تطوّع في الجيش هو وستيوارد كان عليهما أن يتعلّما كثيراً من الأمور ـ بدءاً من عقد ربطة العنق العسكرية بصورة نظامية وحتى حزم الحقيبة. كانا أوّل من فهم، وتذكّر كل شيء تماماً كما في مدرسة هاقن. ولكن لاشيء كان أفضل ممّا تعلّماه في البيت، وهما يجلسان على الأرض في غرفة تضيئها نار الموقد، يصغيان لقصص الحرب وقصص الهجرات الكبيرة ـ قصص مَنْ قاموا بها ومَنْ لم يقوموا بها، إخفاقات وانتصارات رجال أذكياء ـ مخاوفهم، شجاعتهم، حالات الارتباك والحيرة التي تعرضوا لها. قصص الحب العنيف والخالد. كلّ ذلك في الكتاب الوحيد الذي كان بحوزتهم في ذلك الحين: غلاف من الجلد الأسود، الكتابة عليه دوّنت بحروف ذهبية، الصفحات أكثر رقة ونعومة من أوراق الأشجار حديثة الظهور، ومن بتلات الأزهار. الغلاف مهترئ في أعلاه، وقد لفّت الأصابع زواياه حتى حدود الحروف. وكلّما تابعا الاستماع إلى تلك القصص، ازدادا يقيناً بأنها تعنيهما وأنها قصصهما ـ والكلمات التي كانت تبدو لهما في بداية الأمر غريبة، أصبحت مألوفة فيما بعد، واكتسبت قيمة وجمالاً منوماً تنويماً مغناطيسياً.

حين كان يقود سيارته متجهاً نحو الشمال، بدا له الشارع المركزي والشوارع الجانبية بحالة مرضية كالعادة: منازل هادئة، بيضاء وصفراء ملأى بمنتجات الصناعة، وفي داخلها نساء سوداوات أنيقات منهمكات بأعمال مفيدة، وخزانات حسنة الترتيب، دون مبالغة أو إهمال وبياضات مغسولة ومكوية إلى حد الكمال. لحم جيد محضّر وجاهز للشواء. مشهد يضحّي بروحه من أجله لو أنّ «K.D.» أو بعض الشبان الكسولين أزعجوه.

كان ذلك صرخةً بعيدة من أزمنة هاقن الأولى وكان جدّه سيسخر من هذه الرفاهية ـ شراء عقارات بالدولارات المتوافرة بدلاً

(*) بول لورنس دنبار: شاعر أميركي (1872 ـ 1906).

من مقايضتها بسنوات من العمل. كم كان سينزعج من أحفاده الذين يعملون اثنتي عشرة ساعة في اليوم، وخمسة أيام في الأسبوع، بدلاً من ثماني عشرة إلى أربع وعشرين ساعة يومية كان سكان هافن يؤدُّونها لمجرد البقاء على قيد الحياة. أما أحفاده اليوم فيستطيعون الذهاب لصيد السمّان لمجرد المتعة والتسلية وليس بسبب الحاجة البائسة للقاء الزوجة وثمانية أولاد حول المائدة، دون شعور بالخجل. وربما ضيَّق عينيه الباردتين والمصابتين بالرَمَدْ عند رؤيته الفرن. لم يعد ذاك هو المكان الذي كانوا يلتقون فيه للكلام عمّا أنجزوه من الأعمال، ومايحتاجون إليه، ويتحدّثون عن الأمراض، الولادات والوفيات، عن الروحات والغدوات. هذا الفرن الذي شاهد الأطفال المعمّدين يدخلون في حياة حظيت بالمباركة يقتصر دوره اليوم على تأمل الشبان الكسولين: كان يتسكع هناك أيضاً اثنان من أبناء سارجنت، ثلاثة من أبناء بول، اثنان من آل سيرايت، اثنان من أسرة بوشامب، ولدان من عائلة دوبريس ـ وبنات سوت وبيوس وحتى آرنيت وابنة بات بيست الوحيدة. مع أن جميع هؤلاء ينبغي أن يعملوا بالتقطيع، بتحضير المعلّبات، بالتصليح والترقيع، أو بأعمال النقل. هذا الفرن الذي سمعت كل قرميدة فيه أناشيد جوقات المردّدين الحيّة وهي تصدح في تمجيد الرب، أصبح مرغماً الآن على سماع الموسيقا التي تبثها الإذاعة والموسيقا المسجلة ـ موسيقا تعتبر مَيْتةً سلفاً عندما تمرّ عبر سلك أسود يمتد من دكان آنّا إلى الفرن كأنه أفعى. ولكنّ جدّه يمكن أيضاً أن يكون مسروراً: فبدلاً من الأطفال والبالغين الذين كانوا يجتمعون مساءً، في الزمن السابق، ليخربشوا حروفاً ورسوماً بواسطة الحصى على قطع الفخار، لكي يتعلموا القراءة ممن يتقنونها، كانت توجد مدرسة هنا. ليست كبيرة كالمدرسة التي بنوها في هافن، ولكنها مفتوحة الأبواب طيلة ثمانية أشهر في السنة، دون أن يتسولوا أموالاً من الدولة لتشغيلها. لم يحتاجوا حتى لـ سنت واحد.

وكما توقّع «بيغ بابا» تماماً، لو ظلوا معاً يعملون ويصلّون

ويدافعون عن أنفسهم، لن يحدث لهم ماحدث لسكان داونز لكسنغتون، سابولبا، وغانز التي طُرد منها الملوّنون في إحدى الليالي المظلمة. وما كانوا أيضاً في عداد الموتى والجرحى في تولسا ونورمان وأوكلاهوما سيتي، هذا عدا عن ضحايا الاضطرابات والاعتداءات التلقائية وأعمال القتل والتهجير بعد إضرام الحرائق المتعمدة. ما عدا شقّ هنا وتصدّع هناك، فقد ظلّ كل شيء سليماً في روبي. ولاجدوى من التساؤل عمّا إذا كان نقل الفرن يعتبر خطأً، أو إذا كان بحاجة لأن يظل في أرضه الأصلية كأساس لاحترام وقدسيّة المنفعة التي يستحقها. كلّا، كلّا، أيها الـ«بيغ بابا»، كلا أيها الـ «بيغ دادي» إننا لم نخطئ.

كان اطمئنان ديك يتّصف بالقوة أكثر مما يتصف بالثقة، هذا لأنّ سوان كانت تقلقه بشكل متزايد. لم يكن هناك مايبرّر ذلك، ولكن كان لديه شعور دائم بالخسارة. فقد ظلّ يشاطرها حزنها، ويعتقد أنه يحسّ بخسارة ولديه بمثل الحدّة والعمق اللتين تحسّ بهما هي، عدا كونه يعرف عن هذا الأمر أكثر مما تعرف هي. فهو مثله في ذلك مثل معظم أفراد أسرة مورغان، قد شارك في الحرب، أي أنه عاش الموتَ، ورآه وهو يزور الآخرين ويعرف أنّ الأجساد لاتستلقي على الأرض، بل إنها في معظم الأحيان تتطاير نتفاً في الجو، وأنّ ماأرسلوه لهم في تلك الصناديق التي أنزلوها من القطار في ميدلتون كانت قطعاً جمّعوها ووضعوها في الصناديق، ولاتزن أكثر من نصف وزن جسم شاب في التاسعة عشرة من عمره. كان إيستِر وسكوت ينتميان إلى وحدات متطوّعة، ولو فكّرت سوان بهما ربما استطاعت أن تعتبر نفسها سعيدة، فيما لو علمت أنّه أيّاً كانت القطعة التي تنقص من جسديهما، فإنّ القطع كلها لرجال سود ـ وهذه بادرة احترام وقاعدة كان الأطباء يلتزمون بتطبيقها خشية إضافة فخذي رجل أبيض أو قدميه إلى رأسٍ أسود. لو أن سوان شكّتْ بما يمكن أن يحدث؟ ـ آه، يارَجل. لقدْ ندم على ارتكابه خطأً وهو يتناول القهوة، ولكونه نوّه عما يعجز روجر عن القيام به. بل إنه لم يشأ حتى أن تتصور السؤال الوحيد الذي طرحه على روجر ـ أولاً، بشأن

سكوت وبعد ذلك بشأن إيستر: «هل جميع القطع سوداء؟». وذلك يعني أنها إذا لم تكن كذلك فعليك أن تتخلص من القطع البيضاء. فأقسم روجر على أنها متماثلة عرقياً، والتوابيت الفخمة دليل امتنان عائلة مورغان وعزاءً لسوان، ومع ذلك فإن هذه الخسارة تركت آثاراً بدا أنها تتراكم بصورة لايمكن السيطرة عليها. لم يكن يثق كثيراً بالأدوية التي تتناولها ولايثق إطلاقاً بمصدر تلك الأدوية. ولكنه لم يكن يجد مَطعناً في سلوكها. وهي جميلة بقدر مايمكن أن تكون عليه امرأة فاضلة. تدير منزلها بصورة جيدة، وتشارك بالأعمال الخيرية في كل مكان. بل كانت أكثر كرماً ممّا يأمل، وهذا مالايستطيع أحد أن يلومها عليه أو أن يفعل شيئاً حياله. إذ أنّ سوان تتحمل عبء خسارة ولدين، أمّا هو فيتحمل عبء خسارة جميع الأولاد. وبما أنّ ولديه التوأمين لم يُنجبا، فقد انتهت عند ذلك الجد ذريّة آل مورغان. نعم، هناك بالتأكيد أبناء ايلدر ـ زمرة تأوي إلى كل مكان ماعدا البيت، وقد أتى بعض أفرادها إلى روبي لتمضية أسبوع فيها، ولكنهم غادروها قبل نهاية الأسبوع متلهّفين للهرب من حالة السلم التي وَجَدوها كئيبة، ومن الصناعة التي وجدوها مملّة، ومن الحرارة التي شعروا أنها مهينة، ولذلك لم يكن هناك جدوى من التفكير بهم ولا بالسلالة الشرعية لـِ آل مورغان. إنه هو وستيوارد الوريثين الحقيقيّين، والدليل على ذلك ماكانت عليه مدينة روبي نفسها. مَنْ غير الوَرَثة الشرعيين يمكنه أن يكرّر مافعله زكريا وريكتور تماماً؟ ولكن بما أنّ جانباً من المهمة هو التكاثر، فإنّه كان يتألم لعلمه أنّ «K.D.» هو السبيل الوحيد للقيام بذلك. و«K.D.» هو الابن الذي أعطته إياه أختُهُ وأحد رفاق السلاح. وهذه العقدة التي راحت تتكوّن في صدر ديك كل مرة يفكر فيها بأخته، أصبحت مألوفة لديه. روبي، تلك الفتاة المتواضعة والضحوك، التي عملا على حمايتها هو وستيوارد طيلة حياتهما أصيبت بالمرض أثناء الرحلة، ثم بدا عليها أنها تتعافى، ولكنها مالبثت أن انتكست بسرعة. ولمّا أصبح واضحاً أنها بحاجة للمساعدة الطبية، لم يجدا وسيلة لتوفيرها. نقلاها بالسيارة إلى دمبي، ثم إلى مدينة أخرى أبعد منها، إلى ميدلتون. ولكنّ الملوّنين ماكانوا يُقبلون في

المشافي، ولايعالجهم أي طبيب مؤهّل. لقد فقدت السيطرة ثم الوعي عند وصولهم إلى ثاني مشفى. وماتت فوق مقعد في قاعة الانتظار بينما كانت الممرضة تبحث عن طبيب لكي يفحصها. وعندما علم الأخوان أنّ الممرضة كانت تحاول العثور على طبيب بيطري حملا أختهما المتوفاة على ذراعيهما، وظلّت أكتافهما ترتجف طوال طريق العودة. ثم دُفنت روبي في زاوية جميلة من مزرعة ستيوارد دون حفل جنائزي، وفي ذلك الوقت خُتمت القضية. صلاة على شكل صفقة عُقدت مع الله، لا أقل من ذلك، يبدو أنه باركها وتقبّلها، إلى أن أعيد جَسَدُ إيستِر وسكوت عام 1969 . بعد ذلك أدركا بشكل أفضل شروط الصفقة وحدودها.

ربّما كانا قد ارتكبا خطأً عام 1970 ، عندما ثَنَيا «K.D.» وابنة فليت عن عزمهما على الزواج. كانت حاملاً، ولكن بعد إقامتها فترة قصيرة في الدير لم تعد كذلك، هذا إذا كانت حقاً حاملاً، وقد استولى القلق على الخالين بشأن الشكل الذي ستتخذه ذريّة فليتوود، وعلاوة على ذلك، فقد كان هناك مرشّحات أخريات مناسبات في الجوار. ولكنّ «K.D.» كان دائماً يضاجع إحدى الشاردات التي تعيش هناك، حيث مدخل الجحيم واسع، وقد حان الوقت لإبلاغه الأخبار: المواخير كلها لا تعلق الضوء الأحمر في النافذة.

ضغط على مكابح السيارة لإيقافها أمام المصرف عندما لاحظ أمامه شبح فتاة تسير منفردة. عرفها في الحال، ولكنه أخذ يراقبها بانتباه، لأنها أولاً لاترتدي معطفاً، ثم لأنه لم يسبق له أن رآها خارج منزلها منذ ست سنوات.

الشارع المركزي شارع عريض جداً، طوله ثلاثة أميال مكسوة بالإسفلت، تبدأ عند الفرن وتنتهي أمام مخزن الأغذية والبذار الذي يملكه سارجنت. الشوارع الجانبية الأربعة شرقي الشارع المركزي تحمل أسماء القدّيسين الانجيليّين الأربعة. وعندما دعت الحاجة لشارع خامس، أُطلق عليه اسم سان بيتر. وفيما بعد، عندما توسّعت روبي، افتُتحت شوارع أخرى إلى الغرب من الشارع المركزي،

ورغم أن هذه الطرق الجديدة استمرار للشوارع الشرقية ـ فهي تقع مقابلها تماماً ـ فقد أُطلقت عليها أسماء مشتقّة من أسماء الشوارع الأولى. وهكذا فقد أصبح شارع سان جون الشرقي يسمى امتداد شارع سان جون. وشارع سان لوك أصبح امتداد شارع سان لوك. وقد أعجبتْ سلامةُ هذا الإجراء جميع الناس تقريباً، وبخاصة ديك، وظلّ هناك على الدوام أماكن لمنازل إضافية (يمولها عند الضرورة مصرف الأخوين مورغان) تبنى على الأراضي والحقول الكائنة خلف البيوت المبنية سابقاً. ويبدو أن المرأة التي أخذ يراقبها ديك قد غادرت امتداد شارع سان بيتر، واتجهت نحو مخزن الأغذية والبذار العائد لـ سارجنت. ولكنها لم تتوقف عنده، بل على العكس من ذلك، اتجهت بتصميم نحو الشمال، حيث يعرف ديك أنه لايوجد شيء على مسافة سبعة عشر ميلاً. فماذا يمكن أن تفعل أحلى فتاة، التي سمّيت سويتي(*) لأنها كانت كذلك بطبيعتها، وإلى أين تذهب دون معطف في هذا الصباح البارد من شهر تشرين الأول، بعيداً عن المنزل الذي لم تخرج منه منذ عام 1967؟

لفتت انتباهه حركة في مرآة سيارته العاكسة، وعرف الشاحنة الصغيرة الحمراء القادمة من الجنوب. يقودها آرون بول وقد أتى متأخراً كما توقّع ديك لأنه أحضر القسط الأخير من القرض الذي استلفه من المصرف. فكّر ديك أن يجعل بول ينتظر، ويلحق بـ سويتي الحلوة بسيارته، ولكنه أوقف محركها. لأن جولي سكرتيرته لاتأتي قبل الساعة العاشرة. وليس هناك مناسَبة لايفتَحُ فيها مصرفُ مدينة جيدٌ وجادٌّ أبوابَهُ في الوقت المحدد.

قالت آنّا فلود: «انظر. هيا انظر إليه وحسب!».

(*) سويت (Sweet من sweetie): حلو/ حلوة.

كانت تراقب سيارة ديك وهي تدور حول الفرن، ثم تسير متمهّلة عند مرورها أمام مخزنها.

«ماذا به كي يطوّف هكذا؟».

رفع ريتشارد ميسنِر نظره عن مدفأة الحطب، وقال وهو مستمر في إشعال النار: «إنه يتحقق من بعض الأشياء وحسب، وهذا من حقه، أليس كذلك؟ إنها مدينته نوعاً ما، له ولأخيه ستيوارد».

«أنا لاأقول هذا، يمكنهما أن يتصرّفا كما لو أنها يمتلكانها، ولكنّ هذا ليس صحيحاً».

يحب ميسنِر أن تكون النار قوية، وهذه التي يشعلها ستكون كذلك. ثم أضاف قائلاً: «حسناً، إنهما اللذان أسّساها، أليس كذلك؟».

«مع من كنت تتحدث؟» غادرت آنّا النافذة وذهبت باتجاه الدرج الخلفي المؤدي إلى شقتها. دسّت تحت الدرجات قِدراً فيه بعض بقايا اللحم والحبوب. لأنّ الهرة التي أصبحت شريرة منذ أن أصبح لديها صغار، صارت تحدّق بها وتوجه إليها نظرات تعبّر عن التهديد. «خمس عشرة عائلة أسّست هذه المدينة، خمس عشرة وليس اثنتان. إحداها أسرة أبي، والأخرى أسرة عمي...».

قاطعها ميسنِر قائلاً: «تعرفين ماذا أعني».

أخذت آنّا تنظر عبر الظلام، لكي تحاول أن ترى صغار الهرة الذين كانوا في الصندوق. ثم قالت: «لا لاأعرف».

فقال ميسنِر: «المال، آل مورغان كانوا يملكون المال، وربما كان ينبغي عليّ أن أقول إنهم قد موّلوا المدينة... لا أسّسوها».

لن تأكل الهرة إذا كان هناك من يراقبها، ولذلك ألقت آنّا نظرة مختلسة على الهررة الصغار، والتفتت نحو ريتشارد ميسنِر: «إنكَ تخطئ بقولك هذا أيضاً. فكل فرد من السكان دفع الحصة المطلوبة منه. وفكرة المصرف لم تكن سوى طريقة للقيام بذلك. أما العائلات فقد اشترت الأسهم فيه كما تعرف، بدلاً من الودائع التي استغلوها منذ القديم. وبهذه الطريقة حفظوا أموالهم».

هزّ ميسنِر رأسه ومسح يديه. فهو لايريد الدخول في خصام آخر. ورفضت آنّا أن تفهم الفرق بين توظيف المال والعمل التعاوني. تماماً كما كانت ترفض الاعتقاد بأن مدفأة الحطب تعطي حرارة أكثر من مدفأتها الكهربائية الصغيرة. وقالت:

«كل مافي الأمر هو أن آل مورغان كانوا يملكون الثروة في مصرف والدهم في هاڤن وجدّي آبل فلود كان شريكه. وجميع الناس كانوا يلقبونه بـ «بيغ دادي» ولكنّ اسمه الحقيقي، كان...».

«أعرف، أعرف. ريكتور. ريكتور مورغان المعروف أيضاً باسم «بيغ دادي». وهو ابن زكريا مورغان الذي لقّبه المسيحيون بـ «بيغ بابا». ثم ذكر لها عبارة طالما أحبَّ مواطنو روبي تكرارها، وهي قولهم: «لقد أفلس مصرف ريكتور، ولكنّ ريكتور لم يُفلس».

«هذا صحيح. اضطرّ المصرف لإيقاف نشاطاته ـ في بداية الأربعينات ـ ولكنه لم يغلق أبوابه بصورة نهائية. أعني أنهم كان لديهم مايكفي من الأموال ولذلك استطاعوا استئناف العمل. أعرف ماذا تظن، ولكن للأمانة لايمكن القول إنّ الأمور لم تنجح. فالناس جميعهم ينجحون هنا».

«جميع الناس ينجحون بفضل القروض يا آنّا. وليس الأمر سيّان».

«إذن؟».

«إذن ماذا لو توقفت القروض؟».

«لايمكن أن يحصل ذلك. فنحن نملك المصرف، وليس المصرف هو الذي يملكنا».

«أوه، يا آنّا أنت لاتفهمين هذا الأمر، ولاتعرفين عنه شيئاً».

كانت تحب وجهه، حتى عندما يوبّخ أناساً تحبّهم مثل ستيوارد الذي يبدو أنه يحتقره، ولكنّ ستيوارد هو الذي أفهم آنّا درس العقرب. عندما كانت في الرابعة من عمرها كانت تجلس على سقيفة

دكان والدها الجديدة ـ عام 1954 ـ . كان الجميع منهمكين في البناء وجماعة من الرجال من بينهم ستيوارد تساعد إيس فلود في إنجاز مجموعة الرفوف. كانوا في الداخل يأخذون قسطاً من الراحة بعد غداء سريع، بينما آنّا تلهو بتحويل بعض النملات عن طريقها على درجات السلم، وتضع العقبات على طريقها وتنظر إليها وهي تتسلق جانب ورقة ثم تتابع سيرها كما لو أنّ جبلاً أخضر وجديداً تماماً قد أصبح عنصراً لايمكن تجنبه في رحلتها. فجأة خرج عقرب بجانب قدمها الحافية، فاندفعت إلى الدكان جاحظة العينين. توقف الحديث، حاول الرجال معرفة سبب هذا الظهور الطفولي المفاجئ، ولكن ستيوارد هو الذي أخذها بين ذراعيه وسألها: «ما الذي يخيفك ياجميلتي؟» وأخذ يهدئ مخاوفها. ظلّت آنّا متشبّثةً به بينما أخذ يشرح لها أنّ العقرب إذا رفع ذنبه فذلك لأنه يخاف منها بقدر ماتخاف منه وليس لسبب آخر. وفي ديترويت عندما راحت ترى رجال الشرطة، ذوي الوجوه الطفولية، يحملون الأسلحة، كانت تتذكر ذنب العقرب المنتصب. وقد سألت ستيوارد مرةً عن تأثير ولادة الشخص كتوأم لشخص آخر. فأجابها: «لاأستطيع أن أقول شيئاً عن ذلك، لأني لم يسبق لي أبداً أن كنت بمفردي، ولكني أعتقد أنّ التوأم يشعر أنه أكثر كمالاً.

فسألته آنّا: «كما لو أنك لم تستطع أن تبقى وحيداً أبداً؟».

«حسناً، نعم، شيء من ذلك، بل وأكثر أيضاً... أكثر تفوقاً».

عندما مات والدها إيس، عادت إلى روبي وأخذت تستعد لبيع كل ماتملك أي، المخزن، المنزل، السيارة، لكي ترجع إلى ديترويت، عندما وصل القس الجديد لكنيسة كالفاري إلى المدينة، بمفرده، في سيارة فورد عتيقة.

صالبت آنّا ذراعيها فوق مكتب الحسابات الخشبي: «إني أملك هذا المخزن. لقد توفي والدي ـ وأصبح المخزن ملكي. ليس هناك إيجار ولارهن. لاشيء سوى الضرائب والرسوم للبلدية. أنا أشتري الأشياء وأنا أبيعها، وأنا أحدّد الأسعار بنفسي».

«أنت محظوظة. ماذا عن المزارع؟ تصوري لو كان المحصول سيئاً. لِنقلْ خلال سنتين متواليتين. فهل تستعيد العجوز، السيدة ساندز أو ناثان دوبريس حصتيهما؟ أو أنهما يقترضان عليها، أم يبيعانهما إلى المصرف؟ أم ماذا يفعلان؟».

«لاأدري ماذا يفعلان، ولكني أعرف أن المصرف لايربح شيئاً فيما إذا فقداها. لأنّ أصحاب المصرف سوف يعطونهما حينئذٍ مزيداً من النقود لكي يشتريا بذاراً وسماداً وكل مايحتاجانه».

«تقصدين القول إنهم سوف «يقرضونهما» نقوداً».

«أشعر بألم في رأسي وأنا أصغي إليك. ربما كان هذا صحيحاً في المدينة التي أتيت منها، ولكنّ الأمر مختلف في روبي».

«آمل ذلك».

«إنه هكذا. وأيّاً كانت المشكلة، فإنها لاتتعلّق بالنقود».

«حسناً، بماذا تتعلّق إذن؟».

«من الصعب معرفة ذلك، ولكني لاأحب منظر ديك وهو يفتش الفرن. فهو يفتشه في كل يوم يرسله الله. ويكاد من يراه يقول إنه يصطاد، أكثر منه يفتش. ماهُم سوى أولاد».

«القبضة المرسومة على الفرن أخافت الجميع».

«ولماذا؟ ليست سوى صورة! وكأن أحداً أحرق صليباً!». وأخذت من غيظها تمسح الأشياء ـ الجرار وواجهات الإطار وصندوق تبريد الصودا ـ ثم أضافت: «كان عليه أن يتحدّث إلى الآباء، لاأن يطارد الأولاد كما لو أنه العمدة «الشريف». فالفتيان بحاجة لشيء آخر يختلف عما هو موجود هنا».

لم يعد ميسنر يستطيع الموافقة على ماتقوله. فمنذ اغتيال مارتن لوثر كينغ أقسم الناس على احترام التزامات جديدة، وأدخلوا قوانين جديدة، ولكنّ الشيء الجوهري ظلّ عبارة عن مظاهر تزيينية: تماثيل، أسماء شوراع، خطابات. كما لو أنّ أحدهم رهن شيئاً وأضاع الإيصال. وهذا ماراح يبحث عنه ديستري وروي وليتل ميرث والآخرون. وربما مايبحث عنه أيضاً مَنْ رسَمَ القبضة.

وعلى أية حال، فإنهم إذا لم يجدوا الإيصال، ربما يدخلون عنوةً إلى الدكان التي تمنح قروضاً مقابل رَهْنِ الأشياء. والسؤال هو: من كان أول من رهنه ولماذا؟

«لقد قلت لي إنك من أجل هذا سافرتِ ـ لاشيء لتفعليه ـ ولكنك لم تقولي لي أبداً لماذا رجعت».

لم تكن حالة آنّا تسمح لها بأن تشرح كل هذا، ولذلك، قررت أن توضح له مايعرفه سابقاً: «نعم، حسناً، كنت أظنّ أني ربما استطعت القيام بشيء في الشمال. شيء حقيقي لايحطم قلبي. ولكنّ كل شيء كان... لاأدري... كلاماً وركضاً في كل مكان. لم أكن أعرف إلى أين وصلت في كل ذلك. ولكني لست نادمة أبداً على سفري ـ حتى لو لم أوفق».

«حسناً، إني مسرور، لأنك لم تُوفّقي، أيّاً كان سبب ذلك». وأخذ يتحسّس يدها ويداعبها.

فبادلته آنّا المداعبة قائلةً: «إني قلقة بشأن بيلي ديليا. يجب أن نجد شيئاً نفعله ياريتشارد أكثر من مسابقات الجوقات، ودروس الكتاب المقدس ومسابقات أكبر الخضار حجماً في البساتين، ومسابقات الأطفال للاغتسال تحت الدوش...».

«ماذا عنها؟».

«أوه، لاأدري. أتت إلى هنا منذ بعض الوقت، وأدركتُ في الحال أنها تفكر بأمر، ولكنّ شاحنة نقل البضاعة تأخرت، ولذا عاملتها بجفاف».

«وماذا يعني ذلك؟».

«لقد سافرت، على الأقل هذا ماأعتقده، ولم يرها أحد بعد ذلك».

«وماذا تقول أمها؟».

هزّت آنّا كتفيها: «من الصعب التحدث مع بات. لقد سألتها كيت عن بيلي ديليا ـ لم تكن قد رأتها أثناء تدريبات الجوقة. فهل تعلم ماذا فعلت؟ لقد أجابت عن سؤال كيت بسؤال آخر». وأخذت آنّا تقلّد

صوت بات بيست الناعم والبارد: «ولماذا تريدين معرفة ذلك؟» ومع ذلك، فهي وكيت قريبتان جداً من بعضهما».

«أتظنين أنها تبحث عن المتاعب؟ لايمكنها أن تختفي دون أن يعرف أحد إلى أين ذهبت».

«لاأدري ماذا أظنّ».

«تحدّثي في الأمر مع روجر لابد أنه يعرف، فهو جدّها».

«أسأله أنت، وليس أنا».

«قولي لي، لماذا لديكم جميعاً هذا الشعور تجاه روجر؟ هاقد مضت ثلاث سنوات أو مايقارب ذلك وأنا هنا، دون أن أستطيع فهم سبب هذا السلوك البارد تجاهه. هل سبب ذلك هو عمله في إعداد مواكب دفن الموتى؟».

«محتمل. هذا إلى جانب أنه، أخيراً «أعدّ» مأتم زوجته بالذات ولاأدري إذا كنت تفهم ماأعنيه».

«أوه!».

«إنّ هذا يبعث على التفكير، أليس كذلك؟».

«حتى الآن».

ظلّا صامتين لحظةً، يفكران في هذه القضية، ثم دارت آنّا حول المكتب وذهبت لتقف قرب النافذة: «أتعلم، لقد كنت مصيباً بشأن الطقس. إنها المرة الثالثة التي لاأصدقك فيها، وأكون أنا المخطئة».

لحق بها ميسنر. وبمجرّد ملامستهما لزجاج النافذة، استطاعا القول بأنّ درجة الحرارة قد هبطت فجأة تحت العشرين.

قالت ضاحكةً، وهي سعيدة أنها أخطأت إذا كان هذا يُثبت أنّ الرجل الذي تعشقه على صواب: «هيا، أشعلها!» بعض النساء العاملات في الكنيسة كنَّ يَستَهجِنَّ الاهتمام الظاهر الذي يوليه لها وليس لأحدٍ سواها. وقد عرفت بات بيست كيف تكتم بمهارة إعجابها هي أيضاً به. ولكنّ آنّا كانت تظنّ أنّ هناك في هذه القضية شيئاً آخر غير المخططات التي راحت تضعها تلك النسوة، هنَّ وبناتهن وبنات أخوتهنّ لأجل هذا الرجل الأنيق والذكي. كانت واثقة

أنّ استهجانهن ناجم أساساً عن شعرها المجعّد. ياإلهي، ماهو الشيء الذي لم تسمعه عندما عادت من ديترويت! التحقيقات الغريبة، البليدة والاستفزازية. انتابها إحساس بأنهن يتحدّثن عن شعر عانتها، أو عن الشعر الذي تحت إبطيها. وأنها لو سارت في الشارع عارية تماماً لما تحدّثن إلّا عن شعرها. وقد أثار الموضوع من الانفعال وولّد من الآراء وحرّك من مشاعر الغضب، أكثر مما أثارته المومس التي أتى بها مينوس من فيرجينيا. وفي نهاية الأمر بدا من الممكن، دون شك، أن تسبّل شعرها من جديد ـ دون أن يكون ذلك تغييراً دائماً ولاتأكيداً ـ ولكنّ ذلك قد أوضح كثيراً من الأمور بالنسبة لها في ذلك الوقت الذي كانت تبدو لها فيه أمور كثيرة أخرى غامضة ومشوّشة. وقد استطاعت على الفور أن تتبينّ من هن صديقاتها ومن لسن كذلك، وأن تعرف المهذبات من غير المهذبات، المتوعدات والخائفات. كانت دوفي مورغان تحب تسريحة شعرها، أما بات بيست فتكرهها. وكان ديك وستيوارد يهزّان رأسيهما. وكيت غولايتلي كانت تحب تسريحتها وتساعدها على العناية بها. وقد خصّها المحترم بوليام بخطبة كاملة عنه. أمّا «K.D.»، فكانت تثير لديه الضحك. بينما أكثر الشبان يعجبون بها، فيما عدا آرنيت. وظلّت تعتقد على الدوام، أنّ شعرها، مثل عدّاد «جيجر»(*) يسجل هدوء أو شدة الاختلالات العميقة والصمّاء.

النار التي كانت تفوح منها رائحة زكية رائعة جذبت الهرة. فتجمعت كالكرة خلف المدفأة ولكنّ عينيها ظلّتا متيقظتين خوفاً من المعتدين ـ من البشر أو غيرهم.

قالت آنّا وهي تنظر إلى الغيوم فوق كنيسة «هولي ريديمر»: «سأحضّر القهوة، قد يصبح الأمر جدياً».

إيس فلود. والد آنّا كان يتمتع بإيمان يزحزح الجبال، ولذلك فقد بنى مخزنه لكي يدوم. وقد بناه بالحجارة الرملية، فصار أمتن

(*) Hans Geiger هانس جيجر: (1882 ـ 1945) عالم فيزيائي ألماني، بعد أن قام بكثير من الأبحاث في الفيزياء النووية، ابتكر، هو و«ريتر فورد» سنة 1913 ، عدّاد الجزئيات والذرات، الذي يحمل اسمه، والذي يكشف ويعدّ الإشعاعات أيضاً.

من بعض الكنائس. فوقه أربع غرف لأسرته، وتحته مستودع، غرفة صغيرة ومخزن واسع ارتفاعه خمسة عشر قدماً، محشو بالرفوف والصناديق والدلاء الخشبية والجوارير. أمّا النوافذ فهي نوافذ بيت عادي ـ لم يكن يريد العرض وليس بحاجة إليه، فلا ألواح زجاجية كبيرة مُدَعَّمة ومكلفة، إذ لاجدوى منها بالنسبة له: فليدخل الناس ليروا ماذا عنده. ليس لديه كثير من الأشياء، بل الكثير مما خزّنه. وقبل موته، شَهِدَ تَغَيُّرَ دَوْرِ مخزنه. تحوَّل من تقديم خدمة ضرورية في روبي إلى تجارة يدعمها زبائن مخلصون يحتاجون لبعض الأشياء، ولكنهم مع ذلك يتردّدون إزاء أسعارها ويصبح ذهابهم إلى دمبي بالشاحنة، أكثر تكراراً ليحصلوا على منتجات أرخص (ومن نوعية أفضل). إلا أنّ آنّا غيّرت كل هذا: فما لاتحتويه بقالية إيس بكميات، عُوّض عنه بالتنوع والأسلوب: كانت تقدّم القهوة عندما يكون الطقس بارداً، والشاي المثلج في الجو الحار. ووضعت كرسيّين ومنضدة أمام المحل للأشخاص المسنين ولمن يأتون من مزارعهم بالسيارة ويريدون أن يرتاحوا قليلاً. ولأنّ الكبار لم يعودوا يأتون في ذلك الحين إلى الفرن الكائن على مسافة خطوتين من مخزنها ـ إلاّ في بعض المناسبات الخاصة ـ فقد تجاوبت مع ميول الشبان الذين يتواجدون هناك. أخذت تعرض فطائرها والحلويات التي تصنعها بنفسها وتبيعها مع الكثير مما كانت تشتريه من دمبي. كان لديها ثلاثة أنواع من ماء الصودا بدلاً من نوع واحد. أحياناً تبيع الفليفلة السوداء مثل «الصخرة الثامنة» التي تُزرع في الدير. ويوجد لديها في الثلاجة، على الدوام، كأبيها، جبن وزبدة ولحم خنزير مملح، من الانتاج المحلي إضافة إلى المعلبات والفاصولياء اليابسة، القهوة، السكر، الشراب، ثاني كربونات الصودا، الطحين، الملح، الكاتشب، ومحارم الورق ـ أي كل مالايستطيع أو لا يريد الناس أن يصنعوه في بيوتهم ـ جميع هذه المواد أصبحت تملأ المكان الذي كان إيس فلود يضع فيه، سابقاً، الملابس وأحذية العمل والأدوات الصغيرة والكيروسين. أما الآن، فإن مخزن سارجنت للأغذية والبذار يبيع الأحذية والأدوات

والكيروسين، والمخزن الذي يملكه هاربر يبيع الإبر والخيطان والأدوية بموجب وصفة أو بدونها والمناشف والورق والدفاتر والتبغ، فيما عدا التبغ الخاص بالمضغ من نوع «بلوبوي». فقد استمر ستيوارد في شراء تبغه من مخزن إيس ولم يكن يرغب بتغيير عادته.

وقد ازدهرت بقالية إيس بإدارة آنّا بفضل المرونة والراحة التي أمّنتها للزبائن، وبفضل تنوع المواد. وباعتبارها سمحت لـ مينوس بقصّ الشعر في القسم الخلفي من المخزن، أيام السبت، فقد شجع هذا على الشراء. وبما أنّ لديها في الأسفل مغاسل عامة ظريفة ونظيفة، فقد كان الذين يستعملونها يجدون أنفسهم ملزمين بأن يصبحوا زبائن قبل أن ينصرفوا. المزارعات يأتين لشراء أقراص النعناع بعد حضورهن القداس في الكنيسة، والرجال يشترون أكياس الزبيب. وفي كل مرة يشترون شيئاً إضافياً عن الرفوف.

جَعَلَها استمتاعها بالنار التي أشعلها ريتشارد تبتسم. ولكن لم يكن ممكناً بالنسبة لها أن تصبح زوجة القسّ أبداً. هل هذا ممكن؟ حسناً، ولكنه لم يطلب يدها ـ أياً كانت سعادتها بحرارة المدفأة، بتأمّل عنق ريتشارد من الخلف، وبوجود صغار الهررة التي لاتستطيع أن تراها.

بعد ذلك ببعض الوقت، ظهرت سيارة ستيشن وتوقّفت قرب المخزن تماماً بحيث استطاع ميسنر وآنّا أن يتبيّنا الحمى في عيني الطفل الزرقاوين، كانت أمه تحمله على كتفها وتداعب شعره الأشقر. أمّا السائق، وهو رجل في الأربعين من العمر، بملابس تنم على أنه من سكان المدن، فقد نزل وفتح باب مخزن آنّا. ابتسم وقال:

«كيف حالكم؟».

«بخير، وأنت؟».

«يبدو أني تائه، ضللت الطريق. وقد أمضيت أكثر من ساعة وأنا أحاول العثور على الطريق رقم 18 الذي يتجه غرباً». ثم نظر إلى ميسنِر وتبسّم مرة أخرى ليعتذر عن كونه قد خالف إحدى قواعد

الرجولة التي تقضي بعدم السؤال مطلقاً عن الطريق: «المرأة أرادت مني أن أتوقف. فهي تقول إن صبرها قد نفد».

فقال له ميسنِر، بعد أن رأى لوحات ولاية أركنساس على السيارة: «إنه بعيد جداً عن الطريق الذي أتيت منه، ولكني أستطيع أن أدلك كيف يمكنك العثور عليه».

قال الرجل «شكراً، أشكرك كثيراً، لاأتوقع أن أجد طبيباً في هذه الجهات، أليس كذلك؟».

«لا، ليس في هذه النواحي. من أجل هذا عليك أن تذهب إلى دمبي».

«ممَّ يشكو الطفل؟» سألته آنّا.

«إنه يتقيأ، وحرارته مرتفعة أيضاً، لقد عملنا كل مايلزم، ولكن من يجلب معه دواءً للسعال أو حبوب أسبيرين عند القيام برحلة صغيرة كهذه؟ لايمكن التفكير بكل هذه الأشياء اللعينة أليس كذلك؟ ياللمسيح!».

أخذت آنّا تحملق بعينيها عبر النافذة لكي ترى بشكل أفضل، ثم قالت: «وهل يسعل طفلك؟ لاأعتقد أنه بحاجة لدواء ضد السعال، قل لزوجتك أن تأتي وتجلس هنا في الدفء».

قال ميسنِر: «يوجد أقراص أسبيرين في مخزن الأدوية».

«لم أرَ أي مخزن أدوية، أين هو؟».

«لقد مررت أمامه، ولكنه لايشبه مخزن الأدوية - بل يظنّه المارة، بيتاً عادياً».

«كيف سأعثر عليه؟ يبدو أنّ البيوت هنا لاتحمل أرقاماً».

«قل لي ماذا تريد وسأذهب لأجلبه لك. وقل لزوجتك أن تُحضر الطفل إلى الداخل». وتناول ميسنِر معطفه.

«أحضر لي فقط بعض أقراص الأسبيرين، وشيئاً مضاداً للسعال. أشكرك. سأحضر المرأة».

عندما فتح الباب مرّ تيار جعل الفناجين تصطدم ببعضها

وترسل رنيناً. رجع الرجل إلى السيارة الستيشن. بينما ابتعد ميسنِر بسيارته الفورد العتيقة. أمّا آنّا ففكرت بتحضير فطيرة محمصة بالقرفة. لأنّ كعكعة القرع لابد أنها زَنخَتْ الآن، ومن المفيد تماماً أن يكون لديها موزة ناضجة جداً - إذ أنّ الطفل يبدو مصاباً بالإمساك. وستهرس له الموزة مع قليل من مربى التفاح.

عاد الرجل وهو يهزّ رأسه: «سأترك المحرك يعمل وحسب. هي تقول إنها تفضل البقاء جالسة في السيارة».

هزّت آنّا رأسها: «هل مايزال أمامكم طريق طويل تقطعونه؟».

«حتى «لوبوّك»، ولكن قولي لي، هل قهوتك ساخنة؟».

«اهاهه! كيف تحبّها؟».

«سوداء وحلوة».

لم يكد يشرب منها جرعتين، حتى دوّى صوت منبّه السيارة الستيشن، فقال: «اللعنة! اعذريني». وعندما عاد، اشترى قليلاً من السوس، شيئاً من زبدة الفستق، والبسكويت، وثلاثة من «رويال كراون»، أخذها إلى زوجته ثم عاد لينهي قهوته التي شربها صامتاً ومتمهلاً، بينما راحت آنّا تحرك الجمر في الموقد.

«يجدر بك أن تملأ خزان سيارتك بالوقود عندما تصل إلى الطريق رقم 18 . فالطقس ينذر بعاصفة ثلجية».

أخذ يضحك: «عاصفة ثلجية؟ في لوبّوك تكساس؟».

سألته آنّا: «ألم تذهب بعد إلى تكساس؟» والتفتت نحو النافذة فرأت شخصين قادمين، ثم دفع ميسنِر الباب بكتفه وبدخول ستيوارد أطبق على عقبيه.

«هيا، إليك الأدوية!» قال ميسنِر وهو يناول الزجاجات للرجل الذي تناولها وأسرع إلى سيارته الستيشن، ثم تبعه لكي يدله على الاتجاه الذي يجب عليه أن يسلكه.

سأل ستيوارد: «من هم هؤلاء؟».

ناولته آنّا علبة تحوي 32 أونصة من تبغ المضغ ماركة «بلو بوي». وأجابته: «مجرد أناس تائهين».

«أناس تائهون، أم بيض تائهون؟».

«أوه، ستيوارد، أرجوك».

«الفرق كبير، يافتاتي آنّا، كبير، أليس صحيحاً أيها المحترم؟» كان ميسنِر قد وصل لتوّه.

«إنّهم يضلّون الطريق كبقية الناس» قالت آنّا.

«لقد ولدوا ضالّين. وفتحوا العالم ومايزالون ضالّين، أليس صحيحاً أيها المحترم؟».

فقالت آنّا ضاحكة: «إنك لاتفعل شيئاً سوى التناقض مع نفسك».

«الله ليس له سوى شعب واحد ياستيوارد وأنت تعرف ذلك». وفرك ميسنِر يديه ثم نفخ عليهما.

فقال ستيوارد: «أيها المحترم، لقد سمعتك تقول أموراً نتيجة الجهل، ولكنّ هذه هي المرة الأولى التي أسمعك فيها تقول أموراً مبنية على الجهل».

ابتسم ميسنِر وأخذ يستعد للإجابة، عندما عاد الرجل التائه ليدفع إلى القسّ ثمن الأدوية.

«العاصفة الثلجية تقترب». تأمّل ستيوارد ملابس الرجل الخفيفة وحذاءه الرقيق. «ربما تريد اللجوء إلى مكان ما. هناك محطة لبيع المحروقات على الطريق رقم 18 ، لو كنت مكانك لتوقفت فيها دون أن أذهب إلى أبعد من ذلك في هذا الطقس المثلج».

«سأتغلب عليها». أغلق الرجل محفظته، ثم أضاف: «سأملأ خزان سيارتي بالوقود من تلك المحطة على الطريق 18، ولكننا سنتخطّى حدود الولاية اليوم. أشكركم. لقد ساعدتمونا جميعكم كثيراً، فشكراً لكم».

قال ستيوارد بعد أن ذهبت السيارة الستيشن: «إنهم لايصغون أبداً!» ولأنه هو نفسه الذي كان هنا عام 1958 عندما نفقت قطعان

الماشية بكاملها بسبب شدة البرد، فقد عمل في ضخّ الماء، وسمّر درفات نوافذِهُ، وجمّع كمية احتياطية من العلف أدخلها إلى الحظائر منذ يوم الأربعاء. ثم ذهب إلى المدينة ليجلب تبغاً وشراباً ويصطحب دوفي.

سأله ميسنِر: «قل لي ياستيوارد، هل رأيتَ حفيدة روجر، بيلي ديليا؟».

«لماذا عليّ أن أراها؟».

«آنّا تقول إنّ أحداً لم يرها. نحن بالتأكيد لم نسأل أمها».

عندما سمع ستيوارد «نحن»، وضع على المكتب ورقة نقد مدعوكة من فئة خمسة دولارات. وقال متأملاً: «لن تحصل على شيء هناك». وقال وهو يفكّر: ولكن ذهابها ليس خسارة كبيرة. وهذا أمر حسن بالنسبة لـ بات إنها تحشر أنفها دوماً في أمور الآخرين، ولكنها تنطوي على نفسها عندما يقترب أحد من شؤونها. «هذا يذكّرني أنّ ديك قال لي بأنه رأى سويتي صباح هذا اليوم ـ كانت تسير على الطريق، دون معطف ولاشيء».

«سويتي؟ خارج البيت؟» كانت نبرات صوت آنّا تدل على أنها لم تصدق شيئاً مما سمعته».

سأله ميسنِر: «على أي طريق؟».

«ليست سويتي».

«ديك أقْسَمَ أنها هي».

فقال ميسنِر: «لابدّ أنّ هذا صحيح، فقد رأيتها أنا أيضاً. أمام باب منزلي بالضبط. وظننتها تهمّ بقرع الباب ولكنها استدارت واتجهت نحو الشارع المركزي فاعتقدتُ أنها عادت إلى البيت».

«لم تفعل، لقد قال ديك إنه رآها بعد مخزن سارجنت مغادرةً المدينة وتسير كالجنود».

«ألم يوقفها؟».

أخذ ستيوارد ينظر إلى آنّا كأنه لايستطيع تصديق ماقالته. وأجابها: «كان يفتح أبواب المصرف أيتها الفتاة».

قطّب ميسنِر حاجبيه. فقاطعته آنّا مسبقاً، لأنه ربما كان ينوي الكلام: «هل تريدان قليلاً من القهوة؟ أو بالأحرى بعض الكعك بالقرع؟».

وافق الرجلان.

«من المستحسن أن يتحدّث أحدهم إلى جِف.» كان هذا صوت آنّا ولكنّ الثلاثة حولوا أنظارهم نحو الجدار المغطى بالرفوف الذي يوجد خلفه مخزن فليتوود لبيع الأثاث والأدوات المنزلية.

رغم التنبؤات ـ حسب تحديقة ريتشارد ميسنِر واحتياطات ستيوارد ـ أضاءت لوحة ألوانٍ مائية جانباً صغيراً من السماء: باللون البرتقالي الدراقي، بأخضر النعناع، بأزرق الشواطئ. وظلّت بقية السماء بلونها الرمادي الفضي، لاتفعل شيئاً سوى إبراز بريق الثغرة في كتاب صُوَر الشمس. دام ذلك زهاء ساعة كاملة وقد تأثر بهذا المنظر جميع الذين شاهدوه. ثم اختفى ذلك وتصلبت السماء الرصاصية تحت عصف الرياح الشديدة. وعند الظهيرة أخذت تتطاير أول نُدف الثلج، ثم تساقطت كرات صغيرة واخزة، خشنة الملمس، محدثة صوتاً جافاً، دون أن تذوب في الهواء. الدفعة الثانية من الثلج، بعد ذلك بساعتين، لم يسمع لها أي صوت. فقد انتشرت بصمت وغطّت كلّ شيء.

قالت سويتي: «سأعود في الحال ياآنسة مابل. لن أتغيّب سوى دقيقة».

هذا ماأرادت قوله. ربما قالته. على أي حال تبادر إلى ذهنها أن تقوله. ولكن كان عليها أن تسرع قبل أن يقرر أحدهم.

عند المدخل سارت سويتي بخطى هادفة في الممشى، كما لو أنها ذاهبة إلى مكان هام. أو أن عليها أن تقوم بعمل لن يستغرق سوى بضعة دقائق ثم تعود في الحال. وستعود في الوقت المناسب لتدليك الردفين الصغيرين من أجل تلافي القروح، أو إزالة البلغم أو

هرس بعض المأكولات أو تنظيف الأسنان أو قص الأظافر أو غسل الملابس الداخلية الملوثة بالبول أو لتهزّ أحدهم بين ذراعيها أو تغنّي له، ولكي تُراقِب في معظم الوقت. ألّا تحوّل نظرها أبداً، إلّا إذا كانت حماتها موجودة هناك، لكي تراقب أيضاً، لأنّ عيني الآنسة مابل لم تعودا حادتين كما في السابق. وقد عرض بعضهم تقديم المساعدة، حصل هذا غالباً في البداية، والآن بصورة غير منتظمة، ولكنها ظلت ترفض ذلك على الدوام. فلا أحد يستطيع القيام بالمراقبة مثل سويتي، تأتي بعدها حماتها. آرنيت كانت لابأس بها، ولكنها لم تعد كذلك الآن. إذ أن جِف وحما سويتي لايريدان الرؤية، فضلاً عن المراقبة.

لم تكن المراقبة مشكلة على الإطلاق وهي مستيقظة، ولكنها تصبح مشكلة عندما تنام. فهي منذ ست سنوات تنام على فراش من القش بجانب المهود، أو في السرير مع جِف وتحبس أنفاسها، تشنّف أذنيها وكل عضلة من عضلاتها تستعد للقفز. كانت تعرف أنها تنام، لأنها تحلم قليلاً، وإن كانت لاتستطيع أن تتذكّر بماذا. وقد أخذت تتزايد صعوبة المراقبة والنوم في وقت واحد.

عندما طلع الصباح ودخلت مابل إلى الغرفة المعتمة ومعها فنجان قهوة، نهضت سويتي لتتناوله. كانت تعرف أن مابل قد هيأت لها الحمّام وطوت لها منشفة وقميص نوم نظيفين وضعتهما على الكرسي في الغرفة. وتعرف أنها ستعرض عليها تصفيف شعرها ـ تضفره، تغسله، ترفعه، أو أن تفرك لها فروة رأسها وحسب. القهوة رائعة، كثيفة وشديدة الحلاوة. ولكنها تعرف أيضاً أنها إذا شربتها هذه المرة فقط وأوت إلى السرير عند شروق الشمس صباحاً هذه المرة فقط فإنها لن تستيقظ بعد ذلك أبداً، وفي هذه الحالة، من الذي سيقوم بمراقبة الأطفال والسهر عليهم؟

لذلك تناولت القهوة وقالت، أو أرادت أن تقول: «عودي بعد دقيقة ياآنسة مابل».

عندما نزلت إلى الطابق السفلي وضعت الفنجان وصحنه على

المنضدة، ثم دون أن تغتسل وبلا معطف ودون أن تسرّح شعرها، فتحت الباب الخارجي وذهبت بسرعة كبيرة.

فكرت بأن تمشي إلى أن تنهار أو يغمى عليها أو تتجمد من البرد فتنزلق في العدم لبعض الوقت. والأمر البسيط الذي كانت تريده هو ألّا تحصل على تلك القهوة الصباحية وذلك الحمّام الجاهز وقميص النوم المطوي والرقاد المتيقّظ، في هذا الترتيب إلى الأبد، كل يوم وبشكل خاص هذا اليوم بالتحديد. وأخذت تفكّر بأن الطريقة الوحيدة لتغيير النظام ليست القيام بأمرٍ ما بصورة مختلفة، ولكن القيام بعمل مختلف. وبدا لها احتمال وحيد ـ مغادرة منزلها والسير في شارع لم تطأ أرضه منذ ست سنوات.

سارت سويتي في الشارع المركزي حتى نهايته ـ اجتازت الشوارع التي تحمل أسماء القدّيسين الانجيليّين، ومرّت أمام كنيسة «صهيون الجديدة»، مخزن أدوية هاربر، المصرف، وكنيسة كالفاري. ثم تحوّلت إلى شارع امتداد سان بيتر، وغادرته لتمرّ من أمام مخزن سارجنت لبيع الأغذية والبذار. وفي شمال روبي حيث تغيرت طبيعة الطريق مرتين بدت ساقاها قويتين. وكذلك بشرتها، لأنها لم تشعر بالبرد. مع أنّ الهواء النقي في الخارج، والذي لم تكن معتادة عليه راح يؤلم منخريها، فرفعت وجهها لكي تتحمله. ولم تكن تعرف أنها تبتسم، فضلاً عن الفتاة التي أخذت تنظر إليها من مؤخرة شاحنة بيك آب، جديدة لامعة طراز 73 . ظنّت الفتاة أنّ سويتي تبكي، فحطّم قلبها من جديد منظر امرأة سوداء تجهش بالبكاء وهي تسير على طريق ريفي.

أخذت تخالس النظر إلى سويتي بانتباه شديد من مخبئها بين الصناديق. وشاحنة الفورد التي كانت تتجه نحو الجنوب أبطأت في سيرها عند مرورها بـ سويتي، ثم توقّفت. في غرفة القيادة تبادل السائق وزوجته النظرات. أخرج الرجل رأسه من النافذة والتفت إلى الوراء، وصاح بأعلى صوته: «هل أنت بحاجة للمساعدة؟».

لم تلتفت سويتي وتجاهلت العرض. فنظر الرجل والمرأة، أحدهما إلى الآخر من جديد، ومصّا أسنانهما عندما ركّبَ الزوجُ

السرعةَ الأولى. ولحسن الحظ أن الطريق ينحدر في ذلك الموضع وإلّا لكانت تلك الفتاة التي تحطّم قلبها أصيبت ببعض الجروح عندما قفزت من الشاحنة. ورأى الزوجان في مرآة السيارة العاكسة مسافرةً يجهلان هويتها، تلحق مسرعةً بالمخلوقة المسكينة التي تستدعي الشفقة وغير المهذبة التي حتى لم تقل: «لا، شكراً».

عندما أدركت الفتاة ذات القلب المحطم، المرأة، كانت تعلم أنها لاينبغي لها أن تلمس أو تحاول الدخول في تلك الفقاعة العنيدة التي تحوّلت إليها هذه المرأة التي تبكي. فمشت على بعد زهاء عشر خطوات أو أكثر خلفها وأخذت تتأمّل عقبيها الجميلين الدّاكنين فوق حذائها الأبيض البالي، وفستانها الأزرق الشاحب الذي تزيّنه طيات عند الخصر وجيوب كبيرة متدلية. وشعر المرأة النائمة ـ أملس من إحدى الجهات ومشعث من الجهة الأخرى. ومن وقت إلى آخر ظلت تبدر منها تنهيدة تشبه القهقهة.

سارتا هكذا لأكثر من ميل. المرأة التي تمشي كانت متجهة إلى مكانٍ ما. والمسافرة بالأتوستوب لاتتجه إلى أي مكان: الطيف وظلّه.

كان الصباح بارداً غائماً. والريح تنساب بين الحشائش الطويلة على جانبي الطريق.

قبل ذلك بخمسة عشر عاماً، عندما لم تكن فتاة الأوتوستوب ذات القلب المحطم قد تجاوزت الخامسة من عمرها، أمضت أربع ليالٍ وخمسة أيام وهي تقرع جميع الأبواب في البناء الذي تقيم فيه:

«هل أختي هنا؟».

قال بعضهم: لا، وقال آخرون: مَنْ؟ والبعض الآخر: ماهو اسمك ياصغيرتي؟ ومعظمهم لم يفتحوا أبوابهم عام 1958 ، حين كان الطفل يستطيع اللعب في المساكن الحكومية الجديدة بكل أمان.

في اليومين الأوليّين، بعد أن قامت بجولة في الطوابق، صاعدة من طابق إلى آخر، حريصة على أن تقرع كل الأبواب، أخذت تنتظر: أختها جين ستعود بعد قليل، لأنّ طعام العشاء على المائدة ـ رغيف اللحم، فاصولياء خضراء، كاتشب وخبز أبيض ـ وفي البرّاد يوجد

إناء مملوء بعصير الليمون. انشغلت ببعض كتب التلوين، بمجموعة من ورق اللعب وبدمية على شكل طفل يتبوّل. شربت الحليب وأكلت بعض رقائق البطاطا والبسكويت المملّح ومربى التفاح، ثم أكلت شيئاً فشيئاً كل رغيف اللحم. وكانت الفاصولياء المقددة هي كل ما بقي من الغداء، إذ كانت من العفونة والذبول بحيث لاتحتمل.

في اليوم الثالث بدأت تفهم لماذا ذهبت جين وكيف يمكن إرجاعها. غسلت أسنانها وأذنيها بعناية. وشدت السيفون في كل مرة ذهبت فيها إلى دورة المياه وطوت جوربيها ووضعتهما في حذائها. أمضت وقتاً طويلاً في مسح عصير الليمون وجمع قطع الزجاج التي تبعثرت من الإناء الذي انكسر في البراد عندما حاولت رفعهُ. ثم تذكرت أنه يوجد رزمة «لورنا دونز» في علبة الخبز، ولكنّها لم تجرؤ على الصعود على كرسي لكي تفتحها. وأخذت تصلّي راجية أن تتحقق أمينتها: إذا قامت بكل شيء كما ينبغي ودون أن يُطلب منها ذلك فإن جين سوف تحضر أو أنها ستحضر عندما تقرع أبواب الشقق! وبانتظار ذلك ستبتسم وتبسط لها ذراعيها.

أمضت ليالٍ مرعبة.

وفي اليوم الرابع، بعد أن غسلت أسنانها اللبنية الثماني عشرة، حتى احمرّت الفرشاة من الدم، أخذت تنظر عبر النافذة إلى الناس الذاهبين إلى العمل، وإلى الأطفال الذاهبين إلى المدارس تحت وابل من المطر الدافئ. خلال وقت طويل لم يمر أحد. ثم مرّت امرأة عجوز وضعت على رأسها سترة رجل كي تقيها من المطر الناعم. ثم رأت رجلاً يقذف حبوباً على أماكن قُلعت أعشابها. ثم مرّت أمام النافذة امرأة طويلة دون معطف ولاتضع شيئاً على رأسها، جفّفت عينيها بساعدها وبباطن يدها. كانت تبكي.

فيما بعد، في اليوم السادس، عندما أتت المشرفة الاجتماعية، فكّرت بالمرأة الباكية التي لم تكن تشبه جين أبداً ـ حتى أنها لم تكن من اللون نفسه. ولكن قبل ذلك، في اليوم الخامس، وجدت ـ أو بالأحرى رأت ـ شيئاً موجوداً هناك منذ زمن طويل. فبعد أن وهنت عزيمتها لأنّ صلواتها لم تُستجب، وبسبب لثّتها الدامية وبطنها الذي

يتضوّر جوعاً، تخلّت عن السلوك الحسن، وصعدت على كرسي ثم فتحت علبة الخبز، كان فيها مغلف ملقى على رزمة الـ «لورنادونز» عليه كلمة عرفتها في الحال: اسمها مكتوب بأحمر الشفاه. فتحته، حتى قبل أن تهجم على علبة الحلويات، وأخرجت منه الورقة الوحيدة التي كتبت عليها كلمات أخرى بأحمر الشفاه أيضاً. لم تفهم أيّاً منها سوى اسمها الموجود أيضاً في أعلى الورقة، و«جين» في أسفلها، وبين الإسمين علامات حمراء صارخة.

شعرت بسعادة غامرة، وأعادت الرسالة إلى المغلف ثم دسّتها في حذائها حيث احتفظت بها طيلة حياتها، فقد خبأتها هناك، وناضلت في سبيل حقها في إبقائها هناك ثم استعادَتْها من سلال المهملات. وكان عليها أن تنتظر حتى تبلغ السادسة من العمر، وتصبح تلميذة مجتهدة في المدرسة الابتدائية، قبل أن تستطيع قراءة كلّ ماكتب في تلك الرسالة، التي أصبحت بمرور الزمن مجرد قطعة من الورق ملطخة بالأحمر الناري، دون أن تبقى عليها كلمة واحدة يمكن قراءتها. ولكن تلك الرسالة المخبّأة في حذائها هي التي جعلتها تذهب برفقة المشرفة الاجتماعية إلى إحدى المربيّتين المتاحتين لتبنّيها. وقد فكّرت في تلك اللحظة، بإيجاز، بالمرأة التي تبكي، وبشكل أكثر لاحقاً، حتى أصبح منظر تلك المرأة حلماً يحطّم قلبها.

الرياح التي تهزّ الحشائش أصبحت الآن محملة بالثلج المتناثر، الرملي، القاسي والواخز كالزجاج. توقّفت المسافرة بالأوتوستوب وسحبت غطاءً من حقيبتها ثم ركضت لتلحق بالمرأة التي كانت تمشي أمامها، ووضعت الغطاء على كتفيها.

حرّكت سويتي يديها إلى أن أدركت أن هناك من وضع لها شيئاً يدفئها، وأنّ لاأحد يمنعها من متابعة السير. ولم تتوقف خطوةً واحدة عن السير عندما وُضع الغطاء الصوفي على كتفيها. تابعت سيرها وهي ترسل ضحكات خافتة، مكتومة ـ لعلّها كانت نحيباً؟

تذكّرت المسافرة بالأوتوستوب أنها مرّت، قبل أقلّ من نصف ساعة، أمام منزل كبير، عندما كانت مختبئة بين الصناديق.

والمسافة التي تستغرق عشرين دقيقة بالشاحنة يحتاج اجتيازها سيراً على الأقدام لبضعة ساعات، ولكنها تظنّ أنهما لابدّ ستتمكنان من الوصول إليه قبل حلول الظلام. إن إحدى المشكلات هي البرد، والمشكلة الثانية تكمن في إيجاد وسيلة تجعل المرأة تكفّ عن البكاء، ترتاح، وتقبل باللجوء إلى المنزل عندما تصلان إليه. عينان كتلك العينين لم تكونا غير مألوفتين. ففي المشافي مثل هذه العيون تعود للمرضى الذين يسيرون طيلة الليل والنهار، على الطرق، بكل حرية، والناس ممن لهم عيون كهذه يمشون إلى الأبد. قررت المسافرة بالأوتوستوب تمضية الوقت وهي تتكلم وبدأت بالتعريف بنفسها.

سمعت سويتي ماقالته وللمرة الأولى منذ خروجها من البيت، تعثرت وهي تلتفت بوجهها الباسم ـ أو الباكي ـ نحو هذه الرفيقة التي لم تدعها لمرافقتها. ففكّرت: إنها الخطيئة، أنا أسير بجانب الخطيئة. متدثّرة بغطائها تمتمت: «ارحميني» وأرسلت ضحكة خفيفة ـ لعلّها نشيج.

عندما لمحتا الدير كانت سويتي تشعر بالدفء، وإن لم تشعر بالبرد القارس الذي كان يكنس الطريق، فقد قوّى من عزيمتها الثلج الدافئ الذي يغطي شعرها ويملأ حذاءها. كانت تشعر بالعرفان لكونها محمية بشكل واضح، ومنفصلة عن شكل الخطيئة الذي يسير بجانبها. وكان دليل حالة الرحمة التي تنعم بها سويتي هو العنف الذي يلفح به الثلج الدافئ ذلك الشكل، ويجعله يصمت ويتجمد، ويرغمه على اللهاث بصعوبة بحيث لايكاد يستطيع اللحاق بها، هي، سويتي التي كانت تمشي دون أن تحني رأسها عبر الرياح اللاذعة.

من تلقاء نفسها صعدت سويتي الممشى، ولكنها تركت الشيطان يكمل الباقي.

المرأة التي فتحت الباب على مصراعيه، قالت: «أوه!» وجذبت الاثنتين إلى الداخل.

رأت سويتي أنهما تشبهان الطيور: الصقور. وقد أخذت تنقرها وترف بأجنحتها. فتصبب جسمها عرقاً. ولو أنها كانت أقوى مما

هي عليه، وغير متعبة من سهر الليالي بسبب مراقبة الأطفال والاعتناء بهم، لدفعتها عنها، ولكنها، فيما عدا الصلاة، لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً. وضعتاها في سرير تحت عدد كبير من الأغطية لدرجة أن قطرات العرق أخذت تتصبب في أذنيها. لم تشرب ولم تأكل شيئاً مما قدمتاه لها. فقد أطبقت شفتيها وكزّت على أسنانها. بصمت وحماسة أخذت تصلي من أجل خلاصها، وهل تصدقون أنها حصلت على ماأرضاها: فقد تركتاها وحدها في الغرفة الهادئة، فأخذت سويتي تشكر ربّها، ثم استغرقت في نوم عميق ومضطرب. كان صراخ الطفل هو الذي أيقظها وليس الارتعاشات التي انتابتها. ورغم ضعفها نهضت، أو حاولت أن تفعل ذلك. بدا حلقها جافاً ورأسها يؤلمها. ولاحظت أنها لم تكن في سرير بل على أريكة جلدية في غرفة مظلمة. أخذت أسنانها تصطك عندما دخل أحد الصقور، فمه أحمر كالدم، يحمل مصباح كيروسين. تكلّم معها بأعذب صوت، على طريقة الشيطان، ولكنّ سويتي استعانت بمخلّصها، فانصرف الصقر. وفي مكانٍ ما من البيت كان الطفل مستمراً في البكاء، وهو ماكان يملأ سويتي طرباً - فهي لم يسبق لها أبداً أن سمعت أطفالها يبكون هكذا، ولم تسمع مطلقاً هذا النداء التواق الواضح والمستمر والموزون، فهو يشبه نشيداً أو أغنية مهد أو أسطر محكمة من الوصايا العشر. جميع أطفالها كانوا صموتين. وفجأة وهي في غمرة الفرح، انتابها غضب شديد: الأطفال يبكون هنا بين هؤلاء الشياطين وليس في منزلها؟

عندما عاد اثنان من الصقور، يحمل أحدهما صينية عليها وجبة طعام، سألتهما: «لماذا يبكي ذلك الطفل؟».

نَفَتا بالطبع، وكَذَبَتا، مع أن صوت البكاء كان يصل حتى الغرفة. بل إن إحداهما حاولت صرف انتباهها عن ذلك قائلةً:

«لقد سمعت أطفالاً يضحكون ويغنّون أحياناً ولا يبكون أبداً».

راحت الأخرى تقهقه.

بذلت سويتي جهداً كبيراً لكي تجعل صوتها عالياً: «دعوني أخرج، يجب أن أعود إلى بيتي».

«سوف أصطحبك إلى هناك. حالما تحمى السيارة». قيل لها ذلك بالنبرات الشيطانية الماكرة.

فقالت سويتي: «الآن!».

«تناولي قرصاً من الأسبيرين وكلي شيئاً من هذا».

«دعوني أخرج من هنا حالاً!».

قالت إحداهما: «يالها من عاهرة!».

فقالت الأخرى: «إنها الحمى وحسب، هلّا أغلقت فمك؟ ألا تستطيعين».

إنه الصبر ورفضها سماع أي صوت، عدا تأنيب ربها لها، هو الذي سمح لها بالخروج من هناك. في بداية الأمر داخل سيارة حمراء صدئة علقت دواليبها في الثلج في بداية الممشى، وأخيراً، ليكن مباركاً اسمه القدوس، هاهي بين ذراعي زوجها.

رافقتها آنّا فلود. كانا في طريقهما لحظة دعت ربها. وألقت سويتي نفسها تماماً بين ذراعي جِف.

«ماذا تفعلين هناك؟ لم نستطع السفر طيلة الليل أين عقلك. ياإلهي! أيتها الفتاة، ياحبيبتي ماذا حدث؟»

صرخت سويتي: «لقد سرقنني، اختطفْنَني. آه، ياإلهي، خذني إلى البيت. إني مريضة، يا آنّا، يجب أن أعتني بالأطفال».

«صه. لاتقلقي حول ذلك».

«إني قلقة، قلقة».

«ستسير الأمور الآن على مايرام. آرنيت عائدة إلى البيت.»

«شغّلي جهاز التدفئة. أشعر ببرد شديد، لماذا أنا بردانة إلى هذه الدرجة؟».

حدقت سينيكا بالسقف. فراش السرير الصغير بدا رقيقاً وقاسياً. والغطاء الصوفي يحكُّ ذقنها، وهي تشعر بألم في كفيها

لكونها جرفت الثلج من الممشى. فقد سبق لها أن نامت في أرضيات البيوت على قطعٍ من الورق المقوّى، على فُرشٍ مملوءة بالماء، تُسبّب الكوابيس لمن يرقد عليها، كما نامت طيلة أسابيع عديدة على المقعد الخلفي في سيارة ايدي. ولكنها لم تستطع النوم على هذا السرير الولّادي، النظيف والضيّق.

تقلبت المرأة الباكية طيلة الليل وفي صباح اليوم التالي أيضاً. وأمضت سينيكا الليل بطوله واقفة تصغي إلى ماقيس وجيجي. وبدا البيت كأنه يخصّهما حتى وإن راحتا تتحدثان عن شخص يدعى: كوني. كانتا تطبخان لها الطعام دون أن تتطفّلا عليها بشيء. وعلاوةً على النقاش حول اسمها ـ من أين أتت به؟ ـ كانتا تتصرفان كما لو أنهما تعرفان كل شيء يتعلق بها وهما سعيدتان لبقائها هناك، وفيما بعد، أي بعد الظهيرة، حينما ظنت أنها تكاد تسقط من الإعياء، اقتادتاها إلى غرفة فيها سريران صغيران. قالت لها ماقيس: «ارقدي قليلاً، وخذي قسطاً من الراحة، سأناديك عندما يصبح العشاء جاهزاً. هل تحبين الفروج المقلي؟» ظنّت سينيكا أنها ستتقيّأ.

لم تكن إحداهما تحب الأخرى على الإطلاق، ولذلك تُظهر سينيكا للاثنتين الابتسامة نفسها والمودّة نفسها. وإذا شتمت إحداهما الأخرى وسخرت علناً منها، فإن سينيكا تضحك. وإذ تحرك الأخرى عينيها اشمئزازاً، فإن سينيكا تحدجها بنظرة متفهمة. فهي صانعة السلام دائماً، تلك التي تقول نعم أو لا أمانع أو سأذهب. وإلّا ـ ماذا؟ وإلا فإنهما ربما لن تحباها. ربما تبكيان. ربما تغادران. لقد عملت كل مابوسعها كي تجلب السرور حتى وإن صار الكتاب المقدس أثقل من حذاءيها. وكجميع الذين يبدؤون الهجوم، كان يريدهما كليهما في الحال. لم تشعر سينيكا بأية مشكلة بسبب حذاء أديداس قياس 11. ولكن في بريستون بولاية أنديانا لم يكن يوجد أية بائعة كتب سواء دينية أو غيرها. فقامت بجولة حتى «بلومنغتون» ووجدت مايسمى «الكتاب المقدس الحيّ» وآخر مزيَّناً بصور ملوّنة، وفيه أيضاً عدة صفحات بيضاء ومسطّرة كي تُسجَّل عليها تواريخ

الولادات، الوفيات، واقعات الزواج، ومناسبات تعميد الأطفال، وبدا شيئاً رائعاً ـ جدول نشاطات العائلات بكاملها خلال سنوات ـ ولذلك فقد اختارت هذه. وقد غضب عند ذلك، بالطبع، لدرجة أن السرور الذي شعر به عند حصوله على الحذاء الغريب ذي اللونين الأسود والأبيض تبدّد:

«ألا تستطيعين أن تشتري شيئاً لائقاً؟ مجرد كتاب مقدس صغير. وليس موسوعة يلعنها الله!».

لقد أَقَرَّ بأنه مذنب ولم تكن تعرفه سوى منذ ستة أشهر، بينما هو يعرف من قبل إلى أية درجة كانت يائسة. مع ذلك، فقد قَبِل الكتاب المقدس الضخم ووافق أن تتركه هو والحذاء على المقعد وأن تكتب عليهما اسمه ورقمه. وقد أرغمها على كتابتهما كما لو كانت عاجزة عن أن تتذكر خمسة أرقام متتالية. كانت قد جلبت أيضاً بعض سندويشات من لحم الخنزير (لأنه قال في رسالته، إنّ من الممكن أن يقوما بما يشبه غداء النزهة في بهو الزيارة) ولكنه كان أكثر عصبية وحنقاً من أن يستطيع الأكل.

بدا الزوّار الآخرين وكأنهم يقضون وقتاً طيّباً مع سجنائهم. والأولاد أخذ واحدهم يغيظ الآخر، يتقلّبون بين آبائهم يداعبون وجوههم وشعرهم وأصابعهم. أما النساء والفتيات فقد أخذن يلمسن الرجال ويتوشوشن فيما بينهن ويقهقهن بالضحك. فقد كنّ معتادات على ذلك ـ وقد ألفن سائقي الباصات والحراس وموظفي الشاحنة التي تبيع القهوة. بدا السرور في أعين السجناء وعلى محياهم. فقد كانوا يلاحظون كل شيء ويعلّقون على كل شيء: بطاقات التقرير التي يجلبها لهم الأولاد الصغار في مغلفات كبيرة بنية اللون، المشابك في شعر الفتيات الصغيرات، حالة معاطف النساء. يصغون بانتباه شديد للتفاصيل المتعلّقة ببعض الأصدقاء والأقارب غير الموجودين هناك. ويعطون النصائح والتعليمات بشأن أبسط الأخبار المنزلية. راحت سينيكا ترى أنهم يتمتعون برجولة هائلة ـ وكأنهم زعماء يقومون بزيارة تفقدية. فهم يدلّون

الناس إلى الأماكن التي يجب أن يجلسوا فيها، وإلى الحاوية التي يجب أن يلقوا فيها أوراق الرزم، ويقدّمون الاستشارة الطبيّة، ويشيرون إلى الكتب التي يجب إرسالها. لايتكلمون أبداً عما يحدث في الداخل، ويتجاهلون وجود الحرّاس. فربما كانت أتيكا في أذهانهم.

فكرت حالما انتهت جملته، أن أيدي لا بد أن يكون كذلك، فلم يكن خائفاً ولا ضحية، كما كان في الزيارة الأولى عندما اتُهم. فقد أخذ يئن، ويلوم. فالكتاب المقدس ضخم جداً لدرجة أنه يزعجه. الخردل بدلاً من المايونيز في السندويشات. ولايريد أن يسمع شيئاً عن عملها الجديد في كافتيريا إحدى المدارس. فهو يهتم بـ صوفي وبرنارد فقط: ماذا يأكلان؟ هل تتركهما يخرجان ليلاً؟ كانا بحاجة لأن يركضا فترة طويلة من الوقت. وألّا تضع لهما خِطاميهما إلّا خارج المنزل.

تركت ايدي تورتل في بهو الزيارة ووعدته بأربعة أمور: أن ترسل له صور الكلبين. أن تبيع جهاز الستيريو وأن تحصل على وعدٍ من أمه بأن تقبض نقود دفتر التوفير. وأن تستدعي المحامي: تُرسل، تبيع، تحصل على، تستدعي: هكذا، هي تتذكّر كل ذلك، ولن تنسى شيئاً.

وعند توجهها نحو موقف الباص، تعثرت سينيكا وسقطت على ركبتها. فأتى أحد الحراس لمساعدتها على النهوض:

«انتبهي أيتها الآنسة!».

«آسفة. شكراً».

«لاأدري كيف تستطعن أنتنّ الفتيات، المشي بهذه الأشياء».

فأجابته باسمةً: «المفروض أن تعجبكم».

ضحك ضحكة لطيفة كشفت عن صفّين من حشوات الأسنان الذهبية، وقال: «أين؟ في هولندة؟».

أعادت سينيكا حقيبتها إلى مكانها، وسألته: «كم تبعد ويشيتا من هنا؟».

«هذا يتوقف على واسطة النقل التي تستخدمينها. ففي السيارة، هذا يستغرق... أوه... عشر، إلى اثنتي عشرة ساعة. في الباص، الرحلة تستغرق وقتاً أطول».

«أوه!».

«ألك عائلة في ويشيتا؟».

«نعم، لا. إنه البوي فرند، أريد زيارة أمه».

رفع الحارس قبعته ومرّ بيده على شعره القصير وقال: «حسناً، يوجد في ويشيتا شواء طيب جداً، حاولي أن تأكلي منه».

في مكانٍ ما من ويشيتا، لابد أنه يوجد شواء طيب ولذيذ جداً، ولكن ليس لدى السيدة تورتل. إذ أنّ بيتها يتّبع نظام التغذية النباتية حصراً: فلا يظهر شيء ممّا له حافر، ريش، قشر أو قواقع، على مائدتها. سبعة أنواع من الخضار وسبعة من الحبوب - تأكلين واحداً من كل نوع (واحداً فقط) كل يوم وتعيشين إلى الأبد. هذا ما خططت للقيام به، ولم يكن وارداً أن تمسّ نقود التوفير التي تركها لها زوجها من أجل أيّ كان، فما بالك بشخص دهس طفلاً، بسيارته وتركه في مكانه، حتى ولو كان هذا الشخص ابنها الوحيد.

«أوه، لا، ياسيدة تورتل لم يكن يعرف أنه طفل. لقد ظنّ ايدي أنه ... أنه...».

سألتها السيدة تورتل: «أنه ماذا؟ ماذا ظنّ أنه كان؟».

«نسيت ماذا قال لي، ولكني أعرف أنه ماكان ليفعل ذلك، إذ أنّ ايدي يعشق الأطفال. هو يعشقهم حقاً، إنه بالحقيقة لطيف جداً، وقد طلب مني أن أحضر له الكتاب المقدس».

«لقد باعه الآن».

التفتت سينيكا إلى جهة أخرى: شاشة التلفزيون تتلألأ، وقد ظهر عليها رجال رصينو المحيّا يتبادلون الكذب بنعومة فيما بينهم.

«أيتها الفتاة الصغيرة، لقد عرفته لأقلّ من فصل واحد في السنة، أما أنا فقد عرفته طيلة حياته».

«نعم، ياسيدتي».

«هل تعتقدين أني سأدعه يضعني في مأوى الفقراء لكي يَغْتَني محامٍ ماكر؟».

«لا، ياسيدتي».

«أَلَمْ تَرَيْ محاميّ ووترجيت؟»

«لا ياسيدتي. نعم ياسيدتي».

«حسناً إذن، علينا ألّا نضيف كلمة واحدة بشأن هذا الموضوع. أتريدين أن تتعشي شيئاً أم لا؟».

الحبوب كانت خبز القمح، والخضار هي الملفوف. والشاي الثقيل المثلّج لتسهيل بلع الاثنين.

لم تقدّم لها السيدة تورتل سريراً لتنام عليه في الليل، لذلك تناولت سينيكا حقيبتها ونزلت إلى أحد شوارع ويشيتا الهادئة، في جو المساء الناعم. لم تكن قد تخلّت عن عملها لتقوم بهذه الرحلة، ولكنّ المشرف قال لها بصراحة بأن غياباً مبكراً إلى هذه الدرجة ليس في مصلحة مستخدَمة جديدة. وربما تكون قد طُردت الآن، ومن الممكن أن تسمح لها السيدة تورتل بأن تتصل هاتفياً برفاقها في الغرفة لكي تعرف فيما إذا كان أحد قد اتصل ليقول لها: «لا تكلفي نفسك بالعودة». عادت سينيكا أدراجها.

أمام الباب، عندما همّت بقرعه، سمعت نحيباً، عويل أمٍّ يائسة ـ صوتاً لايشبه صوتاً آخر في العالم. تراجعت سينيكا ثم ذهبت إلى النافذة وهي تضع يدها اليسرى على صدرها لكي تهدئ خفقان قلبها. وأبقتها هكذا ـ وهي تتصور الصمّامات الحمراء، وكيف كانت تتلجلج، تدندن، متردّدة وهي تحاول استعادة إيقاعها الصحيح ـ بينما راحت تهبط الدرج القرميدي لتصل إلى الرصيف، ثم تسير في الشوارع الموحلة، ثم تلك المغطاة بالإسفلت، وفي غيرها المفروشة

بالإسمنت إلى أن وصلت إلى محطة الباصات. ولم تستسلم للعويل الذي كان يتردّد في رأسها إلّا عندما جلست كالضفدع على أحد المقاعد البلاستيكية. أمّا السيدة تورتل، بينما هي وحيدة دون شاهد، فقد نسيت عقلها وشخصيتها، وصرخت بأصوات كأصوات جميع الحيوانات المكسوّة بالريش، المزوّدة بالزعانف أو بالحوافر والتي لم تأكل لحمها أبداً، وبدا صراخها يشبه صراخ نورس أو حوت، أو ذئبة انتُزع منها صغيرها. كانت يداها منغرزتين في شعرها، وفمها مفتوحاً وسط وجهها المبلل.

أما سينيكا فقد جفّت شفتاها وأخذت تلهث، ولكنها تخلصت من سماع العويل وانطلقت في الشوارع الواسعة والضيقة، ولم تبطئ السير إلّا في الحي التجاري. وقبل أن تدخل إلى المحطة اشترت قليلاً من فستق العبيد، وشراب الزنجبيل من جهاز توزيع، وندمت على ذلك في الحال، لأنها كانت تشتهي كثيراً شيئاً حلواً، لامالحاً. وجلست على أحد المقاعد في قاعة الانتظار واضعة ساقاً فوق الأخرى وقد باعدت مابين ركبتيها. ثم وضعت الفستق في جيبها وأخذت ترتشف شراب الزنجبيل. وأخيراً زال عنها الرعب وهدأ روعها، وأصبح يستحيل عليها أن تميّز صراخ امرأة جريحة من ضجيج حركة السير اليومية.

خيّم الظلام، كانت القاعة مزدحمة كمحطة تقاطع الخطوط عند الصباح. ولم يبرد جو ذلك اليوم الحار من أيلول عندما غابت الشمس. لم يكن هناك فرق يذكر بين جو غرفة الانتظار الكثيف وبين الجو الخارجي. وراح المسافرون والذين يرافقونهم يبدون هادئين، يكادون لايهتمون بالسفر أو بالوداع. أكثر الأطفال كانوا نائمين على رُكب ذويهم، على الأمتعة وعلى المقاعد. ومن لم ينم منهم كان يشاكس ويعذّب القريبين منه. كان الكبار يقلّبون بطاقات سفرهم، يجففون العرق عن أعناقهم، يداعبون الأطفال ويتحدثون فيما بينهم بصوت منخفض. بينما بعض الجنود وعشيقاتهم يقرؤون مواعيد انطلاق الباصات المعلنة خلف الألواح الزجاجية. أربعة مراهقين على رؤوسهم قبعات صوفية، كانوا

يغنون بهدوء قرب أجهزة توزيع آلية. اجتاز القاعة رجل يرتدي بزة السائقين، كأنه يبحث عن مسافره، ومرّ رجل وسيم بكرسيه المتحرك بسهولة من المدخل، لكنه انزعج قليلاً من طريقة تصميم الباب.

كان قد بقي ساعتان وعشرون دقيقة على موعد انطلاق الباص التي ستسافر به سينيكا فتساءلت فيما إذا كانت ستمضيها في إحدى دور السينما التي رأتها، وكانت آخر العروض الجديدة هي «سربيكو» أو «طارد الأرواح الشريرة» أو «اللسعة»، لكنْ بدا لها بمثابة الخيانة أن تشاهد أحدها دون ذراع ايدي حول كتفيها. تذكّرت سينيكا أنه في وضع صعب وأنها تبذل جهوداً متعثرة لمساعدته، فتنهدت بعمق ولكنها لم تشعر بأنّ دموعها يمكن أن تنهمر من عينيها، حتى أنها لم تذرف دمعة واحدة عندما عثرت على رسالة جين قرب رزمة الـ «لورنا دونز». وقد حظيت بعناية ومحبة الوالدتين في الأسرتين اللتين تبنّتاها، وكانت تعرف أنها لم تعجبهما لذاتها، ولكن كونها تتقبّل التوبيخ دون أن تقول شيئاً وتأكل مايُقدّم لها من طعام، وتقاسم الآخرين ماتملكه، ولاتبكي مطلقاً.

راحت بقية شراب الزنجبيل تخشخش في المصاصة، عندما توقّف السائق أمامها وابتسم لها: «المعذرة، ياآنستي. هل أستطيع أن أتحدث معك برهةً؟».

«بالتأكيد. هيا!» تنحّت سينيكا جانباً على المقعد لتفسح له مكاناً، لكنه لم يجلس.

«إني مخوّل بأن أقدّم لك خمسمئة دولار من أجل القيام بعمل معقّد بعض الشيء، ولكن من السهل تنفيذه، إذا كان هذا يهمّك».

فتحت سينيكا فمها لكي تقول: معقّد وسهل؟ كانت عيناه رماديتين داكنتين وأزرار بزته تلمع كالذهب العتيق.

وقالت: «أوه، كلّا، أشكرك، إني ذاهبة عما قليل، وباصي سينطلق بعد ساعتين».

«مفهوم، ولكن العمل لايستغرق وقتاً طويلاً. ربما لو تحدّثتِ مع

السيدة التي أعمل عندها ـ فهي هنا، خارج المحطة ـ وسوف تصفه لك. إلّا إذا كنت في عجلة من أمرك».

«هي؟».

«نعم، السيدة فوكس. تعالي من هنا، لايحتاج الأمر لأكثر من دقيقة».

بدت أنوار المصابيح تنعكس على سيارة ليموزين التي توقفت على بعد بضعة ياردات من المدخل، وعندما فتح السائق بابها، التفت رأس امرأة جميلة جداً نحو سينيكا:

«مرحباً. إني أدعى نورما. نورما كين فوكس وأبحث عمّن يساعدني». لم تمدّ يدها، ولكن بسبب ابتسامتها العذبة تمنّت سينيكا أن تفعل ذلك. «أيمكنني أن أتحدث معك عن الموضوع؟».

كانت ترتدي بلوزة من الكتّان الأبيض دون أكمام، تكشف عن عنقها وكتفيها وتنورة بيج طويلة. وعندما أفلتت ساقيها المتصالبتين رأت سينيكا صندلاً لماعاً وأظافر بلون المرجان: وشعرها الذي كان بلون الشمبانيا ينسدل خلف أذنيها اللتين ليس فيهما أقراط.

سألتها سينيكا: «ماهو نوع المساعدة؟».

«اصعدي لأشرح لك ذلك. من الصعب التحدث عبر باب السيارة المفتوح».

تردّدت سينيكا بالصعود.

كانت ضحكة السيدة فوكس تدوّي كأجراس متناغمة دافئة:

«حسناً، ياعزيزتي، فأنت لست مرغمة على القيام بهذا العمل إذا كنت لاتريدين ذلك».

«لم أقل إني لاأريده».

«حسناً إذن تعالي. فالجو هنا أبرد».

أُغلق باب السيارة ثانيةً، محدثاً صوتاً هادئاً ولكنه عميق،

وكان عطر «بال آفرساي» الذي تضعه السيدة فوكس لايقاوم.

قالت: شيء سرّي، وبالتأكيد ليس هنالك ماهو غير مشروع، إنه شخصي فقط. أتجيدين الضرب على الآلة الكاتبة؟ قليلاً؟ أريد أحداً ليس من هنا. أرجو أن تكون الخمسمئة كافية. أستطيع أن أزيدها قليلاً لفتاة تكون ذكية حقاً. وسيُرجعك دافيد إلى محطة الباصات حتى ولو لم تقومي بالعمل.

ولم تدرك سينيكا أنّ الليموزين لم تعد في موقف الباصات إلّا في تلك اللحظة. كانت مصابيحها الداخلية ماتزال مضاءة. كان الجو بارداً، وهي تسير متهادية.

أضافت نورما: هذه المنطقة جزء جميل من العالم، ولكنّ العقلية فيها محدودة، ولاأدري إذا كنت تدركين ماذا أعني. ومع ذلك فإني لاأرغب بالعيش في مكان آخر غير هنا. زوجي لايصدّقني، ولاأصدقائي، لأني من شرق البلاد. وعندما أعود إلى هناك، يقولون: ويشيتا؟ هكذا، ولكني أحب هذا المكان. من أين أنت؟ هذا ماكنت أظنه. فالفتيات هنا لايلبسن جينز كهذا الذي تلبسينه. كان ينبغي عليهنّ أن يلبسنه، أعني لو أن مؤخراتهن يناسبها هذا النوع من الألبسة مثلما تناسبك. نعم. ابني في رايس. كثير من الناس يشتغلون عندنا، ولكن فقط عندما لايكون ليون هنا ـ وهو زوجي ـ أستطيع أن أطلب منهم القيام ببعض الأعمال، وهذا مأريد منك أن تتدخلي فيه، أعني إذا كنت موافقة على العمل. أمتزوجة أنت؟ حسناً، فالعمل الذي أنا بحاجة إليه لاتستطيع القيام به سوى إحدى النساء الذكيات. أنت لاتستعملين أحمر شفاه، أليس كذلك؟ حسناً، شفتاك جميلتان هكذا. لقد قلت لدافيد، اعثر لي من فضلك على فتاة ذكية. ليست من أولئك الفتيات اللواتي يعملن في المزارع ولاملكات الألبان. إنه جيد جداً، فقد عثر عليكِ. نحن نسكن في مكان خارج المدينة، كلا، شكراً. أنا لاأستطيع هضم الفستق. أوه ياعزيزتي، لابُدّ أنك تموتين جوعاً. حسناً سوف نتناول عشاءً شهياً جداً، وسأشرح لك ماذا أريد أن تفعلي. إنه بالحقيقة عمل بسيط جداً إذا عرفتِ أن تتّبعي التعليمات. هو خاص وسرّي، ولذلك أفضّل أن أكلف شخصاً

غريباً للقيام به، بدلاً من أحد الأشخاص المحليين. هل هذه أهدابك؟ إنها جميلة جداً. دافيد! هل تعرف إذا كانت ماتي قد هيأت لنا عشاءً حقيقياً الليلة؟ أرجو ألا يكون فيه سمك، أم أنك تحبين السمك؟ سمك الترويت رائع في ولاية كنساس، أعتقد أنّ الدجاج المقلي يفي بالغرض. لدينا دواجن تتغذى بشكل رائع هنا ـ فهي تأكل أحسن مما يأكل معظم الناس. لا، لاتلقها بعيداً، أعطني إياها. من يدري؟ ربما أمكن الاستفادة منها.

أمضت سينيكا الأسابيع الثلاثة التالية في غرف فخمة، مع نورما الرائعة، ووجبات طعام أشهى وأجمل من أن تؤكل. وأخذت نورما تطلق عليها كثيراً من الأسماء الحلوة، لكنها لم تسألها أبداً عن اسمها الحقيقي. لم يكن الباب الخارجي يُغلق بالمفتاح أبداً، وكانت تستطيع الذهاب عندما تريد. لم تكن مضطرة للبقاء هناك، كي تنتقل من ريش الطاووس إلى المذلات المهنية، من الدلال إلى الاستغلال العابث، من أنخاب الشراب ومقبلات الكافيار إلى القمامة. لكن الألم كان يشكل إطاراً للسرور ويضع له حداً. والمذلة تجعل الاستسلام عميقاً وحنوناً وطويل الأمد.

عندما هتف ليون فوكس معلناً عن عودته الوشيكة أعطتها نورما الخمسمئة دولار، وبعض الملابس بينها شال من الكشمير، وكما وعدتها، فقد أوصلها دافيد بالسيارة إلى محطة الباصات. راحت أزرار بزته تلمع تحت أشعة الشمس. ولم يتكلما في الطريق.

تسكّعت سينيكا بضع ساعات في ويشيتا متوقفةً أحياناً في أحد المقاهي، ومرتاحة أحياناً أخرى في إحدى الحدائق. دون أن تعرف إلى أين تذهب ولاماذا تفعل. هل تستطيع أن تعثر على عمل في مكان قريب من السجن لكي تبقى بجانبه؟ أي أن تتّبع تعليماته، وتعتذر منه لأنها لم تجلب له مدخرات أمه. أم أنها تعود إلى شيكاغو؟ وتستأنف حياتها السابقة قبل تعرّفها على ايدي تورتل؟ الأصدقاء الفوريون.

الأشغال السريعة والسكن المؤقت، والطعام المسروق. لقد نظّم ايدي تورتل حياتها لمدة ستة أشهر وقد رحل الآن. هل عليها أن تستأنف الطريق؟ لقد التقطها السائق لأجل نورما مثل جرو صغير ضالّ. لا، حتى ولا هكذا. كحيوان يتسلى به الناس لبعض الوقت - لفترة قصيرة - دون أن يحتفظوا به، أو يحبّوه. دون أن يطلقوا عليه اسماً، فقط يطعمونه، يتسلّون به ثم يعيدونه إلى مسكنه الطبيعي. كان معها خمسمئة دولار في جيبها، وفيما عدا ايدي لم يكن أحد يعرف أين هي. وربما كان يجب عليها أن تستمر على هذا الوضع.

لم تكن سينيكا قد قرّرت شيئاً هاماً عندما رأت أول مكان تستطيع الاختباء فيه - مؤخّرة شاحنة محملة بأكياس الإسمنت. وحين اكتشفها السائق حصرها بقرب أحد الدواليب، ثم أضاف إلى أسئلته، وشتائمه وتهديداته بعض الغزل المتردّد والخجول. لم تقل سينيكا شيئاً في بادئ الأمر، ثم فجأة طلبت منه الإذن بالذهاب إلى دورة المياه: «يجب أن أذهب إلى هناك، إني بحاجة ملحّة لذلك»، فتنهد السائق وتركها تذهب وهو يوجه لها إنذاراً أخيراً. بعد ذلك وقفت على الطرق عدة مرات لكي تسافر بإحدى السيارات العابرة، لكنها كانت تكره كثيراً الحوارات الاضطرارية لدرجة أنها تجازف بالاختباء في الشاحنات لكي تتحاشى ذلك. وظلّت دائماً تفضل الذهاب إلى اللامكان، منقطعة عن المجتمع - مختبئة بين الحمولة الصمّاء - دون أن يعرف أحد أنها موجودة هناك. وعندما وجدت نفسها بين بعض الصناديق في شاحنة بيك آب من طراز 73 ، جديدة تماماً، وقفزت لتقتفي أثر امرأة دون معطف، كان ذلك أول عمل تقوم به في حياتها دون أن تتلقى أمراً صريحاً بأنّ عليها أن تقوم به.

كان نحيب المرأة - أم أنه كان قهقهة خافتة - قد تلاشى. والثلج لم يعد يتساقط. وتحت، في الطابق السفلي هناك من يناديها باسمها:

«سينيكا؟ سينيكا! تعالي ياطفلتي، نحن ننتظرك».

ديفاين

«دعوني أحدثكم عن الحب، هذه الكلمة السخيفة التي تعتقدون أنها مناسبة إذا كان أحد ما يحبكم أو إذا كنتم تحبون أحداً ما، أو إذا كنتم تستطيعون تحمّل شخص ما لكي تحصلوا منه على شيء ما، أو مكان ما، هذه الكلمة التي تعتقدون أنها ذات صلة بالطريقة التي يستجيب فيها جسدكم لجسد آخر، مثل عصافير أبي الحنّاء أو ثيران البيسون الأميركية، أو ربما تعتقدون أنّ الحبّ هو الطريقة التي تكون فيها القوى أو الطبيعة أو الحظ مؤاتية لكم بشكل خاص، فلا تشوّهكم أو تقتلكم، وإذا فعلتْ ذلك فتعتقدون أنها فعلتْه لخيركم.

«ليس للحب شأن بكل هذا. فلا يوجد شيء في الطبيعة يشبهه. لافي عصافير أبي الحنّاء ولافي ثيران البيسون الأميركية ولا في كلاب الصيد التي تقتنونها وتهزّ لكم ذيولها، لافي الأزهار ولافي المهر الرضيع. فالحب إلهي وصعب دائماً. وإذا كنتم تعتقدون أنّ الحب سهل، فذلك يعني أنكم أغبياء. أو إذا كنتم تعتقدون أن الحب طبيعي فذلك لأنكم عميان. إنه تطبيق نتعلمه بلاسبب أو دافع إلا ذاك الدافع الذي من الله.

«إنكم لاتستحقون حبّاً بسبب الآلام التي تحمّلتموها. لاتستحقون حباً لأنّ أحد الناس تصرّف بشكل سيء معكم. لاتستحقون حباً لمجرّد كونكم ترغبون فيه. ليس بوسعكم إلّا أن تملكوا ـ بالممارسة والملاحظة المتأنية ـ حق التعبير عن ذلك

وعليكم أن تتعلموا القبول به. الأمر الذي يعني أنه يجب عليكم أن تكسبوا الله. عليكم أن تمارسوا الله وعليكم أن تفكروا بالله ـ بعناية. وإذا كنتَ طالباً مجدّاً ومثابراً فإنك تستطيع اكتساب الحق بإظهار الحب. فالحب ليس هبة تعطى. إنه شهادة. شهادة تمنح بعض المزايا: مزية التعبير عن الحب ومزية تلقّيه.

«كيف تخرجت؟ أنت لاتعرف ذلك. ماتعرفه هو أنك كائن بشري وبالتالي فأنت قابل للتربية، وبالتالي قادر أن تتعلم، وبالتالي ـ فأنت مهم لله الذي لايهتم إلا بنفسه، أي أنه لايهتم إلا بالحب. فهل تفهمني؟ الله لايهتم بك، إنه يهتم بالحب وبالغبطة التي يجلبها الحب، يهتم بالذين يفهمون هذا الاهتمام ويتقاسمونه.

«الأزواج الذين يدخلون قدسية الزواج وهم غير مستعدين للسير في هذا الطريق أو غير مستعدين لتقبّل حب الله الحقيقي، لايستطيعون النجاح. قد يرتبط أحدهم بالآخر كعصافير أبي الحنّاء أو طيور النوارس أو مثل أي شيء آخر يتزوج مدى الحياة. ولكن إذا تجنبوا هذا المسلك الجبار، عندما يحاسَب الجميع لأجل الحياة الأبدية، فإنّ ارتباطهم لن يعني شيئاً. فليبارك الله الطاهرين والقدّيسين، آمين».

بعض هذه «الآمين» التي رافقت وتلت كلام السنيور المحترم بوليام كان قوياً، وبعضها الآخر متحفظاً. وبعض الأشخاص لم يفتحوا أفواههم أبداً. وكانت آنّا تفكّر، ليس السؤال هو لماذا؟ ولكن من؟ فمن الذي يهاجمه بوليام بقسوة؟ هل يوجّه ملاحظاته للشبان، منذراً إياهم بوجوب إصلاح حياتهم الأنانية؟ أم أنه يقصد بذلك ذويهم الذين يتسامحون معهم ويتغاضون عن فوضويتهم وعن حياتهم المضطربة، وعن مواقفهم التي تتّسم بالتحدي، وهذا مالم يتقبّله منهم على الإطلاق حتى قبل ظهور صورة القبضة على الفرن؟ وفكرت، إنه على مايبدو كان يحاول إحراج ريتشارد تحت وطأة تربيته الطرائقية المتشدد. وماهذا سوى حجر لكي يسحق به رسالة زميله الذي يَعتبر الله محرِكاً داخلياً دائماً، حالما يدور، يزمجر ويدويّ ويدفعك للقيام بعملك وبعمل الله ـ لكنه إذا تُرك وشأنه دون

أن يدور أو يعمل فإنه يصدأ ويجمّد الروح لتصبح مثل قبضة جليدية.

وفكّرت: لابدّ أن الأمر هو هكذا: بوليام يقصد ميسنِر بكلامه. لأنه بالتأكيد لم يكن يستطيع الوقوف أمام العروسَينْ ـ وهو قسّ ووجهت إليه الدعوة، وطُلب منه أن يبدي بضع (بضع!) ملاحظات قبل الاحتفال أمام جمع يضمّ على وجه التقريب جميع سكان روبي، كان ثلثهم وحسب أعضاء في كنيسة بوليام ـ ويجعلهم يموتون من الخوف يوم زفافهم. لأنه بالتأكيد لن يشتم أم العروس، ولا زوجة أخيها اللتين تحملان، كالمعطف، همَّ العناية بأطفال رضّع عاجزين، واللتين لم تعاقِبا الله فقط لأنه أطلق طلقة الرحمة هذه على كل ماكانتا تحلمان به بل إنهما تزدادان ثباتاً مع كل سنةٍ تمرّ. ورغم أن العريس يتيم الوالدين فمن المؤكد أن بوليام لايريد إحراج زوجتي خاليه ـ ويجعل هؤلاء النسوة التقيّات يتعرّضن لاختيار النار لكي يولين اهتماماً (ربما أكثر مما ينبغي؟) «للابن الوحيد» الذي يمكن أن تحصل عليه العائلة بعد أن مات ولدا سوان. ودوفي لم ترزق أطفالاً وترفض السماح للحِداد على الموتى أن يمزقهما أو يغلق قلبهما. بالتأكيد كلا. وبالتأكيد، لم يكن بوليام يحاول إزعاج خاليْ العريس، ديكون وستيوارد اللذين كانا يتصرّفان كما لو كان الله شريكهما الصامت. وعلى مايبدو ظلّ بوليام على الدوام معجباً بهما، قائلاً بكلمات مبطّنة بأنهما ينتميان إلى كنيسة «صهيون الجديدة» وليس إلى كنيسة كالفاري حيث كان عليهما أن يسمعا العظات التافهة التي يلقيها رجل يفكّر بأن التعليم يقضي بترك الأولاد يتكلمون كما لو أنّ لديهم أموراً هامة يقولونها، لم يسبق له أن سمعها وتعامل معها.

من غيره يمكنه أن يشعر بالوخزة التي تنتج عن عبارة: «الله لايهتم بك» أو يرتعش من حرق عبارة: «إذا كنتم تعتقدون أن الحب طبيعي فذلك لأنكم عميان». منْ غير ريتشارد ميسنِر الذي يجب عليه الآن أن ينهض ويرأس حفل الزفاف الأكثر انتظاراً والذي سيتذكره الناس أكثر من أي حفل آخر، تحت دعوة السنيور بوليام الملحاحة ـ

«لاتأخذوا أي سجناء»؟ بالتأكيد، إلا إذا كان يتحدث إليها هي، ليقول لها: تعلّقي بآخر إذا أردت، ولكن إذا لم تتعلقي بالله (أي إله بوليام) فإن زواجك لن يستحق الرخصة. لأنه يعلم أنها كانت وريتشارد يتحدثان عن الزواج وهو يعرف أنها كانت تساعده على تنظيم الشبان المتمردين. «كُونوا الغضبة».

هيمن النعناع الخبيث على صنوف الزهر المنسقة حول المذبح. كان ينبت منها أجمات، بالإضافة إلى زهرة الفلوكس التي يسمونها «زهور ويليام الطيبة البرية»، وجميعها تنمو تحت نوافذ الكنيسة، التي تُفتح عند الحادية عشرة صباحاً لأشعة الشمس الطالعة. كان ضوء سماء نيسان هدية ثمينة. وفي داخل الكنيسة بدت المقاعد المصنوعة من خشب الزّان وقد لمّعت، بالمقياس العسكري للتلميع، تُبرز البياضَ الربيعي للجدران، المنبر الخفيض، والسياج الوتدي للدرابزين حيث يمكن لمتناولي القربان أن يركعوا للترحيب بالروح مرة أخرة. وفوق المذبح، في الفضاء النيّر والنظيف، عُلّق صليب من خشب السنديان يبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام، عارٍ. فارغ. فلا قطعة ذهبية تشوّه كمالَهُ أو تُخلّ بتوازنه. ليس هناك أي التواء، أو ضعف في جسد المسيح يسيء إلى رعدته الغنائية.

لم تكن نساء روبي يضعن المساحيق على وجوههن، ولايتعطّرن بعطور الموسسات. ولذلك فإن الرائحة الشهوانية التي تفوح من النعناع وزهور وليام البرية كانت تثير الاضطراب لدى الجماعة وتدير رؤوس أفرادها وهم يفكرون بالوجبة الشهية والدسمة التي تنتظرهم عند سوان مورغان. الجميع سيعزفون الموسيقا: جولي على البيانو، جوقة من الذكور، غناء منفرد تؤديه كيت غولايتلي، الأرغن، المجموعة الرباعية العائدة لكنيسة «هولي ريديمر»، وصبي ذو عينين حالمتين، يدعى برود يجلس على الدرج ومعه هرمونيكا ليعزف بها. وسيُسمع هناك حفيف الملابس الجميلة والجديدة، فساتين حريرية وقمصان منشّاة ينساها الناس عندما يستندون على الأشجار أو يجلسون على العشب الأخضر ليتناولوا كيفما اتفق بازلّاء بالقشدة. سيعلو صراخ الأطفال المنتشين بأكل

السكاكر، وستُسمع طقطقة الورق الذي غُلّفت به هدايا الزفاف، الذي يُلتقط من الأرض ويطوى بعناية لدرجة أنه يبدو أغلى ثمناً من الهدايا التي غُلّفت به. فلاحون وأصحاب مزارع ونساء يعملون بزراعة القمح، الجميع سيسمحون بأن يُنتزعوا عن الكراسي، ليشاركوا في رقصات ذات خطوات مكررة من الزمن القديم. والمراهقون يتضاحكون، ويرفّون بجفونهم جاهدين لإخفاء جهلهم.

لكن أكثر من الفرحة والأطفال الحالمين بتناول حلويات العرس، كان الجميع ينتظرون اتحاد عائلتين ونهاية العداء الذي شمل أفرادهما وأصدقاءهما طيلة أربع سنوات، عداء تركّز على الطفل المزعوم الذي لم تعترف به العروس ، ولم تعلن عنه، ولم تلده.

والآن يجلس الجميع مثل آنّا ويتساءلون عما يمكن أن يفعله المحترم بوليام الآن. لماذا يرفع غطاء النعش؟ لماذا يُنقص أريج النعناع وزهور الفلوكس ويقضي على طعم الحمل المشوي وفطائر الليمون التي تنتظرهم، لماذا يحطّم الانسجام، ويبعد السلام الذي جلبه هذا الزواج؟

نهض ريتشارد ميسنِر. منزعجاً، كلا، بل غاضباً، وغاضباً جداً لدرجة أنه كان عاجزاً عن النظر إلى زميله ليريه عمق جرحه. وبينما كان بوليام يبدي ملاحظاته، راح يوجّه نظرة شاردة إلى قبعات النساء الجالسات على المقاعد الخشبية. وقبل ذلك ببعض الوقت، أي في صبيحة ذلك اليوم، تخيّل خمس أو ست جمل كمقدمة يفتتح بها طقوس الزواج المقدسة، ورتبها بعناية حول الاصحاح 19 ، والفقرات 7 و 9 من «رؤيا يوحنا» للقيامة ملمّعاً صورة «عشاء عرس الخروف»(*) معيداً صياغتها، لكي يُظهر الصلح الذي يَعِدُ به هذا الزواج. ثم انتقل من كتاب «رؤيا يوحنا» إلى إنجيل القديس متّى، الاصحاح 19 ، الفقرة 6: «إذ ليسا بعد اثنين بل جسدٌ واحدٌ»(**)، وذلك كيلا يرسّخ إخلاص العريسين، أحدهما للآخر، وحسب، لكن

(*) العهد الجديد: رؤيا يوحنا اللاهوتي.
(**) العهد الجديد: إنجيل متّى..

أيضاً المسؤوليات المشتركة لجميع أفراد أسرَتي مورغان وفليتوود.

الآن راح ينظر إلى العريسين اللذين ينتظران بصبر واقفين، أمام المذبح، وتساءل إذا كانا قد فهما أو حتى سمعا ما ألقي على مسامعهما. أما هو، فقد فهم جيداً. فهو يعرف أنّ تلك الرؤية المميتة لعمله هي اعتداء مقصود على كل مايؤمن به. وفجأة أدرك ذلك، وشارك القديس أوغسطين ثورة غضبه حيال «القس المغرور» الذي يصنّفه مع الشيطان. كان القديس أوغسطين يضيف قائلاً بأنّ رسالة الرب لايدنسها حامل الرسالة: «وإذا كان على (النور) أن يمرّ عَبْرَ كائنات دنسة، فإنه هو، ليس دنساً». القديس أوغسطين لم يلتق بالسنيور بوليام، فلابدّ أنه قد عرف قساوسةً مثله. لكنَّ دَفْعهم إلى رفاق الشيطان لايعتبر اعترافاً بالضرر الذي يمكن أن يسببه كلام يُلقى على المنبر. فماذا يمكن أن يقول أوغسطين أبسط من ذلك عن السموم التي نثرها بوليام لتوّه، على كل شيء؟ على رؤوس الرجال الذين يلاقون صعوبة كبيرة في مقاومة غرائزهم لكي يتحكموا بما يستطيعون التحكم به ويمضغوا الباقي. وعلى قلوب النساء اللواتي كنّ يروّضن المعتدي بلا كلل، وعلى وجوه الأطفال الذين لم يستعيدوا وعيهم بعد من الضربة التي وُجهت إلى كرامتهم، عندما يعلمون أنّ الكبار لن يعتبروهم كائنات بشرية طالما لم يتزوجوا، على وجهي العريسين اللذين ينتظران هنا، إلى درجة اليأس، ذلك الرباط العمومي لكي يزيلا عارهما المكتوم. كان ميسئِر يعرف أنّ كلام بوليام وسيلة لتوسيع نطاق الحرب التي أعلنها على نشاطات ميسئِر: إغراء الشبان باجتياز الجدار، اجتياز حدود المدينة، وإرشادهم وإرغامهم على المخالفة وانتهاك القوانين، وأن يظنوا أنفسهم مقاتلين في حرب أهلية. وكان يعلم أيضاً أن السرّ الذي يعرفه الجميع عن طفل لم يولد كان يخرق أسس الخصومة كأنه ناب.

تبادر إلى ذهنه كلام مناسب، لكن لشعوره أنه لايستطيع الكلام دون الكشف عن جرحه الشخصي العميق، ابتعد ميسئِر عن المنبر، وذهب إلى قرب الجدار الأخير داخل الكنيسة. هناك رفع ذراعيه

ومدّهما لكي يتمكن من إنزال الصليب. ثم حمله ومشى ماراً أمام كراسي المرتّلين الفارغة، أمام الأرغن حيث تجلس كيت، وأمام الكرسي الذي يجلس عليه بوليام، حتى المنصّة حيث أبقاه أمامه لكي يراه الجميع ـ إذا أرادوا ذلك. أن يروا ماكان حقاً الإشارة الأولى التي أبداها أيّ كائن بشري في أيّ مكان: الخط العمودي، والخط الأفقي. حتى الأطفال يرسمونها بأصابعهم في الثلج، في الرمل أو في الوحل، يمثلونها على الأرض بالعصيّ، على التوندرا المتجمدة أو السافانا الفسيحة بالعظام، وبالحصى على ضفاف الأنهار، وينقشونها على جوانب المغاور والكهوف الصخرية، من «نوم» وحتى جنوب أفريقيا. الألغونكون، اللابون، الزولو والدروديون ـ جميعهم، لديهم في أصابعهم ذكرى تلك الإشارة الأصلية. لم تكن الدائرة هي الأولى، ولا المتوازيان، ولا المثلث. كانت تلك الإشارة موجودة تحت جميع الإشارات الأخرى. وهي تُرى في ترتيب سمات الوجه. إشارة جسم بشري واقف، متوازن، مستعد للعناق. انْتَزِعْها كما فعل بوليام للتو، فتصبح المسيحية شبيهة بأية ديانة: أناس من المتضرعين، يتسوّلون مهلةً من سلطة ضنينة، مؤمنون مضطهدون ينحنون أمام القدر أو يحاولون تجنّب الآلام والشرور اليومية. والضعفاء يتشاورون عن رحلة محتومة في البرية، والذين يرَوْن يُنزع عنهم النور ويُلقى بهم في الظلمة الأبدية لعدم الاختيار. ولولا تلك الإشارة لاقتصرت حياة المؤمن على تمجيد الرب وتلقي الضربات. فالتمجيد هو القرض، والضربات فائدة مستحقة على دَيْن لايمكن تسديده. أو كما قال بوليام «لاأحد يعرف متى حصل على الشهادة». لكن، معها، في الديانة حيث كانت هذه الإشارة سامية وأساسية، فالحياة تصبح قضية أخرى، مختلفة تماماً.

أترون؟ إعدام هذا الرجل الأسود الوحيد والذي أُسند إلى تصالب هذين الخطين اللذين ربط فوقهما في تحريف ساخر للعناق البشري، لقد رُبط على الخشبتين المناسبتين جداً، والمعروفتين جيّداً والراسختين في الوعي كالوعي لكونهما عاديتين وساميتين. أترون؟ رأسه الصوفي الشعر الذي ينتصب تارة على عنقه وتارة

يسقط على صدره وبريق ذلك الجلد الأسود الذي أطفأه الغبار وثلّمته الضغينة والمرارة ودنّسه البصاق والبول، كان يعكس لون القصدير في الرياح الحارة والجافة، وأخيراً، بينما كانت الشمس تُعتم خجلاً، ولون بشرته ينسجم مع ضوء العصر الذي أخذ يخبو، كأن المساء الذي يأتي دائماً مفاجئاً ودائماً عبر ذلك المناخ قد حلّ ليبتلعه هو والمجرمين الآخرين الموجودين في رواق الموت، غاب ظلّ تلك الإشارة الأوّلية في سماء ذلك الليل المزيف. فتأملوا كيف أنّ جريمة القتل الرسمية هذه، من بين مئات الجرائم تشير إلى الفرق، وتنقل العلاقة بين الله والإنسان، مدير التنفيذ وصاحب الطلب إلى علاقة الواحد بالآخر؟ الصليب الذي حمله كان مجرّداً، معنوياً، والجسم الغائب كان حقيقياً واقعياً، لكنّ الاثنين يتحالفان لكي يسحبا البشر من أعماق المسرح نحو النور، ومن الوشوشات في الكواليس نحو الدور الرئيسي في حياتهم. حكم الإعدام هذا جعل من الممكن أن يحترم المرء ـ بكل حرية ودون خوف ـ نفسه والآخر. ويكون هذا كما يكون الحب نفسه: احترام بلا دافع. وكل هذا يشهد ليس على مشاكسة الله الذي هو حب خاص به بل على الله الذي يمكّن الإنسان من ممارسة الحب الإنساني. فالله يحبّ الطريقة التي يتحابب بها البشر فيما بينهم ويحب الطريقة التي يحب بها الناس أنفسَهم. يحب العبقرية على الصليب التي تنجح في الأمرين وتموت وهي تعرف ذلك.

لكنّ ريتشارد ميسنر لم يكن يستطيع التكلم بهدوء عن هذه الأمور. لذلك فقد بقي واقفاً وترك الدقائق تمرّ بينما يمسك بيديه صليب السنديان ويطلب منه أن يقول مالم يستطع هو قوله: إنّ الله لايهتم بكم وحسب، إنه أنتم.

فهل سيرون ذلك؟ هل سيرونه؟

بالنسبة لمن يستطيعون رؤية ذلك، كان وجه العريس يعكس عواطفه. فقد أخذ يرفع عينيه نحو الصليب الذي يمسك به المحترم

ميسنِر ، ويمسك به ويمسك به. دون أن يقول شيئاً، كان يمسك به هناك وحسب، خلال زمن توقّف، بينما كان الصمت الذي لايطاق يعكّره بعض السعال أو نحنحات التشجيع الخافتة. وأخذ حفل الزفاف هذا يجعل الناس عصبيّين، لأنهم رأوا بعض الحوام تطير في شمال المدينة. والسؤال الذي تبادر إلى أذهانهم هو أن يعرفوا ما إذا كان هذا ينبئ بفأل سيء (كانت الطيور تحوم على شكل دائرة حول المدينة) أو بفأل حسن (فهي لم تحطّ على الأرض). راح يفكر: ياالكم من أغبياء، إذا كان الفشل مقدراً لهذا الزواج، فذلك لاعلاقة له بالطيور.

فجأة أصبحت النوافذ المفتوحة غير كافية، وراح العريس يتصبب عرقاً في بزته السوداء المفصّلة بشكل مدهش. واخترقه الغضب كرصاصة من عيار 32 . فلماذا يستغل الجميع زواجه، ويفسدون حفل زفافه لكي يستمروا في خصام، لايهتم به هو على الإطلاق؟ فهو يريد أن ينتهي ذلك، وأن يكف الجميع عنه مرة واحدة، لكي يغلق خالاه فَمَيهِما، ولكي يكفّ جِف وفليت عن نشر الأكاذيب حوله، وليحتل مكانه بين الرجال المتزوجين والملاكين في روبي، وحتى يستطيع أن يحرق رسائل آرنيت جميعها. ولكن بشكل خاص لكي ينبذ نهائياً من حياته تلك العاهرة جيجي. تماماً مثلما تتحول المتعة التي يحدثها السّكر إلى عدو قاتل للجسم، كانت الرغبة التي يشعر بها نحوها قد سمّمته، جعلته مصاباً بداء السكري، بليداً، يائساً. إذ بعد عدة شهور من العذوبة الخطيرة، أخذت تبدي اللامبالاة والملل، وحتى لاتطاق. فكم سبق له أن انتظرها بين قصبات الذرة الصفراء الطويلة، في ضوء القمر، وكم مرة زحف خلف أقنان الدواجن لكي يلتقي بها، وأنفق عليها نقوداً كثيرة ليست له. وقد كذب لكي يعيروه سيارةً أخرى غير الشاحنة لكي يصطحبها في نزهات، كما أنه زرع الماريجوانا من أجلها، وجلب لها الثلج في عِزّ شهر آب أي في عزّ الحرّ لكي تبرّد مابين فخذيها. اشترى لها راديو يعمل على البطاريات كانت تحبه كثيراً، وفستان شَنِيل، ضحكت له. وعلاوة على ذلك، أحبها لعدة سنوات حباً مؤلماً، مذلاً،

لطالما احتقر نفسه بسببه، والذي تحول من توق إلى مخالسة.

لقد قرأ رسالة آرنيت الأولى، ولكنه رتب الرسائل الأخرى في علبة للأحذية في مستودع زوجة خاله. كان يشعر بأن عليه أن يتلفها بسرعة (أو ربما أن يقرأها) قبل أن يكتشف أحد ما الأحد عشر مغلفاً غير المفتوحة التي أرسلت من لنغستون في ولاية أوكلاهوما. فهو يفترض أنها كلها تتحدث عن الحب وعن الحزن والكآبة، عن الحب رغم الحزن والكآبة. أو عن أيّ شيء كان. لكن أنّى لآرنيت أن تعرف أي الطريقتين اتّبع؟ هل أمضت ليلاً بطوله في أجمة السنديان، لمجرد أن تلمح شيئاً ما؟ هل لحقت سيارة كاديلاك عتيقة إلى أن وصلت إلى دمبي لكي ترى وحسب؟ وهل طردتها بعض النسوة من أحد البيوت؟ وشتمنها؟ مع ذلك فهي لا تستطيع البقاء بعيداً! كلا، أخيراً، حتى يطلب منه خالاه الجلوس ويحدثاه عن القانون والأمور المترتبة عليه.

إذن فقد كان هناك، أمام المذبح، مرفقه يسند رسغ عروسه الرقيق، وفي جيبه فرع من شعانين عيد الفصح أعطته إياه، كناية عن الحماية. أخذ يشعر بثقل تنفس الشاب الواقف إلى يمينه، الذي سيصبح ابن حميه عما قريب، وبعداء بيلي ديليا التي راحت نظراتها تخترق مؤخرة رأسه. كان متأكداً أنّ ذلك سيدوم إلى الأبد، لأنّ الصليب الذي يحمله ميسنر يبدو قد جعله يلتزم الصمت.

هذا الصليب كانت تُحدق به العروس وقد تملّكها الرعب. ومع أنها كانت سعيدة جداً. أخيراً سعيدة جداً جداً ، بعد أن تحرّرت من ذلك الحزن النازف الذي استولى عليها منذ عودتها من الكلية: الاختناق الذي لايرحم في بيت أبويها، والقرف الجديد الذي يلازم العناية المقدّمة إلى أولاد وبنات أخوتها، الضعفاء، قلّة نومها التي راحت تقلق أمها، وتثير حفيظة زوجة أخيها وتُغضب أخاها وأباها. بطالتها المطلقة التي لم تكن تقطعها إلا لكي تتساءل أو تبدي قلقها بشأن «K.D.». ورغم أنه لم يرد على رسائلها الاثنتي عشرة الأولى، فإنها استمرت في كتابة أربعين رسالة، دون أن ترسلها. أي رسالة كل أسبوع في السنة الأولى من غيابها. كانت

تعتقد أنها تحبه بشكل مطلق لأنه كان يمثل كل ماتعرفه عن نفسها ـ أي أنّ كل ماتعرفه عن جسدها كان مرتبطاً به. وفيما عدا بيلي ديليا، لم يقل لها أحد أن هناك طريقة أخرى للتفكير بنفسها. لاأمها ولازوجة أخيها. وفي العام الماضي، عندما كانت في السنة الأخيرة، وأتت لقضاء عطلة عيد الفصح وطلب أن يراها، أتى لتناول طعام العشاء مرتين، ثم اصطحبها إلى مزرعة ناثان دوبريس للمساعدة في النزهة التي أقيمت بمناسبة حفلة عيد الأطفال وهناك عرض عليها الزواج: وبدا ذلك بمثابة أعجوبة استمرت منذ ذلك اليوم الرائع من شهر نيسان. كل شيء كان تاماً: لقد وافتها الدورة الشهرية وانتهت، وفستانها الذي صُنع بكامله من دانتيلا سوان مورغان كان جميلاً بشكل مدهش، والحرفان الأوّلان من اسميهما كانا منقوشين متشابكين على المحبس الذهبي، المدسوس في جيب صدرية أخيها. لقد اندمل أخيراً جرح قلبها، والآن في آخر لحظة، هاهو القسّ يتصرّف بصورة غريبة، ويحاول إيقاف عقد الزواج، تشويهه، بل ربما تدميره. فقد كان يقف هناك بوجه كالغرانيت، حاملاً صليباً كما لو أنّ أحداً لم ير صليباً مثله. غرزت أصابعها في الذراع التي تستند عليها، لأنها تريد أن يتابع ميسبَر الاحتفال: قلها، هيا قلها! «أخوتي الأعزاء، لقد اجتمعنا هنا... اجتمعنا هنا». وفجأة، دون إحداث أي صوت، وعَبْرَ الصمت المطبق الذي فرضه ميسبَر، انفتح شقّ صغير في مكان الجرح الذي كان في قلبها بالضبط. كتمت أنفاسها وشعرت بأنّ الشقّ أخذ يتسع ويكبر، مثل جراب يكرّ. وعما قليل سيصبح الشق الصغير واسعاً، ثم ينفتح ويتسع أكثر فأكثر إلى أن يُنهك كل قواها، إلى أن يحصل على مايلزمه لكي ينغلق ويسمح للقلب بمتابعة الخفقان. هي معتادة على ذلك، وقد ظنّت أنّ زواجها من «K.D.» سوف يشفيها تماماً وإلى الأبد. لكن الآن، بينما تنتظر عبارة: «لقد اجتمعنا هنا...» قلقةً، وتأمل سماع عبارة: «أتريد أن تتخذ هذه...» أدركت بشكل أفضل، وعرفت تماماً ماكان ينقصها، ومايمكن أن يظلّ ينقصها إلى الأبد.

أخذت ترجوه وتتوسل إليه: «قلها من فضلك، راحت تلح، أسرع أسرع! فلديّ أعمال أقوم بها».

نقلت بيلي ديليا باقة الزهر التي تحملها من يدها اليسرى إلى اليمنى. كانت بعض الأشواك الصغيرة تخزها عبر قفازها القطني الأبيض، وأخذت أزهار الفريزيا تغلق وريقاتها كما توقعت بيلي. ورود الشاي وحدها ظلت ثابتة على الوعود التي يمكنك عدها حرصاً عليها. وقد اقترحت إضافة زهور نسيم الطفل لتجميل البراعم الصفراء لكنها دهشت عندما علمت أنّ هذه الزهور غير موجودة في أية حديقة، ولايوجد نبتة نسيم الطفل في أي مكان. فقالت ليكن إذن من زهور الأخلّيّة، ولكنّ العروس رفضت أن يُجلب إلى حفل زفافها نبات يأكل منه البقر. ولذلك فإنّ الاثنتين كانتا تمسكان بيديهما أزهار الفريزيا المتعطشة للماء وورودأ لم تُنزع أشواكها جيداً. وفيما عدا ماكانت تعانيه تلك الراحتان فإنها لم تفاجأ ولم تنزعج من الانتظار الذي فرضه المحترم ميسنِر على الجميع. كان قطعة أخرى من الغباوة التي جعلت هذا الزفاف الأحمق يراه الجيمع وقفاً لإطلاق النار. ولكنّ الحرب لم تكن بين آل مورغان وآل فليتوود وأولئك الذين يقفون في كلٍ من الصفين. حقّاً لقد كان جفّ يحمل الآن مسدساً، وستيوارد مورغان وأرنولد فليتوود قد تبادلا الشتائم في الشارع، وهناك أناس قد تجمعوا في قاعة آنّا فلود الخلفية وفي صالون مينوس للحلاقة، لا ليقصّوا شعرهم بل لكي يتذمروا من الإشاعة التي تروي أنّ أمراً معيباً قد ارتُكب في الدير، وأنّ المحترم بوليام ألقى موعظة، استناداً إلى الأقاويل التي وردت في تلك الإشاعة، معتمداً فيها على تعاليم «إرميا» الإصحاح الأول، الفقرة الخامسة: «قبلما صوّرتكَ في البطن عرفتك وقبلما خرجت من الرحم قدّستكَ. جعلتك نبيّاً للشعوب». وكان المحترم ميسنِر قد ردّ بكلام بولس في رسالته التّقَوية إلى الكورنثيين: «... ولكن أعظمهنّ المحبة». ولكن بالنسبة لـ بيلي ديليا فإنّ المعركة

الحقيقية لم تحصل بشأن حياة طفل رضيع أو سمعة عروس، بل بشأن التمرد والعصيان، وهذا بالتأكيد يعني أن فحول الخيل كانت تتصارع لمعرفة من هو الذي يتحكّم بالأفراس وبصغارها، كان الكتاب المقدس والتاريخ بجانب السنيور بوليام. وبجانب ميسنِر الكتاب المقدس والمستقبل. والآن، كانت تفترض أنه جعل الناس تنتظر في ذلك الوقت إلى أن يفهم هذا الأخير موقفه.

تحوّلت بيلي ديليا عن نظرات الأب ميسنِر المتفحّصة، ووجهّت نظرها نحو الدانتيلا الثقيلة التي تغطي رأس العروس، ثم نحو نقرة العريس، وتذكرت في الحال حصاناً كانت تحبه فيما مضى. ورغم أن العريس هو الذي كان يحتفظ في اسمه بذكرى سباق أسطوري للخيل ولكن حياتها هي التي تشوّهت بسبب «هارد غودز» ذلك الحصان الفائز الذي امتطاه «K.D.»، عند الاحتفال بتأسيس روبي وكان يملكه السيد ناثان دوبريس. وبعد سنوات عديدة من ذلك السباق، لكن قبل أن تتعلّم المشي، رفعها السيد ناثان على ظهر «هارد غودز» العاري وقامت بنزهة فرحت فيها لدرجة أنّ الجميع ضحكوا. ومنذ ذلك الحين، وفي كلّ شهر تقريباً، عندما كان يأتي إلى المدينة للتسوق، كان يترجّل ويرفعها إلى ظهر الحصان لتقوم بنزهة حول باحة المدرسة القريبة من بيتها، ممسكاً خصرها براحة يده، وهو يقول: «اركبوا يا أطفال. نحن بحاجة لمزيد من الخيّالة في هذا البلد الذي يبكي فيه الجميع للحصول على سيارة، يركبها أولادهم مبكراً! أما: «هارد غودز» فلا يملك عجلة أبداً!» واستمرت الحال على هذا المنوال إلى أن بلغت بيلي ديليا الثالثة من العمر ـ وكانت أصغر من أن ترتدي سروالاً داخلياً في معظم أيام الأسبوع، ولم يلاحظ أحد، أو ينتبه إلى كيفية التحام بشرتها بذلك الشكل التام على جسم الحيوان المتحرك بإيقاع. وعندما كانت تبذل جهداً لكي تعلّق كعبيها على بطن الحصان، وتتحمل احتكاك عموده الفقري بجسمها، كان الكبار يبتسمون ويشعرون بالسرور لمشاهدة فرحها معتبرين السيد ناثان زنجياً رجعياً بحاجة أن يتعلم استخدام أداة تغيير السرعة لكي يستطيع الوصول في الوقت المحدد. وذات يوم،

وكانٍ يوم أحد. سار «هارد غودن» خبباً في الشارع وهو يتجه نزولاً وعلى ظهره السيد ناثان فركضت بيلي ديليا التي لم تكن قد رأت الحصان وخيّاله منذ زمن طويل، نحوهما، طالبة الركوب. فوعدها السيد ناثان بذلك، لكن بعد حضور الصلاة. فوقفت تنتظر في الباحة وهي بملابس الأحد. وحين لمحته وهو يشقّ طريقه، بين جمهور المصلين، خارجاً من الكنيسة، اندفعت مسرعة إلى وسط الشارع المركزي، حيث نزعت سروال يوم الأحد، قبل أن تمدّ ذراعيها لكي تُرفَع على ظهر الحصان «هارد غودن».

بعدها بدا أنّ كل شيء قد انهار. انهالت عليها أمها ضرباً مبرحاً، وقد احتاج الأمر عدة سنين لِفَهْم الخجل الذي شعرت به. عند ذلك بدأت المضايقات التي لاترحم، لأن أمها كانت معلمة المدرسة. فجأة التمع بريق داكن في عيون الشبان الذين شعروا أنهم مرتاحون للتحديق فيها، وفجأة بدر تشجيع غريب من النسوة، ونظرات تتحول إلى جهة أخرى بدرت من الرجال. ومراقبة دائمة تقوم بها أمها. منذ ذلك الحين لم يعد ناثان دوبريس يقترح عليها أن تمتطي حصانه. وهكذا فقدت إلى الأبد «هارد غودن» الذي لم يعد يذكر أحدٌ عنه شيئاً سوى أنه الحصان الذي فاز بالسباق وعلى ظهره «.K.D»، هذا في المجال العام، أمّا في المجال الخاص، فيُذكر باعتباره المسبِّب للعار لفتاة صغيرة. وظلّت السيدة دوڤي مورغان وأختها سوان وحدهما تعاملانها باللطف نفسه ـ إذ توقفانها في الشارع لتسوية شرائط جدائلها، أو لتهنئتها على عملها في حديقتهما، وفي إحدى المرّات، عندما أوقفتها السيدة دوڤي مورغان لتمسح لها ماظنّت أنه ماكياج على شفتي بيلي ديليا الورديتين، لم تفعل ذلك مبتسمة، ولا وهي تلقي محاضرة عن الكراهية. بل لقد اعتذرت عندما رأت أنّ منديلها ظل نظيفاً، ولولاهما، ولولا عودة آنّا فلود لكانت فترة مراهقتها صعبة لاتعاش. آنّا والسيدتان مورغان لم يجعلاها تشعر أيضاً ماهي الغرابة في أن تكون الابنة الوحيدة ـ ربما لأنهما لم يرزقا أطفالاً، أو أنهما رزقا القليل منهم. حيث أن أكثر العائلات تفتخر بأنها

رزقت تسعة أطفال، أحد عشر، بل وخمسة عشر أيضاً، وكان أمراً حتمياً أن تصبح آرنيت التي لم يكن لها أخت، بل أخ واحد، أفضل صديقة لها.

كانت تعرف أنّ الناس يعتبرونها شقية متمردة، هي التي منذ البداية، ودون اهتمام، لم تكتفِ بإلصاق غُرْيها إلى حصان، بل أحبت ذلك كثيراً، لدرجة أنها خلعت سروالها الداخلي أمام الجمهور المحتشد يوم الأحد، فقط لكي تشعر بالإثارة بسبب ذلك. آرنيت هي التي ضاجعت (العريس) وهي في الرابعة عشرة من عمرها، لكن بيلي ديليا هي التي تحملت وزر الخطيئة، وقد تعلّمت بسرعة كيف تعرف النظرات الحذرة في عيون الفتيات اللواتي حذّرتهن أمهاتهن من مرافقة بيلي ديليا. والحقيقة أنها لم تُمسّ. حتى ذلك الحين. كانت تعشق بشكل يائس أخوين، وعذريتها التي لم يكن يؤمن بها أحد أصبحت أشد صمماً من الصليب الذي كان يرفعه المحترم ميسنِر.

الآن، أخذ يغمض عينيه. وأخذت عضلات فكيه تتقلّص. وكان يمسك بالصليب كأنه مطرقة يحاول ألّا يجعلها تسقط خشية أن تجرح أحداً ما. وكانت بيلي ديليا تأمل أن تراه يفتح عينيه من جديد، وينظر إلى العريس، ثم يلكم رأسه به. لكن لا، فذلك ربما أزعج العروس التي حصلت أخيراً على العريس الذي تحتقره إشبينتها. العريس الذي عرض الزواج على بيلي ديليا قبل وبعد فِعْلته مع آرنيت. العريس الذي عندما لم تكن آرنيت موجودة، ينساها تماماً، ويسعى وراء أية امرأة يقل عمرها عن الخمسين سنة. عريس ترك زوجته المقبلة حاملاً ووحيدة تماماً، وهو يعلم أنها ستكون في المستقبل أمّاً غير متزوجة (دون أن يكون هو أباً في المستقبل) وسوف تضطر إلى طلب المغفرة من كنيستها. لقد سمعت بيلي ديليا هذا النوع من الكلام، ولكن أيّة فتاة تصبح حاملاً في روبي تستطيع أن تأمل بالزواج وتعتمد عليه، سواء كان الشاب يرغب بذلك أم لا، لأنه سيكون مرغماً على الاستمرار بالعيش بجانب عائلة الفتاة وعائلته. ولابدّ أن يلتقي بها في الكنيسة وفي كل مكان. لكن ليس

هذا العريس، فهذا قد ترك العروس تتعذّب طيلة أربع سنوات، ولم يوافق على الزواج إلا بعد أن طُرد من سرير امرأة أخرى بركلة على مؤخّرته. ركلة قوية جداً جعلته لم يعد يستطيع أن يركض بسرعة كي يذهب إلى المذبح. وهي تتذكّر جيداً اليوم الذي أتت فيه تلك التي ركلته على مؤخرته وهي تنتعل الحذاء الذي ركلته به. حدثت كراهية بيلي ديليا للفتاة ذات السلوك الغريب بصورة فورية وكان من الممكن أن تصبح أبدية لو لم تجد هي نفسها ملجأً لها في الدير ذات يوم باردٍ جداً من شهر تشرين الأول بعد شجار مع أمها، تطور بشكل سيء. في ذلك اليوم تعاركت أمها معها كأنها رجل من ذلك الزمن. فهربت إلى بيت آنّا فلود، وهذه طلبت منها آنذاك أن تنتظر في الطابق الأعلى بعض الوقت بينما تستطيع هي تسوية بعض الأمور مع أحد المتعهدين. بكت بيلي ديليا وحدها خلال الوقت الذي بدا لها ساعات، وهي تلحس شفتها المشقوقة وتتحسّس عينها المتورّمة. وعندما لمحت شاحنة أبولو، نزلت على الدرج الخلفي، وبينما كان يشتري زجاجة صودا صعدت إلى السيارة. لم يعرف أحد منهما مايفعل. اقترح عليها أبولو أن يصطحبها إلى بيته ولكن، لأنها خجلت من اضطرارها أن توضح لوالديه سبب ماأصاب وجهها والتعرض لنظرات أخوته وأخواته الاثني عشر، فقد طلبت منه أن يوصلها إلى الدير. حصل ذلك في خريف عام 1973 . ومارأته وتعلمته هناك أحدث لديها تحوّلاً أبديّاً. وإذا قبلت بأن تكون أشبينة لـ آرنيت فتلك آخر بادرة عاطفية يمكنها القيام بها في روبي. فقد وجدت عملاً في دمبي، اشترت سيارة، ربما كانت ستقودها إلى سان لويس لولا حبها المزدوج اليائس للأخوين.

لم يكن ستيوارد رجلاً صبوراً، سواء كانت مضغة التبغ في فمه أو لم تكن. ولذلك فقد دهش لهدوئه التام وهو يراقب تصرف ميسنر فقد أخذت الجماعة من حوله تغمغم متذمرة، وبدأ بعضهم يتبادلون النظرات، ولكنّ ستيوارد ظلّ يشعر أنه أقل حيرة وارتباكاً ممن

يحيطون به، رغم عدم وجود مضغة تبغ في فمه لتهدّئه. فعندما كان صغيراً أصغى إلى «بيغ دادي» وهو يصف رحلةً تزيد مسافتها على خمسة وستين ميلاً، قام بها ليجلب بعض المواد التموينية لـ هاڤن. حدث ذلك عام 1920 . كان الحظر(*) عاماً في ذلك الحين. وقد ضرب هاڤن وانتشر فيها مرض أطلقوا عليه اسم ذات الرئة الهزاز. وظلّ «بيغ دادي» بين بعض قليلي العدد الذين يستطيعون السفر. فسافر بمفرده ممتطياً صهوة جواده. اشترى مايحتاجه من لوغان كونتي، لفّ الأدوية تحت معطفه، حزم مؤونته على حصانه، ثم بعد انطلاقه ضلّ الطريق، وبعد غروب الشمس لم يعد يعرف إلى أية جهة يسير. شعر بوجود نار في مكان قريب يقع إلى يساره دون أن يستطيع رؤيتها. ثم سمع، فجأة، إلى يمينه صراخاً وموسيقا وعيارات نارية، لكنه لم ير أي ضوء. وقد حوصر في الظلام بين مجهولين لايمكن رؤيتهم، منتشرين في كل الجهات، فكان عليه أن يقرّر إمّا الذهاب نحو رائحة الدخان والشواء وإما إلى جهة الموسيقا والمسدسات. أو، ولا إلى أيّ منهما، فربما كانت تلك النار في مخيم يستدفئ عليها بعض اللصوص. والموسيقا ربما كانت تعزف لتسلية بعض الذين يتعقبون اللصوص والمجرمين. أخيراً حسم حصانه الأمر، فعندما شعر بوجود كائنات من أشباهِهِ اتّجه نحو نار المخيم. فوجد «بيغ دادي» ثلاثة هنود من قبيلتي ساك وفوكس(**) جالسين حول نار مخبّأة في حفرة. ترجل عن حصانه واقترب بحذر ممسكاً قبعته بيده، وقال: «أسعدتم مساءً». استقبله الرجال وعندما عرفوا وجهته نصحوه بعدم الدخول إلى المدينة وقالوا له: إنّ النساء يتقاتلن فيها بقبضاتهن، والأطفال سكارى، والرجال لايتناقشون ولايتخاصمون ولايتكلمون إلا بأسلحتهم. والقوانين المتعلقة بالكحول لاتطبّق فيها. وأنهم أتوا لإنقاذ أحد أفراد عائلتهم الذي يتناول المشروبات الكحولية منذ اثني عشر يوماً. لقد ذهب أحدهم إلى هناك للبحث عنه. فسألهم «بيغ دادي»: «وماهو اسم هذه المدينة؟» فأجابوه: «بورا سانغر»،

(*) قانون حظر المشروبات الروحية الذي صدر في عام 1920 وسبّب قيام المافيا.
(**) من القبائل المستوطنة الآن في أوكلاهوما.

هناك عند مدخلها الشمالي لافتة، كتب عليها: «لا زنوج» وعند مدخلها الجنوبي يوجد صليب. فأمضى «بيغ دادي» بضعة ساعات معهم، وقبل شروق الشمس، شكرهم وانصرف ـ عائداً أدراجه لكي يجد طريقه.

عندما سمع ستيوارد هذه القصة للمرة الأولى، لم يستطع أن يغلق فمه وهو يفكر بتلك اللحظة التي كان فيها والده وحيداً في الظلام الدامس، تحيط به المسدسات من اليمين، والغرباء من اليسار. لكنّ الراشدين ضحكوا وفكروا بأمر آخر: «لا زنوج من جهة، وصليب من الجهة الأخرى، وبينهما في الوسط الشيطان». لم يفهم ستيوارد: كيف يمكن أن يتواجد الشيطان بالقرب من الصليب؟ وماهي العلاقة بين الأمرين؟ لكنه بعد ذلك التاريخ رأى العديد من الصلبان بين حلمات العاهرات، وشاهد صلباناً عسكرية صفّت على مسافة أميال عديدة، وصلباناً نارية في ساحة الزنوج، وصلباناً رُسمت بالوشم على سواعد بعض القتلة المحترفين. بل لقد رأى مرة صليباً معلقاً في مرآة إحدى السيارات التي كانت تغصّ بالشبان البيض الذين أتوا لإهانة الفتيات الصغيرات في روبي. وكيفما كان المحترم ميسنِر يفكّر، فإنه يخطئ. فالصليب ليس أكثر قيمة من الذي يحمله. أخذ ستيوارد يداعب شاربه وقد شعر أنّ أخاه التوأم يحرك قدميه وقد استعدّ لرفع المقعد الموجود أمامه، ليضع حداً لتصرف ميسنِر.

كانت سوان الجالسة بجانب ديك تصغي لصوت تنفسّه الثقيل وأدركت خطورة غلطتها. وهمّت بلمس ذراع زوجها لكي تمنعه من النهوض، عندما خفض ميسنِر أخيراً الصليب وتلفّظ بكلمات افتتح بها الاحتفال. فشعر ديك بالارتياح وتنفس الصعداء، لكنّ الشر قد وقع. وعادوا إلى نقطة البداية، عندما صوّب جِفرسون فليتوود مسدساً إلى «K.D.» وحين اضطر مينوس للتدخل لوقف العراك والتدافع بين ستيوارد وأرنولد. وعندما لم ترسل مابل كعكاً إلى معرض الحلويات التابع لكل الكنائس. فالسلام والنية الحسنة اللذان

استعيدا بفضل الإعلان عن حفل الزفاف أصبحا الآن قُتاتاً. وسيكون حفل الاستقبال في بيتها تكثيفاً للمشكلة، والأمر الأكثر إزعاجاً هو أنّ سوان، دون أن تخبر الآخرين، كانت قد ارتكبت خطأً بدعوتها كوني وفتيات الدير إلى حفلة الاستقبال هذه. ولأنها لم تفهم التحذير فقد كانت على استعداد لاستقبال أكبر فوضى عرفتها روبي. راح طفلاها اللذان توفّيا يستندان على براد الكلفيناتور ويكسران قشور الفستق الإسباني. وسألها إيستِر: «ماذا يوجد في حوض الجلي؟» ألقت نظرة فرأت ريشاً بألوانٍ زاهية ولمّاعة، ولكنها صغيرة كريش فراخ الدجاج، مكوماً أكداساً في حوض جلي مطبخها. فتساءلت: إنها لم تذبح أو تنتف ريش أي طيرٍ من الدواجن، حتى وإن فعلت ذلك فإنها لايمكن أبداً أن تلقي الريش في هذا المكان. لذلك أجابته: «لاأدري» فقال لها شكُوت: «يجب أن تزيليها من هنا ياأمي، هذا ليس مكاناً يوضع فيه الريش كما تعلمين». وضحك الاثنان وتابعا تكسير الفستق. استيقظت وهي تتساءل عن نوع الطيور التي لريشها هذه الألوان. وبينما كانت أزواج وأزواج من الحوام تطير فوق المدينة، تبادر إلى ذهنها أنّ هذا هو تفسير الحلم: مهما فعلوا فإنّ هذا الزواج لن يسوّي أيّ أمر. ثم اعتقدت أنّ ولديها حاولا أن يقولا لها شيئاً آخر: لقد ركّزت تفكيرها على الألوان، بينما كانت النقطة الأساسية هي «حوض الجلي»: «هذا ليس مكاناً يوضع فيه الريش كما تعلمين». فالريشات الغريبات التي دعتها إلى الحفلة لم تكن في مكانها في البيت.

عندما ضغطت كيت غولايتلي أخيراً على مفاتيح الأرغن والتفت الزوجان نحو الحشد، بكت سوان. من جهة بسبب ابتسامات العريسين اللامعة التي تنمّ عن الأسى، ومن جهة أخرى بسبب الرعب من الشر الذي كان يتجول ويطوف متجهاً نحو بيتها.

لوحِظَ منذ زمن طويل أنّ الأخوين مورغان نادراً مايتحدّث أحدهما مع الآخر أو ينظران إلى بعضهما. وقد ظنّ البعض أنّ ذلك

سببه غيرة أحدهما من الآخر، وأنّ لديهما فقط المفاهيم نفسها، بينما يوجد في أعماق نفسيهما حقد متبادل لايطفو على السطح إلا بشأن الأمور الصغيرة. في خلافاتهما بخصوص السيارات، على سبيل المثال: فأحدهما يفضّل الشفروليه بحرارة، بينما يدافع الآخر عن الأولدزموبيل بعنف. والواقع أنّ الأخوين ليسا متفقين تقريباً على كل شيء وحسب، بل كان يجري بينهما حديث دائم لكنه صامت. فكلّ منهما يعرف أفكار الآخر تماماً كما يعرف وجهه، وتكفي نظرة واحدة للتحقق من ذلك.

هما يقيمان الآن في غرفتين مختلفتين في بيت ديك ويفكران بالأمور نفسها. ولحسن الحظ تأخر ميسنر، ومينوس معتدل وبوليام منتصر وجِف منهمك بسويتّي. ومابل التي حضرت الاحتفال، ساعدت كنتها أثناء حفلة الاستقبال. كان العريسان يسيران الواحد وراء الآخر - وظلا يوزعان الابتسامات الصقيلة في مكانهما ليس جنباً إلى جنب، بل الواحد وراء الآخر. لم يكن أحد يساوي بقيمته القس كاري - الهادئ الودود - الذي هو أفضل من يحافظ على ثبات الأشياء. لأنه وزوجته ليلي من المرغوب بهما دائماً من أجل إنشادهما الثنائي، والموسيقا التي يعزفانها...

فتح ستيوارد البيانو بينما كان ديك يتنقل بين جمهور المدعوين، وعند مروره بقرب المحترم بوليام، الذي كان يهز برأسه ويبتسم لـ سويتي وجف ربّت ديك على كتفه مُطمئناً. في قاعة الطعام كانت الموائد تثير تمتمات المديح والاعجاب، قبل أن يجلس إليها المدعوون، عدا بعض الأطفال. بينما الهمهمات أمام طاولة الهدايا تبدو مغتصبة وثقيلة. وظلّ ستيوارد ينتظر بجانب البيانو والانسجام تام بين شعره الرمادي الفولاذي وعينيه اللتين تشعّ منهما البراءة. وقد تجمع حوله الأطفال يتلألؤون كالعقيق. كانت النساء تشع منهن البهجة، وهن مرتديات ملابس عيد الفصح الجديدة، ولكن هادئات. أما أحذية الرجال الجديدة التي تُرسل صريراً وطقطقة فتلمع كبذور

البطيخ. والجميع مُتَيَبِّسون ومُلمَّعون أكثر من اللزوم. لابدّ أن ديك قد وجد صعوبة في إقناع آل كاري، هذا ما فكر فيه. بحث ستيوارد عن علبته التي يضع فيها التبغ وهو يدفع بصمت شقيقه التوأم ليجد شخصاً آخر ـ جوقة الذكور، كيت غولايتلي ـ بسرعة قبل أن يفكّر المحترم بوليام بأن يصلي لهم للعودة إلى مراكز المعركة أو، وليحمنا الرب من ذلك، فبدأ جف ينشد أنشودته أحزان المحاربين القدماء. وما أن يبدأ حتى يصبح «K.D.» الذي لم يذهب إلى الجندية، هدفه المقبل. وأخذ يتساءل: أين سوان؟ رأى ستيوارد دوڤي وهي تنزع الدبابيس التي تعلّق حجاب العروس بشعرها، ومرة أخرى سحرت قامةُ زوجته عينيه البريئتين. وأياً كان لباسها ـ فستاناً عادياً، بزّة الكنيسة البيضاء أو حتى برنس الحمّام ـ يظل شكل جسمها يبعث ابتسامة الرضى على شفتيه. لكنّ ديك أخرجه من شروده فكفّ عن تأمل دوڤي بإعجاب ورأى نجاح جهود أخيه: فقد اقتربت كيت وجلست أمام البيانو، مسّدت أصابعها وأخذت تعزف. أولاً بعض الألحان السريعة المتتالية، رافقها مرافقة ودية بعض السعال وهمسات مشاركة في الأداء. ثم تقدّم سيمون وليلي كاري بدورهما وهما يدندنان، يدندنان ويبحثان عن شيء يبدأان به الغناء. كانا في المقطع الثالث من أنشودة: «أيها الرب العظيم، خذ بيدي» والابتسامات موجهة جميعها نحو الموسيقا، عندما سُمع زمّور سيارة كاديلاك عتيقة.

لم تأتِ كوني، ولكنّ نزيلاتها استجبن للدعوة. كانت ماڤيس تقود الكاديلاك وجيجي وسينيكا في المقعد الخلفي، وفتاة أخرى جديدة تجلس في المقعد الأمامي. لم تكن ملابسهنّ تدل على أنهن قادمات لحضور حفلة زفاف. وعندما نزلن من السيارة كان من يراهنّ يظنّ أنهن قد خرجن للتو من مرقص للروك: شورتات وردية،

بلوزات ميني، تنانير شفافة، عيون مكحلة، بلا حمرة على الشفاه، وكان واضحاً أنهن بلا ملابس داخلية وبلا جرابات. ويبدو أنهنّ نهبن مخزن جيزابيل لتزيين أذرعهن، آذانهنّ، أعناقهنّ، كواحلهنّ بل وأنوفهنّ أيضاً. تبادلت ماڤيس وسوان التحية بانزعاج ظاهر وهما تقفان على المرجة الخضراء. ذهبت امرأتان أخريان وهما تتسكّعان إلى غرفة الطعام وأخذتا تتفحّصان الموائد. ثم قالتا: «مرحباً!» وتساءلتا بصوت عالٍ فيما إذا لم يكن هناك أي مشروب آخر، سوى عصير الليمون والبنش. لم يكن يوجد أحد، عند ذلك فعلتا كما فعل قبلهما شبان آخرون: خرجتا من باحة آل مورغان مرّتا من أمام دكان آنّا فلود وذهبتا إلى جوار الفرن، فانصرفت بضع الفتيات المحليات اللواتي كنّ هناك على شكل مجموعة وتركن المكان إلى أبناء بول: أبولو وبرود وهرستون، وإلى أبناء سيرايت: تيموثي ج ر. وسبايدر، وإلى أبناء ديستري: ڤان ورويال. ثم انضم إليهم مينوس دون أن يفعل ذلك جِف الذي كان يتحدّث معه. ولا العريس الذي كان يراقب المشهد. أزالت دوڤي الدهن عن قطعة من فخذ حَمَل، حين صدحت الموسيقا، فجرحت إصبعها بسبب الضجيج وأخذت تمص الدم، بينما صرخت أوتيس ريدينغ بصوت طغى على الأناشيد الهادئة: «أوووه، يافتاتي الصغيرة...» وكان التصفيق والهتافات الحماسية في الداخل والخارج وأسفل الطريق على أشدّه.

همس أحدهم من وراء المحترم بوليام: «أوه، إنهم يلهون، وحسب». فالتفت القس ليعرف من الذي تكلم، ولكنه لم يستطع تحديد موقعه فتابع النظر عبر النافذة. إنه يعرف أمثال هؤلاء النسوة، فهنّ كالأطفال، في سعي دائم للهو، يكرسن أنفسهن له ولكنهن بحاجة إلى فرصة من أجل الحصول عليه. بحاجة إلى مساعدة، إلى يد، إلى ورقة الخمسة دولارات، إلى شخص ما يعذرهن أو يدلّلهن. وإلى شخص ما يغضّ الطرف ويسكت عندما يعكرن صفو الهدوء. تبادل نظرة مع زوجته التي أومأت له برأسها وغادرت النافذة. كانت تعرف مثله، أنّ الراشدين الذين لايفكرون إلّا باللهو يشكلون أدلّة أكيدة على انحطاط أصبح واضحاً. وعما قريب ستُغرَق البلاد

بالدمى، وتُرهَق بالموسيقا الصاخبة والضحكات الجوفاء. لكن ليس هنا، فهذا لن يحدث في روبي مادام السنيور بوليام على قيد الحياة.

أخذت فتيات الدير يرقصن، رفعن أذرعهن فوق رؤوسهنّ وفعلن هذا وذاك ثم شيئاً آخر. إنهن يبتسمن ويصرخن ولكن دون أن ينظرن إلى أحد. أجسادهن تتمايل وحسب. والفتيات المحليات ينظرن إليهن من فوق أكتافهن مبديات عبارات الاستهجان. وبرود وأبولو وسبايدر، وهم شبان يعملون في المزرعة وعضلاتهم فولاذية وعيونهم خبيثة، أخذوا يتمايلون وهم يطقطقون بأصابعهم. هرستون أخذ يغني في الوقت نفسه. مرّت فتاتان صغيرتان على دراجتين، فنظرتا إلى النسوة اللواتي يرقصن بعيون جاحظة. سألت إحدى النساء، وكان شعرها بحالة مذهلة، إذا كان بوسعها استعارة دراجة، وأتت امرأة أخرى فطلبت الدراجة الثانية. وانطلقت الاثنتان على الدراجتين في الشارع المركزي دون أن تبديا أي اهتمام بما تفعل الرياح بتنورتيهما الطويلتين المطبوعتين بالزهور، ودون أن يدركن أن الضغط على دعسات الدراجة يضخم نهودهما. تركت إحداهما للدراجة العنان لتسير بحرّية كما تريد، واضعة كاحليها على المقود والأخرى جلست على المقود تماماً، بينما جلس برود على السرج. فتاة أخرى ترتدي شورتاً وردياً، وهو أقصر شورت في العالم، كانت تجلس على أحد المقاعد، وقد ضمت ذراعيها حول جسدها. ويخيل لمن يراها أنها ثملة. فهل كنّ جميعهن ثملات؟ أخذ الشبان يضحكون.

أخذت آنّا وكيت صحنيهما إلى آخر حديقة سوان.

تمتمت آنّا: «أيّ منهنّ؟».

أجابتها كيت: «تلك، هناك، التي تضع خرقة تعتبرها بمثابة بلوزة».

فقالت آنّا: «هذه ليست سوى حمّالة نهدين».

«حمّالة نهدين؟ إنها تبدو مثل مقلّع السيارة؟».

«هل هي التي كان يركض وراءها «.K.D»؟».

«نعم».

«أنا أعرف تلك التي هناك، فهي تأتي إلى المخزن، ومن هما الاثنتان المتبقّيتان؟».

«هذا يتجاوز علمي».

«انظري. هاهي بيلي ديليا تذهب».

«طبعاً».

«أوه، هيا كيت دعي بيلي وشأنها».

تناولتا ملعقة سلطة بطاطا. وصلت أليس بوليام وراءهما وهي تتمتم: «ياإلهي، ياإلهي، ياإلهي!».

قالت كيت: «مرحباً ياخالتي أليس».

«هل سبق أن رأيتِ مثل هذا المشهد؟ أنا أراهنك بأنك لن تستطيعي أن تجدي حمالة نهدين واحدة في كل تلك الزمرة». ورفعت أليس قبعتها في النسيم «لماذا تبتسمين؟ أرى أن هذا ليس طريفاً على الإطلاق».

فقالت كيت: «لا، بالتأكيد لا».

«تذكري أنها حفلة زفاف».

«أنت على حق ياخالة أليس، لقد قلت إنك على حق».

«وهل تحبين أن يأتي أناس يرقصون بصورة معيبة في حفلة زفافك؟» كانت أليس تحملق في شعر آنّا بعينيها السوداوين البرّاقتين.

هزّت كيت رأسها بصورة تنمّ عن التعاطف وهي تَزُمُّ شفتيها

لكي لاتُفلت منهما ابتسامة. وحاولت آنّا أن تبدو منزعجة بشدة أمام زوجة القس القاسية هذه: عزيزي يسوع، إني لن أبقى ساعة واحدة في هذه المدينة لو تزوجتُ من ريتشارد.

قالت أليس وتوجهت بخطوات ثابتة نحو بيت سوان: «إني ذاهبة للبحث عن القسّ نفسه ليضع حداً لكل هذا».

انتظرت آنا وكيت سماع عدة ضربات إيقاعية قبل أن تنفجرا بالضحك. وفكرت آنّا إنه مهما كان الأمر فإن نساء الدير قد أنقذن المناسبة. فلاشيء كخطايا الآخرين للتسلية. لقد كان الشبان مخطئين. كونوا غضبتها. ولكن بالمناسبة، أين هو ريتشارد؟

لقد كان ريتشارد ميسنر راكعاً على ركبتيه، غاضباً لأنه غضب ولم يستطع السيطرة على نفسه. ولأنه معتاد على تخطي العوائق وخبير بأمور الخلافات فإنه لم يكن يتوصل إلى التوفيق بين مستوى غضبه الحالي وبين ماكان يبدو أنه مصدره. وهو يحب الله كثيراً لدرجة التألم، حتى وإن كان هذا الحب يجعله أحياناً ينفجر ضاحكاً. وهو يحترم زملاءه كثيراً. لأنهم قاوموا قروناً عديدة. فقد صلّوا وصاحوا ورقصوا وغنوا وقبضوا نقوداً وناقشوا ونصحوا وتوسلوا وأمروا. وكثيراً ماكان حماسهم يشتد أو يخمد ببطء في بلد شنّ عليهم الحرب، عليهم وعلى أتباعهم، دون هوادة. حرب جبناء بلا شرف ولاعقل ودون مكافأة. حرب بلا مبادئ تعتمد على نذالة المنتصر كما تعتمد على زيفه. وعلى المسارح وفي الكتب، كان هو وأخوته في قلب المهزلة، ظهورهم معرضة لخناجر المحاكاة الساخرة. يلعنهم المحكومون بالإعدام، ويهزأ منهم القوادون. كان البعض يعطيهم على مضض مبالغ زهيدة عند جمع التبرعات، ومع ذلك، عبر كل هذا إذا بدت «الروح» أنها تهرب، فإنهم يتعلّقون بها بأسنانهم إذا لزم الأمر، ويشدون عليها بقبضاتهم إذا كان ذلك ضرورياً. لقد حملوها إلى أبنية صدر بها قرار هدم، وإلى كنائس

هجرها البيض، وإلى خيام منجّدة. إلى بعض الوديان، أو إلى وسط فرجة تقع بين أشجار إحدى الغابات. وشوَشوهُا في أكواخ ينيرها ضوء القمر، خوفاً من أن يراهم رجال القانون. وصلّوا لها وراء الأشجار وفي بيوت تقع على المرج، دون أن يجعل زئير الرياح أصواتهم ترتجف. ومنذ عهد الأثيوبيّين إلى واجهات المخازن السوداء، منذ عهد المعمدانيين الحجاج إلى زمن دور السينما المهجورة، بأحذية ملمعة وجزمات بالية، بسيارات خَرِبة وأخرى من نوع لينكولن كونتيننتال فارهة، بعضهم جيدو التغذية، وآخرون سيّئو التغذية، كانوا يتركون أضواءهم الضعيفة المرتعشة أو المبهرة للنظر كالشهاب لتخترق ظلام الأيام. كانوا يمسحون بصاق البيض عن وجوه الأطفال السود، يخفون بعض الغرباء عن الميليشيات والشرطة، وينقلون معلومات تنقذ حياة بعض الناس بسرعة تفوق سرعة الصحف وبشكل أفضل من الراديو. وعند أسرّة المرضى كانوا ينظرون إلى الموت في العين والفم. ويضمّون رؤوس الأمهات الباكيات إلى أكتافهم ويحملون إلى المقبرة فتيات انتُزعت منهن الحياة. يبكون على المحكومين بالأشغال الشاقة المقيدين بالسلاسل، ويتجادلون مع القضاة. يجعلون مجموعة كاملة من المؤمنين تزأر بالدعاء وبالصلاة، وتصيح مدفوعة بالنشوة والإيمان: أنّ الموت هو «الحياة» وأنتم لاتعرفون، وأن كل حياة، «مقدّسة» في «نظره» وأنتم لاتعرفون. ولاعتيادهم على رؤية الشر، فقد أصبح خَطمُهُ مألوفاً لديهم. ومع ذلك فقد كان هناك شيء مدهش حقاً في الصيغ والأشكال التي تتخذها نعمة الله ويتجلى بها عفوه: الإنجيل في زمن التعذيب، الانتصارات التي يحقّقها أناس كان الآخرون يُمنعون من تأييدهم ومساعدتهم. الاستقامة التي لاغبار عليها لدى أولئك الذين لايدعون أية جزمة تلقيهم على الأرض ـ أناس يعتبرون صبر أيوب ضرباً من القلق، ومن الأناقة عندما يكون كل شيء حولهم رثاً.

يعرف ريتشارد ميسنر كل هذا ومع ذلك، حتى وإن كانت معرفته واحترامه سليمين لم يمسّا، فإنّ الرجفة التي كان يشعر بها

ظلّت مستمرة. فقد لامس بوليام غشاءٌ رقيقاً يحتجز رغبة متعطّشة للانتقام، رغبة هو بحاجة لفهمها لكي يُخضعها. فهل استطاع ذلك العصر التأثير عليه أخيراً؟ والحزن الذي حصل بعد اغتيال مارتن لوثر كينغ هذا الحزن الذي انتشر وتصاعد ببطءٍ كمدّ البحر، هل غمره الآن؟ أم كان ذلك فاجعة مشاهدة الانحطاط الطويل الأمد لرئيس موزٍ؟ وهل أفسدته تلك الحرب الطويلة التي لايمكن فهمها؟ هل كان يجري كالفيروس الهاجع زمن الازْدهار والآن وصل إلى النهاية الممزقة؟ جميع أعضاء فريق كرة القدم في جامعته قتلوا في تلك الحرب. أحد عشر شاباً ذوو أكتافٍ عريضة. هم الوحيدون الذين أُعجب ورغب بأن يكون شبيهاً بهم. فهل كان الآن فقط مشكوم اللسان أمام موتهم العقيم؟ وهل كان هذا أصل الجوع البدائي إلى العنف؟

أم كانت روبي؟

ماذا كان يحدث في هذه المدينة، وهؤلاء الناس الذين يثيرون غضبه؟ إنهم لايختلفون عن الجماعات الأخرى إلّا بأمرين: الجمال والعزلة. كانوا يتّصفون بالجمال جميعهم، وجمال بعضهم استثنائي. وفيما عدا ثلاثة أو أربعة، كانوا سوداً كالفحم، رياضيين بنظرات جامدة، يبدي جميعهم شكوكاً جليديةً من الغرباء، فيما عدا ذلك، فإنهم كانوا يتصرفون كما لو أنهم في جماعات صغيرة من السود: يحتاجون للحماية، أتقياء، مقتصدون دون أن يكونوا بخلاء. يوفّرون ويُنفقون، يحبون أن يكون لهم نقود في المصرف وأن يملكوا أشياء جميلة. وعندما وصل ظنّ أنّ لديهم عيوباً طبيعية، وخلافات عادية. كانت نجاحات جيرانهم تعجبهم وعندما يسخرون من الكسالى أو من العاطلين عن العمل كانوا يضحكون أيضاً. على أية حال، كان هذا فيما مضى. أما الآن فيبدو أنّ حذرهم الشديد السابق من الغرباء أخذ يتبدى شيئاً فشيئاً وبشكل متزايد فيما بينهم، وكل منهم يبديه نحو الآخرين. فهل ساهم هو في ذلك؟ لم يستطع أن يمنع نفسه من الظن بأنه لولا وجوده لما كان هناك، دون شك، أي جدل أو شِجار، ولاقبضات مرسومة، أو

خصومات بشأن بعض الكلمات الناقضة على فوّهة الفرن. ولا تحذيرات بخصوص الاجتماعات التي يعقدها بعض الشبان. وبالتأكيد لم تحصل مجابهات عامة ولاجسدية بين رجال الأعمال. لم يكن أحدٌ يهرب ولاأحد يشرب. وحتى مع اعترافه بنصيبه من المسؤولية في تخريب العلاقات في المدينة، فإن ميسِنر ظلّ غير راضٍ. فلماذا هذا العناد، وهذه التهجّمات على القيام بالمطالبة ببعض الحقوق، وبطلب الحصول على دورٍ أكثر أهمية في قضايا وشؤون السود؟ كانوا يعرفون أكثر من أيّ أحد ضرورة توافر إرادة موحّدة، ومكافأة الشجاعة والولاء. ويدركون أكثر من الجميع آلية القوة المصارعة. أليسوا كذلك؟

ففي مرات عديدة، ودون أقل استفزاز، كانوا يُخرجون من مخزون قصصهم حكايات عن الأقدمين، أجدادهم، وأجداد أجدادهم وآبائهم وأمهاتهم. مجابهات خطيرة، مناورات ماهرة، شهادات على التحمُّل، على الذكاء والمهارة والقوة. حكايات عن ضربات الحظ وعن الإهانات. لكن لماذا لم يكن لديهم حكايات تتحدث عنهم بالذات؟ كانوا يلتزمون الصمت بشأن كل مايتعلق بحياتهم، ليس لديهم مايقولونه عنها، بل يحوّلون مجرى الحديث إلى موضوع آخر، كما لو أنّ بطولة الماضي تكفي للعيش في المستقبل. كأنهم يريدون نسخاً وليس أطفالاً.

راح ميسِنر وهو راكع على ركبتيه يأمل بالحصول على أجوبة، وليس على قائمة أسئلةٍ تظل تزداد طولاً. عند ذلك فعل ماكان يفعله عادة: طلب «منه» أن يرافقه في مسيرته وهو متأخر وثائر الأعصاب إلى حفلة الزفاف. ولكونه «برفقته» هَدَّأَ ثورةَ غضبه. غادر منزله وسار باتجاه الشارع المركزي وهو يسمع صوت تنفّس «رفيقه» الخافت، ولكن دون أية كلمة للنصيحة أو للمواساة. مرّ من أمام مخزن أدوية هاربر ومن هناك رأى تجمّعاً بقرب الفرن. ومع سماعه ضجيج محرك بحاجة للإصلاح انطلقت سيارة كاديلاك. وفي أقل من دقيقة مرّت بقربه، وعرف من الراكبات فيها اثنتين من نساء الدير. وما أن وصل إلى باحة آل مورغان حتى كان الجمع قد تفرّق.

الأطفال المنتشون من أكل الحلوى والسكاكر يركضون ويتعثرون بكلبيْ ستيوارد. لم يبق أحد قرب الفرن. وفي اللحظة التي دخل فيها إلى بيت سوان وديك رأى كل شيء مؤتلقاً. تقدم مينوس وضمه بين ذراعيه. وقطع بوليام وديك وأرنولد نقاشهم الحاد لكي يصافحوه. كاري وزوجته كانا يغنّيان معاً ترافقهما جوقة من المردّدين. كما أنه لم يدهش لرؤيته جِف فليتوود يضحك بصورة وديّة مع الرجل نفسه الذي صوب إليه سلاحاً قبل بضعة أسابيع ـ العريس المتزوج حديثاً. العروس وحدها كانت تنظر شذراً.

لم يكن الصمت الذي يخيم في الكاديلاك ينمّ عن الانزعاج. ولم تكن راكبات السيارة ينتظرن الشيء الكثير من الرجال الذين يرتدون الملابس الأنيقة، فلم يدهشن عندما طُلب منهن مغادرة المكان. قال أحدهم: «ارجعن الدراجات إلى هؤلاء الفتيات الصغيرات»، وقال آخر: «انصرفن من هنا» وفمه ممتلئ بالتبغ الذي يمضغه. ودون أن يتلفّظ أحد بكلمة أبعدوا الشبان الذين ضحكوا معهنّ وصفقوا لهنّ. من أجل هذا كان يكفي أن يوجّه رجل، بطول سبعة أقدام، نظرة، أو يبدي إشارة برأسه. كما أنهن لم يكنّ غاضبات من الطريقة التي طُردن بها ـ ربما انزعجن قليلاً، ولكنّ الأمر لم يكن جاداً. إحداهن، تلك التي كانت تقود السيارة، لم يسبق لها أبداً أن رأت رجلاً لايبدو كإحدى المتفجرات التي لم تشتعل. والأخرى التي تجلس بجوارها راحت تفكر بالصور الجنسية الباعثة على الملل التي لاشك أنها قد أثارتها وقررت ثانية الذهاب لتتسكع في مكان آخر. الثالثة التي تجلس على المقعد الخلفي، والتي سرّها مارأته هناك، أخذت تفكر بأنها رغم معرفتها ماهو الغضب فهي لم يكن لديها أية فكرة عن الإحساس الذي يحدثه. كانت تنفّذ دائماً كل مايطلب منها، ولذلك عندما قال أحد الرجال: «ارجعن الدراجات...» فعلت ذلك وهي تبتسم. وكانت المسافرة الرابعة مسرورة جداً لأنهن طردن. كان هذا

يومها الثاني في الدير واليوم الثالث الذي لم تتحدث فيه بكلمة واحدة مع أحد، فيما عدا اليوم، عندما اقتربت بيلي «كذا» منها، لتقف بجوارها.

«هل أنت بخير؟» كانت ترتدي فستاناً ورديّ اللون، وعوضاً عن قبعة الحمّام، شكّت وروداً صغيرة صفراء في شعرها. «بالاس؟ هل أنت بخير؟».

هزت رأسها وحاولت ألّا ترتجف.

«هل أنتِ بأمان هناك، ولكني سأحضر لأرى إذا كنت بحاجة إلى شيء، موافقة؟».

همست بالاس: «نعم»، ثم: «شكراً!».

هذا ماجرى. فقد انفرجت شفتاها قليلاً لتتلفّظ بكلمتين دون أن يدخل ماء أسود إلى فمها. كان البرد مايزال يجمّد عظامها، ولكنّ الماء الأسود انحسر حالياً. والليلة، من المؤكد أن يعود الماء وتجد نفسها غائصة فيه ـ وستحاول ألّا تفكر بما كان يسبح تحت عنقها. ستركّز على سطح الماء وعلى البريق الوامض الذي يلامس جوانبه ثم يندفع إلى ماوراء البريق المظلم. وظلت تأمل، وتأمل أن تكون الأشياء التي في الأسفل، أسماكاً ذهبية، مثل تلك التي كانت في الحوض الذي اشتراه لها والدها في الخامسة من عمرها. السمك الصغير الملون، السمك الملائكي. لاتماسيح أميركية ولاأفاعٍ. كانت تلك بحيرة وليست مستنقعاً أوحوض حديقة حيوانات سانْ دييغو. وصلت الهمسات العائمة فوق الماء إلى مدى أقرب من نداءاتهم التي ترددت بعيداً «هنا، هنا، بس بس، ياقطتي الصغيرة، يا قطتي الصغيرة». ولكن نداء «امنحني مصباح النور، فوق المقعد، أهذه هي، هيا نرحل، قد تكون غرقت، لا محال» اندست في الجلد خلف أذنيها.

حدقت بالاس عبر نافذة السيارة إلى السماء شديدة الهدوء والمنظر شديد الرتابة لدرجة أنها لم تشعر أنها في سيارة تسير.

كان عطر علكة جيجي الذي يمتزج برائحة دخان سيجارتها يسبب لها الغثيان.

«هنا، هنا، بس بس، ياقطتي الصغيرة!» سمعتْ بالاس هذا النداء منذ الأزل، وهو أجمل يوم في حياتها. على الدرج المتحرك، في عيد الميلاد الماضي. تلفّظت به المجنونة، التي تستطيع أن تراها الآن بتفاصيل أكثر مما في المرة الأولى التي لمحتها بها.

كان الشعر على رأسها ينفرق بواسطة مشبك أحمر من البلاستيك يمكن أن يشكل تسريحة مرتفعة أو تجعيدة لو كان أطول ببضع بوصات. ولكنه لم يكن كذلك. بل مجرد باقة تبقيها منتصبة شريطة ولّادية. ومشبكان آخران، أحدهما أصفر والآخر بنفسجي مشع، يمسكان بخصلتين من الشعر عند صدغيها. وكان مخملُ بشرة وجهها الأسود يمنع رؤية الاستدارتين الحمراوين اللتين كانتا بحجم البسكويت، وأحمر الشفاه الذي يتجاوز حواف شفتيها، وخط حاجبيها الأسود المنحدر نحو أعلى وجنتيها. كلّ ماتبقى بدا اصطناعياً وسوقياً: أقراط البلاستيك البيضاء، الأساور النحاسية، لآلئ الباستيل حول عنقها، والمزيد المزيد غيرها في الحقائب التي تنقلها: حقيبتان للحمل ماركة (BOAC) ومحفظة نقود معدنية مجدولة بشكل علبة السيجار. كانت ترتدي بلوزة قطنية بيضاء قصيرة وتنورة حمراء قصيرة جداً. وعلى ساقيها القصيرتين جواربها التي بلون القرفة هذا اللون الذي يعتبر مناسباً جداً لسيقان النساء السوداوات، وهي تشكل عبئاً أثناء الركض بمقدار مايسبب كعب حذائها أثناء القفز. تهدُّل جلد ذراعيها وبطنها المدور الصغير، يحملان على الاعتقاد بأنها في الأربعين من العمر، ولكن يمكن أن يكون عمرها عشرين أو خمسين سنة. ورقصتها على الدرج الآلي الصاعد، مشيتها المتخلعة، وتأرجح رأسها، كل ذلك يذكّر بزمن مضى، وبأزواج حركاتهم بطيئة في قاعة سيئة الإضاءة. وليس التنوير الكهربائي السريع لعام 1974. ويمكن أن تكون أسنانها قد أصلحت في أي مكان: في كنغستون أو جامايكا، أو في باس

كريستيان في ولاية المسيسبي في أديس أبابا أو وارسو، وهي أسنان تبهر الأنظار بذهبها، وتعطيها ابتسامة قديمة الزي، وطابعاً جدياً ترفضه بقيةُ هندامها.

جميع الأنظار، تقريباً، تحوّلت - اتجهت إلى الأسفل نحو الدرجات المعدنية العائمة تحت الأقدام، أو إلى الأعلى نحو تزيينات عيد الميلاد التي كانت تضفي البهجة على المخزن الكبير. أما الأولاد وبالاس ترولافْ فكانوا يحدقون.

أعياد الميلاد في كاليفورنيا على الدوام تشكّل متعةً، وعيد هذه السنة كان يعد بأنه سيصير أعجوبة. فالسماء الساطعة والحرارة زادت بريق الثلج الاصطناعي اللامع والأكاليل الخضراء والذهبية والفضية والوردية. وبالاس التي أربكتها الرزم الكثيرة بالكاد أفلحت في منع قدميها من أن تَعلَقا في الدرج المتحرك النازل. ولم تفهم لماذا تستهويها المرأة ذات أحمر الشفاه والأسنان الذهبية. إذ لم يكن بينهما شيء مشترك فالأقراط المعلقة في أذني بالاس من عيار 18 قيراط. والحذاء الذي تضعه في رجليها صُنِع باليد، والجينز الذي ترتديه كان قد فُصّل على قياسها، وإبزيم حزامها الجلدي من الفضة الدقيقة الصنع.

غادرت بالاس الدرج المتحرك وهي تتعثر، وقد شعرت ببعض الذعر، واندفعت نحو الأبواب، حيث ينتظرها كارلوس. كان النغم الرتيب المثير للغثيان للمرأة، يختلط في المخزن مع الأصوات الحنونة التي تردّد أناشيد عيد الميلاد: « هنا، هنا، بس بس، ياقطتي الصغيرة أتريدين بعضاً منه، ياقطتي الصغيرة، ياقطتي الصغيرة؟».

«م - ا - ا - ڤيس!»

لم تكن ماڤيس تنظر إليها. اعتادت جيجي أن تشوه اسمها على الدوام بِمَطِّه كالعلكة البالونية.

«ألا تستطيعين السير بأسرع من عشرة أميال في الساعة؟ ياللمسيح!».

«يجب تغيير قِشاط المروحة. ولن أسرع أكثر من أربعين». أجابتها ماڤيس.

فتنهدت جيجي: «بسرعة عشرين أو أربعين، فكأننا نمشي سيراً على الأقدام».

«ربما أتوقف هنا لكي تري ماذا يعني السير على الأقدام، أهذا ماتريدين؟».

«كَفاكِ غلاظةً. أبعديني عن هؤلاء المتسكّعين البائسين... سين هل رأيت الفتى مينوس ذلك الذي تَبرَّز في بنطاله عندما كان معنا؟».

أومأت سينيكا برأسها موافقةً. «لاحظي أنه لم يتفوّه بكلام سيء».

فأجابتها جيجي: «ولكنه لم يتوقف عن ذلك أيضاً: كل قيئه، وبرازه اللذين نظّفتهما».

فقالت ماڤيس: «كوني قالت إنه يمكنه أن يبقى. وجميعنا عملنا في التنظيف، ولستِ وحدكِ وحسب. لم يجبرك أحد على ذلك، لم يكن عليك الذهاب».

«لقد كان مصاباً بالهذيان المرضي، يزعق عالياً».

فسألتها سينيكا: «من فضلك ماڤيس أتستطيعين إغلاق النافذة؟».

«هل الريح قوية في الخلف؟».

«إنها ماتزال ترتجف، أعتقد أنها تشعر بالبرد».

«درجة الحرارة تزيد على تسعين درجة فهرنهايت! ولكن ماذا أصابها؟ بحق الجحيم!». أخذت جيجي تفحص الفتاة التي ترتجف.

فتساءلت ماڤيس: «أيجب أن أتوقّف؟ ربما تريد أن تتقيّأ أيضاً».

«لا، لاتتوقفي. سأمسك بها». ضمت سينيكا بالاس بين ذراعيها وأخذت تفرك ساعديها المقشعرّي البشرة. «ربما أصابها دوّار السفر. كنت أظن أنّ الحفلة سترفع من معنوياتها قليلاً، ولكن يبدو أنّ حالتها ساءت».

«تلك المدينة البليدة المسافدة، تجعل جميع الناس يتقيؤون. لاأستطيع أن أصدق أنّ ماجرى يمكن أن يسمّى حفلة: أناشيد دينية تجعلك تُوَلوِلين!» وانفجرت جيجي بالضحك.

«كان ذلك زفافاً ولم يكن ديسكو». أخذت ماڤيس تجفّف العرق الذي يسيل على عنقها. «وعلاوة على ذلك فقد أردت فقط رؤية «فَحْلَكِ» الصغير».

«ذلك الحمار المبتذل؟».

«نعم، هو بالذات». ابتسمت ماڤيس «الآن وقد تزوج، تريدين استرجاعه».

«لو أردت استرجاعه، فإني أستطيع ذلك. ولكن كل ماأريده هو الخلاص من حفرة القذارة هذه».

«إنك تردّدين هذه الأقوال منذ أربع سنوات... أليس هذا صحيحاً يا سين؟».

فتحت جيجي فمها وتوقّفت. هل مضى على ذلك أربع سنوات؟ كانت تعتقد أنهما سنتان. ولكنها أضاعت سنتين على الأقل مع «K.D.» ذلك القضيب. هل أرغَمَتْهُ على الوفاء بِوَعدِهِ الطويل الأمد بأن يكسب مايكفي من المال لكي يصطحبها بعيداً من هنا؟ أم أنها بقيت بسبب وعد آخر؟ وعد بأشجار متشابكة قرب الماء البارد. «نعم، حَسَناً، الآن إنّ هذا صحيح»، قالت ذلك لـِ ماڤيس آملة أن تكون هكذا.

بدرت من ماڤيس غمغمة تنم عن الشك وخيم الصمت من جديد في السيارة. وضعت بالاس رأسها على صدر سينيكا، متمنيّة لو أنهن رحلن وأن يكون عوضاً عنهما صدر كارلوس الصلب والأملس ليسند لها خدها، مثلما حدث عندما أرادت ذلك طيلة مسافة السبعمئة

ميل. كانت هدية عيد ميلادها السادس عشر، تويوتا حمراء مليئة بالهدايا، ومسجلة كبيرة مزودة بثمانية أمكنة لوضع الأشرطة. أشياء تحبها أية أمٍّ، ولكنها متنوعة الألوان والأساليب، لأنها لم تكن تستطيع المجازفة بحيازة شيء يمكن ألّا يعجب أمها التي لم ترها منذ ثلاث عشرة سنة. أن تسافر مع كارلوس على أن يكون هو السائق قبل عيد الميلاد تماماً، هو رحلة إجازة لرؤية أمها. لم يكن ذلك هرباً من أبيها، ولاسَماحاً لأبرد رجل وأروع رجل في العالم بأن يختطفها.

كل شيء قد رُتّب بعناية: الأمتعة خُبّئت، والتحركات مُوّهت، خشية أن يلاحظ أخوها جيروم أو المربية بروفيدانس صاحبة عين النسر شيئاً. وأبوها لم يكن حاضراً بما يكفي لكي يلاحظ أي شيء. إنه محام قليل الموكلين، ولكنّ اثنين منهم من نجوم المغنّين السود. وطالما أنّ ميلتون ترولاڤ سيحافظ على بقائهما في القمة، فإنه لن يكون بحاجة للبحث عن موكلين آخرين، رغم أنّ عينه تظلّ متجهة إلى بعض الشبان الذين يمكنهم الوصول إلى المراتب الأولى في سباق الأغاني والبقاء فيها.

وبمساعدة كارلوس كان الأمر سهلاً ومسلياً في آن واحد: والأكاذيب التي تُروى للصديقات لابد أن تكون متينة، والأمتعة التي تُركت في البيت يجب أن تدل على العودة وليس على الهروب، (رخصة قيادة السيارة ـ نسخة ثانية عنها ـ دببها المصنوعة من القطيفة، ساعتها، بعض أدوات الزينة ـ بعض الحلي ـ بطاقات ائتمان). وهذه الأخيرة أرغمتها على القيام بكثير من المشتريات والدفع نقداً في اليوم نفسه الذي سافروا فيه. ورغبت بشراء المزيد من الحاجيات وأكثرها لكارلوس ولكنه رفض ذلك. لم يقبل مطلقاً هداياها طيلة الفترة التي قضاها معها ـ أربعة أشهر. ولم يدعها تدفع حتى قيمة الوجبات. كان يغمض عينيه الجميلتين ويهز رأسه كما لو أنّ ماتقدمه له يحزنه. لقد التقت به بالاس في مرآب مدرستها، يوم امتنعت سيارتها الـ تويوتا عن الإقلاع. والحقيقة أنها التقت به ذلك اليوم لكنها رأته في السابق. إنه مستخدم الصيانة في مدرستها

الثانوية، وهو يشبه نجوم السينما. وجميع الفتيات يَذُبْنَ أمامه. وفي اليوم الذي ألصق فيه دوّاسة البنزين على الصاج، في سيارة بالاس، قائلاً لها بأنّ محركها غارق (مخنّق)، كانت البداية. اقترح عليها أن يتبعها بسيارته الفورد حتى منزلها لكي يتأكد بأنّ سيارتها لن تتوقف فجأة مرة ثانية. ولم تتوقف. فودّعها بإشارة من يده. جلبت له بالاس هدية ـ ألبوم ـ في اليوم التالي، ووجدت صعوبة في إقناعه بقبولها. وقال: «فقط إذا سمحتِ لي أن أقدم لك سندويشة نقانق حارّة». وبتأثير الانفعال جَفَّ فمُ بالاس. بعدها التقيا في عطلة نهاية كل أسبوع. وتصورت كل ماستطاعت تصوره لكي يمارس معها الحب، فيستجيب بولهٍ عندما يتبادلان المداعبات، ولكنه رفض الذهاب إلى أبعد من ذلك طيلة عدة أسابيع. وهو الذي قال: «عندما نتزوج».

لم يكن كارلوس بوّاباً تماماً. كان نحاتاً. وعندما حدّثته بالاس عن أمها الرسّامة وعن المكان الذي تعيش فيه، ابتسم وقال إنه مكان يحلم به أي فنان. رُتِّبت الأمور، ووُضِعَ كل شيء في مكانه. كارلوس يستطيع مغادرة موقع عمله دون احتجاجات كثيرة أثناء العطل. سينشغل ميلتون ترولاڤ (والد بالاس) أكثر مما ينبغي بحفلات موكليه، وبمهرجانات ومسابقات التفوق وعقود التلفزيون. فتّشت بالاس بين بطاقات الأعياد السنوية وأعياد الميلاد التي أرسلتها لها أمها عن أحدث عنوان، وسافر العاشقان دون أن يعيقهم شيء، فيما عدا العجوز السوداء المجنونة التي أفسدت أغاني عيد الميلاد.

تجمّعت بالاس وانحشرت في صدر سينيكا وإن لم يكن مريحاً، فقد خفّف البرد الذي يسبب لها الألم. وفي المقدمة أخذت النسوة يتشاجرن من جديد، بأصوات مرتفعة جعلتها تشعر بألم في رأسها:

«أيتها العاهرة الاستعراضية! سوان هي صديقتنا. ماذا سأقول لها الآن؟».

«إنها صديقة كوني. ولاعلاقة لها معك».

«أنا التي تبيعها الفليفلة، والتي تحضّر لها شرابها المقوي...».

«وهل هذا يجعل منكِ كيميائية؟ ليس ذلك سوى إكليل الجبل وقليل من النخالة، تُمزج مع الأسبيرين».

«مهما كان ذلك، فأنا المسؤولة عنه».

«فقط عندما تكون كوني ثملة».

«كفّي عن الكلام عنها هكذا بفمك القذر، إنها لم تكن تشرب أبداً قبل أن تأتي أنت».

«هذا رأيك. إنها تنام حتى في قبو النبيذ».

«غرفة نومها هناك! حقاً إنك بلهاء».

«لم تعد خادمة الآن. ويمكنها أن تنام «في الطابق العلوي» لو رغبت بذلك. ولكنها تريد أن تظلّ بجانب الكحول وحسب، وهذا كل ماهناك».

«يا إلهي، أكره وقاحتك».

فقاطعتهما سينيكا بصوت ينمّ عن محاولة إعادة التفاهم والانسجام: «كوني ليست سكّيرة. إنها بائسة، ومع ذلك كان يجب أن تأتي معنا. ربما سارت الأمور بشكل مختلف».

قالت جيجي: «كان ذلك على مايرام، على أحسن مايرام! إلى أن تدخّلت جماعة ذلك القسّ من الديُوثين». وأشعلت سيجارة من عقب سيجارتها السابقة.

فسألتها ماقيس: «ألا تستطيعين التوقف عن التدخين دقيقتين؟».

«لا!».

وتابعت ماقيس: «إني لاأرى ماذا يجد فيك ذلك الزنجي، بل ربما كنت أرى، لأنه يبدو أنك لاتستطيعين إخفاء ذلك».

«هل أنت غيورة؟».

«كالجحيم».

«كالجحيم، كالجحيم. لم يضاجعك أحد منذ عشر سنوات، أيتها القشرة الجافة».

فصاحت ماڤيس وهي تشد على مكابح السيارة لتوقِفها:

«انقلعي، انقلعي من سيارتي!».

«أنت التي تريد أن تطردني؟ سأقتلع وجهك إذا لمستني أيتها المجرمة القذرة!» وأطفأت سيجارتها على ذراع ماڤيس.

لم تستطيعا بالحقيقة أن تتعاركا في الحيز المتاح لهما. ولكنهما حاولتا. ضمّت سينيكا بالاس بين ذراعيها وأخذت تنظر. فيما مضى كان يمكن أن تحاول الفصل بينهما، ولكنها الآن لم تعرف أفضل من ذلك. فحين تتعبان تكفّان عن العراك ويسود السلام لزمن أطول ممّا لو تدخّلت بينهما. كانت جيجي تعرف نُقاط ماڤيس الحسّاسة: كل ما يسيء إلى كوني ويسبب لها الإهانة، وكل إشارة إلى وضعها كهاربة. وقد علمت ماڤيس خلال رحلتها الأخيرة من أمها أنّ مذكرة توقيف قد صدرت بحقها بتهمة سرقة كبيرة وهجران الزواج وللاشتباه بأنها قَتلت اثنين من أطفالها.

أخذت الكاديلاك تتأرجح. جيجي تعرف كيف تعارك، ولكن جهودها كانت بلا جدوى - فهي لاتريد أن يصطبغ وجهها الجميل بالكدمات الزرق أو بالخرمشات، وهي تشعر دائماً بالقلق من أجل شعرها. كانت ماڤيس تلكم ببطء ولكن بصورة دقيقة وبسرور. وعندما رأت جيجي دماً ظنت أنه دمها، غادرت السيارة وهي تزحف على أربع ولحقت بها ماڤيس. وتحت سماء حارة كالمعدن المحمّى، خالية حتى من رفّ عصافير، تابعن العراك على الطريق، وعلى جانبه المنخفض.

نهضت بالاس، منبهرة بالجسدين المتدحرجين في الغبار واللذين يسحقان الأعشاب السامة. جسدان نشيطان يتجاهلان من ينظر إليهما، تحت سماء أوكلاهوما الخاوية، وتحت سماء ملونة في مِهيتا في نيومكسيكو. بعد عدة شهور من العناق والقبلات المثيرة

مع دي دي ترولاف: شهور أمضتها منذهلة بالمناظر الرائعة أمام نوافذ أمها، شهور تناولت خلالها مأكولات شهية، شهور من أحاديث الفنّانين مع أصدقاء دي دي - كل أنواع الفنّانين: هنود، نيويوركيون، عجائز، هبِّيّون، مكسيكيون، وسود - وبضعة شهور أمضوها بالنقاش، هم الثلاثة، تحت نجوم ليلٍ كانت بالاس تعتقد أنّ والت ديزني هو الذي رسمها. بعد كل هذه الشهور قال كارلوس: «أنا أنتمي إلى هذا المكان» وأرسل تنهدة عميقة. «إنّه المكان الذي أبحث عنه». نظرت بالاس إلى وجهه الذي يغمره ضوء القمر وتوقف قلبها. تثاءبت أمها، وأضافت دي دي ترولاف: «هذا مؤكّد». وتثاءب كارلوس هو أيضاً، وفي تلك اللحظة لابد أنها لاحظت - التثاؤبات المتزامنة والأصوات الهادئة. وكان عليها أن تُجري بعض العمليات الحسابية الصغيرة. فكارلوس أقرب سناً إلى دي دي منه إليها. لو أنها لاحظت ذلك لاستطاعت ربما أن تمنع حدوث تشابك الجسدين اللذين يتبادلان الأنين على العشب، متجاهلةً كل من يراقبها. وعندها ما كان هناك سباق لاهث نحو التويوتا ولاقيادة عمياء على الطرقات دون هدف، ولااصطدامات ولاالضربات الجانبية للشاحنات. ولاماء تحته أشياء رخوة.

وشعرت بالاس من جديد باشمئزاز، بدغدغات ومداعبات المجسّات والحراشف غير المرئية، فحولت نظرها عن مشهد المرأتين اللتين كانتا تتعاركان ورفعت ذراعيها لتطوق سينيكا وتجعل وجهها يغوص أكثر في صدرها الصغير.

سينيكا وحدها رأت الشاحنة قادمةً. أبطأ السائق في سيره، ربما لكي يتجاوز الكاديلاك التي تغلق الطريق، وربما ليعرض المساعدة، ولكنه ظل لبعض الوقت ينظر إلى امرأتين مجرمتين تتدحرجان على الأرض بألبسة ممزقة وعري باد للعيان. وليرى أيضاً امرأتين أخريين متعانقتين، تحتضن إحداهما الأخرى على مقعد السيارة الخلفي، خلال فترة طويلة ظلّ يتأمل بعينين جاحظتين هذا المشهد. ثم هزّ رأسه وأطلق العنان لمحرك سيارته.

وأخيراً بقيت جيجي وماقيس مستلقيتين، لاهثتين، ثم جلست إحداهما بعد الأخرى لكي تتحسّسا نفسيهما وتحصيا جروحهما. أخذت جيجي تبحث عن حذائها الذي فقدته وماقيس عن المشبك البلاستيكي الذي كان يضم شعرها، ورجعتا إلى السيارة دون أن تتلفّظا بكلمة. أخذت ماقيس تقود بيد واحدة. وغرست جيجي سيجارة في زاوية فمها التي لم تكن متورّمة.

في عام 1922 ضحك العمال البيض فيما بينهم - بيت ضخم من الحجارة وسط لاشيء. لم يضحك الهنود. في ظل مناخ سيء، وفي منطقة قليلة الأشجار حيث تعتبر التدفئة بالحطب خرقاً للمقدسات ، والفحم غالي الثمن وروث البقر كريه الرائحة، بدا السكنُ في هذا البيت غير معقول. أوصى المختلس على عدة أطنان من الفحم - لم يستهلكوها. أما الراهبات الطيبات اللواتي استَعَدْن ملكية البيت فقد توافرت لديهنّ قوة التحمل والكيروسين والملابس الكثيفة متقنة الصنع للغاية. ولكن في فصل الربيع والصيف وفي بعض فصول الخريف الحارة كانت الجدران الحجرية توفر برودة محبّبة.

صعدت جيجي الدرج، وسبقت ماقيس إلى ماء الحمام. وبينما كان الماء يجري في الأنابيب، خلعت ملابسها ونظرت إلى نفسها في المرآة الوحيدة التي لم يُغطِها الدهان. فيما عدا مرفقيها وإحدى ركبتيها، لم تكن هناك إصابات كثيرة: بالتأكيد هناك بعض الأظافر المكسّرة، ولكن لاعين متورمة، ولاأنف مكسور. مع ذلك فإن الازرقاق لن يظهر إلاّ في اليوم التالي. شفتها المتورّمة هي التي أقلقتها، لأنها كانت مشقوقة أيضاً. وعندما ضغطت عليها انبثق منها خيط من الدم، وفجأة أخذ الجميع يركضون في شوارع أوكلاند بكاليفورنيا. صفّارات - شرطة؟ سيارات إسعاف؟ سيارات إطفاء؟ - تصمّ الآذان. وجدار من رجال الشرطة الذين يتقدّمون، أخذ يسدّ كل ممرٍ نحو الشرق والغرب. وأولئك الذين يركضون أخذوا يُلقون بما جلبوه أو وجدوه ويهربون. في البداية كانت هي وميكي يمسك أحدهما بيد الآخر ويتجهان نزولاً، راكضين في شارع جانبيّ وراء

حشدٍ في حالة من الفوضى. شارع ذو بيوت صغيرة ومروج خضراء. لم تكن هناك عيارات نارية ـ ولا أية رشقات من النيران. كان هناك فقط صرخات الفتيات الموسيقية، وهدير الرجال المنتظم بوجوههم الفظّة. صفّارات انذار، نعم، ومكبرات صوت بعيدة، ولكن لاأصوات لزجاج يتحطم، أو لجسد يسقط، أو رصاص ينطلق. إذن لماذا أخذت بقعة حمراء تنتشر على القميص الأبيض للصبي الصغير؟ لم تكن ترى جيداً. تكاثَفَ الحشد ثم توقّف، وقد منعه شيء ما من التقدم إلى الأمام. كان ميكي قد ابتعد قليلاً عنها، وأصبح بينه وبينها عدة أكتاف، وهو يحاول المرور. نظرت جيجي مجدداً إلى الصبي الصغير الملقى على المرج الأخضر الذي قُصّت أعشابه حديثاً. كان حسن الهندام جداً: ربطة عنق فراشة، قميص أبيض، حذاء لمّاع بربّاط. ولكنّ القميص أصبح الآن وسخاً، ملطخاً ببقع حمراء. ارتجف، فتدفق الدم من فمه. مدّ يديه بحذر لكي يلتقطه حتى لايلوث حذاءه كما لوّث قميصه.

قالت الصحيفة: أكثر من مئة جريح، ولكن دون أية إشارة لإطلاق النار أو لصبي صغير مصاب. لاذكر لصبي ملوّن صغير أنيق يحمل دمه بين يديه.

خيط رفيع من الماء يسيل في حوض الحمّام. وضعت جيجي بعض اللفّافات في شعرها. ثم تمدّدت على بطنها لتتبينّ مرة أخرى التقدم الذي أحرزته بشأن العلبة المخبّأة تحت حوض الحمّام. كانت البلاطة التي تعلوها قد انتُزعت تماماً، ولكنّ العلبة المعدنية تبدو مثبّتة في مكانها بالإسمنت. والمشكلة هي في الوصول إليها. فلو أنها تحدّثت مع «K.D.» عنها لسَاعَدَها، ولكن في هذه الحالة يجب عليها أن تتقاسم معه محتوياتها: ربما كانت من الذهب، من الماس، أو رزماً ضخمة من أوراق النقد. وأياً كانت فإنها لها ـ ولـ كوني إذا أرادت شيئاً منها. ولكن ليس لأي شخص آخر، وبشكل خاص، ليس لـ ماقيس. وسينيكا لاتريد شيئاً، وتلك التي وصلت أخيراً بعينيها اللتين تشبهان الزجاج المتشظي وشعرها الكثيف الملفوف

حول رأسها، كيف يمكن معرفة من وماذا كانت؟ نهضت جيجي، فمسحت التراب والأوساخ التي التصقت ببشرتها ثم غطست في الماء. ظلّت جالسة تفكّر بالاحتمالات المختلفة. كوني، فكرت، كوني.

ثم تمدّدت لكي تصل الرغوة إلى ذقنها وأخذت تفكّر بأنف سينيكا، وبالطريقة التي يتحرك بها منخراها وهي نائمة. بشفتيها البارزتين قليلاً، سواء ابتسمت أم لا، بحاجبيها المقوسين بشكل رائع. بصوتها ـ الرخيم ـ والمتلهّف بعض الشيء، كالقبلة.

وفي الحمام الكائن في الطرف الآخر من الرواق، كانت ماڤيس المبتهجة تنظف ماعلق بها على المغسلة. ثم غيّرت ملابسها قبل أن تنزل إلى المطبخ لتحضير العشاء: بقايا من لحم الدجاج مقطعة قطعاً صغيرة مع الفليفلة، بصل وطرخون ومرق، وربما قليل من الجبن، وكل هذا ضمن تلك الفطيرة التي علمتها كوني طريقة صنعها. هي تحب هذا الطعام، ستحمل طبقاً منه إلى كوني في الأسفل وتحدثها بما حصل، دون أن تذكر لها شيئاً عن المشاجرة، التي لم يكن لها أهمية تذكر. والواقع أنّ ذلك أمتعها. لقد نشّطها أن تلكم، وتلكم وحتى أن تعضّ جيجي، مثلما ينشطها تحضيرُ الطعام. وكان هذا دليلاً إضافياً أنّ ماڤيس القديمة قد ماتت فعلاً. تلك التي لم تكن تستطيع الدفاع عن نفسها بمفردها حيال فتاة في الحادية عشرة من عمرها، وتبدو أقل قدرة على ذلك أيضاً أمام زوجها. تلك التي كانت فيما مضى عاجزة عن أن تتصور أو تحضّر أبسط الوجبات، وتعتمد على المحلات التي تبيع وجبات جاهزةً أو على الموزّعين الذين يجلبون هذه الوجبات بالسيارة، أصبحت الآن تبتكر وصفات لمأكولات شهية دون أن تتسوّق كل يوم.

ولكنّ إشارة جيجي إلى غياب حياتها الجنسية قد جَرَحَها ـ وكان هذا طريفاً بمعنى من المعاني. فهي عندما تزوجت من فرانك كانت تحب ذلك كثيراً بطريقة ما. ثم أصبح الأمر عبارة عن تعذيب مفروض يدوم وقتاً أطول ولكنه لا يختلف كثيراً عن الزمن اللازم لسقوطها عن كرسيها بسبب صفعة. ولم يكن هناك شيء يشبهه

خلال السنوات التي قضتها في الدير، ومع ذلك فعندما كان ذلك يحدث في الليل فإنها لم تعد تقاومه. فيما مضى كان هذا عبارة عن كابوس يحدث عرضاً ـ شبل أسد يقضم عنقها. ولكنه اتخذ مجدداً شكلاً آخر ـ مخلوقاً بشرياً ـ يستلقي فوقها، أو يلتصق بها من الخلف. فقالت لها كوني: «إنها الحَضون(*)، قاتليها». ولكن ماقيس لاتستطيع أو لاتريد أن تفعل ذلك. والآن هي بحاجة لأن تعرف إذا كان ماقالته جيجي عنها يفسّر استقبالها له بسرور. فهي تسمع ميرل وبيرل على الدوام وتشعر بهما يتحركان في جميع غرف الدير. وربما ينبغي عليها أن تُقرّ وتعترف لكوني بأن الزيارات الليلية، مضافة إلى الأولاد الذين يضحكون وإلى «أم» تحبها، هم أشبه بأسرة سعيدة. بل وأكثر من ذلك: عندما ستحمل طعام العشاء إلى كوني ستروي لها ماحدث في حفلة الاستقبال، وكيف أن جيجي أربكت الجميع، وخاصة سوان، ثم قد تسألها ماذا يجب أن تفعل بشأن الزيارات الليلية. كوني ستعرف. كوني.

تبيّن مرة أخرى أنّ شال نورما فوكس المصنوع من الكشمير مفيد جداً. فقد لفّته سينيكا حول بالاس وسألتها عما إذا كانت بحاجة لأيّ شيء: ماء؟ شيء تأكلينه؟ أشارت بالاس بالنفي. ففكرت سينيكا بأنها ماتزال لاتستطيع البكاء. فالألم عميق جداً، وعندما يصعد ستتبعه الدموع، وتريد سينيكا أن تكون كوني هناك عندما يحدث ذلك. لذا دفأت الفتاة بقدر مااستطاعت، وحاولت أن تسرّح لها شعرها الكثيف، وأشعلت شمعة تستنير بها واقتادتها إلى جوار كوني.

في قسم من القبو، كانت جدران غرفة كبيرة باردة مقوّسة السقف، مغطاة برفوف مقسّمة إلى كوىً صغيرة لوضع الزجاجات.

(*) الحَضون: روح شريرة يُزعم بأنها تحتضن النساء وهنّ نيام.

نبيذ معتق يعادل عمرُهُ عمرَ كوني. لم تَكُفّ الراهبات يلمسنَهُ، هذا ماقالته لها كوني، إلاّ عندما ينجحن في إحضار أحد القساوسة ليقيم القداس الذي كنّ محرومات منه. وأحياناً كنّ يصنعن في عيد الميلاد كاتو يغرقنه بنبيذ «فوف كليكو» الذي يعود صنعه لعام 1915 ، عوضاً عن الروم. ومن كل جهة، تبدو في الظل صناديق كبيرة وصناديق أخرى خشبية صغيرة، وقطع أثاث محطمة لاتصلح للاستعمال. تماثيل لنساء عاريات صنعت من الرخام المصقول، وأخرى لرجال نحتت من الحجارة الخشنة، وفي أعماق القبو هناك غرفة كوني. وكما تقول ماقيس فإنها وإن لم تُبْنَ لخادمة، لكنه ليس واضحاً لأي شيء هي مخصصة أصلاً. احتلتها كوني وأحبتها بسبب عتمتها، لأن ضوء الشمس فيها لايشكل تهديداً لعينيها.

قرعت سينيكا الباب فلم تتلقّ جواباً، فتحته: كانت كوني جالسة على كرسي هزاز مصنوع من القصب تشخر قليلاً. فاستيقظت في الحال عندما دخلت سينيكا.

«من يحمل هذا النور؟».

«أنا سينيكا وبرفقتي إحدى الصديقات».

«ضعيه هناك». وأشارت إلى خزانة صغيرة موجودة وراءها.

«هذه بالاس. لقد وصلت منذ يومين. وقالت إنها تريد مقابلتك».

فسألتها كوني: «حقاً؟».

كانت الرؤية سيئة بسبب لهب الشمعة، ولكنّ سينيكا تبيّنت مريم العذراء، وزوجاً من الأحذية الصغيرة العائدة للراهبات، والمسبحة، وعلى طاولة الزينة رأت شيئاً يرسو في قاع جرة ماء.

سألت كوني: «من أساء إليك، ياصغيرتي؟».

جلست سينيكا على الأرض. كانت قد تخلّت عملياً عن أي أمل في أن تتكلم بالاس الكثير هذا إذا قالت شيئاً على أية حال. ولكنّ كوني كانت سحراً. إذ أنها مدّت يدها ببساطة، فتقدمت بالاس

نحوها وجلست على ركبتيها ثم أخذت تتكلم، وهي تبكي في بداية الأمر، بينما تقول لها كوني: «اشربي قليلاً من هذا» و:«ماأجمل هذين القرطين» و:«أيتها الصغيرة المسكينة، ياللصغيرة المسكينة المسكينة. لقد أساؤوا إلى صغيرتي المسكينة».

كانت القصة مشبعة بالنبيذ واستغرق ذلك ساعة، وحدثت عودة إلى الماضي، الناقص والمليء بالفجوات ـ تلك القصة الصغيرة عن أولئك الذين أساؤوا إليها رُوِيت.

قالت إنها فقدت حذاءها، وفي البداية لم يشأ أحد أن يتوقّف من أجلها، وقالت، ثم توقفت الهندية ذات قبعة اللباد الطرية، أو بالأحرى توقفت لأجلها شاحنة تغصّ بالهنود، بينما كانت تعرج حافية القدمين مرتدية الشورت على جانب الطريق. كان رجل يقود الشاحنة، وبجانبه امرأة على ركبتيها طفل. لم تستطع بالاس القول هل هو صبي أم بنت. ستة شبان كانوا يجلسون في المؤخرة. وبدا وجود المرأة هو الذي جعل قبول العرض ممكناً. تحت طرف قبعتها كانت عيناها الشهلاوان كالزجاج لاتنمّان عن أي تعبير، ولكنّ وجودها بين الرجال جعلهم يبدون بمظهر متحضّر ـ كالطفل الذي على ركبتيها.

سألتها: «إلى أين تذهبين؟».

في تلك اللحظة اكتشفت بالاس أن حبالها الصوتية لاتعمل. وفيما يتعلّق بالقدرة على إرسال الأصوات لم تكن قادرة على منافسة طاحون الهواء الوحيدة التي راحت ترسل أزيزها في الحقل الذي يقع خلفها. عند ذلك أشارت بإصبعها إلى الاتجاه الذي تسير فيه الشاحنة.

قالت المرأة: «اصعدي إلى الخلف».

فتسلّقت بالاس بين الرجال ـ أكثرهم في مثل سنّها ـ وجلست في أبعد مكان ممكن عنهم، وهي تصلي وتطلب من الله أن تكون المرأة أمّهم، أختَهم، خالتهم ـ أو أن يكون لها تأثير كافٍ عليهم لكي تستطيع السيطرة عليهم.

أخذ الهنود يحدقون بها دون أن يتلفّظوا بكلمة، واضعين سواعدهم على ركبهم، وهم ينظرون إلى شورتها الوردي، وإلى قميصها الـ «تي شيرت» الواسع. وبعد برهة فتحوا أكياساً ورقية وأخذوا يأكلون. قدموا لها سندويشة سجق ضخمة وإحدى البصلات التي كانوا يقضمونها كأنها تفاح. وقبلت بالاس شريحةً خشية أن يعتبروا رفضها لها إهانة، ثم اكتشفت أنها تأكل بنهم مثل كلب وقد فاجأها جوعُها. وراحت تستسلم للنوم من وقت لآخرٍ بسبب اهتزاز الشاحنة، وفي كل مرة تستيقظ وهي تتخبّط في حلم من المياه السوداء التي تدخل إلى فمها وإلى أنفها. اجتازوا مناطق ذات منازل مبعثرة، ومحطة أغوايز لبيع المحروقات، ولكنهم لم يتوقفوا إلا حين وصلوا إلى مدينة أكثر أهمية. كان الوقت نهاية العصر. فاتجهت الشاحنة نزولاً في شارع خالٍ، وأبطأت في سيرها أمام كنيسة معمدانية، ذات لوحة كتبت عليها كلمة: «بدائي».

قالت المرأة: «عليك أن تنتظري هنا، سيأتي شخص ليهتم بك».

ساعدها الشبان على النزول، وانصرفت الشاحنة.

انتظرت بالاس على درج الكنيسة. لم تكن ترى أيّ منزل ولايوجد أحد في الشارع. وعندما غربت الشمس أصبح الهواء بارداً جداً وراح باطِنُ قدميها العاريتين والملتهبتين وحده يُنسيها البرد الذي يجمّدها حتى النخاع. سمعت أخيراً صوت محرك وعندما رفعت نظرها رأت الهندية ـ ولكنها وحدها هذه المرة ـ خلف مقود الشاحنة نفسها.

قالت: «هيا، اصعدي!». أخذتها عبر عدّة شوارع من هناك، وتوقفت أمام منزل منخفض، سقفه من التوتياء المتموجة، وقالت لها: «هيا، ادخلي، هذا مستوصف، لاأدري إذا كنت تعانين من بعض المشاكل أو أي شيء آخر، في رأيي أن شكلَكِ يدل على ذلك. لك شكل فتاة لديها مشكلة. ولكن لاتقولي لهم شيئاً. لاأدري إذا كان هذا صحيحاً، لكن لاتتحدثي عنه، أتسمعينني، الأفضل ألّا تفعلي ذلك. ماعليك إلا أن تقولي بأنك ضُربتِ أو طُردتِ، أو شيئاً من هذا القبيل».

ابتسمت عند ذلك، مع أن عينيها كانتا حزينتين. «شعرك فيه كثير من طحالب الأنهار». نزعت قبعتها ووضعتها على رأس بالاس قائلة: «هيا!».

جلست بالاس في قاعة الانتظار مع مرضى آخرين يلوذون بالصمت مثلها. امرأتان عجوزان تضع كل منهما وشاحاً على رأسها، طفل محموم على ذراعي أمه النائمة. نظرت موظفة الاستقبال إليها بفضول ينم عن الريبة، ولكنّها لم تقل شيئاً. كان الظلام قد بدأ يخيم عندما دخل رجلان، أحدهما يده متأذّية جزئياً. لم يكن أحد قد أولى بالاس أو الأم النائمة عنايةً بعد، ولكنّ الرجل الذي كان دمه يبلّل منشفة حظي بالأولوية. وعندما اصطحبته موظفة الاستقبال خرجت بالاس مسرعة، دارت حول البناء وتقيّأت كل لقمة من البصلة والسجق. وبينما كانت تشعر بغثيان شديد سمعت امرأتين تقتربان منها قبل أن تراهما. كانت الاثنتان ترتديان بزّتين زرقاوين، وتضع كل منهما قبعة الحمّام على رأسها.

قالت إحداهما: «انظري إلى تلك!».

تقدّمتا نحو بالاس وتوقّفتا، وقد أمالتا رأسيهما، وهما تنظران إليها وهي تلهث.

«أتدخلين أم تخرجين؟».

«لابدّ أنها حامل».

«هل تحاولين أن تقابلي الممرضة ياحبيبتي؟».

«الأفضل لها أن تسرع لتفعل ذلك».

«اصطحبيها لترى ريتا».

«اصطحبيها أنت يابيلي. يجب أن أذهب».

«إنها تضع قبعة، ولكنها بدون حذاء، حسناً، هيا بنا. إلى الغد».

انتصبت بالاس واضعةً يدها على معدتها وهي تتنفس بصعوبة من فمها.

«اصغي إليّ. المستوصف مغلق، إذا لم تكن الحالة إسعافية. هل أنت متأكدة بأنك لست حاملاً؟».

حاولت بالاس أن تكتم رغبةً أخرى بالتقيؤ وارتعشت.

التفتت بيلي لتلقي نظرة على سيارة صديقتها وهي تغادر الموقف ثم خفضت بصرها نحو القيء. ومن غير أن تدير وجهها رفست القذارة بقدميها حتى لم يبق منها شيء.

سألت بالاس وهي تُبعدها عن مرضها الدفين في التراب:«أين حقيبة يدك؟ أين تسكنين؟ وماسمك؟».

أشارت بالاس بيدها إلى حلقها وأحدثت صوتاً يشبه صوت مفتاح يحاول أحدهم أن يديره في قفل ليس له. ولم تستطع سوى أن تهزّ رأسها. وبعد ذلك كتبت اسمها في التراب، بإصبع قدمها، كما تفعل طفلة وحيدة في باحة المدرسة المهجورة. وببطء غطته تماماً بالتراب الأحمر، بعد أن محت الحروف بقدمها، مقلّدة الفتاة عندما طمرت قيئها.

خلعت بيلي قبعة الحمّام خاصتها. كانت أطول من بالاس بكثير وكان عليها أن تنحني لكي تنظر في عينيها الرانيتين إلى الأسفل. ثم قالت بيلي: «تعالي معي ياصغيرتي، أنت حالة محزنة لو لم أرَ غيرها. لكني رأيت أشباهها».

انطلقت تقود السيارة في جو المساء الأزرق وهي تتكلم بصوت هادئ يبعث على الثقة: «إنه مكان يمكنك أن تبقي فيه لبعض الوقت، لاأسئلة. لقد ذهبت إليه مرة وكنّ لطيفات معي. أكثر لطفاً من... لابأس، لطيفات جداً. لاتخافي. أنا خفت. أقصد أني خفت منهنّ. فلا يوجد كثير من الفتيات مثلهنّ في المنطقة». أخذت تضحك. «ربما كنّ طائشات قليلاً، ولكنهن سهلات، فهن هادئات أو شيء من هذا القبيل. ولاتندهشي إذا كن دون أية ملابس. أما أنا فقد أدهشني ذلك في بداية الأمر، ولكنّ ذلك كان، لاأدري، لم يكن شيئاً يذكر. كانت أمي ستقرعني لأسبوع آخر لو رحت أطوف مثل ذلك الطواف، يمكنكِ أن ترتاحي قليلاً هناك، وأن تفكري بالأمور جيداً دون أن يكون هناك

شيء أو أحد ليزعجك طيلة الوقت. إنهن سوف يعتنين بك. أو يدعنك وشأنك... كما تريدين أنت».

أخذ الجوّ الأزرق يظلم حولهما، سوى خطّ فضّي كان يبدو بعيداً. بدت الحقول تتموّج بتأثير الرياح الدافئة، ولكنّ بالاس كانت ترتعش عندما وصلتا إلى الدير.

وعندما سلّمت الشابة بالاس إلى ماقيس، قالت: «سوف أحضر ثانية لأطمئن عليك، اتفقنا؟ اسمي بيلي كاتو».

أصبح طول الشمعة لايزيد عن بوصة، لكنّ شعلتها عالية. مسحت بالاس فمها بظاهر يدها. الكرسي الهزاز يتأرجح. وأنفاس كوني عميقة لدرجة أن بالاس اعتقدت أنها نائمة. كانت ترى سينيكا وقد أمسكت ذقنها بيدها وأسندت مرفقها على ركبتها وأخذت تنظر إليها، ولكنّ لهب الشمعة، مثل ضوء القمر في مِهيتا،يشوّه الوجوه.

استُثيرت كوني.

«سألتكِ عمّن أساء إليك. وأنت تحدثينني عمّن ساعدك. أتريدين إبقاء ذلك الجزء سرّاً لفترة أطول قليلاً؟».

لم تجب بالاس.

«كم عمرك؟».

همّت بأن تقول ثمانية عشر عاماً، ولكنها اختارت الحقيقة: «ستة عشر عاماً. أنتقل إلى السنة الأخيرة في العام القادم».

كان يمكن أن تبكي من جديد على هذه السنة الضائعة ولكنّ كوني وجهت لها ضربة قوية بمرفقها: «انهضي، لقد أتعبتِ ركبتيّ» ثم، بصوت أكثر عذوبة: «اذهبي ونامي قليلاً. ابقي هنا الوقت الذي يحلو لك، واحكي لي بقية القصة عندما ترغبين بذلك».

نهضت بالاس وترنّحت قليلاً بسبب الهزّ والنبيذ.

«شكراً. ولكن. يجب عليّ أن أهتف لأبي على ما أعتقد».

فقالت سينيكا: «سأصطحبك، أعرف أين يوجد هاتف. ولكن يجب أن تكفّي عن البكاء، أتسمعين؟».

عند ذلك ذهبتا، وهما تسيران بحذر في الظلام، بعد أن اعتادت عينا كلٍ منهما على الضوء الضعيف الذي تنشره شعلة الشمعة. كانت بالاس التي نشأت تحت شمس لوس أنجلوس الساطعة في بيوت بلا أقبية تَقْرِنُهُنَّ بالشر، والقمامة، والزواحف، كالتي نراها في الأفلام. أمسكت بيد سينيكا وتنفست من فمها. كانت حركاتها تعبيراً عن قلق قبل أوانه، ولكنه غير محسوس بشكل حقيقي. والواقع، أنهما عندما صعدتا الدرج، هدّأتها صورُ جدّةٍ تتمايل باطمئنان، بذراعيها وركبتيها، وبصوتٍ يغنّي. البيت بكامله كان يبدو مطبوعاً بغياب الذكور المبارك، كمجال محمي، بدون صيادين، ولكنه مثير للاهتمام أيضاً. ربما استطاعت بالاس التواجد هنا ثانية في إحدى غرف هذا البيت العديدة ـ بالاس حرّة وحقيقية، ولكنها تتصورها «باردة».

كان طبق من فطائر التورتيلا موضوعاً على المائدة. وجيجي، أنيقة وهادئة، سوى أن شفتها متدلية جانبياً تشوه ماكياجها. راحت تقلب موجات جهاز الراديو، محاولةً أن تجد محطة تبث الموسيقا التي تحب سماعها ـ لا الأخبار الزراعية، أو موسيقا الكانتري، أو أشياء لها صلة بالكتاب المقدس. وماقيس التي كانت تتمتم لنفسها وصفة أَكْلَتِها تقف أمام الموقد.

سألتهما ماقيس عندما رأتهما تدخلان:

«هل كوني بخير؟».

«بالتأكيد، وكانت لطيفة مع بالاس، أليس كذلك يابالاس؟».

«نعم، إنها لطيفة، وأشعر بأني أحسن حالاً».

قالت جيجي: «واو! إنها تتكلّم».

فابتسمت بالاس.

«ولكن هل ستعود إلى التقيؤ؟ هذا هو السؤال».

«جيجي، أغلقي فمك بحق الجحيم!» ونظرت ماقيس إلى بالاس بلطف وسألتها: «أتحبين الكريب؟».

أجابتها بالاس: «هم! إنني أموت جوعاً».

«لدينا منها الكثير. لقد احتفظت ببعضها لكوني، وأستطيع أن أصنع أيضاً غيرها إذا أردت».

أخذت جيجي تنظر إلى بالاس عن قرب وقالت: «إنّ هذه بحاجة لبعض الملابس، وليس لديّ شيء يناسبها».

«كفي عن قول «it» كأنك تتحدثين مع غير العاقل».

«ليس لديها شيء ذو قيمة سوى قبعة. أين وضعتِها؟».

قالت سينيكا: «لدي ملابس جينز تستطيع ارتداءها».

فقالت جيجي ضاحكة: «تأكدي أولاً أنك قد غسلتِها».

«بالتأكيد».

«بالتأكيد؟ لماذا تقولين: «بالتأكيد»؟ إني لم أرك تغسلين شيئاً على الإطلاق منذ وصولك إلى هنا، بما في ذلك جسمك».

قالت ماڤيس وهي تكزّ على أسنانها:«يكفي هكذا ياجيجي!».

«حسناً، لم أفعل!» انحنت جيجي على المائدة وقالت لسينيكا: «ليس لدينا أشياء كثيرة أما الصابون فلدينا منه».

«لقد قلت إني سأغسلها، أليس كذلك؟» وجفّفت سينيكا العرق المتصبب تحت ذقنها.

قالت جيجي: «لماذا لاتشمّري كمّيك؟ إنك تشبهين بائع مخدرات».

قالت ماڤيس وهي تقهقه: «انظروا من التي تتكلم».

«أنا أتكلم عن مخدرات يافتاة، وليس في كلامي أي استخفاف».

أخذت سينيكا تنظر إلى جيجي: «أنا لا أدخل الكيماويات إلى جسدي».

«ولكنك اعتدت عليها، أليس كذلك؟».

«لا، على الإطلاق».

«إذن، أرني ذراعيك».

«دعيني وشأني!».

صرخت ماقيس: «جيجي!». بَدَتْ سينيكا متأذية.

قالت جيجي: «حسناً، حسناً».

سألتها سينيكا: «لماذا أنت هكذا؟».

«آسفة، هل هذا جيد؟». كان ذلك اعترافاً نادراً، ولكنه صادق بشكل واضح.

«لم أتناول المخدرات مطلقاً، مطلقاً!».

«قلت إني آسفة. وحق المسيح آسفة ياسينيكا».

«إنها ضرّابة إبر يا سين. وهناك دائماً من تغرزه بإبرة». كانت ماقيس تنظّف صحنها. «لاتدعيها تتغلغل تحت جلدك. فهناك يكون الدم».

«أغلقي فمك القذر!».

انفجرت ماقيس بالضحك. «عُدْنا إلى ذلك. كل هذا من أجل كلمة: آسفة».

«لقد اعتذرت من سينيكا وليس منك».

تنهدت سينيكا: «دعيك من ذلك، أتوافقين على فتح الزجاجة ياماقيس؟».

«لستُ موافقة وحسب، إني آمرك بذلك. على شرف بالاس، أليس كذلك؟».

ابتسمت سينيكا: «وصوتها».

«ولشهيّتها، انظري إليها!».

كانت بالاس قد انقطعت عن الأكل بسبب كارلوس. عندما كان يحبّها (أو يتظاهر بذلك)، كان الطعام يزعجها، فيما عدا سندويشة النقانق الحارّة الأولى، ولم يكن ذلك سوى ذريعة لشرب الكوكا أو مبرر للخروج. والباوندات التي كافحت لإزالتها منذ المدرسة

الابتدائية ذابت كلها. لم يحدثها كارلوس أبداً عن وزنها، ولكن بما أنها منذ البداية أعجبته، وهي سمينة ومربوعة ـ اختارها ومارس معها الحب ـ وجعلها تثق به. أما خيانة كارلوس في الوقت الذي لم يسبق لها أن كانت نحيفة إلى هذه الدرجة، فليس له أثر إلا إذكاء خجلها. كان الكابوس الذي أرغمها على الاختباء في قاع إحدى البحيرات، قد دفع الخيانة والألم اللذين جعلاها تهرب من بيت أمها إلى المقام الثاني لبعض الوقت. لم تكن قادرة أن تهمس بذلك حتى في غرفة لاينيرها سوى ضوء شمعة خافت. عادَ لها صوتُها، ولكنّ الكلمات اللازمة للتعبير عن خجلها بقيت عالقة مثل بولييات في حلقها.

كان للجبن الذائب الذي يغطي فطيرة الكريب ـ تورتيلا طعم متميز، ولقطع الدجاج طعم طيب حقيقي كاللحم. والزبدة الشاحبة شبه البيضاء، التي تسيل عن الذرة الصفراء الغضّة لم تكن تشبه شيئاً تعرفه، فهي ذات طعم قشديّ يميل إلى الحلاوة. وقد سُكب مرق حلو ودافئ على بودينغ الخبز. والنبيذ: كأس تتلو كأساً. الخوف، المشاجرات، الغثيان، العراك الفظيع في الغبار، البكاء في الظلام ـ مأساة النهار الجنونية تبدّدت في متعة مضغ المأكولات. عندما عادت ماڤيس، بعد أن حملت إلى كوني عشاءها، كانت جيجي قد وجدت محطتها، وأخذت ترقص، بعد أن وضعت جهاز الراديو أمام الباب المفتوح لتحصل على استقبال أفضل. ظلّت ترقص إلى أن وصلت قرب المائدة، فصبّت لنفسها كأساً آخر من النبيذ. وطوّقت بذراعيها عنق شريك رقصٍ مُتَخَيَّل وقد أطبقت جفنيها وأخذت تؤرجح وركيها. بقية النسوة رحن ينظرن إليها وهنّ ينهين وجبتهنّ. وحين سمعن أغنية: «اقتليني بنعومة» التي لاقت نجاحاً كبيراً في العام المنصرم، لم يلبثن حتى لحِقْنَ بجيجي، جميعهن، حتى ماڤيس. فرادى في بداية الأمر، وكل منهنّ تتخيّل الشريك. ثم أزواجاً، كل منهن تتخيّل الأخرى شريكاً.

نامت النسوة تلك الليلة نوماً عميقاً كالموتى، بتأثير النبيذ الذي شربنه: جيجي وسينيكا في غرفة واحدة. ماڤيس بمفردها في غرفة

أخرى. وبالاس التي كانت نائمة على الأريكة في المكتب / غرفة الألعاب. هي التي سمعت الباب يُقرع.

كانت الفتاة تنتعل حذاءً من الحرير الأبيض وترتدي فستاناً قطنياً. وتمسك قطعة كاتو من النوع الذي يُقدَّم في حفلات الزفاف، على طبق صيني جديد تماماً، وكانت ابتسامتها مَلَكية.

قالت: «لقد تزوّجتُ الآن، أين هو؟ أم أنه هي؟».

وفيما بعد، تلك الليلة، قالت ماقيس: «كان يجب علينا أن نعطيها إحدى الدمى، أي شيء».

قالت جيجي: «إنها مجنونة، أنا أعرفها. لقد روى لي «K.D.» كل شيء عنها، إنها مأوى مجانين بكامله. وزوجها يتخبط في وضع سيء».

سألت بالاس: «لماذا تأتي إلى هنا ليلة زفافها؟».

«إنها قصة طويلة». أخذت ماقيس تدهن ذراعها بالكحول، مشبّهةً الخدوش التي تنزف بتلك التي أحدثتها جيجي قبل قليل. «لقد أتت إلى هنا منذ عدة سنوات. وقد ولّدتها كوني، لكنها لم تُرِد الوليد».

««وأين هو الآن؟».

«إنه مع ميرل وبيرل على ما أعتقد».

«مَنْ؟».

رشقت جيجي ماقيس بنظرة مخيفة: «لقد مات».

سألتها سينيكا: «وهل تعرف ذلك؟ لقد قالت إنكنّ جميعاً قد قتلتموه».

«لقد قلت لك للتوّ بأنها مأوى مجانين بكامله».

فقالت ماقيس: «لقد ذهبت بعد ذلك تماماً، وأنا لاأعرف ماالذي تعرفه. فهي حتى لم تنظر إليه».

لَزِمْن الصمت وهن يستَعِذْن المشهد: وجه ملتفت إلى جهة أخرى، واليدان على الأذنين كيلا يسمع ذلك البكاء الجديد ولكن

الحزين. لن يكون هناك إرضاع إذن ولاشيء يوضع في الفم الصغير. ولاكتف أم يستند إليه رأسه. ولم تشأ أية واحدة منهنّ أن تتذكّر ولاأن تعرف ماذا حدث بعد ذلك».

قالت جيجي: «ربما لم يكن الطفل ابن «K.D.»» ربما كانت تخونه».

بدا صوت سينيكا مجروحاً:

«وماذا في ذلك؟ إن لم يكن ابنه فهو ابنها».

اقتربت بالاس من الموقد حيث يوجد ماتبقى من بودينغ الخبز: «إني لاأفهم».

تنهدت ماڤيس: «أمّا أنا فإني أفهم، بطريقةٍ ما، أنا ذاهبة لتحضير القهوة».

تثاءبت جيجي «ليس لي، سأعود لأنام».

«حقاً لقد كانت مجنونة، أتظنّون أنها ستعود الآن بحالة جيدة؟».

«قدّيسة سينيكا. من فضلك».

قالت سينيكا وهي تحدق إلى جيجي: «لقد كانت تصرخ».

وضعت ماڤيس مكيالاً من المسحوق في جهاز تحضير القهوة. «ونحن أيضاً».

«نعم! ولكننا لم نُطلق عليها أسماء».

مصّت جيجي أسنانها: «ماذا تريدين أن تسمّي مريضة نفسية ليس لديها ماتعمله ليلة عرسها أفضل من التجول بحثاً عن طفل ميت؟».

«أسميها آسفة».

أجابت جيجي: «آسفة، أستي. كل ماتريده هو أن تتعلق بالفتى الصغير الذي تزوجته لتوها».

«ألم تقولي إنك ذاهبة لتنامي؟».

«إني ذاهبة. تعالي ياسينيكا».

تجاهلت سينيكا رفيقتها في الغرفة: «أيجب أن نخبر كوني بذلك؟».

ردّت ماڤيس فجأة:

«ولماذا؟ اصغي جيداً، لاأريد أن أرى هذه الفتاة تحوم حول كوني».

«أعتقد أنها عضّتني». بدت بالاس مندهشة، «انظري، أليست هذه آثار أسنان هنا؟».

«ماذا تريدين؟ لقاحاً ضد داء الكَلَب؟» تثاءبت جيجي «هيّا، سينّ هيه بالاس اشعلي المصباح».

حدّقت بالاس بها: «لاأريد النوم، تحت، بمفردي».

«من قال لك إن عليك أن تفعلي ذلك؟ إنها فكرتك».

«لم يعد هنالك أسرّة، في الطابق العلوي».

«أوه، يا للمسيح». مشت جيجي باتجاه المدخل تتبعها سينيكا. «يالها من طفلة».

قالت لها ماڤيس: «قلتُ لك ذلك. بقية الأسرّة مخزّنة في القبو، سأعمل على نقل أحدها غداً إلى فوق، بإمكانك أن تنامي معي الليلة، لاتقلقي. إنها لن تعود». ثم أغلقت الباب الخلفي بالمفتاح وعادت فوقفت أمام جهاز تحضير القهوة. «بالمناسبة، ماهي كنيتك؟ أعني اسم أسرتك».

«ترولاف»(*).

«بلا مزاح، وأمك أعطتك بالاس كإسم أول؟».

«لا. إنه أبي».

«وماهو اسم أمك الأول؟».

«دي دي وهو اختصار لـ ديڤاين».(**)

(*) ترولاف Truelove حب حقيقي.

(**) ديڤاين Divine: الإلهية.

«أووه! أحبه. جيجي! جيجي! أتسمعين؟ إنها تدعى: ديڤاين. ديڤاين ترولاف».

عادت جيجي مسرعة، ومدّت رأسها من الباب، ومثلها فعلت سينيكا.

«ليس هذا صحيحاً! إنّه اسم أمي».

قالت جيجي: «هل تعمل في السترييتيز»(*) وابتسمت ابتسامة متهللة.

«فنانة».

«جميعهن كذلك ياحبيبتي».

تمتمت سينيكا: «لاتغيظيها، لقد أمضت نهاراً طويلاً».

«حسناً، حسناً، حسناً، طابت ليلتك... يا ديڤاين» خرجت جيجي من الباب واختفت.

فقالت سينيكا: «لاتوليها انتباهك»، ثم أضافت بصوت خافت وهي تنصرف: «إنها بلهاء».

صبت ماڤيس، التي ظلت تبتسم دائماً، القهوة وقطّعت بودينغ الخبز. قدّمت بعضها إلى بالاس ثم جلست بجانبها وهي تنفخ على بخار فنجانها. تناولت بالاس حصة ثالثة من البودينغ.

قالت ماڤيس: «أريني أثر الأسنان».

أدرت بالاس رأسها وشدت قميصها الـ «تي شيرت» لكي تُظهر كتفها.

غمغمت ماڤيس: «أووه!».

سألتها بالاس: «أكل يوم يشبه هذا اليوم هنا؟».

مَسَحَتْ ماڤيس فوق الجلد المجروح وهي تقول: «أوه، لا، إنه أهدأ مكان في العالم».

(*) سترييتيز: عمل يقوم على تعرية الجسد أمام المشاهدين.

«هل سترافقينني لكي أهاتف أبي غداً؟».

«نعم. أول شيء نفعله». كفّت ماقيس عن مداعبتها: «أحب شعرك».

أنهيتا الوجبة الليلية الخفيفة بصمت. حملت ماقيس المصباح وتركتا المطبخ غارقاً في العتمة. وعندما أصبحتا أمام باب غرفتها، لم تفتح ماقيس الباب. بل جمدت في مكانها قائلة:

«أتسمعين؟ إنهنّ سعيدات»، ورفعت يدها إلى شفتيها الضاحكتين: «كنت أعرف ذلك. إنهنّ يحببن ذلك الطفل الرضيع، يحببنه حقّاً». التفتت نحو بالاس: «ويحببنك أنت أيضاً. إنهن يعتقدْن أنك «مقدسة».

باتريسيا

أجراس وشجيرات صنوبر قُصّت من ورق أخضر وأحمر كانت مصفوفة بعناية على مائدة غرفة الطعام. كل شيء جاهز. ولم يبق سوى زخارف الزينة. لقد ارتكبت خطأ في العام الماضي بتركها أصغر الأطفال يقومون بهذا العمل. فبعد أن نظّفت لهم أصابعهم ومرافقهم المليئة بالصمغ، وأزالت بقع الدهان الفضي عن شعرهم، كان عليها، مع ذلك، أن تقوم بعمل أكثر التزيينات. أمّا هذه المرة فهي ستوزع الأجراس وشجيرات الصنوبر، مشرفةً بنفسها على كل نقاط الصمغ. كانت كل المدينة تساعد أو تتطفل لتنظيم مسرحية الميلاد في المدرسة. أكبر الرجال سناً يصلحون المنصة، ويقيمون المذود، والشبان يصنعون تماثيل جديدة لأصحاب النُزُل ويعيدون طلاء الأقنعة. النساء يصنعن دمىً للأطفال والأولاد يرسمون صوراً ملونة لأطباق عيد الميلاد، وخاصة أطباق التحلية ـ كاتو، فطائر، سكاكر، فواكه ـ لأنّ الديوك الرومية المشوية كانت تشكل تحدّياً حقيقياً لأصابعهم الصغيرة. وعندما يدهن الشبان الأجراس وشجيرات الصنوبر بالصباغ الفضي، لايتبقّ على باتريسيا إلّا أن تضع حلقات صغيرة في أعلاها. أمّا نجمة الصبح فتأتي من مخزن هاربر. كان يتفحصّها كل عام لكي يتأكد أنّ رؤوسها حادّة تماماً وأنها سوف تتلألأ كما ينبغي في السماء ذات النسيج المعتم. كانت تفترض أنّ العجوز ناثان دوبريس سوف يلقي كلمة الافتتاح. إنه

رجل لطيف، ولكنه لايبقى عند نقطة واحدة لتنقذه. كانت برامج الكنيسة أكثر شكلانية ـ مواعظ، تراتيل، أناشيد يردّدها الأطفال، وجوائز لمن يقومون بذلك دون تذمر أو دون بكاء، أو دون استياء ـ ولكنّ برنامج المدرسة، الذي كان يمثل مسرحية ميلاد السيد المسيح، وتشارك كل المدينة فيه هو أكثر قدماً لأنه بدأ حتى قبل بناء الكنائس.

وعلى نقيض السنوات الأخيرة، كان شهر كانون الأول: عام 1974 حاراً وشديد الرياح. والسماء تتصرف كإحدى فتيات الاستعراض راحت تُبدّل شحوبَ وكآبة صباحاتها بشرائط مساءاتها صارخة الألوان. وفي الهواء تنتشر رائحة معدنية، قادمة من سِفر التكوين عندما كانت البراكين ثائرة والحمم تبرد بسرعة عبر الرياح العاتية. رياح تصقل الحجارة الباردة، تنحتها، وتفتّتها أخيراً إلى قطع صخرية تحبها كلاب الصخر. الرياح نفسها التي كانت في الماضي تُطيِّر شعور هنديات الآراباهو الغزيرة، وتفرق خصل الشعر المتلبد على أكتاف ثيران البيسون، فتخبر الواحد بزمن اقتراب الآخر.

ظلت تشعر بتلك الرائحة المعدنية طيلة النهار، والآن وقد أنجزت تدريج الورق والتزيينات، تفحصت سماء فتاة الاستعراض لتَشهَدَ عرضاً جديداً. ولكن لقد انتهى كل شيء، كان هناك بعض التشكيلات الليلكية تتراكض وراء شمس ساطعة.

ذهب والدها لينام باكراً، بعد أن أنهكه حديثه الطويل مع نفسه الذي استرسل فيه عن مشروعه لإقامة محطة لبيع المحروقات وخدمة السيارات ـ فقد شجعته شركة أيغل أويل ـ ولاجدوى من المناقشة مع شركات البترول الكبرى. وقد اهتم ديك وستيوارد بتصديق القرض، شريطة أن يتمكن من إقناع أحد الناس بأن يبيعه الأرض. فالمسألة كانت في الموقع. أمام مخزن آنّا؟ موقع جيد، ولكنّ كنيسة «هولي ريديمر» لن ترى الأمر بهذا الشكل. إلى الشمال إذن؟ بجانب مخزن الأغذية والبذار العائد إلى سارجنت؟ سيكون هناك زبائن كثيرون ـ لن يضطر أحد بعد ذلك لأن يقطع مسافة

تسعين ميلاً لجلب الوقود، ولا لأن يحتفظ بمخزون منه في منزله. الطرقات؟ يمكن عمل شيء للدربين الترابيين اللذين يتصلان شمالاً وجنوباً بشوارع روبي المعبّدة ويلاقيان طريق المقاطعة الرئيسية. وإذا حصل على الترخيص، فربما فرشتهما إدارة المقاطعة بالإسفلت. ولكن سيكون من الصعوبة بمكان إقناع الناس المحليين هنا بتأييد المشروع - إذ أنّ المسنّين يمكن أن يعارضوه. فهم يحبون أن يظلوا في منأى عن طريق المقاطعة الرئيسية التي يسلكها التائهون فقط وأولئك الذين يعرفونها. «ولكن فكري قليلاً يا باتسي، فكري وحسب. ربما استطعت العمل بإصلاح السيارات، والمحركات، وبيع الإطارات والبطاريات، وسيورة المراوح، وشراب الصودا أيضاً. وأشياء لاتخزنها آنّا إذ لافائدة من إغضابها».

وافقت باتريسيا على كلامه بإشارة من رأسها، وفكرت، إنها فكرة جيدة كجميع أفكاره. نشاطاته كبيطري (وهي غير مشروعة - فهو لايحمل ترخيصاً، ولكنه يعرف الكفاية في هذا العمل، ويتمتع بإخلاصٍ دفعه لأن يقطع مسافة مئة ميل لكي يساعد الرجل الأبيض ويزدوم بول على إخراج عجل استعصى في بطن أمه)، وعمله كجزّار (أحضِرْ له عجلاً مذبوحاً فيسلخه ويقطّعه ويفرم لحمه ويضعه لك في البراد) وبالتأكيد هناك سيارته التي تصلح للإسعاف ولنقل الموتى. أراد أن يصبح طبيباً ويقوم بالدراسة الضرورية، ولذلك فإن معظم مشاريعه لها علاقة بالمرضى وبالأموات. وفكرة محطة الوقود هي أول اقتراح تذكره باتريسيا، ليس له علاقة بالجراحة (حتى وإن كانت عيناه تبرقان عندما يتحدث عن تفكيك المحركات) فلكم ودَّت أن يكون طبيباً، وأن يَقْبَلوه في إحدى كليات الطبّ، وتشاء المصادفات أن تظل أمها على قيد الحياة حتى اليوم، وربما لا. ربما وجد نفسه بعيداً في ميهاري بدلاً من مدرسة الدفن عندما ماتت ديليا.

صعدت بات الدرج الذي يؤدي إلى غرفتها وقررت أن تُمضي بقية الأمسية على مشروعها المتعلق بالتاريخ أو بالأحرى على

ماكان مشروع تاريخ، والذي لم يعد كذلك الآن. فقد بدأ هذا كهدية مخصصة لمواطني روبي - مجموعة من أشجار النّسب، الخاصة بكل عائلة من الخمس عشرة عائلة. أشجارٌ مقلوبة جذوعها في الهواء وأغصانها متدلية إلى الأسفل: وعندما أنجزت أشجار النسب، بدأت تضيف ملاحظات على الأغصان لكي توضح مَنْ وُلِد مَنْ: ومثلاً، ماذا كانت مهنتهم، أين عاشوا، إلى أية كنيسة ينتمون. وبعض النقاط الأكثر أهمية («ميسّي ريڤرز، زوجة توماس بلاكهورس، هل ولدت بالقرب من المسيسبي؟ اسمها يبدو كأنه يوحي بذلك...») وقد التقطت هذه المعلومات من مواضيع الإنشاء التي تحدّث فيها تلامذتها عن سِيَر حياتهم الذاتية. ولكنها لم تعد تفعل ذلك الآن. فقد اشتكى أهالي التلاميذ من أن يُطلب من أبنائهم نقل «ثرثرات»، ونشر مايمكن أن يكون معلومات خاصة، وحتى أسرار. بعد ذلك جاءت أغلب ملاحظاتها من المناقشات مع الناس، ومن الرجوع إلى الكتب المقدسة لبعض العائلات، ومن تفحّص سجلات الكنائس، وقد أُفلت الزمام من يدها عندما طلبت أن ترى بعض الرسائل وشهادات الزواج. فقد أسبلت النساء عيونهن قبل أن يبتسمن ويقترحن الانتعاش بشرب قهوتها. وأُغلقت أبواب غير منظورة، وتحول مجرى الحديث إلى المطر والطقس الجميل. ولكنها لم تعد تريد، أو تتمنى، بعد ذلك القيام بأبحاث جديدة. أما أشجار النّسب فكانت تطالب دائماً بإضافات في المناسبات - ولادات زيجات وفيات - ولكنّ اهتمامها بالملاحظات التكميلية ازداد مع ازدياد الملاحظات نفسها، وتخلّت عن كل مظهرٍ أو تحليل موضوعي. أصبح المشروع غير لائق في نظر أيّ كان ماعدا نظرها. وقد بلغ الدرجة التي أصبح فيها حرف (م)[*] - للزوج أو الزوجة - مزاحاً، حلماً، خرقاً للقانون دفعها لِقَضم ظفر إبهامها غيظاً بسبب الحرمان والكبت. من هنّ أولاء النسوة اللواتي كنّ كأمها، ليس لهنّ سوى الاسم الأول؟ سيلست، أوليف، سورّو، إيفلين، بنسي. ومن هن صاحبات أسماء العائلات العامة جداً؟ براون، سميث، ريفرز، ستون، جونز. نساء

(*) م: كأول حرف من متزوج أو متزوجة من.

تستند هوياتهن على الرجال الذين تزوجنهنّ - إذا كان قد حصل زواج: مورغان، فلود، بلاكهورس، بول، فليتوود. دوقي زوجة ستيوارد مورغان تركت لها كتاب آل مورغان المقدس ، طيلة عدة أسابيع، ولكن العشرين دقيقة التي أمضتها بمراجعة كتاب آل بلاكهورس المقدس، هي التي أقنعتها بأنّ شجرة نسب من نوع جديد أصبحت ضرورية للمضيِّ أبعد من أجل كشف العلاقات بين الخمس عشرة عائلة التي يتألف منها سكان روبي وأجدادهم الذين سكنوا هاڤن عن طريق التوغل إلى أبعد من ذلك، إلى المسيسبي ولويزيانا. هذا النشاط الذي فكّرت فيه أصلاً لكي تملأ ساعات فراغها أصبح عملاً مكثفاً تشوبه مشاعر سيئة تغلف الجلد مثل غبار الطلع عندما نعرف أكثر ممّا ينبغي عن جيراننا. تميّز تاريخُ المدينة الرسمي، الذي وُضع على المنبر، في صفوف مدرسة الأحد، وفي الخطابات التي ألقيت أثناء الاحتفالات، بحياة عامة قوية، ووضع أية ملاحظة هامشية وأية ثغرة، وأي سؤال كان يلهب المخيّلة ويثير ذهناً لا يرتاح للتواريخ الشفهية. بحثت بات عن أدلة في الوثائق المتوافرة لكي تضع تابعاً متمماً للقصص، وعندما تعذّر الوصول إلى الأدلة، لجأت إلى التأويل - بكل حرية، ولكن ببصيرة نافذة كما تظن، لأنها وحدها من امتلكت المسافة العاطفية المطلوبة. وهي وحدها تستطيع أن تفهم لماذا شُطب اسم إيتان بلاكهورس المقدس في كتاب آل بلاكهورس، ولماذا اختفى تقريباً اسم زكريا في سجل آل مورغان تحت بقعة حبر كبيرة. لقد قال لها والدها، روجر بيست، أموراً، لكنه رفض الكلام عما تبقى. بعض الصديقات مثل كيت وآنّا كنّ منفتحات، ولكنّ النسوة المتقدمات بالسن - دوقي سوان ولون دويريس - يلمّحن بالحد الأقصى ولايذكرن سوى الحد الأدنى: «أوه، أعتقد أنه قد حدث نزاع بين الأخوة على شيء ما» هذا كل ماقالته سوان بخصوص اسم عم أبيها المشطوب، دون أن تزيد على ذلك كلمة واحدة.

تسع عائلات كبيرة بكاملها قامت بالرحلة الأصلية، بعد أن طُردت من فيرلي في أوكلاهوما وتابعت سيرها لكي تؤسس هاڤن.

أسماؤهم كانت أسطورة: بلاكهورس، مورغان، بول، فليتوود، بوشامب، كاتو، فلود، وأسرتا دوبريس. ويصل عددهم مع إخوتهم وأخواتهم ونسائهم وأبنائهم إلى تسع وسبعين، أو إلى واحد وثمانين إجمالاً (إذا حسبنا أو لم نحسب الطفلين اللذين سرقا). وقد رافقتهم جماعات من عائلات أخرى: أخت وأخ، أربعة من أبناء الأعمام. وزمرة من العمّات والخالات اللواتي يسهرن على أبناء أخوتهن وأخواتهن المتوفين. وظهرت قصص عن هذه الجماعات التي يصل عدد أفرادها إلى خمسين شخصاً، في مواضيع الإنشاء الكتابية التي يكتبها تلاميذ بات، وفي الثرثرات والذكريات أثناء النزهات، أثناء وجبات الغداء في الكنيسة، وفي أقاويل النساء وهنّ يقمن بأعمالهن أو يتزينّ. كما كان يطيب للجدّات اللواتي يجلسن على الأرض، بينما تحكّ لهن حفيداتهن فروة رؤوسهن سردَ ذكرياتهن. عند ذلك تنبثق نتف من الحكايا فتنير كالشرارات الأجواء الغامضة العالقة فوق طفولتهن، وتبدّد الظلمات التي تكتنف فترة شبابهن. ملأت النوادرُ الحيزَ المحيط بهن أمام نيران المخيم - وأضاءت الدعاباتُ الأشياءَ - خاتم، ساعة جيب - التي يمسكن بها بقبضة أيديهن وهنّ نائمات، ووصف الملابس التي يرتدينها. حذاء كبير جداً يعود لأحد الأخوة. خِمار خالة متقدمة في السنّ. وقبعة مزينة بالدانتيلا لأخت أصغر سناً. كنّ يتحدثن عن أيتام، صبيان وبنات، تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والسادسة عشرة، وعن الذين رأوا المسافرين وطلبوا الانضمام إليهم، وعن الطفلين الصغيرين اللذين بالكاد يستطيعان المشي، وقد أخذنهما لأن الظروف التي وجدنهما فيها لم تسمح لهن بأن يفعلن غير ذلك. فازداد العدد ثمانية، وهكذا أصبح مجموع الذين أكملوا الرحلة مئة وخمسة وثمانين.

عندما وصلوا إلى مشارف فيرلي، اتفقوا على أن يذهب دروم بلاكهورس وريكتور مورغان وأخواه بريور وشيفرد ليقدّموا أنفسهم، بينما ينتظر الآخرون مع زكريا، الذي كان في ذلك الوقت يعرج بشدة على نحو لايستطيع معه الوقوف منتصباً دون مساعدة

أمام أناس مجهولين يريد نَيْلَ احترامهم، والذين قد تؤدي شفقتُهُم إلى تحطيمِهِ. فقد أطلقت رصاصة على قدمه ـ من الذي فعل ذلك، ولماذا، لاأحد يعرف ولاأحد يعترف به، لأن مفتاح القصة على مايبدو هو أنه لم يصرخ ولم يعرج عندما أصابته الرصاصة. وقد أرغمه هذا الجرح على البقاء في المؤخرة وجَعْل صديقه وأبنائه يتكلمون نيابة عنه. على أية حال، فقد بدا أنّ ذلك كان نعمة وبركة، لأنه لم يشهد عملية «الرفض» الحقيقية، ولم يسمع الكلمات التي لاتُصدق وقد خرجت من أفواه رجال موجهة إلى رجال آخرين، رجال شبيهين بهم في جميع النقاط فيما عدا واحدة. بعد ذلك لم يعد هؤلاء الناس تسع عائلات وبضعة أفراد. بل تحولوا إلى مجموعة متحدة من المسافرين تربط بينهم فَداحةُ ماأصابهم. كان خوفهم المجرد من البيض تشنجياً ولكنه مجرد. وقد حافظوا على وضوح كرههم للرجال الذين شتموهم بطريقة تقصر اللغة عن التعبير عن مدى إثارتها للقلق: أولاً بنبذهم، ثم بإعطائهم المقومات الضرورية للبقاء في هذا النبذ نفسه على قيد الحياة. وأيّ شيء يريد أي فرد أن يعرفه عن مواطني هافن أو روبي يجده في تفرّعات ذلك الرفض بين حالات كثيرة منه. ولكنّ فروع هذه التفرّعات تشكل قصة أخرى.

ذهبت بات إلى النافذة وفتحتها. قبر أمها موجود عند طرف الباحة. والريح تئن كما لو أنها تحاول اقتلاع الشذرات المعدنية من سماءٍ من الكريب الأسود، وشجيرات اللّيلك الكثيفة تحتك على جدار البيت. وبقايا الرائحة المعدنية تضيع بين روائح الطعام العالقة في الهواء. أغلقت بات النافذة وعادت إلى مكتبها لكي تسجل ملاحظات أخرى في سجلاتها.

آرنيت و «K.D.» اللذان تزوجا في نيسان الماضي، ينتظران مولوداً في آذار المقبل. هذا على كل حال ماقالته لون دوبريس التي لابد أنها تعرف. ولون كانت أحد الأطفال الذين شرقوا، فقد لمحتها فيري دوبريس جالسة، جامدة كأنها حجر، عند باب بيت بائس ومهمل. كان يمكن أن يظل منظر هذه الطفلة الصامتة ذات الأقمطة الوسخة إحدى صور العزلة التي أثرت بهم، لكنّ الأسى المُخيم على

ذلك المكان بدا لايُغتفر. كانت فيري حينذاك في الخامسة عشرة من عمرها وهي عنيدة. دخلت هي وميسّي ريڤرز لتريا ماذا يوجد في الداخل فوجدتا الأم ميتة ولايوجد في البيت كسرة خبز واحدة. أطلقت ميسّي أنيناً قبل أن تبصق. أمّا فيري فقالت: «يالعنة الرب، اعفُ عني أيها الرب» ثم التقطت الطفلة. وعندما روتا للآخرين ماوجدتاه تناول الرجال رفوشهم: دروم بلاكهورس ولداه: توماس وبيتر، ريكتور مورغان، آبل فلود، وبرود بول، سينيور، وجوفينال والد ناثان دوبريس. وبينما كانوا يحفرون القبر أعطت فيري للطفلة قطعة كعك مبللة بالماء. وشقّت برايز كومبتون تنورتها ولفتها بها. وصنع فولتون بيست صليباً متيناً. صلّى زكريا يُساعده ولداه شيفرد وبريور مُسنداً رجله الجريحة على كعبه. وقطفت بناته: لاڤينغ، إيلّا وسيلاني بعض أغصان القرنفل لوضعها على القبر. ثم حصل نقاش حاد لمعرفة ماذا يجب أن يفعلوا بالطفلة التي التُقطت - أين يمكن وضعها - إذ يبدو أنّ الرجال لم يريدوا إضافة طفلة نصف ميتة من الجوع إلى أطفالهم ربع الجائعين. وخاضت فيري معركة صعبة حتى استطاعت أن تقضي على مقاومتهم، ثم تشاجرت مع بيتي كاتو بشأن الاسم الذي يجب أن يعطى للطفلة. ومرة أخرى فازت، وسمّت الطفلة: لون(*) لأنهما هكذا وجدتاها وظلت على الدوام «لون» لأنها لم تتزوج أبداً. وحين توفيت فيري التي ربتها وعلمتها كلّ ماتعرفه عن مهنة التوليد، حلّت هي محلها. وقامت بتوليد جميع النساء، فيما عدا آرنيت التي تريد الآن الذهاب إلى مشفى مدينة دمبي لكي تلد هناك، الأمر الذي جَرَحَ لون (لأنها اعتقدت على الدوام أنّ النساء المحتشمات يلدن في بيوتهن، وأنّ اللواتي يرتدن الحانات هنّ وحدهن يذهبن إلى المشفى). ولكنها تعرف أنّ آل فليتوود مازالوا يعتبرونها إلى حدٍ ما مسؤولة عن ولدي سويتي وجِف، رغم أنها قد سبق لها ووَلّدت اثنين وثلاثين طفلاً يتمتّعون بكامل الصحة، من أمهات يتمتعن بصحة تامة منذ

(*) lone: وحيدة.

ولادة طفل آل فليتوود الكسيح الأخير. لذا لم تقل شيئاً سوى أن موعد وضع آرنيت هو آذار 1975 .

أخرجت بات ملف مورغان، وألقت نظرة على القسم الذي لم يكن حتى ذلك الحين يحتوي إلا على مايلي:

كوفي سميث (الذي يدعى أيضاً «K.D.» اختصاراً لـ كنتاكي ديربي) م. من آرنيت فليتوود.

تساءلت مرة أخرى من هو ذلك الشاب الذي تزوج روبي مورغان؟ قيل إنه أحد رفاق أخوتها في الجيش. ولكن، من أين أتى؟ اسمه الأول: كوفي هو اسم زكريا بالذات قبل أن يغيّره هذا الأخير لكي يصبح نائب حاكم الولاية. وكنيته كانت شائعة ومنتشرة على أوسع نطاق. وقد قتل في أوروبا، لذلك فإنّ أحداً لم يعرفه جيداً، ولا حتى زوجته. واعتماداً على صورته يمكن القول إنه لايوجد أقلّ أثر لـ الجندي سميث في ابنه. وإنّ «K.D.» يشبه بخاصة آل بلاكهورس وآل مورغان.

لم يكن قد بقي كثير من الفراغ تحت مدخل آرنيت ـ «K.D.» ولكنها فكرت بأنهما لن يحتاجا لأكثر من ذلك بالتأكيد. فالوليد الذي ينتظرانه إذا عاش سيكون دون أي شك طفلهما الوحيد. فأمّ آرنيت لم ترزق سوى ولدين، أحدهما لم ينجب سوى أطفال غير أسوياء. وعلاوة على ذلك فإنّ الأخيرين من آل مورغان لم يكونوا ولودين كالأولين منهم. فلم يكونوا مثل:

زكريا مورغان (الذي لقّب بـ «بيغ بابا»(*)، وسمّي كوفي عند ولادته) تزوج من ميندي فلود (ملاحظة: عمة أب آنّا فلود).

عاش تسعةٌ من أولادهما من أصل أربعة عشر، تتبّعت بات أسماءهم بإصبعها: بريور مورغان، ريكتور مورغان، شيفرد مورغان، إيلاّ مورغان، لاڤينغ مورغان، سيلاني مورغان، غوفرنور مورغان، كوين مورغان وسكوت مورغان. إحدى الملاحظات الأولى، المكتوبة دون عناية على الهامش بالحبر الأسود من نوع

(*) يعني الجد الأكبر.

«سكريب»، جاء فيها: «لقد احتاج الأمر لسبع ولادات لكي يتمكنوا من إعطاء إحدى البنات اسماً إدارياً، ذا وقع تسلطي، وأراهن أنهم كانوا ينادونها «كويني»». وتعليق آخر يتصل باسم زكريا بسهم، مكتوب على ظاهر الصفحة: «لقد غيّر اسمه. كوفي هو الاسم الذي أُعطي له عند الولادة - لاشك أنّ هناك خطأً إملائياً، إذ أن الإسم كُتب: «Coffee» بدلاً من «Kofi»». وبما أنّ أي فرد من أسرة مورغان من لويزيانا ولاأحد من هاڤن اشتغل عند أبيض يحمل اسم مورغان، فلابد أنه اختار اسم عائلته واسمه الأول تيمُّناً بشيء أو مكان يحبّه. هل هو زكريا والد يوحنا المعمدان في الإنجيل؟ أم زكريا صاحب الرؤى؟ ذلك الذي رأى لفائف اللعنات والنساء في السّلال، الذي رأى ملابس «يَشُوع» القذرة تتحول إلى حلل فخمة، الذي رأى نتيجة العصيان: العقوبة على عدم إبداء أية شفقةً ولارحمة هي التشتّت بين جميع أمم الأرض، وأرض طيبة تصبح مقفرة. كل هذا كان من الممكن أن يناسب زكريا مورغان تماماً: اللعنة، والنساء المكدّسات في سلة غطاؤها من الرصاص، مخبأة في أحد البيوت، وبشكل خاص التشتّت. ربما أخافه التشتّت. وتفرّق الجماعة أو العشيرة أو رابطة العائلات، أو في حالة كوفي تشتت مجموعة عائلات سبق أن عاشت مع الآخرين أو بقرب الآخرين حتى قبل بنكر هيل(*). ولابدّ أنه لم يجد صعوبة في تصوّر الخوف لدى رؤية جميع الذين كان يعرفهم وقد تشتّتوا في أماكن مختلفة، في بلاد مجهولة ليصبحوا غرباء عن بعضهم، ولابدّ أنه خاف من عدم معرفته شكل الفكّ الذي يميز أسرةً ما، أو حوَل العين، أو طريقة المشي التي توضح هوية أحد الأشخاص من ألّا يكون قادراً على رؤية نفسه وقد تكوّن ثانية في أحد أحفاده من الجيل الثالث أو الرابع. من عدم معرفته أين دُفنت الأجيال السابقة، ولاكيف يمكن الاهتداء إليهم إذا لم يكن ذلك معروفاً. هذا هو زكريا الذي ربما اختاره كوفي لنفسه. ربما أيقظ خياله سماع قسٍّ يروي له قصة «يَشُوع» المتوّج. لم يكن ليطلق على

(*) «Bunker Hill» معركة حدثت سنة 1775 (في بوسطن، بولاية «ماسّاشوسيت») انتصرت فيها القوات البريطانية على المعمّرين الأميركيين.

نفسه اسم «يَشُوع» (الملك) بل اسم الشاهد الذي كان يتحدث إليه الرب والملائكة بانتظام عن الأمور التي عرفها كوفي».

عندما سألت ستيوارد من أين أخذ جدّه اسم أسرته، غمغم وقال إنه يعتقد أنّ الاسم كان بالأصل «موين» وليس «مورغان»، أو «الموين»، شيء من هذا القبيل، والبعض كانوا يدعونه القهوة السوداء. نحن كنا ندعوه: «بيغ بابا» وكانوا ينادون أبي: بالـ«بيغ دادي»، كما لو أنّ ذلك ينهي القضية. كان كمن يشعر بالإهانة لأنه هو نفسه لم يكن أباً ولاجدّاً، لاكبيراً ولاأي شيء آخر. أسرة كانت هزيلة الذرية. أنجب ريكتور أحدُ أبناء زكريا «بيغ بابا»، سبعةَ أطفال من زوجته: بيك ولكنّ أربعة منهم فقط ظلوا على قيد الحياة: ايلدر، التوأمان: ديكون وستيوارد ووالدة «K.D.» روبي. وتوفي ايلدر تاركاً زوجته سوزانا (سميث) مورغان وستة أطفال ـ جمعيهم غادروا هاڤن قاصدين الولايات الشمالية. وكم كان زكريا سيكره ذلك، فهو يرى أنّ الانتقال يعني «التشتّت». وهو بالتأكيد مصيب في هذا الرأي، لأنّ الخصوبة تناقصت منذ ذلك الحين، حتى عندما ازدادت الثروات. وكلما ازدادت الأموال، تناقص عدد الأطفال، ومع تناقص عدد الأطفال، ازدادت الأموال التي يمكن أن تعطى إلى عددٍ أقل من الأطفال. مفترضين أنهم يجمعون منها الكفاية، الأمر الذي يُفسّر لماذا اهتم ديك وستيوارد الأكثر غنى بزواج «K.D.» أو هذا ماظننْتُهُ بات.

على أية حال، فإنهم جميعاً، وكلّ فردٍ من العائلات التسع بكاملها، لديهم العلامة الصغيرة التي يضعونها بعد أسمائهم، وقد اختاروها كلهم، وهي: (R-8) اختصاراً لكلمة «الصخرة الثامنة»: عمال المناجم الذين ينزلون إلى أعمق عِرق في مناجم الفحم. وهم جماعة لونهم أسود ضارب إلى الزرقة، أجسامهم طويلة وقاماتهم ممشوقة، عيونهم الواسعة الصافية لاتدع شيئاً يظهر ممّا يشعرون به في أعماقهم حيال من لم يكونوا من جماعة (R-8) مثلهم. المنحدرون من أولئك المتواجدين في منطقة لويزيانا عندما كانت فرنسية، وعندما أصبحت إسبانية، ثم عندما عادت فرنسية من جديد، قبل أن

تباع إلى جفرسون وتصبح ولاية عام 1812 . الذين كانوا يتكلمون لهجة محليّة، هي خليط من الإسبانية والفرنسية والانكليزية، وهي بمجموعها لغتهم الخاصة. المنحدرون من أولئك الذين اختبؤوا، بعد الحرب الأهلية أو تحدوا البيض الذين عملوا المستحيل لإرغامهم على البقاء والعمل كأجراء. المنحدرون من أولئك الذين تمتعوا بكفاءة عالية أهّلت ثلاثة من أبنائهم للفوز بعضوية مجلس الولاية، وفي إدارة المقاطعة. الذين عندما طُردوا ببساطة ودون أي دليل على ارتكابهم إحدى المخالفات، رفضوا التصديق أنّ مايشتبهون به هو السبب الحقيقي الذي لأجله أصبح من المستحيل بالنسبة إليهم إيجاد عمل فكري آخر. فجميع الزنوج على وجه التقريب الذين طُردوا من المكاتب أو سُرِّحوا (في ولاية المسيسبي، لويزيانا، وجورجيا) وجدوا عملاً أقل أهمية، ولكنه عمل وظيفي نظيف دوماً، على أثر عمليات التطهير عام 1875 . وقد أنهى أحدُهُم، وأصله من كارولينا الجنوبية، حياته ككنّاس شوارع. هؤلاء وحدهم: (زكريا مورغان وجوفينال دوبريس في لويزيانا، ودروم بلاكهورس في المسيسبي) دُفعوا إلى البؤس و/أو إلى العمل في الحقول. خمسة عشر عاماً من تسوّل العمل المتعب في حقول القطن والأرز أو قطع الأشجار بعد خمس سنوات مجيدة قضوها في إعادة بناء البلد. لابدّ أنّهم شكوا، ولكنهم لم يجرؤوا على التصريح بأنّ سوء حظهم المطلق سببه المظهر الوحيد الذي يميزهم عن نظرائهم الزنوج. «الصخرة الثامنة». في عام 1890 ، مضى على تواجدهم في البلاد مئة وعشرون سنة. وهكذا، فقد حملوا هذا التاريخ، كل تلك السنوات، مع كفاءتهم التي لايتطرق إليها الفساد، وانضموا إلى «الهروب». انطلقوا سيراً على الأقدام من ولاية المسيسبي ومن ولاية لويزيانا إلى ولاية أوكلاهوما، اتجهوا إلى الأماكن الموصوفة في الاعلانات التي طويت بعناية وخُبّئت في أحذيتهم أو في قبعاتهم، لكي يُطردوا بعيداً. هذه المرة أصبحت الأمور واضحة: عبر عشرة أجيال، ظلوا يعتقدون أنّ الانقسام الذي حاربوه كان وقوف رجلٍ حرّ ضد العبد، الرجل الغني ضد الفقير، وبصورة عامة وليس دائماً، الرجل ذو الجلد الأبيض ضد الرجل ذي

الجلد الأسود. وقد اكتشفوا الآن انفصالاً جديداً: الرجل ذو الجلد الفاتح ضد الرجل ذي الجلد الأسود. أوه، كانوا يعلمون بوجود فرق في ذهن البيض. ولكن لم يكونوا قد ذُهِلوا بعد من أنّ لهذا الأمر نتائج، وأنّ هذه النتائج خطيرة بالنسبة للزنوج أنفسهم. خطيرة إلى الحد الكافي لكي يتحاشى الآخرون الزواج من بناتهم، ولكي يكون أبناؤهم آخر من يختارون، وليشعر الرجال الملونون ذوو الجلد الفاتح بالحرج إذا شوهدوا وهم يحتفلون مع أخواتهم. أما علامة النقاء العرقي التي كانوا يعتبرونها كضمانة فأصبحت وصمة. كما أنّ التشتّت الذي أخاف زكريا لاعتقاده أنه يبدّد قواهم، بلغ الآن مستوى من السوء أكثر خطورةً، لأنهم إذا تَفَرَّقوا وإذا قلَّل ذوو العرق غير النقي من قيمتهم، عندها، فإن الأمر اليقينيّ كالموت هو أن هذه الأجيال العشرة ستعكّر سلام أبنائهم إلى الأبد.

كانت بات مقتنعة أنه عندما تشتُّتت الأجيال التالية من ذكور الـ (R-8) فعلاً في الجيش، تماماً كما كان يخشى زكريا، فهذا يمكن أن يقضي عليها، بل لابدّ أن يكون قد قضى عليها. والنّبذ الذي كانوا يسمّونه: «النقض» هو حرقٌ بات نسيجُه المتندب منكمشاً بما حصل عام 1949 ، أليس كذلك؟ أوه، كلا! فأولئك الذين نجوا من تلك الحرب الخاصة عادوا مباشرة إلى منازلهم ورأوا ماذا حلّ بـ هاڤن، وسمعوا الأحاديث تروى عن غياب خصيات الجنود الآخرين الملونين، وعن الأوسمة التي انتزعتها زمر من «الردنك» وأبناء الاتحاد ـ واعترفوا بـ «النقض» في فصله الثاني. ربما كان ذلك كالنظر إلى راية عرضٍ عسكري كُتب عليها: «أيها الجنود الذين أنهكتكم الحرب! لاأحد يرحّب بكم في موطنكم!». عند ذلك استأنفوا السير، وكما لم يبحث مسافرو الزمن الماضي أبداً عن مدينة أخرى ملونة بعد أن أولت لهم الأولى ظهرها، فإنّ رجال هذا الجيل لم ينضموا لأية منظمة، ولم يشتركوا في أية معركة مدنية. حافظوا على دم جماعة الـ «الصخرة الثامنة»، ثم اتجهوا نحو الغرب محتفظين بالقدر نفسه من الأنفة. إنهم الآباء الجدد: ديكون مورغان، ستيوارد مورغان، ويليام كاتو، إيس فلود، آرون بول، ناثان دوبريس، موسّ

دوبريس، أرنولد فليتوود، أوسي بوشامب، هاربر جوري، سارجنت بيرسون، جون سيرايت، ادوارد ساندز وروجر بيست والد بات الذي كان أول من خرق قانون الدم، الذي لم يكن أحد يعترف بوجوده. والذي وُضع عندما لاحظت مجموعة المسيسبي وتذكّرت أنّ «النقض» يأتي من قبل الرجال الملونين ذوي الجلد الفاتح. رجالٍ صفر بعيون زرقاء أو رمادية، ويرتدون بزّات جميلة. ومع ذلك، فإنّ التاريخ يروي بأنهم كانوا ودودين: قدّموا لهم الطعام والأغطية، وجمعوا لهم التبرّعات، ولكنهم ظلوا متمسكين برفضهم السماح لجماعة (R-8) بأن يرتاحوا أكثر من ليلة واحدة. ويقول التاريخ إنّ زكريا مورغان ودروم بلاكهورس منعا النساء من تناول الطعام، وإنّ جوب كاتو ترك الأغطية في الخيمة وفوقها الثلاثة دولارات والتسعة سنتات من التبرعات، ولكنّ سوان تقول إن جدتها سيلست بلاكهورس، عادت أدراجها خلسة، وأخذت المأكولات (دون النقود) وأعطتها بالسرّ إلى أختها سالي بلاكهورس وبيتي كاتو، وإلى برايز كومبتون، لتوزيعها على الأطفال.

لذلك وُضعت القاعدة وعاشت حياةً هادئة ونابضة لأنّ أحداً لم يتحدّث عنها أبداً، إلا تلميحاً في الكلمات التي ابتكرها زكريا من أجل الفرن. فهي أكثر من قاعدة. إنها لغز: «احذروا غضبة الله» الذي فيه «أنتم» (مضمرة) نداء، لم تكن أمراً موجهاً إلى المؤمنين، بل تهديداً موجهاً إلى أولئك الذين رفضوهم. ولابدّ أن ذلك قد استغرق معه عدة شهور لكي يتصوّر أن هذه الكلمات ـ بهذه الصيغة ذات عدة معانٍ: إنها تبدو صارمة وهي تطلب إطاعة الله، ولكن على نحو حاذق دون تحديد اسم العلم المضمر، ودون أن يوضح ماذا يمكن أن تسبّبه الغضبة ولا لمن. لذلك فإنّ المراهقين الذين كان ميسنِر يتولى تنظيمهم والذين أرادوا تغيير الجملة وجعلها: «كونوا غضبته» كانوا أكثر بعد نظرٍ مما يتصورون. انظروا ماذا فعلوا بـ ميتوس، عندما أرغموه على إرجاع المرأة التي أتى بها ليتزوجها. تلك الفتاة الجميلة ذات الشعر الرملي، القادمة من فيرجينيا، وفَقَدَ ميتوس (أو أنه أرغم على أن يهجر) البيت الذي اشتراه من أجلها،

ولم يكفّ بعد ذلك عن الشراب. ولكنهم كانوا يَعْزون سُكْرَهُ في عطلة نهاية كل أسبوع إلى ذكرياته في ڤييتنام، حتى وإن كانوا يمازحونه عندما يقص لهم شعورهم، إلا أن بات عرفت الحب في مرحلته اليائسة عندما رأته. وقداعتقدت أنها رأته في عيني مينوس كما في عيني أبيها الذي كان يحاول تمويهه على نحوٍ بائس بمشاريعه التجارية.

كتبت بات على الهامش، قبل أن تصنّف صفحات «K.D.»: «لقد ضرب أحدهم آرنيت بشدة. هل هنّ نساء الدير اللواتي فعلن ذلك، كما يقول الناس؟ أم أنه «K.D.»؟ حتى وإن لم يتكلم أحد عن هذا؟». ثم تناولت ملفّ بيست وروجر، حيث يمكن أن يُقرأ على ظاهر الغلاف:

«روجر بيست، متزوج من ديليا».

فكتبت: «دادي، إنهم لايكرهوننا لأنّ أمي هي زبونَتُكَ الأولى. إنهم يكرهوننا لأنها تبدو كالخرقاء ومهيّأة لإنجاب أطفال خرقى مثلي، ورغم زواجي من بيلي كاتو، الذي ينتمي مثلك ومثلهم إلى عائلات الـ (R-8)، فقد أعطيت لون بشرتي إلى ابنتي، والجميع كانوا يعرفون أني سأفعل ذلك. لاحظ كيف أن الكثيرين من آل ساندز هؤلاء ممن تزوجوا من آل سيرايت يحرصون كثيراً على أن يتزوج أبناؤهم من عائلات أخرى من جماعة (R-8) . لقد كنا أول خلل ظاهر، ولكن حدث خلل آخر غير منظور لا علاقة له بلون الجلد. أنا أعرف أنّ جميع الأزواج أرادوا حفل زفاف يرأسه القسّ، وقد حصل الكثيرون منهم على ذلك. ولكن هناك كثيرين غيرهم مارسوا ماتسميه فيري دوبريس: «استيلاءات»: أرملة شابة يمكنها أن تستولي على منزل رجل عازب. رجل «أرمل» يمكنه أن يطلب من صديق له أو من قريب بعيد الاستيلاء على فتاة شابة ليس لها أمل بالزواج كأسرة بيلي. أمه: فاون من عائلة بلاكهورس استولى عليها عم جدتها: أوغست كاتو. أو بعبارة أخرى، أم بيلي كانت زوجة عم جدتها. أو أيضاً: والد زوجي أوغست كاتو هو أيضاً عم جدتها (بيتّي كاتو بلاكهورس). وبالتالي فإنّ شقيق جد جد بيلي (والد بيتّي كاتو، ستيرل كاتو استولى على امرأة تدعى أونستي جونز) ولابد أنها هي

التي أصرّت على تسمية ابنتها: فريند شيب: (الصداقة) ولاشك بأنها انزعجت لسماعهم طيلة مابقي من أيامها ينادون الطفلة بيتي. وبما أنّ بيتي كاتو تزوجت بيتر بلاكهورس وبما أنّ ابنتها فاون بلاكهورس أصبحت زوجة عم بيتي وبما أن بيتر بلاكهورس هو جد بيلي كاتو ـ حسناً، أنت ترى المشكلة مع قواعد الدم. هذا يعود إلى عهد بعيد، أعرف ذلك، وأوغست كاتو كان رجلاً متقدماً في السنّ عندما استولى على الصغيرة فاون بلاكهورس. ولم يكن ليفعل ذلك دون إذن بلاكهورس. وماكان ليحصل على هذا الأذن لو كان سيء السمعة، لأنّ العلاقات خارج نطاق الزواج، أو الاستيلاءات لم يكن ينظر إليها نظرة سيئة وحسب، بل كان المجتمع ينبذ الزناة لدرجة أنهم يضطرون إلى حزم حوائجهم والرحيل بعيداً. كما كان الحال بالنسبة لـ ايتان بلاكهورس (وهذا يمكن أن يفسّر شطب اسمه) ـ أصغر أخوة دروم ـ وامرأة تدعى سولاس، وقد ظنّ أنّ تلك كانت أيضاً الحال بالنسبة لـ مارثا سوان، والدة مينوس (وإن كان هاربر جوري عاجزاً عن أن يحدّد مع من يعتقد أن امرأته خانته). ولذلك رفض أوغست كاتو كل محاولة أو فكرة للنظر خارج نطاق العائلات، وطلب من توماس وبيتر بلاكهورس فاون ابنة بيتر وربما يفسّر تَقَدُّم أوغست كاتو بالعمر لماذا لم ترزق فاون إلاّ بطفل واحد، هو زوجي بيلي. ومع ذلك فإن دم آل بلاكهورس موجود تماماً هنا، وهذا يجعل من ابنتي بيلي ديليا ابنة عم، من الدرجة الخامسة(؟) لسوان ودوقي، لأنّ بيتر بلاكهورس كان شقيق توماس بلاكهورس وسالي بلاكهورس، وكان توماس بلاكهورس هو والد سوان ودوقي. والآن تزوجت سالّي بلاكهورس من آرون بول وأنجبت ثلاثة عشر طفلاً. أراد آرون تسمية أحدهم: ديب، فأصيبت سالي بنوبة. عند ذلك، عمد آرون بسخرية لاذعة لم يكن أحد يعتقد أنه قادر عليها، إلى تسميته: «ديبر»(*). ولكنّ بيلي ديليا تحبّ اثنين آخرين من الأبناء الثلاثة عشر، وعلاوة على العدد وقواعد الدم هناك شيء ليس على مايرام في هذه القصّة، ولاأدري ماهو».

(*) «ديب» (Deep): عميق، «ديبر» (Deeper): أعمق.

وضعت بات خطاً تحت الكلمات الخمس الأخيرة ثم كتبت اسم أمها ووضعت أيضاً خطاً تحته ورسمت حوله قلباً، قبل أن تتابع:

«لقد حاولت النساء فعلاً ياماما، حقاً لقد حاولن. أمُّ كيت كاترين جوري أنت تذكرينها، وفيري دوبريس (وهي ميتة الآن) وكذلك لون ودوقي مورغان وشاريتي فلود، ولكن أيّاً منهن لم تكن تجيد القيادة في ذلك الحين. لابدّ أنك ظننت أنهن يكرهنك في قرارة نفوسهنّ، ولكنهن لايكرهنك جميعهن، بل ربما ولاواحدة منهن تكرهك، لأنهن توسّلن إلى الرجال كي يذهبوا إلى الدير ويأتوا بالمساعدة. أنا سمعتهنّ. دوقي مورغان كانت تبكي وهي ذاهبة تبحث عن أحد ما من بيت إلى بيت: إلى هاربر جوري وزوج كاترين وإيس فلود وزوج شاريتي، وإلى سارجنت بيرسون (كيف لايعرف هذا الزنجي الجاهل أنّ اسمه هو بييرسون؟) جميع الأعذار كانت جيدة ومعقولة. وقد استخدموها حتى مع زوجاتهم اللواتي توسَّلْنَ إليهم، لأنهم كانوا يحتقرونك يا ماما، أعرف ذلك، ويحتقرون أبي لأنه تزوّج من امرأة ليس لها كنية، امرأة بلا عائلة، امرأة بشرتها بلون الشمس، امرأة أصولها العرقية مختلطة. كانت القابلتان قلقتين (كان الوليد يأتي بأسرع مما ينبغي، وساقاه مطويتان تحته) وكل ماتريدانه هو أن يذهب أحدهم ليأتي بإحدى راهبات الدير. قالت الآنسة فيري إنّ إحداهن سبق أن عملت في أحد المشافي. ذهبت كاترين جوري إلى بيت سوان لترى إذا كان ديك موجوداً هناك. ولكنه كان غائباً. كانت هناك دوقي وهي التي ذهبت إلى بيت سيرايت، ثم إلى بيت فليتوود. وإلى كل بيت يمكن الذهاب إليه سيراً على الأقدام. كانت عائلة موس دوبريس تسكن بعيداً، بعيداً جداً، وكذلك ناثان (الذي ربما أسَرَج حصانه «هارد غودز»، وذهب مسرعاً ليجد «المسيح» ويحصل على المساعدة). وكذلك ستيوارد وآل بول وآل ساندز والآخرون. أخيراً حصلتا على موافقة سنيور بوليام، ولكن بينما انتعل حذاءه كان قد فات الأوان، اندفعت الآنسة فيري من جانب سريرك، إلى قرب بوليام وصاحت عبر الباب ـ كانت أكثر تعباً من أن تقرعه، وأكثر غضباً من أن تدخل ـ : «سنيور

بإمكانك أن تخلع حذاءك! وتستطيع أن تهّيء ثوبك الكهنوتي، وهكذا ستكون في الموعد المحدّد للدفن!». ثم انصرفت.

«عندما عاد دادي كان الجميع مرضى من القلق الذي ساورهم بشأن مايجب عمله، وكم من الوقت يمكن إبقاء جسديكما بدون دفن، سواء بوجود أب أو عدم وجود أب، ووجود زوج أو عدم وجود زوج. ولكنّ أبي عاد في اليوم التالي. لم يكن هناك وقت لترتيب سهرة مناسبة. ولذلك كان دفنك أول عملية دفن يقوم بها. وقد نفّذها بصورة مدهشة. كنت جميلة. وأنت تضمّين المولودة بين ذراعيك. لابد أنّك كنتِ فخورة جداً بأبي.

«إنّه لايلوم أحداً إلّا نفسه هو بالذات، لأنه ذهب ليقدّم فحص التخرج لمهنة دفن الموتى. وقد تخاصمنا بشأن ذلك، وهو لم يوافق معي عندما قلت بأنّ الرجال من جماعة (R-8) لم يرغبوا أن ينقلوا امرأة بيضاء إلى المدينة، أو أنهم لم يشاؤوا الذهاب لطلب المساعدة من بيت جماعة من البيض، أو أنهم كانوا يحتقرون شحوب بشرتك لدرجة أنهم اختلقوا الأعذار كيلا يذهبوا. قال دادي بأنّ أكثر من امرأة ماتت بالولادة، فقلت له، من؟ وهكذا ماتت أيضاً الأم التي لم تلد. مات أيضاً المولود الذي كنت تريدين تسميته فوستين إذا كان بنتاً، وريتشارد إذا كان صبياً كاسم الأخ الأكبر لأبي. لقد كانت بنتاً يا ماما: فوستين أختي الصغيرة. كان يمكن أن نكبر معاً: باتريسيا وفوستين ربّما بدا لوننا فاتحاً أكثر مما ينبغي، ولكن لاأهمية لذلك ونحن معاً. كان يمكن أن نشكل فريقاً. ليس لي أعمام ولاعمّات، أنت تذكرين ذلك، لأنّ جميع أخوات وأخوة أبي ماتوا بالمرض الذي يسمّونه ذات الرئة الهزاز، ولكن لابد أنه وباء الانفلونزا الذي انتشر عام 1919 . لذلك تزوجت بيلي كاتو، من جهة لأنه جميل، ومن جهة أخرى لأنه يُضحكني - وعلى الأغلب - لأنّ لون بشرته بسواد منتصف الليل، لون أفراد أسرتي كاتو وبلاكهورس وشعره يشبه شعر آل بلاكهورس المنتصب كالعيدان، كشعر سوان ودوقي وإيستر وسكوت. ولكنّه مات، فعلها بيلي، فحملتُ طفلتي فاتحة اللون ولكنها لاتميل إلى البياض، وعدت إلى منزلك الصغير الجميل،

بصالونه الذي لفظتِ فيه أنفاسكِ الأخيرة، وشاهدة قبرك في الخلف. وأصبحتُ المعلمة التي أخذت تنحل وتجفّ. وراح الأولاد ينادونني آنسة بيست مستخدمين اسم دادي كما يفعل الآخرون جميعاً، لأن الزمن الذي دُعيت خلاله بات كاتو كان قصيراً جداً.

كانت الكلمات قد ملأت ظاهر الصفحة منذ وقت طويل فأخذت تستعمل أوراقاً جديدة لكي تتابع:

«ربما استطعت أن أقول لك أيضاً إنه فيما عدا أم «K.D.» وأنت فإنه لم يمت أحد في روبي. لاحظي جيداً أنني قلت في روبي، وسكانها فخورون حقاً بذلك لأنهم يعتقدون أنّهم مباركون، وكل هذا لأنه بعد عام 1953 كل الذين ماتوا، ماتوا في أوروبا، في كوريا، أو في مكانٍ ما خارج هذه المدينة. حتى أبناء سويتي مازالوا على قيد الحياة، ويعلم الله أنه ليس هناك أي مبرّر لذلك. حسناً، فمهما بدا هذا جنونياً، أعتقد أنّ هذا الطموح إلى الخلود هو طريقة المدينة بإدانة صالون دادي الجنائزي، لأنه كان عليه أن ينتظر رجالنا الذين قتلوا أثناء العمل، أو في الدير أو حادث في مكانٍ ما، وإلّا لما استُخدمت سيارتُه المخصصة للإسعاف كسيارة لنقل الموتى أبداً. (عندما مات بيلي لم يبق شيء يجب دفنه، عدا بعض «الأشياء الشخصية» منها مَحبس ذهبي ملتوٍ جداً بحيث لايمكن إدخال الإصبع فيه). هم يظنون أن أبي يستحق هذه الإدانة لأنه كان أول من خَرَقَ قاعدة الدم. وأعتقد أنهم مستعدون تماماً أن يرفضوا الموت فقط لكي لاينجح دادي. والذي حصل هو أنّ الموتى في الحرب وفي الحوادث التي تحصل في مدن أخرى (الآنسة فيري توفيت وهي عائدة إلى هاڤن، إيس فلود مات في مستشفى دمبي ولكنه دفن في هاڤن) يمثلون كل العمل الذي أتيح لأبي القيام به. وهذا أمر بالغ الصعوبة. وعمل سيارة الإسعاف لايسير بشكل أفضل، ولذلك أبذل كل جهدي لإقناعه بأنّ ماتدفعه لي المدينة لقاء تعليم الأطفال ننفقه على المنزل، وأنه ليس مضطراً للاقتراض على أسهمه من مصرف ديك وأنّ عليه أن يتناسى قصة محطة بيع المحروقات وكل ذلك المشروع».

اتّكأت بات على مسند كرسيّها وضمّت يديها خلف رأسها وتساءلت ماذا سيحدث عندما يتكاثر عدد الذين سيصبحون بمثل سن ناثان أو لون. هل سيتوجّهون إلى والدها، أم أنهم سيفعلون كما فعلوا عند الرحيل من لويزيانا؟ عندما كانوا يدفنونهم في المكان الذي يسقطون فيه. أم أنهم كانوا على صواب بأن الموت لايستطيع الدخول إلى روبي؟ شعرت باتريسيا بأنها متعبة ولديها رغبة بالنوم، ولكنها لاتستطيع أن تترك ديليا تغادر الآن.

«الطريق طويلة يا ماما من هاڤن إلى هنا. أنت وأنا ياماما وسط كل هؤلاء العمالقة ذوي البشرة السوداء المزرقة، دون أن ينظروا هم ونساؤهم إلى شعرك الطويل البني وإلى عينيك العسليّتين. هل قال لك دادي لاتقلقي، كل شيء سيمضي على مايرام؟ أتذكرين كم كانوا بحاجة إليك، وكم استخدموك للدخول إلى أحد المخازن من أجل شراء بعض المؤن أو الحليب، بينما ينتظرون بعيداً بعض الشيء؟ لقد كان هذا الأمر هو الشيء الوحيد الذي تصلح له بشرتك، وفيما عدا ذلك كانت تسبب لهم الإزعاج. فهي تذكرهم بالسبب الذي وجدت هاڤن من أجله، ولماذا يجب أن تحلّ محلّها مدينة جديدة. كان العيش مع القانون الموحد الذي ابتدعه البيض صعباً إذ لم يكن أحد يستطيع القول بأنه موجود. عندما كنّا نعبر مدينةً أو تقترب منّا سيارة «الشريف» يطلب منّا دادي أن ننحني وأن نستلقي على أرضية العربة، لأنه لم يكن هناك جدوى من أن يقول لرجل مجهول بأنك ملوّنة، وأسوأ من ذلك أيضاً أن يقول له بأنك زوجته. سوان ودوڤي اللتان كانتا حديثتي الزواج أيضاً، هل كانتا تبادلانك الأحاديث النّسائية؟ كنت تعتقدين بأنك حامل، وهما أيضاً. ولكن هل تحدثتنّ عما تشعرن به؟ وهل كنتنّ تحضّرن الشاي لمعالجة البواسير، وهل كانت إحداكن تعطي الملح للأخرى لكي تلحسه أو النحاس الزنخ لتأكله بالسرّ؟ كنت، أنا، أشعر برغبة شديدة لـ كربونات الصوديوم عندما كنت حاملاً بـ: بيلّي ديليا. هل كنتِ كذلك وأنتِ تنتظرين ولادتي؟ وهل قُدّمت لك النصائح من قبل النسوة الأكبر سناً ممن سبق أن أنجبن الأطفال، مثل سالي بلاكهورس

زوجة آرون بول التي أنجبت أربعة أطفال؟ وماذا عن أليس بوليام ـ زوجها لم يكن قسّاً بعد، ولكن كانت لديه الكفاءة اللازمة، وقرّر أن يصبح كذلك، ولذلك كان عليهما أن يُظهرا بعض المحبة وبعض مشاعر التقوى وهما في سن الشباب. هل استقبلوك في الحال، أم أنهم جميعهم انتظروا أن يُعاد بناء الفرن، أو هل عمدوك في السنة التالية، عندما امتلأ الجدول، لكي يستطيعوا التحدّث إليك مباشرة والنظر إلى عينيك؟

«ماذا قال لكِ دادي في نزهة كنيسة صهيون AME التي نُظمت للجنود الملونين المقيمين في قاعدة تينسي وكيف استطاع أحدكم أن يروي ما كان يقوله الآخر؟ كان هو يتحدّث بلهجة لويزيانا، وأنت تتحدّثين بلهجة تينسي. موسيقا مختلفة جداً، صوت قادم من جزء آخر من الجسم. كان يجب أن يشبه ذلك الاستماع إلى أغانٍ وضع موسيقاها ملحّنان مختلفان. لكن عندما مارستما الحب، لابدّ أنه قد قال لك: «أحبّكِ» وهذا القول فهمته وكان صحيحاً أيضاً، لأني منذ ذلك الحين رأيتُ اليأس في عينيه ـ أيّاً كانت المهنة التي يفكّر فيها».

توقّفت بات وفركت مفصل إصبعها الوسطى. كانت تشعر بألم في مرفقها وكتفها لأنها شدّت على قلمها بهذه القوة. وفي الجانب الآخر من القاعة راحت تسمع شخير أبيها عبر باب الغرفة المفتوح. وكعادتها دائماً تمنّت له أحلاماً جميلة ـ شيئاً يمكّنه من تلطيف بؤس أيامه، أيام قضاها محاولاً نيل الإعجاب والتعويض عما فاته. وفيما عدا زواجه من أمها، لم تتمكن بات من معرفة القاعدة التي انتهكها مما كان يجعله يتقصى بكثير من الحماسة رضى وتأييد أولئك الذين لايولونه الاحترام الكافي. لقد وصف لها ذات مرة هاقن وماذا كانت تشبه عندما ترك الجيش. قال إنه كان يظل جالساً أمام المنزل، ويسعل كيلا يعرف أحد أنه يبكي من أجلنا. وفي الداخل كان أبوه فولتون بيست وأمه أوليف يقرآن، محطّمي القلب، الطلبات التي تقدّم بها إلى صندوق الريع العام. كان يريد الذهاب إلى الجامعة والدخول إلى كلية الطب، ولكنه كان أيضاً ولدهم الأخير الذي بقي على قيد الحياة. لأنّ كل الآخرين ماتوا بوباء الانفلونزا. ولم يكن

والداه يطيقان لا فكرة سفره من جديد ولافكرة البقاء في مدينة تتهاوى نحو الامحاء إلى الأبد في كل مكان ماعدا القلب. كان يتأمّل الإسمنت المتشقق في ماين ستريت، عندما أتى إيس فلود وهاربر جوري لمقابلته ليقولا له بأنّ هناك مشروعاً. ديك وستيوارد مورغان لديهما مشروع. عندما علم بماذا يتعلق الأمر أول شيء فعله هو الكتابة إلى الفتاة ذات العينين الكستنائيتين والشعر البني الفاتح التي أنجبت له طفلاً أثناء الحرب. ولحسن الحظ أنه لم يحدثهم عنّا وإلّا لكانوا ردعوه عن الزواج، كما فعلوا مع مينوس لاحقاً. ربّما كان يعرف هذا، ولذلك أرسل يطلب حضورنا: «حبيبتي ديليا، أحضري في الحال، أرسل لك في طيه حوالة. تواجهني بعض المشاكل التي تبقي قلبي هادئاً. وبانتظار وصولكما أنتما الاثنتان سأظل كالمجنون...» لابدّ أنّهم فغروا أفواههم عندما وصلنا، ولكن عدا ستيوارد فإن أحداً لم يتكلم بشكل مباشر لأنهم لم يحتاجوا لذلك. فأوليف أوت إلى السرير. ولم يكفّ فولتون عن الغمغمة وتفريك ركبتيه. ستيوارد وحده كان لديه التهور الكافي ليقول: «إنه يعيد روث البقر الذي تركناه وراءنا». فأسكتته دوڤي، وكذلك سوان، ولكنّ فيري دوبريس لعنته وقالت له: «إنّ الله لايحبّ الذين يسيئون التصرّف. احذر من أن ينتزع منك ماتحبُّهُ أنت أيضاً». وهي ملاحظة لابد أن دوڤي فكرت بها كثيراً حتى عام 1964 عندما حدثت المصيبة. لكنهنّ كنَّ مجرّد نساءً ومايقلنه يمكن أن يتجاهله بسهولة الرجال الطيّبون والشجعان، وهم في طريقهم نحو الفردوس. وقد ذهبوا إلى هناك وتحققت لهم أخيراً المسرّة برؤية الروث مدفوناً. معظمه على كل حال. فقد بقي قليل منه فوق الأرض، وهو يعطي لأبنائهم مستوى من التعليم لن يبلغه ذووهم مطلقاً.

مصّت پات أسنانها ودفعت ملفّ بيست. اختارت دفتراً، ودون أن تضع عنواناً ولامقدّمة، تابعت الكتابة:

«إنها لن تصغي إليّ. ولاكلمة. هي تعمل في عيادةٍ بمدينة دمبي ـ عاملة تنظيفات على ماأعتقد ـ ولكنها تريد أن يظنّ الناس بأنها ممرضة مساعدة بسبب البزة الرسمية التي ترتديها. لاأدري كيف

تعيش. فهي تقول بأنّ لديها غرفة في منزل إحدى العائلات المحترمة. أنا لاأصدق هذا. ليس كله. أحد ابنَيْ بول يقوم بزيارتها ـ الاثنان دون شك ـ. أعرف ذلك لأنّ الأخت الصغرى دينا تحدّثت في الصف بأنّ أخاها الأكبر اصطحبها ليريها بيتاً على عتبته تمثال سانتا كلوز ومصابيح عيد الميلاد. حسناً، هذا لم يكن في روبي بالتأكيد. فهي تكذب، وأنا أفضّل أن تلدغني أفعى على أن يكون لديّ فتاة تكذب. لم أرغب بضربها بقوة إلى ذلك الحدّ، فأنا لم أنتبه لذلك، أردت فقط أن أغلق فم هذه الكذابة التي راحت تقول لي بأنها لم تفعل شيئاً. لقد رأيتهم ثلاثتهم وراء الفرن وهي في الوسط. بالإضافة إلى ذلك فإني أنا التي تغسل الأغطية هنا».

توقّفت بات، وضعت قلمها، وبعد أن غطّت عينيها بيدها، حاولت أن تفصل مارأته عمّا كانت تخشى رؤيته، وماعلاقة الأغطية في هذا الموضوع؟ هل كان يوجد دم حيث يجب ألّا يكون، أم أنه لم يوجد دم حيث كان يجب أن يوجد؟ يعود هذا إلى أكثر من عام مضى، كانت تظنّ أنّ كل ذلك قد انطبع في ذاكرتها. حدثت المشاجرة في تشرين الأول 1973 . بعد ذلك هربت بيلي ديليا ومكثت في الدير أسبوعين ويوماً واحداً. وعادت أثناء الدروس الصباحية، بينما كانت بات تعطي درساً لأطفال صغار دون سنّ الثانية عشرة، وظلت زمناً طويلاً حتى قالت إنها لم تعد تحتمل. تبادلتا كلاماً فظيعاً يطفح بالكراهية، ولكن خشيت كل منهما أن تقترب من الأخرى خوفاً من تحول المشادّة إلى مشاجرة كما حدث من قبل. ذهبت مع أحد أبناء بول ولم ترجع إلّا في مطلع هذه السنة لكي تتحدّث عن عملها وتعطيها عنوانها. ومنذ ذلك الحين لم ترها بات سوى مرتين: في شهر آذار، وفي حفل زفاف آرنيت حيث كانت إشبينتها ووصيفتها في آن معاً، لأنّ آرنيت ماكانت تريد أحداً غيرها، ولأن أية فتاة بطبيعة الحال لم ترغب بأن تحظى بشرف نزول ممر الكنيسة بجانب بيلي ديليا. أو هذا ماكانت تظنّه بات. فقد ذهبت إلى حفل الزفاف ولم تذهب إلى حفلة الاستقبال، لكنها لم تفوّت شيئاً لأن لديها إطلالة لايحجبها شيء على كل ماحدث حول الفرن مع فتيات الدير. لقد

رأتهنّ. ورأت ابنَيْ بول. ورأت بيلي ديليا وهي تجلس وتتحدّث مع إحدى الفتيات وكأنها صديقة قديمة لها. ورأت المحترم بوليام وستيوارد مورغان يتناقشان مع الفتيات، وعندما ذهبن بالسيارة رأت بيلي ديليا تلقي باقة زهورها في حاوية قمامة آنّا قبل أن تبتعد مع أبولو وفي أثرهما برود بول.

رحلت بيلي ديليا في اليوم التالي بسيارتها دون أن تقول لها كلمة عن الزفاف، عن حفلة الاستقبال، عن فتاة الدير أو عن أي شيء آخر. حاولت بات أن تتذكر كيف وصلت تلك المكواة إلى يدها، وما الذي قيل وجعلها تصعد الدرج حاملة مكواة كهربائية (GE 1950) تسمى «رويال إيز» تمسكها بأصابعها لتقتل ابنتها فأخطأتها ببوصات فقط. هي، التي تحب الأطفال وتحميهم ليس من بعضهم البعض وحسب بل من أهلهم أيضاً عندما يبالغون بالقسوة عليهم، انقضّت على ابنتها بالذات. هي التي عودت نفسها على التفكير والأساليب اللطيفة وعلى التكتم والوقار، تتدحرج على الدرج وتُجرَح لدرجة أنها تغيبت يومين عن المدرسة. هي التي علّموها، والتي تعلّمت بمفردها أن تجعل الجميع يعرفون أنّ ابنة الزنى التي أنجبتها المرأة التي بشرتها بلون الشمس وليس لها كنية، لم تكن محبوبة جداً وحسب، بل تتمتع أيضاً بكفاءة عالية وبقيمة لاتقدّر بثمن. وبينما كانت بات تحاول أن تفهم كيف حدث أن استطاعت الإمساك بتلك المكواة، تبيّن لها أنه منذ أن كانت بيلي ديليا طفلة صغيرة، اعتَبَرَتْ نفسها مسؤولة عنها على نحو ما. وكانت تتحسس من احتمال ألا تكون سيدةً بما فيه الكفاية مثل باتريسيا كاتو. هل كان هذا بسبب قصة انزالها سروالها الداخلي وسط الشارع؟ لم تكن بيلي ديليا قد تجاوزت الثالثة من عمرها في ذلك الحين. وتعرف بات لو أنّ ابنتها من جماعة (R-8)، لما احتفظوا بهذه القصة ضدها. بل كانوا اعتبروها كما هي بالفعل ـ يمكن لطفلةٍ صغيرة بريئة فقط أن تفعل ذلك، بالتأكيد. هل فاتني شيء؟ أهناك شيء آخر؟ ولكنّ السؤال الذي كانت تطرحه على نفسها الآن في سكون هذا الليل، هو أن تعرف هل دافعت عن بيلي ديليا أم ضحّت بها. وهل ماتزال تضحي بها؟ كانت

تصعد الدرج ومكواة «رويال إيز» بيدها لتضرب بها الفتاة التي كانت تعيش في ذهن جماعة الـ (R-8) ، وليس الفتاة التي كانت ابنتها.

لعقَت بات شفتها السفلى، فوجدتها مالحة وتساءلت على من بالضبط كانت تذرف الدموع.

رحب ناثان دوبريس بالحضور، لأنه يُعتبر أكبر الذكور سنّاً في روبي. كان يعترض على هذه الأولوية التي تستند إلى السنّ كل عام، ويرشح ابن عمه موس، ثم يقول إن المحترم سيمون كاري يناسب أكثر. ولكنه ينصاع أخيراً لرأي المدينة لأنّ المحترم كاري يطيل الحديث جداً، وعلاوة على ذلك فهو لاينتمي للعائلات الأولى، ووصوله لايتزامن مع الحرب العالمية الثانية، بل مع حرب كوريا. وناثان الذي كان قوي البنية وطيب القلب ومحباً لدرجة أنّه حتى ستيوارد نفسه يعجب به، تزوج من ميرث ابنة ايلدر مورغان. ولأنّه لم يبق أحد من أولادهم على قيد الحياة، كان يحبّ كثيراً أولاد الآخرين: يستقبل النزهة السنوية التي تُنظم في عيد الأطفال ويشرف على تدريبات الجوقة ويحمل دائماً في جيوبه أقراصاً ضدّ السعال وبعض المفرقعات ليوزعها.

الآن ماتزال تُشتَمُّ منه رائحة الحصان الذي ترجّل عنه للتو، صعد درجات المنصّة وتأمّلَ المجلس. ثم تنحنح وهو مندهش لأنه نسي ماحضّره والكلمات التي تلفّظ بها بدت له مناسبة لحدث آخر.

قال: «كنت في الخامسة من عمري عندما غادرنا لويزيانا وفي الخامسة والستين عندما قفزت إلى الشاحنة التي غادرت هاڤن لتأتي إلى هذا المكان الجديد، هنا. أعرف أني لم أكن لأفعل ذلك لو أن ميرث على قيد الحياة أو لو بقي أحد أبنائنا في هذا العالم. تعلمون جميعكم أنّ أطفالي - كلهم - قضى عليهم إعصار عام 1922. وجدناهم أنا وميرث في حقل للقمح يملكه شخص غريب. ولكني لم

أندم أبداً على مجيئي إلى هنا، أبداً. ففي هذا البلد يوجد عسل أحلى من أي عسل ذقته في حياتي، وقد قطعت قصب السكر في أماكن كان للأرض نفسها طعم السكر، وليس هذا بالأمر البسيط. لا، لم أشعر لحظة واحدة بالندم. ولكنّي اليوم أحسّ بالحزن في قرارة نفسي. ربما أعرف في فصل ميلاد سيدي هذا، ماهذا الجفاف في حلقي. هذا الماء الذي يظلّ في عينيّ. أعرف أني رأيتُ من السنوات أكثر مما يسمح به الله عادةً لرجل، ولكنّ هذا الجفاف جديد. وكذلك ماء العينين. وعندما أفتش في ذهني فإن كل ماأجده ليس سوى حلم رأيته منذ بعض الوقت».

في الصف ماقبل الأخير كانت لون دوبريس جالسة بجانب ريتشارد ميسنِر، وآنّا في الجانب الآخر. انحنت لتلقي نظرة على آنّا لتعرف إن كانت هي أيضاً تكاد تجنّ. ابتسمت آنّا ولكنها لم تبادلها نظرتها، عند ذلك عادت فجلست ثانية لتستمر بتحمّل المزيد من أحلام ناثان المشوّشة.

مرّ ناثان بأصابعه على رأسه وأغمض عينيه كما لو أنه يستعيد كل التفاصيل:

«كان أحد الهنود قادماً نحوي قرب خط مزروع بالفاصولياء إنه من الشايان على ما أعتقد. بدت العرائش خضراء طرية وقد تفتحت الأزهار في كل مكان. نظر إلى صف الفاصولياء وهزّ رأسه بحزن. ثم قال لي إن المياه سيئة للأسف، قال إنها غزيرة ولكنها فاسدة. قلت له: ولكن انظر هنا، انظر إلى كل هذه الأزهار. يبدو لي محصولاً ممتازاً. فقال لي: نبتة القطن الأطول لاتعطي المحصول الأفضل، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ هذه الزهور ليست ذات لون جيد، فهي حمراء. عند ذلك نظرت إليها فتبينّ لي أن هذا صحيح. لقد كانت وردية، ثم صارت حمراء كنقاط الدم فأخافتني. لكن عندما نظرت ثانية لم أجده، لم يكن هناك، وبتلات الأزهار أصبحت بيضاء من جديد . وبرأيي أنّ هذه الرؤيا هي مثل القصّة التي ستروى هذا المساء. وهي تُبينّ قوةَ محصولنا إذا أحسنا استخدامه. ولكنها يمكن أن تُدمينا إذا لم نُحسن. وتجلب لنا اللعنة أيضاً. فليبارك الله

الطاهرين والمقدسين وليوحّد بيننا ولايفصل بعضنا عن الآخر، ولاعن ذلك الذي يباركنا. آمين».

عندما غادر ناثان المنصّة، عبر تمتمات الملاطفة في غياب عبارات الشكر، استغلّ ريتشارد ميسنر فترة التوقف ليهمس شيئاً في أذن آنّا وليغادر مقعده. كان يأمل أن يتحرر من رهاب الاحتجاز الذي تولّد لديه، والذي لم يعانِ منه منذ أن كان سجيناً مع ثمانية وثلاثين آخرين في زنزانة ضيقة في ألاباما، حيث يشعر أنه مرتبك جداً لأنّ العرق والغثيان يثبتان لرفاقه أنه خائف. وإنه لدرس قاسٍ معرفته أنها مهما كانت الأخطار التي يتعرض لها، وكيفما كانت حماسته في المجابهات الخطرة، فإنّ زنزانة مزدحمة تستطيع إذلاله دون شفقة أمام المراهقين. وحين شعر بأنه يكاد يختنق في قاعة الصف المزدحمة تلك، لحق بـ بات بيست التي تقف في المدخل وتنظر إلى الحاضرين عبر الباب. كان هناك مائدة كبيرة مغطاة بالكاتو، بالكعك والحلويات وشراب البنش وضعت قرب الجدار، وراءها.

«نهارك سعيد أيها المحترم». تحرّكت بات قليلاً لكي تفسح له مكاناً، دون أن تنظر إليه.

أجابها وهو يجفّف العرق عن عنقه بمنديله: «مساؤكِ سعيد، يابات، أرى أني أحسن حالاً في الخارج».

«وأنا أيضاً. من هنا نرى كل شيءً دون أن نمدّ عنقنا أو أن نتطلّع بطرف أعيننا من بين قبّعتين».

أخذا ينظران من فوق رؤوس الجمهور، عندما تحرّكت الستائر المصنوعة من قماش البركال ـ المغسولة والمكوية بعناية ـ وخرج صف من الأطفال بملابس كهنوتية بيضاء، ينتقص من كمال وجوههم الجادة وشعرهم الملبّد، جورب سقط حتى الكاحل أو ربطة عنق «فراشة» مائلة إلى اليمين. وبعد إلقاء نظرة نحو كيت غولايتلي، أخذوا معاً نفساً عميقاً، استعداداً لإنشاد: «أوه، أيتها الليلة المقدسة، النجوم تتلألأ...».

ومع البيت الثاني، انحنى ريتشارد ميسنِر نحو بات: «هل تمانعين أن أطلب منك شيئاً؟».

«لا، تفضل». اعتقدتْ أنه سيطلب منها تبرعاً لكونه وجد صعوبة في إيجاد النقود (بالقدر الذي تمناه) لكي يساهم بمصاريف الدعوى والدفاع أمام المحكمة عن أربعة مراهقين موقوفين في نورمان ومتهمين بحيازة أسلحة، ومقاومتهم رجال الأمن، وإشعالهم الحرائق، وإخلالهم بالنظام العام، وتحريضهم على أعمال العنف، وجميع الاتهامات التي أمكن العثور عليها في القوانين، ضد فتيان سود يقولون: لا، أو فكروا بذلك. كانوا في السجن ـ هذا ماقاله ريتشارد مِيسنر لأتباعه المؤمنين ـ منذ مايقرب منِ سنتين. وعندما أحيلوا إلى القضاء، كانوا قد أمضوا عشرين شهراً خلف القضبان. وسيحدّد قريباً تاريخ المحاكمة، ويجب أن يُدفع للمحامين على ماقاموا به، ومابقي عليهم أن يقوموا به. وحتى ذلك الحين لم يكن ريتشارد قد جمع إلاّ النقود التي أعطته إياها النساء اللواتي يفكّرن بالألم الذي تشعر به أمّهات الفتيان أكثر من تفكيرهن بالظلم الذي لحق بأبنائهنّ، ولكنّ الرجال من آل فليتوود، بوليام، سارجنت بيرسون ومورغان بَدوا متمسكين برفضهم. من الواضح أن ريتشارد لم يكن قد حضّر مطالبيه بعناية كافية. كان عليه أن ينشئ مؤسسة تعنى بمشاكل الأبناء المبذرين بدلاً من تشكيله مؤسسة سياسية. وعندها، بينما كان يقف أمام كنيسة كالقاري حيث مايزال يطلب النقود، لم يكن مضطراً لسماع عبارات مثل: «أنا أشجب العنف» يقولها رجال تعاملوا بالمسدسات طيلة حياتهم. أو: «إنّ صغار الزنوج الخارجين على القانون، المسلحين، وبلا تربية، يجب وضعهم في السجن». هذه الجملة الأخيرة أتت بالطبع من ستيوارد. ولكن عبثاً ألحّ ريتشارد على أنّ الشبان لم يكن معهم سلاح، وأن التظاهرات ليست ممنوعة، فلم يفتح الرجال محافظ نقودهم رغم ذلك. قرّرت بات أن تعطيه كل ماتستطيع اعطاءه، فيما لو طلب منها ذلك مباشرة. كان يحلو لها التفكير بأنه بحاجة لكرمها، ولذلك انزعجت عندما علمت أن هذا ليس مايفكر به ريتشارد ميسنِر:

«إني أحاول تهدئة الأمور لدى آل بول، وأظن أنه من المناسب أن أتحدث مع بيلي ديليا، إذا كنت لاترين مانعاً في ذلك. هل هي هنا هذا المساء؟».

ضمّت بات ذراعيها إليها ونظرت إليه: «لاأستطيع مساعدتك أيها المحترم».

«هل أنت واثقة من ذلك؟».

«أنا على ثقة من أنّ كلّ مايمكن أن يحدث هناك ليس له علاقة بـ بيلي ديليا، وعلاوة على ذلك، فهي لم تعد تسكن هنا. فقد رحلت إلى دمبي». ودّت أن تكفّ عن الظهور بمظهر العداء نحوه، ولكن بسبب ذكر علاقات ابنتها مع ابنْي بول، فإنها لم تستطع السيطرة على نفسها.

«لقد ذكر اسمها مرة أو مرتين. ولكنّ ويزدوم بول لن يقدم لي أي شيء أتابع به عملي. هناك شيء يمزق هذه الأسرة».

«لايحبون المتطفلين أيها المحترم. وهذا أمر يتعلّق بروبي».

«أفهم هذا جيداً، ولكنّ أمراً كهذا يمكن أن ينتشر، ويمس أكثر من عائلة. عندما وصلتُ إلى هنا بدت الأمور واضحة: إذا كان هناك مشكلة قد اختمرت فسوف تُشكل لجنة لدراستها. لمنع الناس من أن ينفصلوا عن بعضهم، لقد رأيت ذلك بأم عيني وساهمت فيه أيضاً».

«أعرف».

«لقد اعتاد هذا التجمع أن يتماسك كما يتماسك الشمع».

«ومايزال متماسكاً، ولكنه في أزمة، إلا أنهم متماسكون تماسكاً مختلفاً».

«تقصدين «نحن»؟ «نحن متماسكون»؟».

«لو قلتها، هل كنتُ ستطلب مني أن أشرح لك؟».

«بات، أرجوك، لاتأخذي كل ماأقوله على محمل السوء. فقد تذكرت لتويّ أنه أثناء دروس التربية الدينية، يقول الأولاد أيضاً: «هم» عندما يتحدثون عن ذويهم.

«دروس التربية الدينية؟ إنها تشبه دروساً عن الحرب. تنظيم عسكري، حسب ماقيل لي».

«قديكون مناضلاً لكنه ليس عسكرياً».

«أليس ثمة نمور تبرعم؟».

«أهذا ماتظنّين؟».

«لاأدري ماذا أظن».

«حسناً، اسمحي لي أن أقول لك شيئاً. فعلى النقيض من غالبية الناس هنا، نحن نقرأ الصحف ومختلف أنواع الكتب. نظل مطّلعين. نعم نحن نناقش استراتيجيات الدفاع. ليس العدوان بل الدفاع.»

«أيعرفون الفرق؟».

لم تتح له الإجابة في الحال لأنّ التصفيق تعالى واستمر طويلاً إلى أن اختفى آخر طفل من جوقة الأطفال وراء الستار.

أطفأ أحدهم أضواء السقف. بعض السعال المتكتم رَوَّض العتمة. أُزيح الستار ببطء منساباً على بكراتٍ دهنت بالزيت بشكل جيد. وتحت أنوار متمركزة في الأجنحة والتي تلقي ظلالاً واسعة خلفها، وقف أربعة أشخاص يضعون قبعات من اللباد، وبزّات فضفاضة، أمام طاولة وأخذوا يعدّون دولارات كبيرة الحجم. وجه كلٍّ من هؤلاء الأشخاص يخفيه قناع أصفر وأبيض، بعينين لامعتين وشفتين مزمجرتين، حمراوين كالجرح. وفوق لوحة ثبتت على مقدمة الطاولة حيث تقرأ كلمة: «نزل»، أخذوا يعدّون الدولارات مُحدثين ضجيجاً بغمغمتهم ولايتوقفون حين يقترب منهم رتل من العائلات التقيّة يرتدي أفرادها أسمالاً بالية ويسيرون بخطى متباعدة بطيئة. اصطفّ سبعة أزواج أمام طاولة النقود. الأولاد يحملون العصي، وتحتضن الفتيات دمى أطفال.

أخذ ميسنِر ينظر إليهم بانتباه، ولكي يتيح لنفسه مزيداً من الوقت لإيجاد الجواب المناسب عن سؤال بات حاول أن يتبينّ هوية

كلٍ من الأطفال الذين يقفون على خشبة المسرح: الفتيات الأربع الأصغر سنّاً، من آل كاري: هوب، شيست، لوڤلي وبيور، دينا بول، وإحدى بنات بيوس دوبريس ـ ليندا، ثم الفتيان الذين يضمون عصيّهم بقوة وهم يتقدمون على إيقاع أولئك الذين يعدّون النقود. حفيدا بيس وسولارين جوري: أنسيل والآخر الذي أطلقوا عليه اسم فروت. وجو ـ توماس بول وقد انضم إلى أخته دينا. ابن درو وهارييت بيرسون: جيمس. وابن باين ساندز: لوركاس. وحفيدان لـ تيموتي سيرايت: ستيفن وميكائيل. اثنان من الفتيان المقنّعين، هما بالتأكيد من أسرة بوشامب: رويال، وديستري اللذان وهما في الخامسة عشرة والسادسة عشرة يزيد طولهما عن ستة أقدام ـ ولكن بالنسبة للاثنين المتبقيين، فلم يكن متأكداً من معرفتهما. فهو يحضر للمرة الأولى هذه المسرحية التي تُمثّل عادةً قبل عيد الميلاد بخمسة عشر يوماً، عندما يعود إلى جورجيا لزيارة ذويه. ولكنّ سفره تأجل هذه السنة، لأنّ هناك اجتماعاً لجميع أفراد الأسرة تقرّر أن يُعقد يوم عيد رأس السنة. سيصطحب آنّا، إذا وافقت على ذلك، لكي تتعرف عليها أسرته، ولإتاحة الفرصة لـ آنّا للتعرّف عليها، هذا مايفترضه. وألمح للأساقفة بأنه يرغب بالترشيح لأبرشيةٍ أخرى. وأن لاشيء ملحّ. لكنه لم يكن واثقاً من أنه قد أُحسِنَ استخدامُهُ في روبي. ويظنّ أنّ أي مكان يناسبه طالما أنّ هناك شباناً يجب تعليمهم، ويقال لهم بأنّ السيد المسيح كان قاضياً، ومحارباً أيضاً. وأنّ البيض ليسوا فقط غير محتكرين للديانة المسيحية، بل ويشكلون عائقاً ضدها في معظم الأحيان. وأنّ يسوع قد تحرّر من الديانة البيضاء. ويريد أن يعرف هؤلاء الأولاد أنّه ليس عليهم استجداء الاحترام فهو متوافر فيهم وماعليهم سوى أن يظهروه. لكنّ المقاومة التي لقيها في روبي أنهكته. وتلامذته أخذوا يتعرّضون أكثر فأكثر للعقوبات بسبب المعتقدات التي يلقنهم إياها. والآن هاهي بات بيست ـ التي درّس معها «تاريخ الزنوج» كل يوم خميس بعد الظهر ـ تخرب له دروسه المتعلقة بالتربية الدينية بخلطها بين

احترام الذات والغطرسة، بين الحذر والعصيان. فهل كانت تعتقد أنّ التعليم يقضي بمعرفة مايكفي فقط لإيجاد عمل؟ إنها لم تكن تبدو أكثر ثقة منه بهذه الرؤوس القوية في روبي فيما يتعلّق بالمستقبل، ولكنها لم تكن تشجع التغيير أيضاً. وجدت بات تاريخ الزنوج وقائمة المآثر الماضية كافية لها وليس لهذا الجيل الجديد. يجب أن يكون هناك من يتحدث إليهم، ومن يصغي إليهم. وإلّا...

«تعلمين أكثر من الآخرين أنّ هؤلاء الفتيان حاذقون ومهرة، أكثر من غيرهم...» وضاع صوته في «الليلة الصامتة».

«هل تَرى أنّ ما أعلِّمُهُم إياه ليس جيداً كفاية؟».

هل قرأت أفكاره؟ «إنه جيد، بالطبع، ولكنه ليس كافياً. فالعالم عظيم الاتّساع ونحن نشكل جزءاً من هذا الاتّساع العظيم. إنهم يريدون معرفة مايتعلّق بأفريقيا...».

«أوه، من فضلك أيها المحترم، لاتكن عاطفياً معي».

«إذا انقطعتِ عن جذورك تذبلين».

«إنّ الجذور التي تتجاهل الأغصان تتحول إلى تراب للنمل».

قال وقد فوجئ بعض الشيء بما قالته: «كفى بات! إنك تحتقرين أفريقيا».

«لا. على الإطلاق، ببساطة هذا لايعني شيئاً بالنسبة لي».

«وماذا إذن يابات؟ ماهو الذي يعني شيئاً بالنسبة لك؟».

«الجدول الدّوري للعناصر والمتكافئات».

قال ريتشارد ميسنر وهو يغادر: «بارد، بارد وحزين».

غادر لوركاس ساندز جماعة العائلات وخاطب الأقنعة بصوت قوي متقطع: «هل يوجد مكان؟».

التفتت الأقنعة بعضها نحو البعض الآخر، ثم نحو السائل، ومرة

أخرى التفت كل منها نحو الآخرين، وبعد ذلك زأرت وهي تهز رؤوسها كالأسود: «انصرف من هنا! هيا! لايوجد لك مكان هنا!».

«ولكنّ نساءنا حوامل!» وأشار لوركاس إليهنّ بعصاه.

«أولادنا يكادون يموتون عطشاً!» ورفعت بيور كاري دميةً.

هزّت الأقنعة رؤوسها وزأرت.

«لم يكن لطيفاً منك أن تقول لي ذلك ياريتشارد».

«أنا آسف؟».

«أنا لست حزينة ولاباردة».

«قلت ذلك عن الجدول وليس عنكِ. حَصْرُ إيمانك في جزيئات، كما لو أنّ...»

«أنا لاأحصر شيئاً، وكل ماهناك أني لاأؤمن أن الولاء الأبله لبلدٍ أجنبي ـ وأفريقيا بلد أجنبي، والحقيقة هي خمسون بلداً أجنبياً ـ حلٌ لهؤلاء الأولاد».

«أفريقيا هي وطننا، يابات سواء أعجبك هذا أم لا».

«هذا بالحقيقة لايهمني ياريتشارد، تريد أن تتوحد مع زنوج أجانب، لماذا لاتفعل ذلك مع أميركا الجنوبية؟ أو مع ألمانيا، فهناك يوجد أيضاً أطفال سود يمكنك أن تقيم صلات مديدة وجيدة معهم. أم أنك لاتبحث إلّا عن نوع معين من الماضي لم تكتنفه العبودية؟».

«لماذا لاأفعل ذلك؟ لقد كانت هناك حياة بكاملها قبل العبودية. ويجب علينا أن نعرف ماهي، هذا إذا أردنا التخلّص من عقلية العبيد».

«إنّك مخطئ، وإذا كان هذا حقلك فإنك تحرثه عبثاً، لأنه مغمور بالماء. العبودية ماضينا. ولاشيء يمكنه تغيير ذلك، وبالتأكيد ليست أفريقيا التي تستطيع ذلك».

«نحن نعيش في العالم يابات، العالم بكامله. تفريقنا عن بعضنا

وعزلنا ـ كان هذا سلاحهم على الدّوام. فالعزلة تقتل الذرية والأجيال. وتظل بلا مستقبل».

«هل تعتقد أنهم لايحبون أولادهم؟».

داعب ميسنِر شفته العليا وأرسل تنهّدة طويلة:

«أظنّ أنهم يحبونهم حتى الموت».

مَدَّ المقنّعون أيديهم تحت الطاولة وهم ينحنون، ويقدّمون واجبات الاحترام، وأخرجوا مربعات كبيرة من الورق المقوى الطري، ألصقت عليها صور بعض المأكولات: «إليكم هذا، خذوه وانصرفوا من هنا». ألقوا صور الطعام على الأرض وأخذوا يضحكون ويرقصون. فتراجعت العائلات التقية كما لو ألقيت عليها أفاعٍ. أشاروا بأصابعهم، لوّحوا بقبضاتهم وأخذوا ينشدون: «سوف يمحقكم الله سوف يمحقكم». أيّد الجمهور ذلك مدندناً: «نعم، سيفعل ذلك. نعم، سيفعل ذلك».

«إلى غبار!» كانت هذه لون دوبريس.

«إياكم أن تخطئوا بحقه، إياكم».

«سوف يسحقكم أنعم من الطحين».

«قوليها يا لون».

«سوف يضربكم في اللحظة التي يختارها!».

وبالطبع ترنّحت الأقنعة وانهارت على الأرض، بينما كانت العائلات السبع تبتعد. شيء ما في داخلي يطرد الألم. شيء في قرارة نفسي لاأستطيع تفسيره. أصواتهم الخافتة ترافقها أصوات أقوى منها تنبعث من الجمهور، وعند النغمة الأخيرة كان عدد من الناس ليس بقليل يمسحون أعينهم. تجمّعت العائلات إلى يمين المسرح، كأنها في مخيم حول النار. أخذت الفتيات تهدهد الدمى. بعيداً هناك في المذود لم يكن هناك مهد من أجل «رأسه». وبكل هدوء دخل صبي إلى المسرح، وعلى رأسه قبعة واسعة ويحمل حقيبة من الجلد.

شكّلت العائلات نصف حلقة خلفه. جثا الصبي ذو القبعة على ركبتيه وأخرج من حقيبته بعض الزجاجات والعلب ورتّبها على الأرض. أراح الرب الصغير يسوع رأسه اللطيف.

تساءل ريتشارد: ما المشكلة؟ استمتع بالعرض وحسب، واترك بات وشأنها. كان يريد أن يناقش لا أن يجادل. تأمّل حركات الأولاد، بشيء من العطف في البداية، ثم باهتمام متزايد. اعْتَقَد أن الغاية هي إدخال السرور إلى نفس أكبر عدد ممكن من الأطفال، لذا كان هناك أربعة يؤدون دور صاحب النزل، وسبعة يؤدون دور مريم وسبعة دور يوسف. ولكن ربما كانت هناك أسباب أخرى. سبع عائلات مقدسة؟ لمس ريتشارد كتف بات: «من الذي رتّب هذا؟ أعتقد أنكِ قلت لي سابقاً إنّ هناك في الأصل تسع عائلات، فأين العائلتان المتبقيتان؟ ولماذا حكيم واحد؟ ولماذا يعيد الهدايا إلى حقيبته؟

«أنت لاتدري أين أنت، أليس كذلك؟».

«حسناً، ساعديني على تصوّر هذا المكان. أعرف أني غريب، ولكني لستُ عدواً».

«لا، لستُ كذلك. ولكنّ هاتين الكلمتين لهما المعنى نفسه في هذه المدينة».

نعمة مذهلة، وصوت عذب. تحت مطر من النجوم المصنوعة من الورق الذهبي، أرقدت العائلات الدمى، وضعت العصيّ وشكلت دائرة. أخذت أصوات الجمهور تدويّ مجتمعة. كنت تائهاً فيما مضى، ولكني وجدت نفسي الآن.

شعر ريتشارد بالمرارة تحلّ محلّ الغثيان فجعلته يغادر مقعده. فكر بأنه بعد عشرين أو ثلاثين عاماً، جميع أصناف الناس سوف

يطالبون بمنصب مركزي، إداري، مسيطر في حركات حقوق الزنوج. البعض منهم لديهم مبرِّر، ولكنّ معظمهم مخادعون. الشيء الذي لن يكون تكذيبُهُ ممكناً ولكنه سيبقى غير مرئي في الصحف والكتب التي يشتريها لتلاميذه، هم الناس العاديّون. البّواب الذي أطفأ الأضواء كيلا يتمكن رجال الشرطة من الرؤية، الجدّة التي أَوْدَعَتْ لديها الأطفال لكي تتمكّن الأمهات من الاشتراك بالمسيرة، نساء الأماكن النائية اللواتي يمسكن مناشف بيد وبندقية باليد الأخرى، الأطفال الصغار الذين يجلبون البطاريات الكهربائية والمأكولات للاجتماعات السرية، القساوسة الذين يخبّئون في الكنائس المتظاهرين الملاحَقين إلى أن تأتي المساعدة، المسنّون الذين يلتقطون أجساد الشبان المحطمة، والشبّان الذين يباعدون بين سواعدهم لحماية المسنّين من ضربات الهراوات التي لايستطيعون مقاومتها. والأهل الذين يمسحون البصاق والدموع عن وجوه أولادهم ويقولون: «لاتهتم يا حبيبي، لا تهتم لهذا فلست زنجيّاً، ولن تصير هرة، أو nigger أو coon أو ajig[*] أو أرنب الأدغال، ولاأي شيء من تلك الألقاب التي يعلّمها البيض لأبنائهم. فأنت ابن الله». نعم، بعد عشرين أو ثلاثين عاماً من الآن، سيكون هؤلاء الناس قد ماتوا أو نسيهم الآخرون، ولن تشكل قصصهم الصغيرة جزءاً من أية قصة كبيرة حتى ولامن هوامشها، رغم أنهم سيكونون المحور الذي يستند إليه أولئك الذين يظهرون على شاشة التلفزيون. والآن بعد سبع سنوات من اغتيال الرجل الذي كان سيسعده أن يحمل السيف بدلاً عن ذلك، فقد كان يقود قطيعاً لايعتقد فقط أنه أنبت المرعى الذي يرعى فيه، بل أنّ الأعشاب في أي مرج آخر مسمومةٌ. وبالنسبة لهم فإنّ الحلول التي يقترحها بوكر.ت.واشنطن[**] تحل في كل مرة المشاكل التي يطرحها «دوبوا»[***]. وفكر، أمّا من يكونون، أو اعتقادهم بأنهم مميزون فأمر قليل الأهمية، فالمجتمع الذي لايتمتع برؤية سياسية

(*) ألفاظ شعبية تطلق على الزنوج من باب التحقير.

(**) بوكر. ت. واشنطن: مدرس وكاتب أسود أميركي (1865 ـ 1915).

(***) ويليام. ي. ب. دوبوا: مؤرخ وقائد أسود أميركي (1868 ـ 1963).

محكوم عليه بالتفجّر مثل حطب جورجيا. كنت أعمى ولكني الآن أصبحت أرى.

«هل هم هكذا؟» لفظت هذه العبارة كسؤال، ولكنها بالنسبة لبات كانت تشبه الخاتمة.

قالت: «إنهم أفضل مما تظن».

فصحَّح لها: «إنهم أفضل مما يظنّون «هم» فلماذا يقنعون بهذا القدر القليل؟».

«هذا وطنهم. وطني أيضاً. والوطن ليس شيئاً قليلاً».

«أنا لاأقول هذا. ولكن ألا تستطيعين حتى أن تتخيلي ماهو شعور المرء إذا كان له وطن حقيقي؟ لاأتكلم عن السماوات. أتكلم عن وطن حقيقي على الأرض. وليس عن حصنٍ اشتريناه أو بنيناه وعلينا أن نحتفظ به مغلقاً على من في داخله أو من في خارجه. وطن حقيقي. وليس مكاناً ذهبنا إليه واحتللناه بعد أن ذبحنا من كانوا يقيمون فيه للمحافظة عليه. ليس مكاناً طالبنا به واستولينا عليه لأننا كنا نملك السلاح. ليس مكاناً سرقناه من الناس القاطنين فيه، بل مكاننا الخاص، إذا عدنا إلى ماقبل أجداد أجدادنا. وأجداد أجداد أجداد هؤلاء قبل كل تاريخ الغرب وقبل بداية المعرفة المنظّمة، قبل الأهرامات والسهام المسمومة، إلى الوقت الذي كان فيه المطر جديداً، قبل أن تنسى النباتات بأنها تستطيع الغناء وتفكر الطيور بأنها كانت أسماكاً، إلى حيث قال الله: هذا جيد! هذا جيد ـ هناك، بالضبط هناك، حيث نعرف أنّ ذوينا ولدوا. عاشوا وماتوا. تخيلي يابات. ذلك المكان. وإلى من كان يتحدّث الله إن لم يكن إلى شعبي الذي كان يعيش في وطني؟».

«أنت تلقي موعظة، أيها المحترم».

«لا، أنا أتحدث إليكِ، يابات، أتحدّث إليكِ».

دوّى التصفيق الأخير عندما كسر الأطفال الحلقة واصطفّوا

ليقدموا التحية. نهضت آنّا فلود في الوقت الذي نهض فيه الجمهور، وشقت طريقها إلى المكان الذي تقف فيه بات وريتشارد مفعمين بالحيوية بعيون مقفلة. وكانت المرأتان موضوع مساومات لمعرفة أيهما يفضل القسّ الجديد، الشاب، الوحيد والرجل الوسيم. وكانت آنّا وبات المرأتين الوحيدتين، في سنّ متقدمة نوعاً ما دون زوج وجاهزتين للزواج. بدا القس الجديد مضطراً لأن يختار إحدى الاثنتين إلّا إذا كان يفضل المرأة الأصغر سنّاً بكثير. قبل سنتين من ذلك كانت آنّا هي الفائزة ـ بدت واثقة من ذلك حتى الآن. ولذلك فقد تقدمت نحو ريتشارد بابتسامة عريضة آملة تجميد ألسنة أولئك الذين ربما ظنوا بأن الأمر مختلف وهم يرونه يفضل مرافقة بات على مرافقتها أثناء مسرحية عيد الميلاد. كانا يتبادلان الغزل برويّة وحذر ولايلمس أحدهما الآخر علناً. وعندما كانت تُحضّر له عشاءه، تتأكد من أنّ منزله تسطع جميع أنواره وكان يوصلها إلى منزلها بالسيارة في السابعة والنصف لكي يستطيع كل سكان روبي رؤيتهما. لكن لأنه لم يحدّد بعد أي تاريخ فإنّ الألسنة قد بدأت تصبح ضجرة. ومع ذلك، فهناك أمر يشغل بالها أكثر من سلوكهما اللائق: البريق في عين ريتشارد، إنه يبدو لها أقل توهجاً هذه الأيام. كما لو أنه خسر معركة تتوقّف عليها حياته.

وصلت قربه تماماً في الوقت الذي كان فيه الجمهور يتدافع متّجهاً نحو موائد الطعام، والجميع يثرثرون ويضحكون.

قالت آنّا: «مرحباً يابات. ماذا حدث لك ياريتشارد؟».

أجاب: «كنت مريضاً مثل كلب لدقيقة، تعالي سنقوم بجولة قبل أن يعاودني ذلك».

ودّعا بات وتركاها تقرر فيما إذا كانت تريد التحدّث إلى الأهل السعداء، أم تنصرف إلى الاهتمام بموائد الطعام، أم تغادر المكان. وقد قررت تنفيذ الحل الأخير عندما لحق بها كارتر سيرايت وداس على قدمها.

«أوه، اعذريني آنسة بيست، أنا آسف».

«لابأس ياكارتر، ولكن اهدأ قليلاً».

«نعم ياسيدتي».

«ولاتنس، بعد العطلة تماماً، أنت وأنا، لدينا درس في فن الماكياج. في السادس من كانون الثاني هل تسمع؟».

«سأكون هناك، ياآنسة بيست».

«هل فعلاً ستكون هناك؟».

«نعم ياسيدتي. آنسة بيست، سأكون هناك».

في المطبخ حيث كانت بات تسخّن الماء لتحضير الشاي، أغلقت باب الخزانة بعنف، فقعقعت الفناجين. كان هذا عبارة عن قرعة. لمعرفة مَنْ هو الذي أغاظها سلوكه أكثر، آنّا أم هي. على الأقل، إنها تفهم آنّا التي تحمي مصالحها. ولكن لماذا دافعت هي عن أناسٍ وأمور وأفكار بانفعال لم تكن تشعر به؟ جَعَلَها السرورُ العميقُ المثير للانفعال الذي قابلَ به الجمهورُ المسرحية تشعر بالقرف. كل هذه الترّهات التي نَمَتْ معها بَدَتْ لها ذريعة للكراهية. وريتشارد مصيب بطرحه هذا السؤال: لماذا سبع عائلات وليس تسع عائلات؟ ظلت بات ترى المسرحية طيلة حياتها، مع أنهم لم يختاروها أبداً إلّا للجوقة. كان ذلك في الزمن الذي راحت فيه سوان تعلّم في المدرسة ـ حتى قبل أن تكون قد لاحظت فردانية العدد. وبعد ذلك ببعض الوقت لاحظت أن عدد الأسر لم يعد سوى ثمانية. وحين علمت أن عائلة كاتو قد حذفت، حدث أيضاً إلغاء آخر. مَنْ؟ هناك عائلتان فقط لاتعتبران في عداد العائلات التسع الأصلية، ولكنهما وصلتا إلى هاڤن باكراً لتُصبحا في عداد الشركاء هما: آل جوري (وإن كان حفيدهم هاربر تزوج إحدى فتيات بلاكهورس بالأصل ـ وهذا حسن بالنسبة له) ووالد أبيها: فولتون بيست. لم تُعَدَّا من العائلات التي كانت موجودة في الأصل، إذن بمن يتعلق الأمر؟

بالتأكيد ليس بآل فلود إذا تزوجت آنّا ريتشارد ميسنِر. ألا يؤخذ هذا بعين الاعتبار؟ وهل يتمكن ريتشارد من إنقاذ ذرية آل فلود؟ أم المقصود هم آل بول بسبب بيلي ديليا؟ لا، كان يوجد حمولة سفن من الذكور في هذه العائلة. وسيكون هذا هو الدليل على مداعبات أبولو وبرود، ولكن إذا كان يقصد بذلك أن يكون رادعاً، فإنّ آل مورغان أنفسهم كانوا يتعرضون لخطرٍ جسيم حتى تزوج «K.D.» من آرنيت. وإذا أنجبت آرنيت ابناً وليس ابنة، فكم سيصبح وضعهم أكثر أمناً. كذلك وضع آل فليتوود. ولأنّ جِف وسويتي لم يبدوا في المستوى المطلوب، فقد وجهت آرنيت الانتقاد للأسرتين.

كان الشاي جاهزاً، انحنت بات فوقه مقطّبةً حاجبيها، مستغرقةً بمشكلتها لدرجة أنها لم تسمع روجر يدخل قبل أن يظهر بالباب.

قال: «لقد غادرت باكراً جداً. غنّينا بعد انصرافك».

«نعم؟ أوه! حسناً». واستطاعت بات أن تبتسم.

«كان ينقص بعض الكعك اللذيذ» تثاءب. «جُمِعَ قَدْرٌ جيد من التبرعات من أجل «لون» بعد ذلك. ياإلهي، إنها مجنونة». هزّ روجر رأسه وابتسم لأنه أكثر تعباً من أن يستطيع الضحك. «ولكنها كانت جيدة في شبابها». التفت لينصرف قائلاً: «حسناً، ليلتك سعيدة ياطفلتي. عليّ أن أنطلق غداً في وقت مبكر».

قالت له بات وهو يهمّ بالانصراف: «دادي!».

«اهاهه! ماذا؟».

«لماذا غيّروا؟ كان يوجد في المسرحية تسع عائلات. ثم ثماني خلال سنوات وسنوات. والآن سبع».

«عمّ تتحدثين؟».

«أنت تعرف».

«لا، لاأعرف».

«المسرحية. كيف تناقص عدد العائلات النقية؟».

«إنها كيت التي تفعل كل هذا. وناثان. أعني إنهما يختاران الأطفال. ربّما لم يكن هناك مايكفي من الأطفال لتمثيل العدد المعتاد».

«دادي». لابدّ أنه تبينّ الشك في صوتها.

«ماذا؟» وإن فهم ذلك، فإنه لم يُظهر مايدل عليه.

«كان الأمر يتعلق بلون البشرة، أليس كذلك؟».

«ماذا؟».

«الطريقة التي يُنتقى بها الناس ويُصنّفون في هذه المدينة؟».

«أوه، لا. حسناً، الواقع بأنّ البعض ربما اغتاظوا قليلاً... منذ زمن طويل. ولكن ليس هناك خطورة في هذا الأمر».

«لا؟ ماذا قال ستيوارد عندما تزوّجت؟».

«ستيوارد؟ أوه، حسناً، إنّ آل مورغان جديون جداً في الأمور التي تتعلق بهم. وأكثر مما ينبغي أحياناً».

نفخت بات على فنجانها.

نظر إليها روجر وهو صامت ثم عاد إلى موضوع أقل إزعاجاً:

«أنا وجدت المسرحية جميلة جداً، ولكن يجب عمل شيء ما لـ ناثان فهو لم يعد أفضل سكين مشحوذة في الدرج». ثم بعد تفكير: «ماذا أراد المحترم مِيسنير أن يقول لك؟ بدا الأمر في الأساس جدياً بشكل غريب».

قالت دون أن ترفع نظرها: «لقد تحدّثنا... تحدثنا فقط».

«هل حدث بينكما شيء، أنتما كلاكما؟».

«دادي، أرجوك».

«لاضير في السؤال، أليس كذلك؟» انتظرَ جواباً، وحين لم يحظَ به، انصرف متمتماً بشيء ما حول الفرن.

بلى، هناك ضير في السؤال. شربت بات الشاي بالملعقة، وهي شديدة الانتباه. اسألْ ريتشارد مِيسنر اسأله عمّا فعلته له للتوّ، أو

مايفعله له الجميع. فعندما يطرح أسئلة، لايقال له إلّا ماهو بديهي وسطحي. وأنا أعرف مايشعر به الناس أكثر من أيّ كان. فنحن لسنا في حالة جيدة بما يكفي حتى يمثلنا أطفالٌ في الثامنة من العمر على المسرح.

بعد خمس عشرة دقيقة كانت بات تقف في الحديقة على مسافة سبعين ياردة من قبر ديليا. كان البرد قد حلّ مع المساء ولكنّ الطقس لم يكن طقس ثلج. كانت أوراق نعناع الليمون مجعّدة ولكن جُفَنَ الخزامى والمريمية ظلت سليمة ومعطرة. لارياح تقريباً واستطاعت السيطرة بسهولة على النار في برميل الزيت القديم. وألقت إضبارات الكرتون وبعض الأوراق ـ المربوطة أو المتطايرة ـ الواحدة بعد الأخرى في اللهب. كان عليها أن تقتلع أغلفة دفاتر الإنشاء وتضعها بشكل منحرف بوساطة عصا كيلا تطفئ النار. أخذ الدخان يلهب عينيها، فتراجعت وقطفت حزمة من الخزامى ألقتها أيضاً في النار. استغرق منها هذا العمل بعض الوقت، ولكنها أخيراً أدارت ظهرها إلى الرماد وعادت إلى البيت تاركة في الطريق خلفها رائحة خزامى محروقة. غسلت يديها على حوض جلي المطبخ وبلّلت وجهها. أحست أنها نظيفة. وربّما لذلك أخذت تضحك بهدوء في البداية، ثم بصوت عالٍ وقد ردّت رأسها إلى الوراء وهي تجلس أمام المنضدة. أيعتقدون حقاً أنهم يستطيعون الاستمرار هكذا؟ الأعداد، الذرّيات، ومسألة مَنْ يضاجع مَنْ؟ ولتستمر جميع سلالات الـ (R-8) لكي تنتهي مشدودة إلى بعضها مثل كبة من الشريط الحديدي؟ حسناً، ربما استطاعوا أو كان عليهم البقاء على قيد الحياة لأنّ لاأحد يموت في روبي.

مسحت عينيها وتناولت فنجانها. كانت أوراق الشاي ملتصقة في القاع. تضيف قليلاً من الماء المغلي. وتترك الأوراق السّوداء تنتقع فربما تعطي مزيداً من نكهتها. أيضاً وأيضاً. حتى. حسناً الآن، ماذا تعرفين؟ كان الأمر واضحاً كالماء. ليس على الأجيال ألّا تختلط عرقياً وحسب، بل لاينبغي أيضاً أن يمسّها الزنى. «فليبارك الله الطاهرين والقديسين». وفعلاً هكذا كانت طهارتهم قداستهم.

وهكذا كانت الصفقة التي عقدها زكريا عندما كان يدندن بصلاته. لم تكن «غضبة الله» هي التي يجب خشيتها، بل غضبة كل فرد منهم، غضبتهم التي يجب أن يخشوها. لهذا السبب جعلتهم عبارة «كونوا غضبة الله» يصابون بالجنون؟ ولكنّ الصفقة لابد أن تكون قد فُسخت أو عُدِّلت، لأنهم الآن لم يعودوا سوى سبع عائلات. مِنْ قِبَل مَنْ؟ على الأرجح آل مورغان. إنهم يديرون كل شيء ويتحكّمون بكل شيء. وما هو الاتفاق الجديد الذي عقده التوأمان ديكون وستيوارد؟ أيعتقدون حقاً أنّ لاأحد يموت في روبي؟ فجأة فكرت بات أنها أصبحت تعرف كل شيء. لن يحتفظ دم (R-8) النقي من التزاني والزنى بسحره إلّا بقدر ما يبقى في روبي. تلك كانت وصفتهم، تلك كانت صفقتهم من أجل الخلود.

بدرت من بات ابتسامة محتالة، وفكرت: في هذه الحالة، كل مايقلقهم لابدّ أن يأتي من النساء.

ثم تمتمت:

«أيها الرب العزيز، أيها العزيز، أيها الرب العزيز. لقد أحرقتُ كلّ الأوراق».

كونسولاتا

في الظلام النظيف الجيد للقبو، استيقظت كونسولاتا وهي تشعر بخيبة أمل تكاد تمزّقها لأنها لم تمت في الليلة السابقة. وصباح كل يوم تتحطم جميع آمالها، فتظلّ مستلقية على سرير صغير في القبو الأرضي متقزّزة من وجودها الشبيه بوجود البزّاق، لاتستطيع أن تمضي كل ساعة منه إلّا وهي تحتسي زجاجات سوداء تحمل أسماءً أنيقة. ثم مساء كل يوم تستغرق في نوم عميق مصممةً أن يكون الأخير، آملة أن تهبط قدم ضخمة فتسحقها كما تُسحق حشرة الحدائق المؤذية.

فبعد أن أصبحت محتجزة في حيزٍ ضيق كالتابوت، منذورةً للظلام، محرومة منذ زمن طويل من أية شهية، لاتأمل سوى النسيان، أخذت تبذل جهداً كبيراً لفهم هذا التأخير. «من أجل ماذا؟» كانت تسأل. ولم يكن صوتها سوى أحد الأصوات التي تملأ القبو من جسور السقف حتى الأرضية الحجرية. كانت تصعد إلى فوق عدة مرات في الأسبوع، أثناء الليل أو في الوقت الظليل من النهار، فتخرج إلى الحديقة، تقوم بجولة، ترفع نظرها نحو السماء لترى النور الوحيد الذي تستطيع أن تتحملّه. كانت إحدى النساء، ماڤيس عادةً، تلحّ على مرافقتها. كانت تتكلّم، تتكلّم، تتكلّم طيلة الوقت. أو تأتي اثنتان من النساء غيرها لاحتساء الزجاجات المغطاة بالغبار، ذات الأسماء الأنيقة ـ «جارناك»، «ميدوك»، «هوت بريون»، «سانت

إيميليون» ـ وهذا يسمح لها أن تصغي لهن، بل وتجيب على أسئلتهن في بعض الأحيان. وباستثناء ماقيس التي كانت أقدمهن هناك، أصبح تمييز البقيّة يزداد صعوبة. نسيت الجانب الأساسي مما كانت تعرفه عنهن، وبدا لها أن تذكّر ذلك يصبح أقل أهمية باستمرار، لأنّ نبرة أصواتهن تروي القصة نفسها: فوضى، خداع والأمر الذي كانت الأخت روبِرتا تُحذّر الفتيات الهنديات الصغيرات منه: التهور. وهي الحدود الثلاثة التي ترصف طريق الهلاك والتي أهمها التهور.

جئن خلال الثماني سنوات السابقة. الأولى: ماقيس جاءت أثناء مرض الأم الرئيسة الطويل، والثانية بعد موتها بالضبط. ثم جاءت اثنتان، وكل واحدة منهن طلبت الإذن بالإقامة بضعة أيام، ولكن في الحقيقة دون أن ترحل أبداً. ومن وقت لآخر كانت واحدة منهنّ تدس بعض الحاجيات في حقيبة صغيرة رثّة وتقول وداعاً، وتغيب لبعض الوقت ـ لكن لبعض الوقت وحسب. كنّ يرجعن دائماً لكي يمكثن، وليعشن كالفئران في منزل لايرغب فيه أحد، حتى ولاجابي الضرائب، مع امرأة عاشقة للمقبرة. كانت كونسولاتا تنظر إليهن عبر عدسات نظاراتها الشمسية، البرونزية أو الرمادية أو الزرقاء، فترى فتيات محطّمات، خائفات، ضعيفات وكاذبات. عندما كانت تحتسي مشروب الـ «سانت إيميلون» أو الـ «جارناك» بطعم الدخان، تستطيع عند ذلك التسامح معهن وتحمّلهن، ولكنها راحت تشعر برغبة متزايدة بأن تقصف لهنّ رِقابهن، أو أي شيء آخر لكي تضع حداً لذلك الطعام السيئ الطبخ الذي يصعب هضمه. ولذلك الطّرْق المستمر لتلك الموسيقا، للمشاجرات، وللضحكات الجوفاء والمبحوحة، وللمطالبات، ولكن، بصفة خاصة، عمليات التهور. كان يمكن أن تسحق لهن الأخت روبِرتا أيديهنّ. فهنّ لايقمن إلّا بالعمل الضروري وحسب، وليس لديهن أي مشروع يفكرن به، وبدلاً من ذلك لديهن بعض الرغبات ـ رغبات بليدة لفتيات صغيرات. ولم تكن ماقيس تكف عن الحديث عن مشاريع يمكن أن تدرّ النقود بشكل مؤكد: خلايا نحل، مشروع يسمى: «سرير وإفطار»، تجارة تقديم الطعام، ملجأ للأيتام. أما إحداهن فتظنّ أنها وجدت صندوق كنزٍ

طافحاً بالنقود أو بالمجوهرات أو بأشياء أخرى وتريد المساعدة لتغش الاخريات حول محتوياته. ثم هناك فتاة أخرى تشطّب فخذيها وذراعيها سراً. وترغب أن تصبح ملكة الندبات فتُحدث جروحاً صغيرة في بشرتها بأي شيء يقع في متناول يدها: موسى حلاقة، دبوس أمان، سكين تقليم. وفتاة أخرى تشعر بالحنين إلى مايشبه نوعاً من حياة الكباريهات، إلى مكان يغصّ بالرواد حيث تستطيع أن تغني الأغاني الحزينة وهي مغمضة العينين. كانت كونسولاتا تصغي لتلك الأحلام الطفولية للفتيات بانغماس في الخمر فهن لايغظنها بمقدار ما تغيظها همسات حبهن التي تبقى طويلاً بعد ذهابهن. وكانت الواحدة بعد الأخرى تتسلّل إلى أسفل الدرج حاملة شمعة أو مصباح كيروسين، كعذراوات يدخلن إلى معبد أو إلى سرداب كنيسة، ليجلسن على الأرض ويتحدثن عن الحب، كما لو أنهنّ يعرفن عنه شيئاً. ويتحدّثن عن رجال يأتون لمداعبتهن أثناء نومهنّ. رجال ينتظروهنّ في الصحراء أو قرب نبع ماءٍ بارد، رجال أحبوهنّ فيما مضى دون أمل، أو رجال كان يفترض أن يحبوهنّ، وربما أحبوهنّ، أو كان يمكن أن يحبّوهنّ.

وفي أسوأ أيامها، عندما يدنّس الانحطاطُ الشديد نظافةَ الظلام، كانت تريد أن تقتلهنّ جميعاً. ربما لذلك كانت حياتها كبزّاقة تستمر طويلاً. مثل الهدوء البارد لغضب الرب. الموت دون الحصول على غفران الله يحكم على روحها بالعذاب. ولكن الموت دون مغفرة ماري ماغنا فذلك يدنّسها إلى دهر الداهرين. ربما منحتها الغفران، لو أنّ كونسولاتا أخبرتها في الوقت المناسب، لو أنها اعترفت قبل أن تصبح روح المرأة العجوز متلاشية رتيبة. في ذلك اليوم الأخير صعدت كونسولاتا إلى السرير خلفها وبعد أن ألقت الوسائد على الأرض، رفعت الجسم الخفيف كالريشة فوق ذراعيها وبين ساقيها. فاندسّ الرأس الصغير الأبيض بين نهدي كونسولاتا ودخلت السيدة في الموت وكأنه ولادة، ترافقه هدهدات وصلوات للمرأة التي اختطفتها وهي ماتزال طفلة. الواقع أنها اختطفت ثلاثة أطفال، وهذا من أسهل الأشياء في العالم عام 1925 . لم تكن ماري ماغنا في ذلك

الوقت سوى راهبة، وليست رئيسة، وقد رفضت بإصرار أن تترك طفلين على كومة القمامة حيث هما جالسان. فالتقطتهما بكل بساطة وأخذتهما إلى المشفى الذي كانت تعمل فيه ونظفتهما، مستخدمة على التوالي بيكاربونات الصوديوم، مستحضر «Ordorno» ثم «Glovers Mange» ثم صابون فكحول ثم مرهم أزرق ثم صابون فكحول وبعده صبغة اليود التي وضعتها برفق على جراحهما. بعد ذلك ألبستهما الثياب، وبمساعدة بقية راهبات البعثة أعادتهما معها على السفينة. ست راهبات أميركيات عائدات إلى الولايات المتحدة بعد اثنتي عشرة سنة عوملن خلالها معاملة سيئة من قبل رهبانيات برتغالية أكثر قِدماً وقساوة. لم يطرح أحد أسئلةً على الأخوات «المكرسات للهنود والملونين» اللواتي دفعن من جيبهن قيمة ثلاث بطاقات سفر بأسعار مخفّضة لأطفال ليسوا من البيض الفقراء يقيناً موجودين في عهدتهم. لأنهن أصبحن ثلاثاً الآن، فَقبولُ كونسولاتا جاء نتيجة قرارٍ اتُّخِذَ في آخر لحظة لأنها كانت قد بلغت التاسعة من العمر. وبالنسبة للجميع كان الاختطاف يعتبر عملية إنقاذ، لأنه أيّاً كانت الحياة التي تدفعهن إليها الراهبة العنيدة الساخطة فإنها ستكون أفضل مما ينتظرهن في الأزقة التي تغطيها القاذورات في تلك المدينة. عندما وصلن إلى بويرتو ليمون وضعت الأخت ماري ماغنا اثنتين في أحد المياتم، لأنها في ذلك الوقت وقعت في حب كونسولاتا. العينان الخضراوان؟ الشعر بلون الشاي؟ ربّما وداعتها ولين عريكتها؟ ربما بشرتها التي بلون الدخان وغروب الشمس؟ اصطحبتها كيتيمة قاصر إلى المركز الذي عينت فيه الآن الراهبة المتشدّدة ـ ملجأ داخلي للفتيات الهنديات يقع في القسم المعزول من غرب أميركا الشمالية.

وعلى لوحةٍ وضعت قرب الطريق المؤدّي إلى المدخل، تقرأ هذه العبارة التي كتبت بحروف بيضاء على خلفية زرقاء: «مدرسة المسيح الملك للفتيات المحلّيات». ربّما كان على جميع الناس أن يسمُّوا المكان بهذا الإسم، ولكن كما تتذكّر كونسولاتا فإنّ الراهبات وحدهنّ كنّ يستعملن اسمه الحقيقي ـ وخاصة في صلواتهنّ. وعلى

نقيض كل منطق، كان التلاميذ وموظفو الدولة والناس في المدينة يسمونه: الدير.

عملت كونسولاتا طيلة ثلاثين سنة بجدٍّ ونشاط، لكي تصبح وتظل موضع اعتزاز ماري ماغنا وهو أحد الانجازات الباهرة والفريدة في حياة تلك التي كرّست نفسها للتعليم، والتربية، والعناية الصحية في أماكن تحمل أسماءً لم يسمع بها أهل الراهبة نفسها، وعجزوا عن ترديدها عندما لفظتها ابنتهم. كانت كونسولاتا تخصها بنوع من العبادة. بعد أن سُرقت واقتيدت إلى المشفى، غرزوا لها إبراً في ذراعيها، ليحموها ـ كما قالوا ـ من الأوبئة. وهي تتذكّر المرض الشديد الذي تبع ذلك كأنها تتذكر شيئاً مستَحَبّاً لأنها وهي نائمة في قسم الأطفال، راح يسهر عليها وجه جميل محاط بإزار ذي عينين زرقاوين ازرقاق بحيرة، ثابتتين، صافيتين، ولكن تشوبهما مسحة من الرعب والقلق الذي لم تر كونسولاتا مثله في حياتها أبداً. كان هذا يستحق أن تمرض لأجله، بل وأن تموت، لكي ترى هذا النوع من الاهتمام في عيني راشدٍ. ومن وقت لآخر كانت المرأة ذات الوجه المحاط بإزار تمدّ يدها لكي تلمس جبين كونسولاتا بظاهر أصابعها أو لتجفّف شعرها المبلّل والمشعّث. اللؤلؤات الزجاجية المعلّقة على خصرها أو التي تحملها بيديها راحت تتلألأ. كونسولاتا كانت تعشق تلك اليدين: الأظافر المستوية وبشرة الراحتين الناعمة والمشدودة. وتعشق الفم الجدّي، والذي لم يكن بحاجة أبداً للكشف عن أسنانه ليشعّ بالسعادة أو بالرفق والتسامح. كانت كونسولاتا ترى نوراً بارداً وأزرق يلتمع بهدوء تحت ملابسها، فتظن أنّ ذلك يصدر عن قلبها.

ومن المشفى ذهبت كونسولاتا مباشرة، وهي ترتدي فستاناً نظيفاً بني اللون يصل حتى كاحليها، برفقة الراهبات على سفينة تدعى: «أتيناس». وبعد التوقف في بنما نزلن في نيو أورليانز، ومن هناك سافرن في سيارة، في قطار، في باص ثم في سيارة أخرى. والسحر الذي بدأ مع وخزات الإبر في المشفى أخذ يتكاثر: دورات مياه يجري فيها ماء نظيف إلى درجة أنه صالح للشرب، خبز طري

وأبيض قُطِّع شرائح وغُلّف بعناية، حليب في زجاجات، وطيلة النهار وكل يوم اللغة الرائعة التي صنعت خصّيصاً للتحدث إلى السماء: صلي لأجلنا يا ممتلئة نعمةً ليتقدس اسمك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض لكن نجّنا من الشرير، من الشرير، من الشرير. فقط عندما وصلن إلى المدرسة تسلل السحر إليهن. ومع أنه لا شيء في الأرض يدل عليه، كان البيت يشبه قصراً، يغص بالجمال الذي قالت عنه ماري ماغنا إنه يجب إزالته في الحال. كانت أولى مهام كونسولاتا تقضي بتحطيم التماثيل الرخامية المعادية والاهتمام بالنار الموقدة في الكتب، راسمة إشارة الصليب عندما تبرز من الموقد صور عشّاق عاريين وكان عليها أن تعيدها إلى النار. كانت كونسولاتا تنام في غرفة المؤن، تنظف البلاط، تطعم الدجاج، تصلّي، تقشّر الخضار، تعتني بالحديقة، تهيء بعض المعلبات وتغسل الملابس. وهي، لاأحد غيرها، التي اكتشفت الدغل الكثيف من النبات البري المحمّل بالفليفلة الحارّة اللاذعة، فراحت تزرعه. ثم علّمتها الأخت روبرتا بعض مبادئ فن الطبخ، فتعلمت منه مايكفي لكي تعمل في المطبخ والحديقة. كانت تواظب على الدروس مع الهنديات ولكنها لم ترتبط بعلاقة صداقة مع أيّ منهنّ.

لقد قدّمت جسدها وروحها كليَّةً طيلة ثلاثين سنة لـ ابن الرب ولـ أمه كما لو أنها هي نفسها قد ارتدت ثوب الرهبنة. لها هي ذات القلب النازف والحب الذي لا قرار له، والذي بلا دنس حبلت به الطوباوية البتول مريم العذراء. لها هي صاحبة الطريق الضيق ولكنه معطّر بحلاوة الريحان والصعتر. له هو الذي كان كامل الحب فيُصعق به الحكماء والملعونين. له هو الذي جعل من نفسه بشراً لكي نتمكن من معرفته ولمسه ورؤيته بأبسط السبل. جعل من نفسه بشراً لكي تعكس آلامُه آلامنا، ولكي تستطيع سَكَراتُ موتِهِ، شكوكُهُ، يأسُهُ، وإخفاقُهُ، أن تشهد وتخفف ما نتعرض له أثناء مرورنا على هذه الأرض. وتلك الثلاثون سنة من تكريس النفس لله الحي طقطقت كبيضة دجاجة عندما التقت بالرجل الحي.

كان ذلك عام 1954 . حين راح الناس يبنون بيوتاً، ويُسَوِّرون

الحقول، ويحرثون الأرض على بعد حوالى سبعة عشر ميلاً إلى الجنوب من مدرسة المسيح الملك. كانوا قد بدؤوا ببناء مخزن للأغذية وبقالية وصيدلية، فرحت بها كثيراً ماري ماغنا لأنها أقرب من تلك التي تقع على تسعين ميلاً. هناك سوف تستطيع أن تشتري منها لفافات القطن المعقّم من أجل حيض الفتيات، والإبر الرفيعة والخيطان رقم 60 كي تشغل الفتيات في ترقيع الملابس مرة بعد مرةً، ورتق «ليديا بنكهام»، وكذلك مسحوق «ستان باك» وكلوريد الألمنيوم الذي تصنع منه مادة مزيلة للروائح.

وفي إحدى هذه الرّحلات التي رافقت فيها كونسولاتا ماري ماغنا، في سيارة المدرسة الميركوري الستيشن قبل وصولهما إلى الطريق الذي شق حديثاً، بدا واضحاً أنه قد حدث شيء ما. شيء جامح يحدث تحت الشمس اللاهبة. سمعتا هتافات تنمّ عن الفرح، وبدلاً من الثلاثين شخصاً المنهمكين بهدوء ببناء مدينة، رأتا خيولاً تعدو بسرعة وجمهوراً يصرخ ضاحكاً. فتيات صغيرات، زُيِّنت شعورهن بزهور حمراء وأرجوانية يقفزن في المكان. وشاب تعلّق بعنق حصانه، محمول على الأكتاف وقد اعتُبِرَ فائزاً. وبعض الشبان والفتيان يقذفون قبعاتهم في الهواء، ويطاردون الأحصنة وهم يمسحون عيونها الطافحة بالدموع. وبينما كانت كونسولاتا تراقب هذه الفرحة اللاهية، سمعت صوتاً خافتاً ولكنه ملحّ، يردد: تشا تشا تشا، تشا تشا. ثم مرّت بذهنها ذكرى بَشَرةٍ ورجالٍ مثل هؤلاء تماماً يرقصون مع نساءٍ في الشوارع على إيقاع موسيقا تتردّد كوجيب قلبٍ غاضب. الجذوع ثابتة، والأرداف تصنع دوائر صغيرة فوق سيقانٍ تتحرك بسرعة كبيرة لدرجة يبدو معها أنه لاجدوى من محاولة أحدٍ أن يفهم كيف تكون مثل هذه الرشاقة ممكنة. ولكن الرجال هنا لايرقصون على أية حال، بل يضحكون، يركضون، يصيحون بأشياء فيما بينهم، ومع النساء اللواتي تمايلن من الضحك والفرح.وعلى الرغم من أنهم كانوا يسكنون هناك في قرية صغيرة وليس في مدينة صاخبة تغصّ بالسّود ذوي البشرة اللامعة، فقد أدركت كونسولاتا أنها تعرفهم.

مضى بعض الوقت قبل أن يهتم الصيدلاني بماري ماغنا. خرج أخيراً من بين الجمهور وعاد معهما إلى منزله، حيث كان جانب مغلق من الشرفة يستخدم كصيدلية. فتح الباب المنخلي، أحنى رأسه بتهذيب داعياً ماري ماغنا للدخول. كانت كونسولاتا تنتظر على الدرج عندما رأته للمرة الأولى. تشا تشا تشا. شاباً نحيلاً يمتطي حصاناً ويجرّ آخر. قميصه الكاكي مبلّل بالعرق، وفي إحدى اللحظات خلع قبعته الواسعة ليجفف عرق جبينه. كان ردفاه يتمايلان على السرج من الوراء إلى الأمام، من الوراء إلى الأمام. تشا تشا تشا. تشا تشا. رأت كونسولاتا مظهره الجانبي، فأحسّت بجناح مكسوٍ بالريش يُبعث حياً ويخفق في داخلها. تابع طريقه واختفى في مرتع الأبقار. خرجت ماري ماغنا ومعها مشترياتها متذمّرة بعض الشيء من أمر أو من آخر - السعر، النوعية - وأسرعت نحو السيارة. فتبعتها كونسولاتا تحمل لفافات القطن الطبي مغلّفةً بورق أزرق. وفي اللحظة التي فتحت فيها باب السيارة مرّ ثانية. كان يركض مسرعاً ليلحق بالمجموعة التي كانت تحتفل في مكان غير بعيد من هناك. وبالمصادفة، ودون اهتمام، التفت نحوها. ونظرت كونسولاتا إليه أيضاً واعتقدت أنها لمحت تردّداً في عينيه وربما في خطواته أيضاً. اندسّت بسرعة في الميركوري السّاخنة وبدت الحرارة كأنها تفسّر صعوبة التنفس التي شعرت بها. لم تره بعد ذلك طيلة شهرين - وهي فترة جعلها شيءٌ مكسوٌ بالريش، راح يناضل ليفرد جناحيه، متقلّبةً. شهران من الصلوات الحارّة ومن الانتباه الخاص في أعمالها الكثيرة المرهِقة. شهور من التوتر أيضاً، لأن الأمر صدر بإغلاق المدرسة. مع أن هِبات المرأة الثرية جداً التي أسّست وموّلت هذه الأخوّة الرهبانية، بقيت صامدة في الثلاثينات ولكنها نفدت في الخمسينات. والفتيات الهنديات اللطيفات والجميلات رَحَلْنَ منذ زمن طويل - بعد أن استعادتهنّ أمهاتهنَ أو أخوتهن أو أنّهنّ التحقن بالرهبنة وحياة التقوى. فمنذ ثلاث سنوات، والمدرسة تطلب الرعاية من الدولة: فتيات وقحات يعتقدن بشكل

واضح أنّ الراهبات ينصرفن معظم الوقت إلى الهزل والمجون، والباقي في الشؤم. اثنتان سبق أن هربتا، ولم يبق منهن سوى أربع. وإذا لم تتوصّل الراهبات إلى إقناع الولاية بأن ترسل لهنّ (وتدفع من أجل) فتيات هنديات فاسدات ومنحرفات جدد، فإنّ الأوامر كانت تقضي بالاستعداد للإغلاق أو التخصص بعمل آخر. ومن المؤكد أنّ الولاية لديها مُعاقات، لأن كلمة إعاقة تعني كل شيء، بدءاً من تبليل الفراش، إلى الهرب من الدروس، والتأتأة في الصف، ولكنها تفضل أن تعهد بهن إلى مدارس بروتستانتية حيث يستطعن فيها أن استيعاب ملابس المعلمات إذا لم يستوعبن سلوكهنّ الديني. ففي أوكلاهوما كانت المدارس والكنائس الكاثوليكية نادرة الوجود كأجربة السمك. وهذا يفسّر لماذا اشترت تلك المرأة المحسنة ذلك المنزل أصلاً. إنها فرصة للتدخل في لبّ المشكلة: تعريف سكان البلاد الأصليين بالله وباللغة، إذ يُفترض أنهم محرومون منهما، وتغيير عادات طعامهم وملابسهم وطريقة تفكيرهم ومساعدتهم على احتقار كلّ ماسبق أن أعطى قيمةً لحياتهم في الماضي، وبدلاً من ذلك مَنْحهم ميزةَ معرفة إلهٍ واحد ووحيد، وبالتالي إمكانية الحصول على المغفرة والخلاص. فكتبت ماري ماغنا رسالة بعد رسالة. ذهبت إلى أوكلاهوما سيتي بل وإلى أبعد من ذلك، آملةً إنقاذ المدرسة. وفي هذا الجو الذي تسوده بعض الفوضى كانت رعونة كونسولاتا، الأشياء التي تُسقِطها أو تحرقها وزياراتها السريعة والمفاجئة للمصلّى، تزعج الراهبات، ولكنها لم تُبْدِ مؤشراتِ قلقٍ مختلفة عن مؤشراتهن. فعندما كنّ يسألنها عما يحدث، أو يوبخنها على خطأ لايمكن التسامح بشأنه، كانت تختلق الأعذار أو تحرد. مستغرقة في حيرتها التي تنعش يومياً تقواها الجامحة. وكانت تخشى أن يطلبن منها مغادرة الدير والعودة إلى القيام بمشاوير في المدينة. لذلك راحت تقوم بالأعمال الخارجية مع أول ضوء في الفجر، وتُمضي بقية الوقت في الداخل وهي تقوم بعملها بشكل سيئ جداً. والتي لم يكن أي منها مفيداً في النهاية. إذ أتى هو ليراها.

في يوم صافٍ من أيام الصيف، بينما كانت جاثية في الحديقة تنتزع الأعشاب الضارة مع فتاتين من الولاية تلوح عليهما علامات الحزن والكآبة، إذ بها تسمع صوت ذكوري من خلفها:

«اعذريني ياآنسة».

لم يكن يريد سوى الفليفلة السوداء.

كان في التاسعة والعشرين. وهي في التاسعة والثلاثين. ففقدت عقلها تماماً.

لم تكن كونسولاتا عذراء. فالموبقات التي خضعت لها عبر سنواتها التسع هي أحد الأسباب التي جَعَلَتْها تَقْبَل بكثير من الامتنان يدَ ماري ماغنا الممدودة فوق الأقذار كجناح حمامة. ولكن بعد أن أطبقت اليد البيضاء على كفها القذرة، لم تعرف ولم تشأ أن تعرف ذَكَراً على الإطلاق، الأمر الذي لابدّ أنه يفسر لماذا تعتبر أمرَ وقوعها في صدمة الحب بعد ثلاثين سنة من العزوبية ميزة مستساغة.

ماذا قال؟ تعالي معي؟ ما اسمك؟ ماقيمة نصف «البك»؟ أم أنه عاد في اليوم التالي ليشتري كمية أخرى من الفليفلة السوداء؟ هل اقتربت منه لتراه بشكل أفضل؟ أم أنه هو الذي اقترب منها؟ على أية حال، لقد قال وهو في حالة تشبه الذهول: «عيناك كأوراق النعناع» فأجابت: «وعيناك كبداية العالم» بصوت مرتفع أم أنّ هذه الكلمات ظلّت مدفونة في رأسها؟ هل ركعت حقاً على ركبتيها وطوقت ساقيه، أم أنّ هذا فقط ماأرادت أن تفعله؟

«أريد أن أعيد لكِ سلّتك، ولكن ربّما يكون الوقت متأخراً عندما أعود، فهل هذا يزعجك؟».

إنها لاتتذكر هل أجابت بشيء أم لا، لكنّ وجهها قال له دون شك مايحتاج لمعرفته، لأنه أتى ليلاً إلى هناك، وكانت هي موجودة أيضاً، فأمسك يدها بيده. ليس معه سلة بحجم «البك» على مرأى منها. تشا تشا تشا.

وفي شاحنته، وهو يتجّه نزولاً ببطء في الممشى المغطى بالحصى وعلى الطريق الترابي الضيق، ثم أسرع على الطريق

العريض المفروش بالإسفلت، لم يتبادلا الكلام. كان يبدو عليه أنه يقود السيارة من أجل متعة القيادة ـ الهدير المستمر تحت الغطاء الفولاذي. الطريقة الرائعة التي تشق بها الشاحنة الظلام القريب، وتوغل على الفور في قبّة الظلام البعيدة في الوقت عينه ـ إلى أبعد مما يمكن تخيّله. تابعت الشاحنة سيرها خلال وقت، خيّل لـ كونسولاتا أنه ساعات، دون أن يتبادلا كلمة واحدة. يبدو أنّ الخطر وضرورته أجبراهما على التركيز وعلى أن يظلّا هادئين. لم تعرف ولم تهتم إلى أين يذهبان ولاماذا سيحدث عند مايصلان. مندفعة نحو المجهول، جالسة بجانبه، وهو أكثر غموضاً من الظلام الذي يشقّانه. فتركت كونسولاتا الريش ينفرد وينفكّ عن جدران رحم باردٍ كالحجر. هنا لم تعد الريح عوناً أو تهديداً لأزهار عبّاد الشمس، ولم يعد القمر لغةً لمعرفة الزمن أو الطقس أو موعد البذار والمحصول، بل عنصراً من العالم الأصلي مخصّصاً لهما كليهما.

أخيراً أبطأ في سيره واتجه إلى طريق ضيق، بالكاد يسمح بمرور الشاحنة، حيث تتكسر أعشاب الذئب على رفاريف السيارة. وسط هذا الطريق توقّف وكاد يأخذها بين ذراعيه لو لم تسبقه هي إلى الارتماء بينهما.

في طريق العودة ظلّا صامتين من جديد. ما همسا به وهما يمارسان الحب يشبه اللغة، ويشير إلى الحميمية، ولكنه كان بالواقع شيئاً لايمكن تذكّره أو التحكّم به أوترجمته. وقبل الفجر ابتعد كل منهما عن الآخر وكأنهما، بعد أن تم توقيفهما، يواجهان عقوبة السجن دون وعدٍ بإخلاء سبيل مشروط. عندما فتحت باب السيارة ونزلت، قال: «الجمعة، ظهراً». ظلّت كونسولاتا واقفة هناك بينما كان ينصرف بشاحنته إلى الخلف. لم تكن قد رأته جيداً، حتى ولو مرة واحدة أثناء الليل. ولكن الجمعة ظهراً. سيفعلان ذلك، ويفعلان ذلك ويفعلان ذلك، في وضح النهار. ضمّت ذراعيها حول جسدها، ركعت على ركبتيها وانحنت إلى الأرض. واصطدم جبينها فعلاً بالأرض بينما كانت تتمايل في أرجوحة من المتعة.

تتسلّلت إلى المطبخ وأكدت للأخت روبِرتا أنها عائدة من قنّ الدجاج.

«حسناً إذن! أين البيض؟».

«أوه، نسيت السلّة».

«لاتعتبريني بلهاء، من فضلك!».

«كلّا أيتها الأخت. لن أفعل».

«هناك فوضى في كل شيء».

«نعم أيتها الأخت».

«حسناً، هيا تحركي إذن».

«نعم أيتها الأخت، اعذريني، أيتها الأخت».

«ماالمضحك في الأمر؟».

«لاشيء أيتها الأخت. ولكن...».

«ولكن؟».

«أنا... نحن في أي يوم؟».

«عيد القدّيسة مارتا».

«أقصد أي يوم من أيام الأسبوع؟».

«الثلاثاء لماذا؟».

«لاشيء، أيتها الأخت».

«نحتاج إلى عقلك ياسيدتي وليس إلى تشوشه».

«نعم، أيتها الأخت».

تناولت كونسولاتا سلّة وخرجت مسرعةً من المطبخ.

الجمعة، ظهراً. طردت الشمس جميع الناس إلى ماوراء الجدران الحجرية، لكي يجدوا ملجأً هناك. جميع الناس ماعدا كونسولاتا والرجل الحي، كما تأمل. فليس لها خيار آخر، غير أن

تتحمّل الحرارة بقبعة قش تحميها من الشمس التي جعلتها سنداناً. فهي تقف في منعطف الممشى ولكن أمام المشهد الكامل للبيت فهذه الأرض كحافر حصان، مفتوح كفم طفل رضيع. ولامكان فيه لإخفاء فضيحتها. وإذا نادتها الأخت روبرتا أو ماري ماغنا أو طلبتا منها تفسيراً، فستختلق شيئاً ما - أو لاشيء. تسمع صوت شاحنته قبل أن تراها وعندما وصل بقربها، لم يلتفت ولكنه وجّه لها إشارة: رفع إصبعه فوق المقود وأشار بعيداً إلى الأمام. استدارت كونسولاتا إلى اليمين وتبعت صوت العجلات، ثم صمتها عندما بلغت الطريق المغطى بالإسفلت. راح ينتظرها على جانب الطريق.

وفي الشاحنة راحا ينظران إلى بعضهما طويلاً بجدّية وحذر، ثم ابتسما.

ذهب إلى منزل مزرعة محترق يتربع على مرتفع من أرض غير مزروعة. عبر النباتات الطويلة والأعشاب التي تعيش علها الطيور، ثم ركن السيارة خلف هيكل مدخنة محطمة. سارا يداً بيد وهما يبعدان الشجيرات والعليق إلى أن وصلا قرب منخفض من الأرض، فلمحت كونسولاتا في الحال مايريد أن يريها إياه: شجرتي تين نبتتا متشابكتين. وعندما استطاع تركيب جمل تامة، نظر إليها بإمعان قائلاً:

«لاتطلبي مني شرحاً، فأنا لاأستطيع».

«لاشيء يستوجب الشرح».

«أحاول متابعة حياتي. أنا مسؤول عن كثير من الناس».

«أعرف أنك متزوج».

«وأنوي أن أظلّ هكذا».

«وأعرف هذا».

«وماذا تعرفين أيضاً؟» قال ذلك ووضع إصبعه على سرّة كونسولاتا.

«أني أكبر منك سناً».

رفع نظره من سرّتها إلى عينيها، وابتسم: «لايوجد أحد أكبر مني سناً».

ضحكت كونسولاتا.

قال: «بالتأكيد ليس أنت، متى كان ذلك آخر مرة؟».

«قبل أن تولد».

«إذن أنتِ لي».

«أوه، نعم».

قبّلها برفق، ثم انحنى مستنداً على مرفقه: «لقد سافرت، وقمت برحلات عديدة، إلى كل مكان. لم أر مثلك أبداً. هل من شيء يقارن بك؟ أتعلمين كم أنت جميلة؟ هل نظرت إلى نفسك؟».

«أنظر الآن».

لم تنبت أية ثمرة تين على هاتين الشجرتين طيلة الفترة التي التقيا فيها هناك، ولكنّهما كانا ممتنّين من ظل أوراقهما المغبّرة، وحماية جذوعهما المحتَضرة. كانا يرقدان قدر مايستطيعان على الأغطية التي جاء بها. وفيما بعد رأى كل منهما الخدوش والكدمات الزرقاء التي تركها النهير الجاف.

أُلقيت أسئلة كثيرة على كونسولاتا. رفضت الإجابة عنها، وحوّلت التحقيقات إلى شكوى: «ماذا سأصبح، وماذا سيحدث لي عندما تغلق المدرسة نهائياً؟ هل فكّر أحد بحالتي، وقال ماذا سيحلّ بي».

«لاتكوني سخيفة. أنت تعلمين جيداً أننا سنهتم بك. على الدوام».

حردت كونسولاتا مدّعية أنها تكاد تجن من شدة القلق، وأنه من المستحيل الاعتماد عليها. وكلما زادوا بإعطائها التطمينات، كانت تزداد إلحاحاً للذهاب للتنزّه، قائلة: «أريد أن أكون وحدي». وهي

حاجة كانت تشعر بها بشكل خاص يوم الجمعة، قرابة الظهر.

وعندما توقّفت ماري ماغنا والأخت روبِرتا عن العمل، اعتباراً من شهر أيلول، استمرت الأخت ماري أليزابيت وثلاث تلميذات لامباليات، في توضيب الرزم، والتنظيف وإقامة الصلاة. وكان هناك تلميذتان: كلاريسا وبيني. بدأتا تبتسمان عندما تريان كونسولاتا. كانتا في الرابعة عشرة من العمر، نحيلتين، عيناهما جميلتان تشعّان خبثاً وتستطيعان إخفاء ذلك فجأة. وماكانتا تنتظران سوى الخلاص من هذا المكان، والآن وقد اقتربت النهاية فإنّهما على أتم الاستعداد. وقد بدأتا، مجدّداً، تعتبران كونسولاتا متعاونة معهما بدلاً من اعتبارها عدوة هدفها تحطيم حياتهما. وتتكلمان بصوت خافت بلغة منعتهما الراهبات من استخدامها، وتغطّيان غيابها بقيامهما بجمع البيض، وهو العمل الذي كانت كونسولاتا مسؤولة عنه. وتغسلان الملابس وتقتلعان الحشائش الضارّة. أحياناً كانتا تقومان بالمراقبة من نوافذ غرف الصف، بعينين براقتين ورأسين ملتصقين، بينما وقفت المرأة التي تعتقدان أنها بلغت سن جدتهما تنتظر تحت تقلبات الجو الشاحنةَ الشفروليه.

«هل يعلم أحد بأمرنا؟» أخذت كونسولاتا تداعب بظفر إبهامها حلمة الرجل الحي.

أجاب: «لن يكون ذلك مفاجئاً».

«زوجتك؟».

«لا».

«هل تحدثتَ لأحد؟».

«لا».

«هل رآنا أحد؟».

«لاأعتقد».

«إذن كيف يمكن أن يعرف أحد بهذا؟».

«لي أخ توأم».

جلست كونسولاتا: «أنتما اثنان؟».

«لا». أغمض عينيه. عندما فتحهما ثانية، أخذ ينظر بعيداً:
«لايوجد أحد سواي».

انقضى شهر أيلول مُلَطِّخاً كل شيء بالألوان الزيتية: مساحات بالبرتقال المحروق، أميال بلون تراب سيينا، جداول ووديان من زرقة الليل، مع سماوات من الليل الليلكي الذي يحطم القلب. وعندما حل تشرين الأول وتضخم القرع حيث نَبَتَ الفجل سابقاً، عادت ماري ماغنا والأخت روبرتا وقد أغضبهما الكهنة والمحامون ورجال الأكليروس والقسس. والأخبار التي جاءتا بها لم تكن أخباراً أبداً. ومصير كل منهما تقرّر في «سان بير» المقر البابوي، ماعدا مصيرها هي. فالقرار سيصدر فيما بعد، ولابدّ أن يكون سنّ ماري ماغنا وهي في الثانية والسبعين قد أُخذ بعين الاعتبار، ولكنها ترفض الإقامة في بيت هادئ. هناك أيضاً العناية بالممتلكات. إذ أنّ المؤسّسة التي أنشأتها المرأة المحسنة (الواقعة الآن تحت تصرف مديرها) كانت هي المالكة، وهذا يجعل ملكية البيت والأرض لاتعود حقيقةً إلى الكنيسة، وبالتالي فإنّ المسألة هي في معرفة فيما إذا كان مجمل الملكية خاضعاً للضرائب الحالية، بالإضافة إلى المتأخرة التي لم تُدفع، أمّا بالنسبة لمخمّن الضرائب فإنّ المسألة الحقيقية هي في معرفة لماذا تتمتع زمرة من النساء الكاثوليكيات الغريبات الأطوار بعض الشيء، دون بعثة من الذكور تشرف عليهن، في منطقة بروتستانتية، بمعاملة خاصّة. ولحسن الحظ أو لسوئه فإنهم لم يجدوا حتى ذلك الحين أي مورد طبيعي لتلك الأراضي، مما أجبر المؤسسين على الإنفاق عليها وعدم التخلي عن ذلك. فهم لايستطيعون أن يغسلوا أيديهم منها هكذا، أليس كذلك؟ فجمعت ماري ماغنا كلّ جماعتها لكي تشرح لهم المسألة. هربت فتاة أخرى ولكنّ الاثنتين الباقيتين: بيني وكلاريسا أصغيتا بانتباه عميق، بينما يُعرَضُ أمامهما شكلُ مستقبلهما ـ السنوات الأربع التالية منه على أية حال ـ الذي اتخذ شكل رجل مسن يرتدي بزّة رسمية. أحنيتا

رأسيهما الجميلين كدليل على موافقتهما الرسمية، واثقتين من أنّ المساعدة التي تحتاجان إليها للخلاص من الخضوع للراهبات لم تعد بعيدة المنال.

ومع ذلك فإن كونسولاتا لم تكد تصغي إلى ماقالته ماري ماغنا. فلم يكن وارداً أن تذهب إلى مكان آخر، يمكنها أن تعيش في الحقل إذا تطلّب الأمر ذلك، بل وأكثر من هذا، بإمكانها الإقامة في البيت الخرب المحروق الذي ترسخ في ذهنها. فقد تبعته إلى هناك ثلاث مرات، وهي توازن مشيتها على أرضية خشبية ملتوية عبر رائحة دخان قديمة تعود إلى اثنتي عشرة سنة. هناك مايشبه البيت المبني فوق أمواج الرمال في عزلة الصحراء دون حتى شجرة واحدة ودون أن يكون هناك أي شخص أو أي عائق، فقد احترق البيت طَوْعاً مع هبوب الرياح وإحساسه بجماله. فهل اشتعلت النار في الليل، أثناء نوم الأطفال؟ أم أنه لم يكن في البيت أحد عندما بدأ اللهب يضطرم؟ وهل كان الزوج بعيداً ستين آكراً، يحزم، يَسِمُ، يقلع الأشجار اليابسة ويبذر؟ والزوجة هل كانت منحنية على طشت الغسيل في الباحة، وخصلات الشعر تُضايق جبينها؟ في هذه الحالة ربما رشقت سطلاً أو سطلين من الماء، وصرخت لتنادي الأطفال، وأسرعت لتأخذ كل ماتستطيع أخذه. ثم كدّست في الباحة كل ماتمكنت من جلبه وإنقاذه. لاشكّ أنه كان هناك جرس، قطعة حديد صدئة على شكل مثلث ـ أو أي شيء يمكن أن يرنَّ لتحذير الآخرين من الخطر. وعند وصول الزوج كان الدخان سيرغمه على البكاء. الدخان وحسب، إنهم أناس لايبكون بسهولة. كان سيشعر بالقلق أولاً على الماشية فيضعها في مكان آمن أو يطلق سراحها وقد تذكّر بأنه لم يؤمّن عليها. وفيما عدا ماهو موجود في الباحة فكل شيء قد تلف. حتى أزهار عبّاد الشمس في زاوية الدار الشمالية الغربية قرب المطبخ، حيث كانت المرأة تستطيع أن تراها وهي تحرّك حساء الذرة.

فتّشت كونسولاتا في بعض الدروج حيث قرضت فئران الحقل إيصالات غاز البروبان. ورأت كيف أنّ قطع الأثاث المتفحّمة

صقلتها الرياح فأصبحت ناعمة كالحرير. وقد احتلّت المكان كائنات دنيا بعد أن هربت منه الكائنات البشرية. نوع من المنحوتات والتماثيل لشعب من رماد. ورجل طوله ثمانية أقدام يتسكّع قرب المدفأة. ساقاه ساقا راعي بقر قويتان، وقد أجاب شكل فكه حين واجههما عن الأسئلة المباشرة عن المكان. إصبعه في طرف ذراعه الطويل الأسود مصوب إلى اليسار، نحو السماء، هناك حيث يوجد جدار مُنهار، ويطلب من الموجودين الخروج سريعاً من بيته. قرب الرجل الذي كان يصوّب إصبعه، على الجدار البني اللون، رُسمت فتاة لها جناحا فراشةٍ طولهما ثلاثة أقدام. أما الجدار المقابل فكان مزداناً بمن ظنتهم كونسولاتا صيّادي سمك، ولكنّ الرجل الحيّ قال: لا، هي بالأحرى عيون أسكيمو.

فسألته وهي تردّ شعرها عن عنقها: «أسكيمو؟ وماهو الأسكيمو؟».

ضحك، منساقاً بطباع راعي البقر، جذبها إلى الخارج فوق أنقاض الجدار المنهار، ورجعا إلى المنخفض حيث تباريا مع شجرتي التين بإمساك واحدهما بالآخر.

في منتصف تشرين الأول تخلف أسبوعاً: حلّ يوم الجمعة وظلّت كونسولاتا تنتظره ساعتين ونصف عند نقطة التقاء الطريق الترابي مع الطريق الإسفلتي. وكان من الممكن أن تنتظر أكثر من ذلك، لكنّ بيني وكلاريسا حضرتا تطلبانها.

فكّرت أنه لابد قد مات، وليس هناك من يخبرها بذلك. فتقلبت طوال الليل على فراشها في غرفة المؤن أو جلست في المطبخ محنية أمام الطاولة. أتى الصباح وهي تتأمل عالمَ الأشياء الحية ينهار بعيداً مع غياب الرجل الحيّ. أخذ قلبها يضعف وقد حطمه الخبر المخيف، وبدت أوردتها كأنها أصبحت أنابيب مدعوكة صنعت من السيلوفان. وازدادت بسرعة وطأة الثقل في صدرها حتى استحال

عليها أن تتنفّس بصورة طبيعية. أخيراً قررت أن تكتشف الحقيقة، أو أن تعثر عليه هو.

السبت كان يوماً حافلاً بالنشاط في تلك المنطقة. عندما كانت تمشي بخطى واسعة وسط الطريق العام زمّر لها الباص الذي يمر كل أسبوع لكي تبتعد. أسرعت كونسولاتا إلى جانب الطريق، ودخان أنبوب العادم في السيارة يرفع شعرها غير المجدول. وبعد بضعة دقائق مرّت بها شاحنة نفط، ووجّه لها السائق كلاماً من النافذة. ثم بعد نصف ساعة على وجه التقريب ظهر بريق من بعيد. سيارة؟ شاحنة؟ هو؟ خفق قلبها ودفع قليلاً من الدم في أوردتها السيلوفانية. لم تجرؤ على ترك الابتسامة التي بدت على فمها تنتشر على وجهها، كما لم تجرؤ أيضاً على التوقف بينما المركبة تظهر ببطء: نعم، أيها الرب العزيز، إنها شاحنة. وفيها شخص واحد بمفرده على المقود. يايسوع! هاهي تبطئ في سيرها. التفتت كونسولاتا لتراها وقد توقفت تماماً، ولتتمتع بوجه الرجل الحي.

انحنى على باب السيارة مبتسماً:

«أتريدين توصيلة؟».

اجتازت كونسولاتا الطريق مسرعةً واستدارت نحو باب السيارة. وعندما وصلت قربه وجدته مفتوحاً. فصعدت، ودفعها سببٌ ما ـ رغبة امرأة لتوبيخه، ومحو أربعة وعشرين ساعة من اليأس، والتظاهر على الأقل بأن الألم الذي جعلها تعانيه يتطلب اعتذاراً، وتفسيراً لكي تصفح عنه ـ وقد منعها من ذلك شعور غريزي، فلم تدسّ يدها بين فخذيه كما كانت تريد أن تفعل.

التزم الصمت بالتأكيد، ولكنه لم يكن صمت الجمعة ظهراً، عندما كان يأتي ليصطحبها. في ذلك الحين كان غياب الكلام مثقلاً بالوعود واضحاً، ضاجاً. أمّا صمت اليوم فهو عقيم، إنه خَرَسٌ مبطن بالأسيد. عند ذلك شعرت بالرائحة، لم تكن كريهة أبداً، ولكنها ليست رائحته. بهتت كونسولاتا وتجمدت، ثم دون أن تجرؤ على النظر إلى وجهه ألقت نظرة جانبية نحو قدميه. لم يكن ينتعل حذاءه

الأسود العالي بل جزمة راعي بقر، وهذا ما أقنعها أنّ غريباً يمسك بمقود السيارة، يسكن جسده، لكنه ليس هو.

فكرت أن تصرخ، أن تلقي بنفسها على الطريق، أن تقاتله إذا لمسها. لم يتح لها الوقت لتتصوّر شيئاً آخر، لأنهما اقتربا من الطريق الترابي المؤدّي إلى الدير. كانت تستعد لفتح باب السيارة عندما أوقف الغريب السيارة بهدوء. انحنى، لمس نهديها بذراعه ورفع مقبض الباب. نزلت في الحال والتفتت مستطلعة.

لمس حافة قبعته الستتسون وابتسم، وقال: «في أي وقت، في أي وقت كان».

مشت القهقرى وهي تحدق في دقائق وجهه، وهي تشعر بالقرف منه ولكنها مشدودة إلى عينيه الخجلتين اللتين وَسَّعَتْهما الكراهية.

لم يضع هذا الحادث حداً للقاءات شجرتي التين. فقد أتى يوم الجمعة التالي بحذائه وعطره الصحيح، وتشاجرا قليلاً.

«ماذا فَعلَ؟».

«لاشيء. حتى لم يسألني إلى أين ذاهبة. فقد عاد بي وحسب».

«مافعله شيء جيد».

«لماذا؟».

«لأن ذلك في صالحنا نحن الاثنين».

«لا، بالتأكيد. فقد كان...».

«ماذا؟».

«لاأدري».

«ماذا قال لك؟».

«قال: «أتريدين توصيلة؟» وقال: «في أي وقت». كما لو أنه يريد أن يكرّر ذلك. أستطيع القول إنه لم يحبّني».

«ربما لا. ولكن لماذا يجب أن يحبّك؟ أتريدين أن يحبك؟ مثل حبك؟».

«لا. أوه، لا ولكن».

«ولكن ماذا؟».

اعتدلت كونسولاتا في جلستها وأخذت تحدق بخلفية المنزل المحروق. هناك شيء ذو فروٍ بني يركض داخلاً فيما تبقى من برميل لمياه المطر.

سألته: «هل حدثْتَه عني؟».

«أبداً، لم أقل أي كلمة عنكِ».

«إذن كيف عرف أني كنت ذاهبة لأبحث عنك؟».

«ربما لم يعرف ذلك، ربما لم يفكر أنك ذاهبة إلى المدينة سيراً على الأقدام».

«إنه لم يرجع بشاحنته. كان ذاهباً إلى الشمال. وهذا ماجعلني أعتقد أنه أنت».

فقال بعد أن أقعى وأخذ يقذف الحصى: «اصغي إليّ، يجب أن نتّفق فيما بيننا على علامة. فأنا لاأستطيع الحضور كل يوم جمعة. فلنرتّب كل شيء ونضع إشارة بيننا، وهكذا ستعرفين».

لم يجدا شيئاً يناسب الأمر. وأخيراً قالت له إنها ستنتظره يوم الجمعة ولكن لمدة ساعة وحسب. فقال: إذا لم أحضر في الموعد، فمعنى ذلك أني لن أحضر أبداً.

كان انتظام اللقاءات بينهما، قبل قدوم أخيه التوأم، قد أشبع جوع كونسولاتا حتى أصبحت كشفرة كليلة. والآن عدم الانتظام كان يجرحها. ورغم ذلك، فقد اصطحبها مرتين أيضاً إلى قرب التينتين اللتين تصران في البقاء على قيد الحياة. لم تعرف وقتها أنّ المرة الثانية هي الأخيرة.

حدث ذلك في أواخر تشرين الأول. أغلق جانباً من البيت المحروق بغطاء حصان كبير، واستلقيا على فراش نوم عسكري

يمكن لفه. كانت السماء الشاحبة فوقهما محاطة بظلام متصاعد، ولم يكن باستطاعتهما رؤيتها حتى ولو نظرا. كما فاجأهما الثلج الذي أخذ يتلألأ على شعر كونسولاتا ويبعث البرد في ظهر الرجل الحي. بعد ذلك أخذا يتحدثان عن وضعهما. عندما أعاقهما الجو والظروف، تكلّما بشكل خاص ليعرفا أين يمكن أن يلتقيا. ذكر هو مدينة تبعد تسعين ميلاً إلى الشمال، ولكنه تراجع في الحال، لأن ليس هناك أي موتيل أو فندق يمكن أن يقبل إيواءهما. فاقترحت الدير بسبب وجود أماكن كثيرة فيه يمكن الاختباء فيها. فنخر معبّراً عن رفضه لهذا الاقتراح.

فوشْوَشَتْهُ: «أصغ إليّ: هناك غرفة صغيرة في القبو. لا، انتظر، اسمع. سوف أرتّبها، ستكون جميلة جداً، منارة بالشموع. في الصيف باردة ومعتمة، وفي الشتاء دافئة كالقهوة. سيكون لدينا مصباح ليرى واحدنا الآخر، ولكن لن يستطيع أحد رؤيتنا. نستطيع أن نصرخ بأقوى ما نريد دون أن يسمعنا أحد. يوجد كثير من الإجّاص تحت، والجدران مغطاة بزجاجات النبيذ، وهي ترقد على جنبها هناك ولكل منها اسم خاص، مثل «فوف كليكو» أو «ميدوك» ورقم مثل: 5، 1، 9، 1، أو 6، 2، 9، 1 كالسجناء الذين ينتظرون اخلاء سبيلهم». وأخذت تلحّ قائلة: «هيا، أرجوك، تعال إلى بيتي».

بينما كان يفكرّ أخذت كونسولاتا تضع الخطط. خططاً لوضع أكليل الجبل في أغطية المخدات، لتنظيف أغطية الكتان بالماء الحار المعطّر بالقرفة. وسيروريان عطشهما بالنبيذ السجين المعتّق، كما قالت له. عند ذلك ضحك ضحكة خفيفة تنم عن الرضى فعضّت له شفته، الأمر الذي اعتبرتْهُ غلطتها الكبرى عندما فكرت به ثانيةً.

نفّذت كونسولاتا كل ماوعدت به وزيادةً أيضاً. فغرفة القبو أخذت تتلألأ بأنوار شمعدان هولندي بثمانية فروع ويفوح منها عطرُ الأعشاب الجافّة. وثمار الإجّاص تملأ وعاءً كبيراً أبيض. لم يعجبه شيء من كل هذا لأنه لم يحضر أبداً. ولم يشعر مطلقاً باحتكاك الغطاء الكتاني على بشرته، كما أنه لم ينزع قطع قضبان القرفة من شعر كونسولاتا. أما كأسا النبيذ، اللذان جلبتهما من

الصناديق المليئة بالقش وغسلتهما ونشّفتهما حتى أصبحا لامعين بشكل استثنائي فقد بدأ الغبار يغطيهما، ثم في شهر تشرين الثاني، قبل عيد الشكر بالضبط استوطن فيهما عنكبوت مجتهد.

بعد أن غسلت بيني وكلاريسا شعريهما، جلستا قرب الموقد وأخذتا تجففانه وتتخللانه بأصابعهما. ومن وقت لآخر كانت إحداهما تحرك خصلة سوداء منه. بعد أن تنحني لتُقَرِّبها من الحرارة. كانتا ترددان الأغاني الممنوعة للألغونكوين، وهما تراقبان كونسولاتا كما كانتا تفعلان دائماً: إبان فترات إثارتها القصوى وطاقتها الجنونية، وتَغَيُّرها البطيء إلى حد قضم أظافرها. كانتا تحبانها كثيراً لأنها سُرقت مثلهما، وتشعران بالحزن عليها. كما تعتبران سلوكها بمثابة تحذير جدّي بشأن حدود واحتمالات الحب والسجن، وقد حفظتا الدرس للمحافظة على التوازن في حياتهما. على أية حال، بدأ الآن مستقبلهما الفوري يطالب بالأولوية: حقائبهما جاهزة. مخططاتهما موضوعة ولم تعودا تحتاجان إلا للنقود.

«أين تحتفظين بالنقود ياكونسولاتا؟ من فضلك ياكونسولاتا. الأربعاء سيقتادوننا إلى الإصلاحية. لانحتاج إلا للقليل من النقود، ياكونسولاتا. في غرفة المؤن أليس كذلك؟ حسناً، أين؟ هناك دولار وعشرون سنتاً من يوم الاثنين وحده».

تجاهلتهما كونسولاتا: «كفّا عن ازعاجي».

«لقد ساعدناك ياكونسولاتا والآن يجب أن تساعدينا. فهذا ليس سرقة ـ لقد عملنا كثيراً هنا وبشكل شاق. من فضلك؟ تذكّري كيف كنّا نشتغل».

صدحتا بصوت هادئ، وراحتا تهزان شعريهما وتنظران إليها بعيون تشع بريقاً كعيون العذارى عندما يتعرّضن للخطر.

لم تكن الدقات على باب المطبخ قوية جداً، ولكنها تنم عن ثقة واضحة. ثلاث دقات وليس أكثر. كفّت الفتاتان عن هزّ شعريهما. نهضت كونسولاتا عن كرسيها كما لو أنّ عمدة المدينة «الشريف»،

أو أحد الملائكة قد ناداها. وبصورةٍ ما كان الطارق هو الاثنين معاً في ملامح امرأة شابة، منهكة، تتنفّس بصعوبة، ولكنها تقف منتصبة كقصبة البندقية.

قالت: «لقد قطعت شطراً من الطريق، أريد الجلوس، من فضلكم».

اختفت بيني وكلاريسا كالدخان.

جلست المرأة الشابة على الكرسي الذي غادرته بيني.

سألتها كونسولاتا: «أيمكنني تقديم شيء لك؟».

«ماءً، أرجوك».

«ليس شاياً؟ تبدين متجمدة».

«نعم. ولكنّ الماء أولاً. ثم القليل من الشاي».

سكبت كونسولاتا بعض الماء من إبريق، وانحنت لتتفقّد النار في الموقد.

سألتها الزائرة: «ماهذه الرائحة؟ هل هي رائحة المريمية؟».

أومأت كونسولاتا برأسها أن نعم. فرفعت المرأة أصابعها إلى شفتيها.

«هل تزعجك؟».

«لابأس ستزول، شكراً لك». شربت الماء ببطء حتى فرغ الكأس تماماً».

كانت كونسولاتا تعرف أو تعتقد أنها تعرف، ومع ذلك فقد ألقت السؤال: «ما الذي تريدينه؟».

«أن تساعديني». كان صوتها ناعماً، متحفّظاً. فلا حجج ولاتوسّلات.

«أنا لاأستطيع مساعدتك».

«تستطيعين ذلك لو أردتِ».

«عن أي نوع من المساعدة أنت تبحثين؟».

«لا أستطيع الحصول على هذا الطفل».

انسكب بعض الماء الحار في الصحن. وضعت كونسولاتا الغلّاية وجفّفت الماء بخرقة. لم تكن قد رأت هذه المرأة قبل هذه المرّة أبداً ـ فتاة بالحقيقة، في العشرين من عمرها ـ ولكن منذ أن دخلت عرفت بمن يتعلّق الأمر. إذ أنّ عطر الرجل الحي يلفّها. أو أن عطرها هي يلفّه كله. كانا قد عاشا بما يكفي من القرب ومن الزمن ـ حتى يستطيعا استنشاق عطر القبس وصابون كامي والتبغ، وليزفراه أثناء صحوهما. هذا وعدد من أمور أخرى: رائحة الأطفال الصغار، والعبير اللطيف للزيت الحلو، وبودرة الأطفال الرضّع، والطعام الخالي من اللحم. كانت أمّاً، تقول شيئاً فظاً لايليق بأمٍّ اندفعت نحو كونسولاتا كلسان مشطور إلى نصفين. فتحاشت اللسان ولكنّ السمّ أصابها بما عرفَتْهُ دون أن تتصوره مطلقاً: إنها تشارك فيه زوجته. والآن تُشاهد الصُوَر التي تُمثِّل ماتعنيه كلمةُ «تشارك» تمثيلاً دقيقاً.

- «لاأستطيع مساعدتك في هذا الأمر! هل هناك شيء ليس على مايرام؟».

«لقد أنجبت طفلين خلال سنتين. إن أنجبت طفلاً آخر...».

«لماذا تأتين لمقابلتي؟ ولماذا تطلبين هذا مني؟».

فسألتها المرأة بصوتها الواضح، العادي: «وممن أطلبه إذن؟».

أخذ السمّ ينتشر، لقد فقدته كونسولاتا. تماماً. وإلى الأبد. قد لاتعرفه زوجته، ولكنّ كونسولاتا تذكّرت وجهه. ليس عندما عضّت له شفته، لكن عندما همهمت وهي تلحس الدم الذي سال منها. عندها تنفّس بحدة وقال: «لاتفعلي هذا مرة ثانية أبداً». لكنّ عينيه، وقد بدا فيهما القلق في بداية الأمر، ثم تحوّل إلى تمرد، قالتا لها بقية ماكان عليها أن تعرفه في الحال. النفْل، القرفة، الكتان القديم والناعم ـ من الذي يمكن أن يخاطر من أجل الإجّاص وجدار من النبيذ السجين مع امرأة مستعدة لأن تأكله كوجبة؟

«انصرفي عني. أنت لم تأتي إلى هنا من أجل هذا. أتيت لتقولي

لي، ولتريني ماذا تشبهين، وتعتقدين أنني سأتوقّف فأنا أعرف ماذا تريدين. حسناً، أنا لن أتوقّف».

«لا، ولكنه هو سيتوقّف».

«ماكنت لتأتين لو أن الأمر مثلما تظنين. تريدين أن تري ماذا أشبه، وفيما إذا كنت حبلى أيضاً».

«اصغي إليّ. لايمكن أن يفشل فيما يفعله. لا أحد منّا يمكن أن يفشل. نحن نبني شيئاً ما».

«وماذا تعنيني مدينتكم الصغيرة البائسة؟ هيا انصرفي. اذهبي عني، لديّ عمل».

هل عادت إلى بيتها سيراً على الأقدام؟ أم كانت هذه كذبة أيضاً؟ هل كانت سيارتها متوقفة في مكان قريب؟ وإذا عادت سيراً على الأقدام، ألم يتوقف أحد ليأخذها؟ أمن أجل هذا فقدت الطفل؟

كانت تدعى سوان، وعندما أصبحت هي وكونسولاتا صديقتين وفيّتين، قالت لها سوان بأنها لاتعتقد ذلك. فالشر الذي أحسّت به في قلبها هو السبب. وقالت إنه الغرور الممتزج باستقامتها الذاتية زاعمة أنها بتضحيتها لا تنوي تعليمها مخادعة طرائق الرب. والحياة التي قدّمتها كصفقة سقطت بين ساقيها في مستنقع من السوائل الحمراء وفي أغطية دفعتها الريح. استغرقت صداقتهما بعض الوقت. وفي هذه الأثناء، بعد رحيل المرأة، ألقت كونسولاتا كيساً صغيراً من القماش مليئاً بالقطع النقدية إلى بيني وكلاريسا وصرخت بهما: «هيا، اغربا عن وجهي!».

وبينما راح الضوء يتغيّر وكذلك وجبات الطعام، أصبحت الأيام التالية سياجاً طويلاً من الحزن. تفتش فيها كونسولاتا عن فتات حبها المفترس، ووصلت القصة إلى النقطة المحطمة فكشفت عن تحول بسيط عديم العقلانية عن المسيح، الذي يستسلم إليه المرء بكلّيته قبل أن يتمثل فكرة تجسده في رجل حي. العار. العار من دون ملامة. عادت كونسولاتا زحفاً تقريباً نحو المصلّى الصغير (راغبة رغبة جامحة بأن تجده هناك، يتلون بالأحمر عبر الضوء الخافت).

عادت مسرعة، كما تفعل النساء، كمَنْ يعود إلى ذراعين يُدركان الموضعَ الذي لايملك فيه الجسدُ، أية ذكرى عن خوفه شأنُه شأنَ التشنّج العضلي. لم ترتفع أية صلاة تسوّل، ولاأي: ياسيد أنا لست مستحقاً. ركعت فقط على ركبتيها اللتين كانت سعيدة جداً عندما تُباعِدُ مابينهما، وقالت: «أيها الرب العزيز، لم أكن أريد أكله، أردت الذهاب إلى المنزل وحسب».

دخلت ماري ماغنا إلى المصلّى، وركعت بجانب كونسولاتا ووضعت ذراعيها على كتفيها وقالت: «أخيراً!».

أجابت كونسولاتا: «أنت لاتعرفين».

«لا حاجة إلى ذلك ياطفلتي».

«ولكن هو، ولكن هو». تشا تشا تشا. تشا تشا تشا، وأرادت أن تقول أنا وإياه واحد.

قالت ماري ماغنا: «ش ش ش، ش ش ش، لاتتكلّمي ثانية عنه أبداً».

كان من الممكن ألّا تقبل بمثل هذه السرعة، ولكن بينما كانت ماري ماغنا تقودها من المصلّى إلى غرفة الدرس، اخترق عينها اليمنى بريق من شعاع الشمس كعلامة تنذر بأنها سترى كما يرى الخفاش، وبدأت ترى بشكل أفضل في الظلام. وبذلك كانت كونسولاتا قد خوطبت.

أنفقت ماري ماغنا كل ما استطاعت إنفاقه لكي تصطحب جميع من في البيت إلى ميدلتون، حيث كل واحدة منهنّ، وبخاصة كونسولاتا أتيح لها أن تعترف وتحضر القدّاس. أمّا كلاريسا وبيني وكانتا مثالاً للتوبة، فقد ألحّتا دون جدوى بطلب زيارة «المتحف الغربي» المعلن عنه بلافتة على الطريق. قالت الأخت ماري أليزابيت بأنه ليس من الحكمة القيام بذلك بعد الاعتراف. أثناء رحلة العودة، الطويلة لم يعكر صفو الصمت سوى حفيف صفحات كتب الصلاة التي كنّ يقلّبنها والوشوشات النادرة لآخر زبائن المدرسة.

وحالاً، لم يبق سوى الأم الرئيسة والأخت روبِرتا فقط. فقد

قَبِلَتْ الأخت ماري اليزابيت وظيفةَ معلمة في ولاية أنديانا. واقتيدت بيني وكلاريسا نحو الشرق، وكما عُلِمَ فيما بعد، فقد هربتا في إحدى الليالي من الباص، في مدينة فايتْفيل بولاية أركنساس. وفيما عدا حوالة مرسلة إلى كونسولاتا وموقعة باسم كتاب حكايات للأطفال، فانّ أحداً لم يسمع عنهنّ أي شيء بعد ذلك أبداً.

أمضت النساء الثلاثة الشتاء وهنّ ينتظرن، ثم دون أن ينتظرن بديلاً عن التقاعد أو «منزلاً». والاستقلال الذي أُعدَّت البعثةُ لتعيشَهُ، بدأ يشبه التَّخلي. فاتّخذن قرارات معينة ليحتفظن بالملكية دون استدانة أموال لم تعد المؤسسة تستطيع سدادها. قَبِلَ سارجنت بيرسون أن يستأجر قطعة أرض منهن ليزرع فيها الذرة الصفراء والبرسيم. هيّأن الصلصات والجيليه والخبز الأوروبي، وبعض البيض والفليفلة وأنواع التوابل، بالإضافة إلى صلصة الشواء. وقد أُعلن عن ذلك على قطعة كرتون كبيرة غطت اسم المدرسة المكتوب بلون أزرق وأبيض حائل قليلاً. وفي عام 1955 ، كان معظم زبائنهم يقودون شاحنات بين ولايتي أركنساس وتكساس. أمّا مواطنو روبي فنادراً ماكانوا يتوقفون ليشتروا شيئاً آخر سوى الفليفلة، لأنهم هم أنفسهم كانوا يطبخون طعاماً ممتازاً، ويحضّرون ويزرعون كل مايريدون. في الستينات فقط، عندما تحسنت الأحوال، انضموا إلى سائقي الشاحنات وأخذوا يعتبرون أنّ ماسمي الفراريج التي يربيها الدير أفضل بكثيرٍ من فراريجهم بحيث تستحق الانتقال للحصول عليها. ثم تذوقوا أيضاً جيليه الجالابينو ونكهة الذرة. أما شجيرات جوز البيكان التي غُرست في الأربعينات فقد أصبحت تعطي ثماراً وافرة عام 1960 . وباع الدير الجوز، وعندما استعملته النسوة في صنع الفطائر، أصبحت هذه الفطائر تباع بسرعة كبيرة. ثم صنعن فطائر بالراوند، كانت لذيذة لدرجة أن كل من أكل منها تحدث عنها لجميع الناس. واكتسبت صلصة الشواء شهرة إلهية بفضل النار الجهنمية التي امتَلَكَتْها الفليفلة.

كانت حياة جيدة بالنسبة لـ كونسولاتا. بل وأفضل من جيدة، لأنّ ماري ماغنا علمتها الصبر كفضيلة أولى في التجارة. فبعد أن

اتخذت الاجراءات اللازمة لتثبيتها أخذت كونسولاتا جانباً وراحتا تراقبان معاً القهوة تتخمر، أو تجلسان صامتتين عند طرف الحديقة. وكثيراً ماكانت تقول: إننا لانلمس كرم الله إلّا في هبة الصبر. وهذا الدرس جعل كونسولاتا في حالة جيدة، فهي لم تكد تلاحظ كل مافقدته. وأول شيء ذهبَ كانت بقايا مبادئ لغتها الخاصة. تنتبه من وقت لآخر بأنها تتكلم وتفكّر في ذلك المكان الوسيط، في الوادي الكائن بين قواعد لغتها الأولى ومفردات اللغة الثانية. بعد ذلك تبدّد ارتباكها. وأخيراً فقدت القدرة على تحمل الضوء. وفي الفترة التي وصلت فيها ماڤيس كانت الأخت روبِرتا قد ذهبت تعمل ممرضة منزلية، ولم يكن لدى كونسولاتا سوى عمل واحد، هو العناية بـ ماري ماغنا.

ولكن قبل ذلك، قبل أن تأتي المرأة المتغضنة بصندل له سيور، وتصرخ بجانب الحديقة، وقبل مرض ماري ماغنا التي بقيت في حالة من التكريس والعمى الضوئي، وبعد عشر سنوات من ذلك الصيف الذي اختبأتْ فيه داخل حفرة خلف منزلٍ يغصّ بكائنات رمادية غير مضيافة، راحت كونسولاتا نفسها تنخدع ببعث الأموات.

كانت سنوات خضوع، وقد لجأت إلى الكفارة لكنها لم تشمل كل شيء. بقي بعضُ الوقت للاهتمام بالأشياء اليومية. وقد تعلّمت كونسولاتا أن تتحمل مسؤولية كل مالايحتاج إلى الورق: فقد أتقنت صنع الصلصة التي أولِعَ بها سكان تلك المنطقة الذين يعملون بتربية الماشية. وكانت تتشاجر مع الدجاجات وتقوم بدورة كبيرة لكي تتحاشى الإوزات الشريرات وتعتني بالحديقة. وقرّرت، هي والأخت روبِرتا أن تحصلا على بقرة من جديد، وأخذت كونسولاتا وهي تقف في الحديقة، تتساءل أين يمكنها أن تقيم لها حظيرة، عندما بدأ العرق يتصبّب على عنقها ومنبت شعرها كالمطر الغزير، حتى أنه أحدث غشاوة على نظارتها الشمسية السوداء. فنزعتها لكي تجفّف العرق الذي يسيل على عينيها. فرأت عبر الماء المالح ظلاً يتقدم نحوها. وحين صار قريباً جداً، تحول إلى امرأة قصيرة القامة.

تغلبت كونسولاتا على الدوار محاولة الاستعانة بالقضيب الذي تعرشت عليه الفاصولياء فما أفلحت ووقعت أرضاً. عندما عادت إلى وعيها كانت جالسة على الكرسي الأحمر، والمرأة القصيرة تدندن وهي تمسح لها جبينها.

ابتسمت وهي تمضغ علكة، «تحدثي عن الحظ».

نظرت كونسولاتا نحو المنزل « ماذا يحدث لي؟».

«تغيير، على ماأظن. إليكِ نظارتك، ولكنها ملتوية».

قالت إنها تدعى لون دوبريس ولو أنها لم تأتي لتأخذ فليفلة فمن يدري كم من الوقت كانت كونسولاتا ستظل ممدّدة بين الفاصولياء.

أدركت كونسولاتا أنها أضعف من أن تستطيع النهوض، ولذلك دفعت رأسها إلى أعلى الكرسي وطلبت ماءً.

أجابتها لون: «اهاهه! لقد عانيتِ الكثير من ذلك، كم عمرك؟».

«تسعة وأربعون عاماً. وعما قريب أكون في الخمسين».

«حسناً، إنّ عمري يزيد على السبعين، أعرف ذلك ولديّ الخبرة الكافية. افعلي ماأقوله لك، تصبح هذه الهبّاتُ أكثر يسراً وسهولة».

«أنت لاتعرفين ماذا يكون هذا».

«أتراهنين؟ ليس الأمرُ التعرّقَ وحسب. فأنت تشعرين، علاوة على ذلك، بشيء آخر، أليس كذلك؟».

«مثل ماذا؟».

«كنت عرفتيه لو أنك شعرت به».

«وكيف يكون هذا؟».

«قولي لي أنت. فهناك نساء لايتحملن ذلك، وهناك غيرهنّ يقلن إنّ هذا يذكرهنّ بـ .. حسناً، فأنت تعرفين».

قالت كونسولاتا: «حلقي جاف».

بحثت لون في حقيبتها: «سأحضّر لك مغلياً يفيدك».

«لا. الأخوات. أعني أنهنّ لن يوافقن على ذلك. ولن يسمحن لك بالدخول وعمل أي شيء على الموقد».

«أوه، كل شيء سيكون على مايرام».

وقد وافقن بالفعل. فقدّمت لون إلى كونسولاتا شراباً ساخناً طعمه مالح. وعندما وصفت لـ ماري ماغنا الانهيار الذي أصابها ودواء لون، ضحكت ماري وقالت: «حسناً، أنا كمعلّمة أظن أنّ هذا شعوذة، وكامرأة أظنّ أنّ كلّ مايساعد، يساعد فعلاً. ولكن انتبهي جيداً». خفضت ماري ماغنا صوتها: «أعتقد أنها تمارس...».

لم تكن لون تأتي كثيراً، ولكنّها في كل مرّة كانت تعطي كونسولاتا معلومات تسبب لها الانزعاج. وشكت كونسولاتا من عدم إيمانها بالسحر الذي تمنَعُ الكنيسةُ وجميعُ المقدّسات الاعترافَ به وممارسته. لم تكن لون تبدو عدوانية. فهي تقول فقط: «يحدث أنّ الناس يحتاجون لشيء إضافيّ».

أمّا كونسولاتا فكانت تؤكّد قائلة:

«أبداً، وباعتقادي إنّ الإيمان هو كل ما أحتاجه».

«أنت تحتاجين لما يحتاجه الجميع: التراب والهواء والماء. لاتبعدي الله عن عناصره. لقد خلق كلّ شيء. وأنتِ تبذلين جهداً كبيراً لِفَصْلِهِ عن خَلْقِهِ. فلا تُخلّي بتوازن عالمه».

أصغت إليها كونسولاتا وهي شبه متعاطفة معها. لم يكن لديها فضول كبير، وعاداتها الدينية كانت متينة. ولاتكمن سلامتها في سقوط مكنسة أو في روث الذئب. لم تكن سعادتها تزيد أو تنقص بسبب رؤية حيوان مشوّه. ولاتشعر برغبة في التحدث إلى الماء. ولاتصدّق أيضاً أنّ الناس العاديين يستطيعون أو أنه يجب عليهم أن يتدخلوا للتأثير في النتائج الطبيعية. أثناء ذلك كان طريق دمبي مستقيماً تماماً، والمراهق الذي يسير عليه بالسيارة للمرّة الأولى يعتقد، ليس فقط بأنه يستطيع أن يقود السيارة عليه وهو معصوب العينين، بل وهو نائم أيضاً. وهذا ماكان يفعله بانتظام سكوت مورغان في هذا الاتجاه وفي الاتجاه الآخر، كما فعل ذات يوم عند

المساء على الطريق الذي يمرّ قرب الدير. كان في الخامسة عشرة من العمر، ويقود شاحنة والد أعزّ أصدقائه، (التي لم تكن شيئاً يذكر إذا قورنت بالشاحنة ليتل دير التي علّمَهُ عَمُّهُ قيادَتَها) بينما كان أخوه إيستِر نائماً في مقطورة الشاحنة وبجانبه صديقهما العزيز. ذهبوا بهدوء إلى ريد فورك لمشاهدة الـ بلاك روديو الذي منعهم ذووهم من مشاهدته، وشربوا كثيراً من بيرة فالستاف. وأثناء إحدى غفوات سكوت على المقود خرجت الشاحنة قليلاً عن الطريق، الأمر الذي بدا من الممكن ألّا يكون له نتائج خطيرة لولا أعمدة الكهرباء التي كانت مكدّسة على جانب الطريق وجاهزة للتركيب، حالما يتلقى العمال المكلفون بتثبيتها في أماكنها الأمر بذلك. اصطدمت بها الشاحنة وانقلبت، فانقذف جولي بيرسون، وإيستِر إلى الخارج. وظلّ سكوت محصوراً في الداخل، وخطوط حمراء ومتعرجة تلوّن بشرة صدغه السوداء.

شعرت لون بالحادث، أكثر من سماعها للأصوات، وهي تجلس إلى مائدة كونسولاتا: لأنّ صراخ جولي وإيستِر لايمكن أن يصل إلى بعيد. نهضت وأمسكت كونسولاتا من ذراعها:

«تعاليّ».

«إلى أين؟».

«المكان قريب، على ماأظنّ».

عندما وصلتا، كان إيستِر وجولي قد سحبا جسد سكوت من كابينة قيادة الشاحنة، وأخذا يطلقان الصيحات فوق رأس صديقهما المتوفي. قالت لون لـ كونسولاتا: «أصبحتُ الآن عجوزاً أكثر مما ينبغي، ولم أعد أستطيع فعل ذلك، أما أنتِ فتستطيعين القيام به.

«أن أرفعه؟».

«لا، ادخلي فيه. أيقظيه».

«أدخلُ فيه؟ كيف؟».

«ادخلي. ادخلي أكثر تماماً وساعديه، يا فتاة!».

تأمّلت كونسولاتا الجثمان، ودون تردّد نزعت نظارتها وحَدَّقت بالخيوط الحمراء التي كانت تغيّر لون شعره. ودخلت. رأت الطريق الذي حَلُمَ فوقه. أحسّتْ بالشاحنة وهي تنقلب، وبألم في رأسها، وبصدرها وهو ينسحق، وتنفسها وهو يتوّقف. وسمعت إيستِر. وجولي كما لو أنّ صوتيهما يأتيان من بعيد وهما يوجّهان الركلات إلى الشاحنة، وهما يئنّان. ورأت في داخل الشاب نقطة نور تبتعد. جمّعت طاقتها التي كانت تشبه الخوف وأخذت تحدق فيها حتى أخذت تكبر. ثم شيئاً فشيئاً حتى يمكن للهواء أن يتسرّب في البداية، ثم يدخل بقوة. كان النظر إلى نقطة النور تلك كأنه النظر إلى الشر، ومع ذلك فقد ركّزت قواها كما لو أنّ الرئتين اللتين تحتاجان للهواء هما رئتاها.

فتح سكوت عينيه، أرسل أنيناً خافتاً وجلس. فقالت النسوة للولدين اللذين لم يصابا بالجروح أن ينقلاه إلى الدير. تردّدا قليلاً وتبادلا النظرات. فصرخت لون: «هيّا ماذا بكم جميعاً بحق الجحيم؟».

شعر الاثنان بالانفراج تماماً لشفاء سكوت وقالا: «كلّا أيتها السيدة، ياآنسة دوبريس يجب أن نعود». قال إيستِر: «لِنَرَ هَلْ تسير الشاحنة». أجلسوها على عجلاتها ووجدوا أنها ماتزال صالحة للسير. ذهبت لون معهم وتركت كونسولاتا نصف مبتهجة ونصف خَجِلة بسبب مافعلته. فقد مارست السحر.

انقضت بضعة أسابيع قبل أن تعود لون التي طمأنتها بشأن شفاء الصبي.

«أنتِ موهوبة، كنت أعرف ذلك على الدوام».

قلبت كونسولاتا شفتيها منزعجة ورسمت إشارة الصليب وتمتمت بالصلاة: «السلام عليك يامريم، يا ممتلئة نعمة» تبدّد ابتهاجها وبدا لها كل شيء يبعث على القرف. كالسحر. كعمل الشيطان. أمر يمكن أن يعذّبها ويذلّها أن تعترف به إلى ماري ماغنا أو إلى يسوع أو إلى العذراء. لم تكن تعرف ماذا تفعل في ذلك الوقت، كانت مسكونة، مسحورة، إنه سحر لون وقد قالت لها ذلك.

«لاتكوني حمقاء، فالله لايخطئ. واحتقار الموهبة التي منحك إياها خطأ. أنت تدعينه بالأحمق، مثلك؟».

ردّت كونسولاتا قائلة: «إني لاأفهم شيئاً مما تقولين».

«بلى، إنك تفهمين. دعي عقلك ينمو واستعملي ماوهبك إياه الله».

«أظنّ أنه يريدني أن أتجاهلك».

قالت لون: «إنك عنيدة». ثم تناولت حقيبتها ونزلت الممشى كي تنتظر في الشمس السيارة التي ستأخذها.

بعد ذلك أتت سوان: «لقد حدّثتني لون دوبريس عن كل مافعلتِه. فأتيت لأشكرك من كل قلبي».

لم تجدها كونسولاتا مختلفةً في شيء أبداً، سوى أنها قصّت شعرها اللزج الكئيب الذي كان لها عام 1954 ، كانت تحمل سلة وضعتها على المائدة: «سأذكرك إلى الأبد في صلواتي».

أزاحت كونسولاتا المنشفة التي تغطي السلة: قطع حلويات مستديرة موضوعة بين أوراق مشمعة. قالت: «الأم الرئيسة ستحبها مع الشاي» ثم نظرت إلى سوان وأضافت: «وهي جيدة مع القهوة أيضاً».

«أتناول فنجاناً منها. فأنا أحبها أكثر من أي شيء».

وضعت كونسولاتا قطع الحلويات على طبق. «لون تظنّ...».

«الأمر سيّان بالنسبة لي. لقد أرجعته لي».

صاح ذكر إوز في الباحة فهربت الإوزات أمامه.

«لم أكن أعرف أنه ابنك».

«أعرف ذلك».

«كان أمراً لم أستطع الامتناع عن القيام به. أعني إنه خارج قدرتي، إذا صحّ القول».

«أعرف هذا أيضاً».

«وماذا يعتقد هو؟».
«إنه يعتقد أنه أنقذ نفسه».
«ربّما كان مصيباً في ذلك».
«ربّما».
«وماذا تعتقدين أنت؟».
«إنه محظوظ أن نكون له نحن الاثنتين».

نفضت كونسولاتا الفُتات المتبقي في السلة وأعادت إليها المنشفة بعد أن طوتها بعناية. وعلى مدى سنين طويلة ظلّتا تتبادلان هذه السلة.

«الدخول» مع شخص آخر غير ماري ماغنا كان بلا جدوى. فلم تكن هناك كلمة للتعبير عن ذلك. والنور الذي لم تكن كونسولاتا تستطيع تقريبه من عينيها، تحمّلته من أجل الأمّ المحترمة عندما أصيبت بالمرض. وقد جرَّبت في بداية الأمر التقوى التي تحوّلت إلى ذعر بسبب الضعف ـ لاشيء يبدو أنه يروّح عن المرأة المريضة ـ ثم بعد أن استولى عليها الغضب بسبب عجزها تولت إدارة الأحداث. أوغَلت أكثر حتى تجد نقطة النور. عالجتها بيدها، كبّرتها، قوّتها. أعادت إليها الحياة، بل وأخذت ترفعها من وقت لآخر. وأخذت تدخل فيها بقوة لدرجة جعلت ماري ماغنا تسطع كالمصباح حتى نَفَسها الأخير بين ذراعي كونسولاتا. لذلك مارست السحر، وإن حدث ذلك لمصلحة المرأة التي تحبها، فهي تعلم أنّه كان لعنة، وأنّ ماري ماغنا كانت ستتراجع من القرف والغضب لو أنها علمت أنّ الشرّ هو الذي يمدّ في عمرها. وأنّ مباركة الدخول الأخير سوف تؤجل عن عمد من قِبَل شخصٍ كان يجدر به أن يعرف ما حدث. ولذلك فإنّ كونسولاتا لم تحدّثها عنه أبداً. ومع ذلك، لم تتلاش موهبتها، رغم أنها كريهة، وقد أزعجها أن تقرن خطيئة الغرور وأعمال السحر إلا أن الأمر انتهى بكونسولاتا إلى التحالف مع الله وأقنعت نفسها أنها هكذا لن تأثم بحقه، كما لن تعرّض روحها

للتهلكة. إنها مسألة لغة: لون تسمي ذلك: «النفاذ إلى الداخل». وكونسولاتا تقول: «رؤية داخلية»، لذلك فإنّ الموهبة كانت «بصيرة». شيء يجعله الله في متناول من يريدون تنميته. كان ذلك متعرّجاً بعض الشيء، ولكنه وضع حداً للنقاش بينها وبين لون وسمح لها أن تتقبّل أدوية لون من أجل معالجة كل أنواع الأمراض، وتجربة أدوية أخرى، عندما تبهرها «البصيرة». وكلّما ازداد العالم المنظور ظلاماً أصبحت «بصيرتها» مذهلة.

عندما توفّيت ماري ماغنا شعرت كونسولاتا وهي في الرابعة والخمسين أنها أصبحت يتيمة على نحو ما، ليس كطفلة شوارع وليس كخادمة أبداً. كانت الكنيسة محقّة بتحذيرها من الحب البشري المبالغ فيه، فحين فارقتها ماري ماغنا، قَبِلَتْ كونسولاتا تعاطف صديقتيها، والمساعدة ووشوشات مافيس التشجيعية، وجهود غريس لإدخال البهجة إلى نفسها، ولكنّ الحبْل الذي يربطها بالعالم انزلق من بين أصابعها. لم يكن لها هوية، ولاضمان، ولاأسرة، ولاعمل. تواجه الهلاك متوقّعة أن تُطرد، تغشاها الريبة حيال الله، وتشعر أنها لفافة ورق - لم يكتب عليها شيء - ملقاة في زاوية خزانة فارغة. لقد وعدوها بأنهم، دائماً، سوف يهتمون بها، ولكنهم لم يقولوا لها بأنّ «دائماً» تختلف عن «بكل الطرق» كما تختلف عن «إلى الأبد». ولم يساعدها النبيذ السجين المعتق إلّا لبعض الوقت واكتشفت، وهي مشبعة بفظاظة المدمن، أنها تتمنّى أن تتمتّع بالقوة الكافية لتضرب النسوة اللواتي يعشن في المنزل كطفيليات حتى الموت. لقد قالت لها لون بأعلى صوتها: «الله لايقع في الخطأ». ربّما كان الأمر كذلك، ولكنه، من وقت لآخر، يبدو وكأنه مفرط بكرمه: كمنحه قدرات شيطانية لسكّيرة جاهلة لاتملك قرشاً، تعيش في الظلام، عاجزة عن النهوض من سريرها لتقوم بعمل مفيد، أو أن تموت فيه وتخلّص العالم من نتانتها. شعرها أشيب، عيناها مُفرّغتان ممّا خُلقت العيون من أجله. وكانت تتخيل المنظر الذي لابدّ أنها تبدو عليه. فعيناها فاقدَتا اللون لاتريان بوضوح سوى ماهو موجود في أذهان الآخرين. على النقيض تماماً من ذلك الفصل

الأعمى الذي كانت تضاجع فيه الرجل الحي في التراب وتعتقد أنها رأت للمرة الأولى لأنها كانت تنظر بإمعان. ولكنها كانت قد خوطبت، ولُعنت نصف لعنة، وبوركت نصف مباركة. لقد أحْرَقَ خضرة عينيها ووضع بدلاً منها بصيرة خالصة تجلب لها اللعنة إذا استخدمتها.

وقع خطى ودقّات على الباب قطعت سلسلة أفكارها الحزينة التي لامخرج لها.

فتحت الفتاة الباب.

«كوني؟».

«ومن غيرها؟».

«هذا أنا، بالاس. لقد هاتفت أبي مرة أخرى. هذا ماهناك أنت تعرفين. سألتقي به في تولسا. وقد جئت أودّعك».

«أدرك ذلك».

«كان الأمر رائعاً. وكنتُ بحاجة إليه. حسناً، وقد انقضى دهر منذ أن رأيته لآخر مرة».

«كل هذا الزمن الطويل؟».

«هل تصدقين ذلك؟».

«هذا صعب. لقد سَمنتِ».

«نعم، أعرف هذا».

«ماذا ستفعلين من أجل ذلك؟».

«حِمية، كما هي العادة دائماً».

«لاأعني هذا، أعني الطفل. فأنت حامل».

«لست حاملاً».

«لا؟».

«لا!».

«لمْ لا؟»

«أنا في السادسة عشرة وحسب».

«أوه!» قالت كونسولاتا وهي تنظر إلى الرأس المدوّر كقمر عالق فوق عمود فقري، وإلى الزوائد الصغيرة الأربعة ـ قوائم أم أيدي، حوافر أم أقدام. يصعب التحديد عند هذه المرحلة. قد تكون بالاس أمٌّ حبلى بحَمَلٍ، أو طفل، أو نمر. وقالت بينما كانت بالاس تهرب: «ياللشفقة». و«ياللشفقة» مرة ثانية، عندما تصوّرت الحياة التي يُحتمل أن يعيشها الطفل مع أمه الشابة البلهاء. تذكّرت فتاة أخرى، في السن نفسه تقريباً، كانت قد أتت قبل ذلك ببضع سنوات ـ في وقت سيئ للغاية. كانت كونسولاتا موجودة في الداخل منذ سبعة عشر يوماً بمفردها، وقد أخذت تحافظ على تنفّس ماري ماغنا، وراح الضوءُ الأزرق والبارد يهتز إلى أن طلبت ماري ماغنا الإذن بالرحيل، وإن حُرِمت من تناول القربان المقدس الأخير. كانت الفتاة الثانية: غريس قد وصلت في الوقت المناسب تماماً لتنهي الوحدة المخيفة التي خيّمت عندما نُقل الجثمان وهذا ماسمح لكونسولاتا بأن تنام. كانت ماڤيس قد عادت للتو وجلبت معها ماء لوردس (Lourdes) المقدّس، وبعض المسكّنات غير المشروعة. رحبت كونسولاتا بالرفقة التي ألهتها عن أفكار الإخلاء والتجويع والموت دون ندم المثيرة للشفقة الذاتية. دون أوراق ولاحماية. كانت تشعر بأنها ضعيفة بالقدر الذي كانت عليه وهي تتعلّق بيد ماري ماغنا في التاسعة من عمرها، بالقرب من درابزين السفينة «أتيناس». وأيّاً كانت المساعدة التي تستطيع لون دوبريس أو سوان تقديمها لها فإنها لاتشمل المأوى. ليس في هذه المدينة.

ثم أتت فتاة روبي. عيناها مثقلتان بالدموع. وبشيء آخر. لم تكن قلقة، كما هو متوقع بل كانت متمردة بسبب مافي رحمها. انقباض بلغ من العنف درجة تدفعها إلى فصل عقلها عن جسدها وإلى اعتبار هذا الجسد منتجاً لجسد آخر باعتباره غريباً ومتمرّداً وغير طبيعي ومريضاً. لم تكن كونسولاتا تفهم سبب هذا الاشمئزاز، ولكنّه موجود بالفعل. وظهر من جديد في الـ «لا!» التي صرخت بها واحدة أخرى: رعب لايشوبه شيء. مع الأولى، فعلت كونسولاتا

ماتعرف أنّ ماري ماغنا يمكن أن تفعله: هدّأت من روع الفتاة ونصحتها بأن تنتظر موعدها. قالت لها إنّ بإمكانها انتظار الولادة في الدير إذا رغبت بذلك. تهللت ماڤيس، وفرحت غريس. استلمن ريع الحقل وذهبن لشراء كل مايلزم للمولود الجديد. ورجعن حاملات مايكفي من ثياب المولود، والحفاضات والدمى لافتتاح حضانة. والفتاة التي كانت ترفض بإصرار أن تعتني بها القابلة، أخذت تنتظر، هادئة ومقطّبة، قرابة أسبوع. حسب ما اعتقدته كونسولاتا. ولكنها حتى بدء الطلق لم تكن تعلم أنّ الأم الشابة قد ضربت بطنها بكل قسوة. ولو أن كونسولاتا تتمتع بقدرة أفضل على الرؤية ولو لم تكن بشرة الفتاة سوداء مثل ليل عاشق المحيط لكانت رأت الآثار في الحال. لكنها لم تر سوى بعض التورّم ومساحات كبيرة تلوّنَتْ تحت الجلد بالبنفسجي بدلاً من الفضي. ولكن الأضرار الحقيقية، هي التي سبّبتها قبضة المكنسة، التي غُرست بمهارة المغتصب - دون أية شفقة ولعدة مرات - بين فخذيها. وبتلذّذ وإرادة ذكر سريع حاولت انتزاع الحياة خارج حياتها. بطريقةٍ ما نجحت في ذلك بشكل مدهش. فالوليد، وهو ابن خمسة أو ستة أشهر انتفض، قوياً، حانقاً، متصلباً من الخوف، حاول النجاة من السفينة الخربة والمعطلة التي تحمله، من الضربات على جمجمته الهشة، وعلى مؤخرته. ولولا الارتعاشات في عموده الفقري، لكان بلا أمل. لو لم يحاول النجاة بجلده لتحطم قِطعاً أو غَرِق في طعام أمه. لذلك ولِدَ، إذا أمكن القول، قبل الأوان وقد أنهكه هروبه. لكنه كان يتنفّس نوعاً ما. اهتمت به ماڤيس. أما غريس فذهبت إلى السرير. كونسولاتا وماڤيس نظّفتا له عينيه، أدخلتا أصابعهما في حلقه لتمرير الهواء إلى صدره وحاولتا إطعامه. وسارت الأمور هكذا بضعة أيام، ثم أسلم نفسه لرفقة ميرل وبيرل. عند ذلك رحلت أمه دون أن تنظر إليه أو تلمسه أبداً. ودون أن تسأل عنه أو تطلق عليه اسماً. فسمّته غريس تشي ولم تدرِ كونسولاتا أين دُفن. كلّ مافعلته، هي أنها تمتمت: «ياحمل الله، يارافع خطايا العالم، ارحمنا» فوق الباوندات الثلاثة من الحياة الشُجاعة وإنما المهزومة وذلك قبل أن تحمله ماڤيس وتذهب به وهي تبتسم وتناغي.

فكّرت كونسولاتا بأنّ هذا حسن. فحياة تشي مع هذه الأم كان لها أن تصبح جحيماً. والآن شخص آخر يصرخ: لا! كما لو أنّ هذا يحلّ المشكلة. فياللشفقة.

تناولت كونسولاتا زجاجة فلاحظت أنها فارغة، تنهدت واسترخت على مسند الكرسي. فهي تعرف أن أفكارها بلا نبيذ، لاتطاق إذ تتحول إلى انطواء واستدرار للشفقة على نفسها وغضب صامت، قرف، وعار يتلألأ كالجمر في نارٍ ميتة. وعندما حاولت أن تنهض لتُشبع نقيصتها استولى عليها إرهاق شديد أرغمها على الوقوع ثانيةً على الكرسي، وقد أسندت ذقنها على صدرها. فنامت إلى أن صحت من سكرها، ثم استيقظت وهي تشعر بصداع وجفاف في فمها، وبحاجة ملحة لدخول المرحاض. ومن الطابق الثاني سمعت شهقات وراء أحد الأبواب، وغناء وراء باب آخر. نزلت الدرج وعزمت على الذهاب لشم الهواء قليلاً. عبرت المطبخ وهي تجرجر قدميها، وخرجت. كانت الشمس قد غربت تاركة وراءها نوراً أقلّ شدة. تأمّلت كونسولاتا الحديقة وقد اجتاحها فصل الشتاء. غِراس البندورة مدلّاة باسترخاء فوق الثمار المتساقطة على الأرض، سوداء ومتفسّخة في التراب. غراس الخردل مصفرّة شاحبة بسبب العفونة والإهمال. ومحصول كامل من البطيخ متساقط فوق بعضه قرب زهور الأقحوان البنّية بلون الوحل. وبعض ريش الدجاج مازال عالقاً بشريط الحاجز المنخفض الذي يحمي بعض الشيء الحديقة من أي ضرر كان. كانت دون عناية بشرية مع وجود جحور القوارض وقلاع النمل الأبيض وآثار غزوات الأرانب والغربان الكثيرة الراسخة العزم، وماوراء ذلك بدت أكوام الذرة التي جُمعت بعناية في الحقول مهملةً، وباقات غراس الفليفلة التي تتدلى منها أصابع الفليفلة الجعداء متيبسّة من البرد. ورغم حبيبات التراب التي تحملها الرياح وتلفح ساقَي كونسولاتا فإنها جلست على الكرسي الأحمر الباهت.

همهمت: «أنا لست مستحقاً، ولكن قل لي. أين راحة الأيام، وماوُعِدت به من أحواض الصعتر وعطر الفيرونيكة؟ القشدة والعسل

اللذين قلت إني أستحقهما؟ السعادة التي تأتي من المهمات التي نؤديها والسكينة التي يؤمّنها القيامُ بالواجب، وأين البَرَكة التي تمنحها الأعمال الجيدة؟ وماقمت به حبّاً بك هل كان رهيباً إلى هذه الدرجة؟».

لم يكن لدى ماري ماغنا شيء تقوله. فأصغت كونسولاتا إلى الصمت الرافض متسائلةً أكثر من كونها مُغتاظة من السماء التي اصطبغت الآن بألوان الريش الذهبي والأخضر المائل إلى الزرقة الذي يتبختر كحب مُتَبادَلٍ على الأفق. شعرت بالخوف من أن تموت وحيدة دون أن يكون هناك أحد يبكيها، في أرض غير مقدسة، وكانت تعلم أنّ هذا هو بالضبط ماينتظرها. لكم كانت تتمنّى الموت الجيد! وخاطبت الله قائلة: «سأفتقدك. حقّاً» فارتجف نور السماء.

اقترب أحد الرجال. قامته متوسطة، مشيته خفيفة، واتجه صعوداً في الممشى مباشرة. كان يضع قبعة رعاة البقر التي تخفي ملامحه. ولكنّ كونسولاتا، على أية حال، ماكانت تستطيع أن تراها، فحيث جلس على درج المطبخ، في إطار الباب، كان مثلثٌ من الظل يخفي وجهه دون ملابسه: صدارة خضراء فوق قميص أبيض، حمالات حمراء معلقة على جانبي بنطاله الكستنائي، حذاء عمل أسود لمّاع.

سألت: «من هذا؟».

«هيّا، أيتها الفتاة. أنت تعرفينني». انحنى إلى الأمام فرأت أنه يضع نظارة شمسية تتلألأ عدستاها كالمرايا.

قالت: «لا، لاأستطيع القول إني أعرفك».

«حسناً، هذا ليس مهماً. كنت ماراً من هنا» عشر ياردات كانت تفصل بينهما، ولكنّ كلماته لامست خدّ كونسولاتا.

«هل أنت قادم من المدينة؟».

«اهاهه، أنا قادم من بعيد. هل هناك ما يُشرب؟».

«انظر بنفسك في البيت». بدأت كونسولاتا تنساب نحو لسان الرجل كالعسل الذي يسيل من قرص الشهد.

قال، وكأن هذا يسوّي المسألة وأنه يفضّل البقاء عطشان: «أوه، حسناً!».

فقالت كونسولاتا: «ماعليك إلّا أن تنادي والبنات سيجلبن لك شيئاً تشربه». شعرت بأنها خفيفة، لاوزن لها، كما لو أنها تستطيع الانتقال لو أرادت، دون أن تنهض.

سألها الرجل: «ألا تعرفينني أفضل من ذلك؟ ليست فتياتك اللواتي أريد رؤيتهن. بل أنت».

قهقهت كونسولاتا ضاحكةً. «لديك نظارة أفضل من نظارتي».

فجأة، أصبح بجانبها دون أن يكون قد تحرك ـ كان يبتسم، كما لو أنه أمضى (أو يتوقّع أن يُمضي) لحظة سعيدة. ضحكت كونسولاتا مرّة أخرى. بَدَتْ الطريقةُ التي طار بها نحوها من الدَرَجَ والطريقة التي نظر بها إليها ذلك الغاوي كثير المزاح طريفةً جداً بل مضحكة. وعلى مسافة أقل من ست بوصات من وجهها، نزع قبعته الكبيرة. شعر فاتح بلون الشاي انسدل على كتفيه وعلى ظهره. ثم رفع نظارته وغمز بعينه، خفقة بطيئة مُغوية في هدب واحد. لاحظت أنّ عينيه مستديرتان وخضراوان كتفاحتين يانعتين.

على ضوء شمعة ذات مساء بارد من كانون الثاني أخذت كونسولاتا تنظّف، تغسل وتعيد أيضاً غسل دجاجتين ذُبحتا للتوّ. كانتا صغيرتين، لاتبيضان كثيراً، وريشهما حديث النمو يصعب نتفه. كان القلبان، العنقان، الحوصلتان، الكَبدان والأجنحة تتقلّب ببطء في الماء الذي يغلي. شدّت الجلد لتغرز فيه إصبعها أكثر ماتستطيع. وأخذت تبحث عن جيب تحت الصدر قرب الجناح. ثم أمسكت الصدر بيدها اليسرى وغرزت أصابع يدها اليمنى تحت الجلد الأسود حتى وصلت برفق إلى العمق الفقري. وفي كل هذه

الأماكن ـ حيث أبعدت الجلد وفصلت الغشاء عن اللحم الذي يحميه ـ وضعت زبدةً. كثيفةً. شاحبةً. لزجة.

مسحت بالاس عينيها بظاهر يدها وتمخّطت. والآن ماذا؟

لم يكن آخر اتصال هاتفي تحدثت عنه إلى كوني يختلف كثيراً عن الأول. كان أقصر قليلاً وحسب. ولكنه أحدث الخيبة نفسها التي أحدثتها المحادثة مع والدها في الصيف السابق.

يايسوع المسيح، ولكن أين كنتِ بحق الجحيم؟ لقد ظننت أنك مُتِّ. الحمد لله. لقد وجدوا السيارة ولكنها كانت مهشمة، من إحدى جهاتها، وقد سلب أحدهم كل مابداخلها إلى الجحيم. هل أنت بخير؟ أوه، ياطفلتي الصغيرة. «دادي». أين هو؟ ـ سينال جزاءه على كل مؤخرته. قولي لي ما الذي حدث. فالعاهرة أمك تقول أيّ شيء، كما هي عادتها. هل آلمكِ أو سبّب لكِ سوءاً؟ «دادي، لا». حسناً، ماذا إذن؟ أكان وحده؟ أقمنا دعوى على المدرسة ياصغيرتي. إننا نمسك بهم. «لم يكن هو. عدة شبان لاحقوني». ماذا؟ «في شاحنتهم. لقد صدموا سيارتي وأرغموني على الخروج عن الطريق. فركضت و...» هل اغتصبوك؟ «دادي!». تشجّعي ياعزيزتي. استدعي لي يا جو آن الشرطي المحقق. قولي له إن بالاس معي على الخط. لا، هي بخير، اتصلي به، هل تفعلين ذلك؟ هيا ياحبيبتي. «أنا هنا» أين أنت؟ «هل ستأتي لتأخذني يا دادي؟» بالتأكيد سآتي، وحالاً. هل أنتِ بحاجة لنقود؟ أيمكنك الذهاب إلى أحد المطارات أو إلى إحدى المحطات؟ قولي لي فقط إلى أين ستصلين. انتظري. ربما تستطيعين الاتصال بالشرطة، أعني الشرطة المحلية. يمكنهم إيصالك إلى أحد المطارات. قولي لهم أن يتصلوا بي. اهتفي لي من المحطة. أين أنت؟ بالاس؟ من أين تكلمينني؟ بالاس، أنت هناك؟ «مينيسوتا» مينيسوتا؟ يايسوع. كنت أعتقد أنك في نيومكسيكو. ماذا هناك بحق الجحيم؟ بلومنغتون؟ لا، سان بول. هل أنت بالقرب من سان بول

ياحبيبتي؟ «أنا لست بالقرب من شيء، يادادي. أنا في مكان يشبه الريف». اتصلي بالشرطة، ياپالاس. اطلبي منهم أن يأتوا ليأخذوك. هل تسمعينني؟ «نعم، اتفقنا يادادي». بعد ذلك، اتصلي بي من المحطة. «نعم». هل فهمت؟ ألست مجروحة، لاشيء؟ «لا، يادادي». حسناً، جيد. سأكون أنا أو جو آن هنا إذا خرجت. يا طفلتي أي اختبار تخضعيني له، ولكن ستسير الأمور بشكل حسن الآن. وسنتكلم عن ذلك الحقير عندما تعودين. أتوافقين؟ اهتفي لي. يجب أن نتحدث. أحبك ياطفلتي.

حديث، أكيد. ولكنّ بالاس لم تهتف لأحد ـ لا للشرطة، ولا لدي دي ولا له ـ حتى شهر آب. فغضب كثيراً ولكنه مع ذلك أرسل لها نقوداً من أجل نفقات السفر.

وإذا ضحكوا من وراء ظهرها قبل كارلوس، وإذا كانوا قد سخروا منها وألقوا النكات على حسابها فإنّ ذلك لم يصل إليها إلا كإحساس باهت: إشارة متقطعة عندما تدخل إلى قاعة الصف ونظرة تنسلّ عندما تلتفت أمام خزانتها وابتسامة متردّدة مع اقترابها من مائدة مكتظة. فهي لم تكن بالحقيقة في يوم من الأيام ذات شعبية كبيرة، ولكنّ كياستها ونقود أبيها يخفيان الأمر. أمّا الآن فقد أصبحت نكتة مكشوفة (بالاس ترولاڤ هربت مع البوّا...ب، ألا ترى أنّ هذا شيء خارق؟) ولاأحد يحاول أن يخفيها. كانت قد رجعت إلى ذلك المكان الذي تدور فيه الحروب المميتة، خنادق المدرسة المنظمة، حيث العار هو الزمن الذي يتطلبه عبور البهو لنقل الأطباق، والفشلُ هو العبث بقفل مركب، والقرفُ هو واقٍ رقيق يسدّ نافورةً. حيث فيما عدا تبادل الملابس والدمى، لايوجد نوايا حسنة. حيث يسود الاعتداد بالنفس والأحكام الفورية وعمليات الطرد الدائمة. والبالغون لايعرفون شيئاً عن ذلك. فالسجن وحده يمكن أن يكون فظّاً ومخيفاً إلى هذا الحد، لأنّ وراء القواعد والشّعائر تدور حياةُ عنفٍ مُضنٍ. والذين يأتون من عائلات هادئة ومتّزنة يفاجَؤون بقسوة تنقضّ عليهم حالما يدخلون البوابات. إنها قسوة متنكّرة بهيئة الفرح الشبيبي.

لقد حاولت بالاس ولكنّ المذلّة أنهكتها. وميلتون أرغمها على الاعتراف بكل مايتعلق بأمها. كان قد حُذِّرَ من نتائج زواج يتم خارج وسطه. وكلّ تحذير ثبتت صحّته: دي دي عديمة الشعور بالمسؤولية، لاأخلاقية. وللحقّ، إنها مومس حقيقية. وظلت بالاس غامضة، وردّت بأجوبة مراوغة. قاضى المدرسة الثانوية بسبب إهمالها والخطورة التي تشكلها على المحيط، علاوة على ميول المستخدمين الإجرامية. ولكنّ «ضحية» «الاختطاف» سافرت بملء رضاها، وغاية الرحلة «خارج حدود الولاية» هو الوصول إلى منزل أمّ «الضحية». فكيف يمكن أن يكون كل هذا إجرامياً؟ أكان يحدث لدى الأب شيء يجب أن يُبلّغ عنه للعدالة؟ شيء يجعل الفتاة تريد حتماً أن تهرب لتلتقي بأمها؟ وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ أيّ أمر مزعج لم يحدث في إطار المدرسة ـ باستثناء إصلاح سيارة «الضحية» ومرافقتها إلى بيتها. حدث «الاختطاف» أثناء العطلة عندما كانت المدرسة مغلقة. وأخيراً فإنّ «الضحية» لم تذهب بملء رضاها وحسب، بل تعاونت وخدعت الجميع لكي ترافق رجلاً (فناناً، حتى) ليس له أية سوابق وسلوكه وعمله في المدرسة لاغبار عليهما. هل اعتدى جنسياً على «الضحية»؟ هي تقول: لا، لا، لا، لا. هل أعطاها مخدراً؟ هل أعطاها شيئاً محظوراً قانونياً لتدخّنه؟ بالاس كانت تجيب بالنفي بإيماءة من رأسها متذكّرة أنّ أمها هي التي فعلت ذلك. من الذي هشّم سيارتك؟ لاأدري. لم أرَ وجوههم. فقد هَربتُ. إلى أين؟ ذهبتُ بالأوتوستوب مع أناس. من هم؟ أناس في مكان كالكنيسة. في مينيسوتا؟ لا، في أوكلاهوما. وماهو العنوان ورقم الهاتف؟ دادي، كف عن ذلك. لقد رجعت إلى البيت أليس كذلك؟ نعم. ولكني لم أعد أريد أن أقلق عليك. لاتفعلي. لاتفعلي.

لم تكن حالة بالاس على مايرام: فأقلّ شيء تأكله يرفع وزنها عدة باوندات، مع أنها كانت تتقيأ تقريباً كل شيء. وأمضت عيد الشكر بمفردها، تأكل مما تهيئه لها العناية الإلهية. وبمناسبة عيد الميلاد أرادت أن تسافر. ميلتون قال لا. ستبقين هنا. قالت إلى

شيكاغو وحسب لتزور أخته. وأخيراً وافق. واهتمّت سكرتيرته بتدابير السفر. بقيت بالاس مع شقيقة ميلتون حتى الثلاثين من شهر كانون الأول، ثم ذهبت دون أن تُعلِم أحداً (بعد أن تركت كلمة مطمئنة، ولكنها مضللة). في مطار تولسا احتاجت لساعتين ونصف حتى استطاعت استئجار سيارة مع سائق لإيصالها إلى الدير. كانت تقول بأنها مجرّد زيارة، لترى كيف كان الجميع. ولكن من الذي ستتمكن من خداعه سوى نفسها؟ لاأحد على مايبدو. ألقت كوني نظرةً خاطفة إليها. والآن ماذا؟

أخذت كونسولاتا تحني الدجاجات وتنظر في تجويف مؤخراتهن، الوردي والفضّي. تذرو فيه ملحاً وتُزيل ماسقط حوله ثم تدهن السطح الخارجي بمزيج من الزبدة والقرفة. تضيف بصلاً إلى قطع العنق والقلوب والقوانص على سطح المرق الذي يغلي، وحالما أصبحت الدجاجتان بنيّتي اللون وطريّتين نتيجة القلي، وضعتهما جانباً لكي تسترجع سوائلهما.

الماء فاتر في حوض الحمّام وقليل العمق، ولايصل إلّا إلى خصرها. وجيجي تحبّ الحمام حاراً، عميقاً، وله فقاقيع. كانت التمديدات في المنزل خربة: يصل فيها الماء ملوناً ويصعد بصعوبة ولايصل أحياناً حتى الطابق الثاني. وكان ماء البئر يمر عبر مرجل على الحطب لم يكن أحد سواها يفكّر بصيانته. بدا الحصول على غالونات من الماء الساخن من جهاز معطل عملاً مرهقاً حقيقياً، وأسوأ من ذلك أيضاً في فصل الشتاء. لقد ساعدتها سينيكا بالتأكيد، بأن حملت لها عدة دلاء ملأى بالماء الساخن من موقد المطبخ إلى الحمام. ومن أجل الفقاقيع سكبت لها قليلاً من «إيفوري سنو»

وحرّكت الماء بأفضل مااستطاعت، لكنّ ذلك لم يعط سوى نوع من الحمأ المخيب للآمال. كانت قد طلبت من سينيكا أن تأتي معها إلى الحمّام وتحمّلت رفضها المعتاد، ولكن حتى وإن فهمت لماذا تُفضّل صديقتها ألّا تظهر عاريةً، لم تكن جيجي تستطيع منع نفسها من مشاكستها بشأن قلة استحمامها. لقد رأت ورق التواليت المدمى، أما الآثار على بشرة سينيكا فقد أحست بها تحت الغطاء وحسب. ورغم أن جيجي بغيضة وفظّة، فإنها لم تكن تستطيع أن تسألها عن هذا الموضوع. فربّما كان للجواب علاقة وثيقة مع مشهد الصبي الأسود الصغير النازف.

مدّت ساقيها وأخرجت قدميها من الماء لكي تتأملهما مثلما فعلت في معظم الأحيان عندما كانت تضعهما على ظهر «K.D.» وهي مستلقية في المستودع، بينما هو جالس وقد أدار ظهره العاري نحوها. إنها تفتقده من وقت لآخر. رغم إخلاصه الفوضوي، المليء بالاندفاعات المزاجية والجراح والتوق والكثير الكثير من الهجر. صحيح أنها لاحقته قليلاً. فجاهزيته وعشقه قد أعجباها لأنّ خبرتها بهذا الشأن محدودة جداً. ميكي. لايمكن تسمية ذاك حباً. ولكنّ الحب على طريقة «K.D.» لم يبق ممتعاً لأمد طويل. فقد شاكسته أو شتمته أو رفضته أكثر من مرة وطاردها حول المنزل وأمسك بها ثم صفعها. فأوقفته ماڤيس وسينيكا وضربتاه بأدوات المطبخ وطردتاه - وردّت الثلاثة على شتائمه بأعنف مااستطعن ابتكاره من شتائم.

فكرت، آه، حسناً. هاهو عام جديد. إنه عام ألف وتسعمئة وخمسة وسبعين. مشاريع جديدة، لأنّ القديمة ثبت أنها لم تكن إلّا هراء. وعندما نجحت أخيراً بإخراج العلبة من تحت بلاط الحمّام صاحت فرحةً عندما وجدتها مليئة بالشهادات الدراسية. وقد سُرّ بها موظف المصرف ودفع لها خمسة وعشرين دولاراً لكي يضعها في إطارات، أو في إحدى الواجهات لتسلية الزبائن. إذ أنّ الناس لايستطيعون أن يروا كل يوم بعض الوثائق المتعلّقة بإحدى أكبر

عمليات النصب والسرقة التي حصلت في الغرب. طلبت خمسين دولاراً، خرجت من المصرف بخطى متثاقلة، وقالت لماڤيس: انطلقي من فضلك!.

ستجعل سينيكا تغادر معها. للخير هذه المرّة. وستعود إلى الشجار. بشكل ما، ومكان ما. فمن المستحيل تحديد مكان إقامة أمها، وأبوها أصبح في طابور الموت. ولم يبق لها سوى جدّ، يعيش في بيت متنقل أنيق في ألكورن بولاية المسيسبي. لم تكن قد فكرت بذلك بدقة، ولكنها أخذت تتساءل الآن لماذا غادرت. الشجار هو السبب. ليس فقط بسبب الصبي الصغير النازف، ولابسبب خدعة ميكي بشأن الزوجين اللذين يتضاجعان في الصحراء، ولابسبب نصيحة ذلك الشخص القصير بخصوص الماء الصافي والشجرتين المتشابكتين. قبل مجيء ميكي، كان هدف حياتها يضيع في التسلية والمغامرة. المظاهرات الاستفزازية، المناشير، المشاجرات، الشرطة، والجلوس القرفصاء، المسؤولون والمناقشات والمناقشات، الكثير من الكلام والجدالات دون أن يكون هناك شيء جدّي. شدّت جيجي بيد مغطاة بالصابون لفافة في شعرها. لم تكن طالبة ثانوية ولا طالبة كلية، لاأحد، ولا حتى الفتيات الأخريات كن يقدّرن جدّيتها بشكل جدّي. ولو لم تكن قادرة على الطباعة لما عرف أحد أنها موجودة. ماعدا ميكي. صرخت بأعلى صوتها: «قذرون». ثم دون أن تدري أيّ من القذرين هم الأكثر إثارة لغضبها، أخذت تضرب بباطن يدها ماء حوض الحمّام المقرف وتقول في كل مرّة: «اللعنة!» حتى هدأت بعد وقت قصير، فاستلقت في حوض الحمّام، غطّت وجهها بيديها المبلّلتين، وأخذت تهمس في راحتي يديها المخضلتين: «لا، أنتِ هي الغبية، عاهرة غبية. لأنكِ لم تكوني قاسية ولاذكية بما فيه الكفاية. مثلما هو حالك مع بقية الأشياء اللعينة، ليس لديك قوة مثابرة. ظننت أن الأمر سيكون مسلياً وأنه سينجح. خلال فصل أو فصلين. ظننت أننا حمم حارّة وعندما حوّلونا إلى رمال، هربتِ».

لم تكن جيجي من النوع الذي يبكي، وحتى الآن عندما تبيّن لها أنها ليست راضية عن نفسها منذ زمن طويل، طويل جداً، فقد ظلّت عيناها جافّتين، مثل جمجمة في صحراء.

تقشّر كونسولاتا بعض حبات البطاطا الصغيرة بنّية اللون، وتقسمها إلى أربع قطع، ثم تغليها في ماء حار متّبل بعصير التنبول، والغار والمريمية، قبل أن ترتبها في مقلاة حتى تصبح ذهبية داكنة اللون. ثم ترش عليها مسحوق البابريكا والفليفلة السوداء، وتقول: «أوه، نعم، أوه، نعم!».

قال إنها أفضل شيء لعين يسير على عجلات. وأَملَتْ ماڤيس بأنّ الحب الذي يكنّه لـ الكاديلاك التي بلغت عشر سنوات من القدم يعني أنه سيعطيها استراحة. ولن تعرف قط إذا كان قد فعل ذلك، ولكن قبل أن يغلق المكانيكي دكانه بالضبط أنجز العمل وتقاضى خمسين دولاراً أجرته، اثنين وثلاثين ثمن القطع، ثلاثة عشر ثمن زيت وبنزين، وهكذا اختفت تقريباً جميع النقود التي أتتها من ريع حقل الذرة الصفراء. ولادفعات يمكن أن تتوقعها من السيد بيرسون قبل ثلاثة أشهر. لكن بقي مايكفي للتسوق، وللدّهان الذي تريده كوني كما فكرت هي (من أجل الكرسي الأحمر، ودهان أبيض أيضاً من أجل قنّ الدجاج) وكذلك من أجل قضبان البوظة. فالتوأمان يحبّانها كثيراً ويلتهمانها بسرعة كبيرة. ولكنهما لم يمسّا دمى عيد الميلاد، وكان على ماڤيس أن تنتظر خمس ساعات لضبط وإصلاح السيارة وهي تبدل شاحنة فيشربرايس بشاحنة من نوع تونكا ودمية تايني تينا بأخرى تتكلّم. وبيرل ستصبح كبيرة بعد فترة وجيزة لتحصل على باربي. إنه لأمر مذهل كيف يتغيران وينموان. كانا لايستطيعان تثبيت رأسيهما بعد عندما سافرا، ولكنها عندما

سمعتهما في الدير للمرة الأولى، كانا قد أخذا يمشيان في السنة الثانية من العمر، تستطيع تحديد ذلك بدقة بناءً على ضحكتيهما، وعلى الطريقة التي اندمجا بها تماماً مع الأطفال الآخرين الذين يتراكضون في الغرف، كانت تعرف كم نموا. والآن، أصبحوا في سن الدخول إلى المدرسة: ست سنوات ونصف، ويجب على ماقيس أن تفكّر بهدايا تناسب أعمارهم لذكرى ميلادهم ولعيد الميلاد.

لقد كانت تشعر بالوحدة الشديدة عندما عادت إلى مريلاند عام 1970 . وبينما كانت تنظر إلى موضع المدرسة حيث سجّلت فيها سال وفرانكي وبيلي جيمس، تبينّ لها وقد شعرت بصدمة أن سال يجب أن تكون في السنة الأخيرة في المدرسة الثانوية، وبيلي جيمس في الثالث الابتدائي، وفرانكي في الخامس. ومع ذلك، كان في ذهنها أنّ التعرف عليهم لايطرح أية مشكلة حتى ولو لم تكن واثقة من التعرف على نفسها. ربّما أصابعها المتشبّثة بحاجز الباحة، أو لمحة غريبة في وجهها، أو أيّ شيء كان، لابد أنه قد أخاف التلاميذ، لأنّ رجلاً أتى وألقى عليها بعض الأسئلة ـ دون أن تستطيع الإجابة على أيّ منها. فهربت محاولة أن تختبئ وتنظر في آن معاً. أرادت الذهاب إلى بيت بيغ ولكن دون أن تدع فرانك يراها أو الجيران. وعندما وجدته ـ كانت الفتاة الصغيرة ذات القبعة ماتزال تَسُوق البطات ـ بكت. شجرة ورد شارون البريّة والقوية والجميلة جداً، قُطعت على مستوى الأرض. والخوف من أن تُعرف وحده، الذي منعها من أن تعبر الشارع ركضاً. وبوضوح مفاجئ وشديد، أدركت أنها ليست في أمان هنا ولافي أيّ مكان لايتواجد فيه ميرل وبيرل. كان ذلك قبل أن تتّصل بـ بيردي وتعلم بوجود المذكّرة.

رفعت ماقيس شعرها في قلنسوة صوفية كبيرة خضراء غامقة، واشترت نظارة من النوع الرخيص، ثم استقلّت الباص إلى واشنطن (D.C.)، ومن هناك إلى شيكاغو، حيث اشترت الأشياء التي تريدها كوني من أجل الأم الرئيسة، واستقلّت باصاً آخر، ثم آخر إلى أن وصلت إلى موقف الباصات في محطة ميدلتون حيث تركت

الكاديلاك. وذهبت لتعطي كوني الأشياء التي اشترتها لها وتعود إلى توأميها مسرعة في سيرها طيلة مسافة الرحلة. صعدت ماقيس الممشى، وهي في حالة عصبية، لاهثة. وتوقفت قرب جيجي العارية، التي سبق لها أن اختارت مسكناً في ملجئها. لقد تشاجرتا وتقاتلتا طيلة ثلاث سنوات، ولحسن حظ كوني نجحتا بتحاشي ارتكاب جريمة القتل. كانت ماقيس تعتقد أنّ جنون جيجي بِرَجُلٍ روبي هو الذي منعهما من تناول سكين. لأنّ ماقيس كان يمكن أن تفعل ذلك، وأن تقاتل حتى النهاية ضدّ أيٍّ كان، بمن فيهم تلك العاهرة التي تربت في الشوارع، وتهدّد بقتلها وترك أطفالها دون حماية. لذلك استقبلتْ سينيكا اللطيفةَ، بصدق، بل بإسراف، استقبالاً تقاسمته «جيجي» معها تماماً، لأنّ سينيكا عندما وصلت، طردت «K.D.» كما تُلفظ بذرة العنب. كانت كبرياء ماقيس بالمكان مؤكدة. حتى الفتاة الصغيرة الغنية والحزينة، ذات الوجه الجميل الحزين لم تجعلها موضع شك. كان التوأمان سعيدين، وكانت ماقيس أقرب إلى كوني من أيّ من البقية وبسبب قربهما الشديد من بعضهما وتفاهمهما الشديد بدأ القلق يساور ماقيس. ليس بسبب عادات كوني الليلية، ولابسبب ميلها للشراب - أو غياب ميلها، إنما لأنّ الاهتياجات المعتادة اختفت مؤخراً. هناك شيء آخر، الطريقة التي تهزّ بها كوني رأسها كما لو أنها تصغي لشخص قربها، وكيف تقول «اهاهه»، أو «هل ترى ذلك» وتجيب على أسئلة لم يطرحها أحد. ومن جهة أخرى، فإنها لم تكفّ عن وضع نظارة شمسية على عينيها وحسب، ولكنها أخذت تتجمّل كل يوم، لو استطعنا قول هذا، بارتدائها أحد الفساتين التي تعطيها إياها سوان مورغان عندما لاتعود بحاجة إليها. وكانت تضع في قدميها حذاء الراهبات اللماع الذي كان سابقاً على منضدة زينتها. ولكن هي نفسها، مع الضحكات المرحة التي ترنّ في أذنيها، وقضبان البوظة التي تذوب في عِزّ الشتاء، لم تكن في وضع يسمح لها بالحكم على أمور كهذه. ولم تكن كوني تطرح أسئلة حول حقيقة التوأمين قط، وبالنسبة لماقيس التي

لم يكن لديها النيّة بأن تشرح ماتعرف أنه حقيقي أو تدافع عنه، كان ذلك القبول مركزياً. وقد أصبحت مرات ظهور الزائر الليلي أكثر فأكثر ندرةً، ومابدأ يعنيها ويشغل بالها الآن هو السرعة التي ينمو بها ميرل وبيرل. وفيما إذا كانت تستطيع مجاراتهما.

ست تفاحات صفراء أذبلها تخزين الشتاء، وقد انتُزع لبّها، تطفو على الماء. وكمية من الزبيب تُسخّن في مقلاة من النبيذ. ملأت كونسولاتا كل تفاحة بمزيج قشديّ مكوّن من صفار البيض، العسل، جوز البيكان والزبدة، وأضافت إليها واحدة واحدة الزبيب المنتفخ بالنبيذ، ثم سكبت النبيذ المنكّه في مقلاة وألقت فيه التفاحات. أخذ السائل الحار والحلو يتحرك.

كانت الأزقّة ضيقة ومستقيمة ولكنها تفيض حالما تَشُقُّها، أحياناً تأخذ منادِيلاً ورقية لكي تمسح الدم، ولكنها كانت تحب أن تتركه يسيل أيضاً. كانت اللعبة تقضي بإحداث الجرح في العمق المناسب تماماً، ليس سطحياً أكثر مما ينبغي وإلّا فإنّ الخدش لايُحدث سوى خط ضعيف أحمر. وليس عميقاً وإلّا فإنّ الدم يصعد وينبثق بسرعة بحيث لايعود الشارع يُرى. ورغم أنها انتقلت من ذراعيها إلى ساقيها لكي ترسم الخارطة، فقد كانت تتعرّف بسرور على آثار الطرقات والجادّات القديمة، التي حتى نورما وجدتها تثير الاشمئزاز. كانت واحدة تكفي أحياناً لعدة أشهر. ثم تشق في أوقات أخرى اثنتين منها في اليوم، تاركة الوقت الكافي بالكاد لأحد الشوارع بأن ينغلق قبل أن تفتح شارعاً آخر. ولكنها لم تكن متهورة. فهي تستعمل أدوات نظيفة مع الكثير من صبغة اليود (فهي أفضل من الميركوروكروم). وقد أضافت مرهم الصبر إلى مايلزمها من معدّات.

بدأت العادة التي أخذتها من أحد بيوت التبني، كحادثة. قبل أن يعمد أخوها بالتبنّي ـ طفل آخر يربى في منزل الأم غرير ـ إلى نزع ملابسها الداخلية للمرة الأولى، انفتح دبوس الأمان الذي يمسك بحزامها بدلاً من الزر المستخدم لذلك، فخدش لها بطنها في الوقت الذي شدّ فيه هاري بنطالها الجينز. وعندما ألقاه بعيداً، ووصل إلى سروالها، أثارته أكثر رؤية خيط الدم. لم تبكِ، لم يؤلمها ذلك. وعندما حمّمتها الأم غرير، فرقعت بلسانها: «ياطفلتي المسكنية، لماذا لم تقولي لي؟» ووضعت قليلاً من الميركوروكروم على الخدش. لم تكن تدري تماماً عمّا كان عليها أن تتحدّث: عن دبوس الأمان أم عن تصرّف هاري. عند ذلك خدشت نفسها بالدبوس وأرت ذلك إلى الأم غرير. ولأنّ تعاطفها قلّ، فقد حدّثتها عن هاري. «لاتكرّري هذا أبداً مرة أخرى. أتسمعينني؟ أتسمعينني؟ أمور كهذه لاتحدث هنا». وبعد وجبة مكوّنة من أطباقها المفضلة، وُضعت لدى أسرة أخرى. لم يحدث شيء طيلة سنوات عديدة. حتى دخلت المدرسة الثانوية في الصف الحادي عشر. في ذلك الوقت عرفت أنّ شيئاً فيها يدفع الفتيان إلى الإمساك بها والرجال يلمّحون لها. وإذا شربت زجاجة كوكا مع خمس فتيات أخريات عند نضد مخزن الاشياء الرخيصة يأتي إليها أحد الفتيان إثر رهانٍ مع رفاقه، الضاحكين الهازئين، ليقرص حلمة ثديها. بوسع أربع فتيات أو واحدة فقط النزول إلى الشارع، ولكنها عندما تمرّ أمام الرجل الجالس مع طفلته على مقعدٍ في إحدى الساحات العامة فإنه في تلك اللحظة يرفع قضيبه ويرسل أصوات القبلات. والبحث عن ملجأ لدى الأصدقاء الذكور ليس أفضل. كانوا يعتبرون تعلقها بهم أمراً مؤكداً، لكنها إذا اشتكت لهم بأنّ رفاقهم أو بعض الغرباء قد لمسوها ينقلب غضبهم ضدها، لذلك عرفت أنّ المشكلة هي شيء ما في داخلها.

دخلت في الخطيئة كشاعر مُراقَب، كلماته أكثر طراوةً وأكثر إباحيةً من أن تنشر. لقد أثارها ذلك، جعلها تتوازن. وولوج تلك الحياة تحت ملابسها كان يترك عينيها جافّتين ويولّد فيها سكينة لم

يكن يعكّرها سوى النساء اللواتي كنّ يبكين ويفجّر منظرُهُنَّ فيها ألماً مُفجِعاً بوحشية شديدة إلى درجة أنها يمكن أن تعمل أيّ شيء كي تقضي عليه. في العاشرة من عمرها لم تكن تقطع أرصفةً عندما اغتيل كينيدي وبكاه العالم كله علناً. ولكنها كانت في الخامسة عشرة عندما اغتيل كينغ في الربيع وكينيدي آخر في الصيف ذاته. وفي كل مرة كانت تحصل على إجازة مرضية من عملها كجليسة أطفال وتحبس نفسها في البيت لكي تفتح شوارع قصيرة، طرقات وأزقة في ذراعيها. كان من السهل إخفاء عملها الدموي. ومثل ايدي تورتل فإن أغلب أصدقائها الذكور كانوا يفعلون ذلك في الظلام. أما بالنسبة لأولئك الذين يصرون في الحصول على جواب كانت تختلق مرضاً. ويحصل التعاطف بصورة فورية، لأنّ الندبات كانت تبدو أنها جراحية فعلاً.

والأمان الذي وجدتْهُ في منزل كوني صار أقل سلامة مما كان عليه عندما وصلت بالاس. فقد أمضت كثيراً من الوقت تعمل على رفع معنوياتها وتغذيتها، لأنّ بالاس عندما لاتأكل كانت تبكي أو تحاول ألّا تبكي. والارتياح الذي رافقَ رحيلَها في أواخر آب تبدّد مع عودتها في كانون الأول - أكثر جمالاً، أكثر بدانةً، مدّعية أنها لم تتوقّف إلا للزيارة. في سيارة ليموزين، ليس أقلّ من ذلك، مع ثلاث حقائب. الوقت الآن كانون الثاني وكلّ ليلة يمكن سماع شهيقها في كل أرجاء البيت.

شقت سينيكا طريقاً آخر. نقطة تقاطع، بالواقع، لأنه يتقاطع مع الطريق الذي كانت قد شقته قبل لحظات.

مُدّت المائدة والأطعمة في مكانها. تنزع كونسولاتا مَرْيلَتها. وبنظرة العميان الأرستقراطية، مسحت وجوه النساء وقالت: «اسمي كونسولاتا سوسا. إذا أردتنّ البقاء هنا يجب أن تفعلن ماأقوله. تأكلن كما أقول. تنمن عندما أقول. وسأخبركنّ إلى أيّ شيء تشعرن بالجوع».

تنظر النسوة إلى بعضهن البعض ثم يلتفتن نحو شخص لم يميزنه. له ملامح كوني العزيزة. ولكنها منحوتة على نحو ما: وجنتاها أعلى وذقنها أقوى. هل كان حاجباها بهذه الكثافة، وأسنانها بهذا البياض كاللؤلؤ؟ شعرها لم يعد أشيب. بشرتها بنعومة الدرّاق. لماذا تتكلم هكذا؟ وعمّ تتكلّم؟ هذا ماتساءلت عنه النسوة. هذه السيدة المسنّة الوديعة، غير المتوعّدة، التي يبدو أنها تحبّ كل واحدة منهنّ على أفضل وجه، التي لم توبّخ أحداً قط وتتقاسم معهنّ كل شيء، ولكنها تحتاج القليل، ولاتحتاج إلى عناية، ولاتطلب أي مشاركة عاطفية، التي تصغي، ولاتغلق أبواباً وتقبل كل واحدة كما هي. فعمّ يمكن أن تتكلم هذه الأم، هذه الصديقة والرفيقة المثالية، التي يشعرن معها أنهن في مأمن من الأذى؟ وبماذا تفكر هذه المالكة الرائعة التي لاتطلب من أحدٍ أن يدفع شيئاً وترحب بالجميع. هذه الجدّة الإوزّة التي يعهدن إليها بمكنونات قلوبهن أو يتجاهلنها، يكذبن عليها أو يخدعنها، هذه الأم الدمية التي يمكن معانقتها أو تركها، تبعاً لنزوات الابنة؟

وتابعت: «إذا كان لديكنّ مكان عليكنّ الذهاب إليه، أو إذا كان أحدٌ ما يحبّكن وينتظركنّ فيه، إذن، اذهبن. وإلّا، فابقين هنا واتبعنني. ربّما يكون هناك من يريد اللقاء بكنّ».

لم تغادر أية واحدة منهنّ. كانت هناك أسئلة عصبية وانفجار واحد لقهقهة مرتعدة، بعض الانزعاج ومحاولات الغضب المصطنع. ولكنهن لم يرين في أي وقت أنهن يمكن أن يغادرن المكان الذي لهن الحرية في أي يغادرنه.

وبالتدريج ضاعت منهن الأيام.

كان أهمّ شيء، في البداية، هو القالب. أولاً وقبل كل شيء كان عليهن أن ينظّفن أرض القبو تماماً إلى أن تصبح حجارته بنظافة

صخور الشاطئ. ثم وضعن شموعاً بشكل دائري على الجوانب. طلبت كونسولاتا من كل واحدة منهن أن تتعرّى وتستلقي على الأرض. وفعلن كما طلب منهن في الضوء الخافت، وتحت نظرات كونسولاتا الواهنة. كيف يجب أن نستلقي؟ كما يحلو لكنّ. حاولن إسدال أذرعهن على الجانبين، أو بَسْطها فوق رؤوسهن، مصالبتها على صدورهنّ أو على بطونهنّ. في البداية، استلقت سينيكا على بطنها، ثم على ظهرها، وقد شدّت بيديها على كتفيها. استلقت بالاس على جانبها وقد طوت ركبتيها. وباعدت جيجي مابين ذراعيها وساقيها، بينما اتّخذت ماڤيس وضعيّة السبّاحة، الذراعان مطويتان والركبتان مرفوعتان. وعندما وجدت كل واحدة منهن الوضعية التي تستطيع تحملها على الأرض الباردة والقاسية قامت كونسولاتا بجولة عليهن ورسمت شكل كل جسد من أجسادهن. وبعد أن اكتملت الخطوط الخارجية تلقت كل واحدة منهن الأمر بأن تبقى في مكانها. لاتتكلم. عارية تحت ضوء الشموع.

أخذن يتلوّين وقد استبدّ بهن قلق شديد ولكنهن رفضن التحرك خارج القالب الذي اخترنه. وفكّرن عدة مرّات بأنهن لن يستطعن الاحتمال ثانية واحدة زيادة على ذلك، لكن أياً منهن لم ترغب بأن تكون البادئة بالانسحاب أمام تينك العينين الشاحبتين اللتين كانتا تراقبانهنّ. وكانت كونسولاتا هي أول من تكلم:

«جسدي الطفل، جرحٌ وقَذارة، يتقلب بين ذراعي امرأة تُعلِّمني أنّ جسدي هو لاشيء، وروحي كل شيء. وقد وافقتها الرأي إلى أن التقيت بأخرى. كان لحمي جائعاً لنفسه بحيث ألتهمه. وعندما هرب أنقذتني المرأة من جسدي ثانيةً. أنقذته مرتين. عندما أصيب جسدها بالمرض سهرتُ عليه بكل طرق العناية باللحم. أُمسك به بين ذراعيّ وبين ساقيّ. أنظّفه، أهدهده، أدخل فيه لكي يستمر بالتنفّس. وبعد أن ماتت لاأستطيع الذهاب إلى أبعد من ذلك. عظامي فوق عظامها هو الشيء الوحيد الجيد. ليس الروح بل العظام. ليست مختلفة عند الرجل. عظامي فوق عظام الرجل هو الشيء الوحيد الحقيقي. ولذلك أتساءل أين تضيع الروح في هذا؟ فهي حقيقية

كالعظام. وهي جيدة كالعظام. واحدة حلوة، وواحدة مُرّة. أين ضاعت؟ اسمعنني واصغين إلي. يجب ألاّ تُكسر أبداً إلى اثنتين. وألاّ توضع الواحدة فوق الأخرى. حوّاء هي أم مريم. ومريم هي بنت حوّاء».

ثم بعبارات أكثر وضوحاً من خطابها الافتتاحي (الذي لم تفهمه أية واحدة منهنّ) حدّثتهنّ عن مكان فيه أرصفة بيضاء تقابل البحر، وأسماك ذات لون درّاقي تسبح بين الأطفال. تكلمت عن فواكه لها طعم الزمرّد، وصبيان يستخدمون أحجار الياقوت كنرد. وكاتدرائيات معطّرة صُنعت من الذهب، يجلس فيها الآلهة والآلهات على المقاعد مع المؤمنين. وأزهار قرنفل طويلة كالأشجار. وأقزام لهم أسنان من الماس. وأفاعٍ أيقظها الشِعرُ والأجراس. ثم حدّثتهم عن امرأة تدعى بيداد كانت تُغني ولكنها لاتقول كلمة على الإطلاق.

هكذا بدأ الحلم بصوت مرتفع. كيف ظهرت القصص في ذلك المكان. أنصاف الحكايا والحكايات التي لم يحلم بها أحد أبداً كانت تفلت من بين شفاهِهنّ لترتفع عالياً جداً، فوق شموع تذوب، وتنقل الغبار عن الصناديق و الزجاجات. ولم يكن مهماً على الإطلاق معرفة من كان يروي الحلم أو إذا كان له معنى. ورغم أو بسبب أجسامهن التي تؤلمهن، يدخلن بسهولة في حكاية تلك التي تَرى الحلمَ. ويدخلن في حرارة الكاديلاك فيشعرن بصفعة الهواء البارد حيث تختلط الأمور. يعرفن أنّ أحذيتهن الخاصة بالتنس قد فُكت أربطتها، وأنّ شريط حمّالة النهدين يزعجهن كلما انزلق عن الكتف. رزمة أرمور لزجة. إنهنّ يستنشقن عطر الأطفال النائمين الذين يشعرون بالاطمئنان الأبوي، وإن كنّ يلاحظن أن هناك رأساً قد أُديرَ بشكل أخرق. يُعدن وضع رأس الطفل النائم ويرفضن، يرفضن بكل صراحة مايعرفنه ويقدن السيارة إلى البيت. يصعدن درج المدخل حاملات نقانق فرانكفورت والأطفال الرضّع والحقيبة على أذرعهن. ويقلن: «يبدو أنهم لايريدون أن يستيقظوا، سال. سال؟ انظري. كأنهم لايريدون». يرفسن بسيقانهنّ تحت الماء، ولكن ليس بقوة كيلا يوقظن الزعانف أو الحراشف الموجودة في الأسفل أيضاً.

أصوات الذكور التي تقول، تقول إلى الأبد، تقول ادفع ما يخصهم في حلوقهنّ. فيَقُلْنَ ويقلن حتى لايبقى نَفَسٌ للصراخ أو للمعارضة. كل واحدة منهنّ ترفّ بجفنيها وتشعر بالغثيان بسبب الغازات المسيلة للدموع، تمدّ يدها ببطء نحو ساقها المكشوطة، والضماد الممزق. تركض صعوداً وهبوطاً عبر القاعات في وضح النهار، وتنام في كرة تظل أنوارها تشع طيلة الليل، تطوي الخمسمئة دولار في كعب جوربها. ترسل صراخ الألم بسبب قضيب رجل غريب ومنافسة أم ـ فتّان ومزعج كالكوكايين.

في الحلم الذي يتمّ بصوت مرتفع، لايختلف المونولوج عن الصراخ، والاتهامات التي توجّه إلى الأموات وإلى من رحلوا منذ زمن طويل، فسدت بوشوشات الحب. لذلك، بعد أن أصبحن منهكات وغاضبات، نهضن وذهبن إلى أسرّتهنّ وهنّ يُقسِمن بأنهنّ لن يخضعن أبداً لهذا مرة ثانية، لكن مع علمهنّ التام بأنهنّ سيفعلن ذلك مرة أخرى. وقد فعلنه.

الحياة الحقيقيةُ والمكثّفة، انتقلت لتنزل إلى هناك في الأسفل، في بقع ضيقة من الضوء، والهواء مثقلٌ بدخان مصابيح الكيروسين والشموع. كانت القوالب تجذبهنّ كالمغناطيس. بالاس هي التي ألحّت عليهنّ كي يشترين مواسير الألوان والطباشير الملونة. مواد حالّة وجلود شاموا. وقد فهمن وباشرن بالعمل. أولاً بالعناصر الطبيعية: النهود، الفروج، أصابع القدمين وشعر الرأس. ضاعفت سينيكا أحد ندباتها الأكثر أناقة باللون الأزرق الذي يشبه لون بيضة أبي الحناء، مع نقطة واحدة بالأحمر على طرفها المستدق. وفيما بعد، عندما جاءت لتخدش داخل فخذيها، اختارت بدلاً من ذلك أن تخدش الجسد المفتوح المستلقي على أرض القبو. أخذن يتحدّثن فيما بينهنّ عمّا حلمن به وعمّا رُسم. أمتأكدة أنت أنها كانت أختك؟ ربما كانت أمك. لماذا؟ لأن الأمّ يمكن أن تفعل شيئاً كهذا، ولكن الأخت لاتفعله أبداً. أغلقت سينيكا ماسورة ألوانها. رسمت جيجي ميدالية على شكل قلب حول حنجرة جسدها، وعندما سألتها ماقيس ماهذا. قالت لها إنها هدية من أبيها كانت قد ألقتها في خليج

المكسيك. هل كان فيها صور؟ هذا ماسألتها عنه بالاس. نعم. اثنتان. لمن؟ لم تُجب جيجي فقط حددت النقاط التي تمثّل سلسلة الميدالية بشكل أوضح. وضعت بالاس جنيناً في بطن الشكل الذي يُمثّل قالبها. وعندما سئلت من هو أبوه، لم تقل شيئاً ولكنها رسمت بجانب الجنين وجه امرأة أهدابها طويلة وفمها زغبي وملتوٍ. ضغطوا عليها ولكن برفق وبلا سخرية ولاحتقار. كارلوس؟ الشبان الذين أسقطوها في الماء؟ أضافت بالاس نابين طويلين إلى الفم الملتوي.

انقضى كانون الثاني وكذلك شباط. وفي آذار توالت الأيام غير مقطوعة عن الليالي، بينما كان يشغلهنّ رسوم معتنى بها لأجزاء من أجسادهن والأحداث الهامة. مشابك صفراء في الشعر، زهور عود الصليب الحمراء، وصليب أخضر في حقل أبيض. قضيب مهيب يخترقه سهم كيوبيد: بتلات ورود شارون، ولورنادونز. زوجان برتقاليان لامعان يمارسان حباً راسخاً تحت شمسٍ طفولية.

مع قيام كونسولاتا بعبء المسؤولية مثل أم رئيسة جديدة ومنقّحة، راحت تطعمهنّ طعاماً خالياً من الدم وتقدم لهن ماءً فقط لإرواء عطشهن، فقد تغيّرن. كان عليهنّ أن يتذكّرن الجسد المتحرك الذي يحملنه، طالما أن الأجساد الحية تحتها مُغريةٌ جداً.

أيّ زبون عابر كان سيلاحظ تغيّراً صغيراً. ربّما سيتساءل لماذا لم تُعزَق أرض حديقة الخضار، أو من الذي كتب كلمة «آسف» على صندوق الكاديلاك، بل ربما سيتساءل أيضاً لماذا لم تكن المرأة العجوز التي تفتح الباب تخفي عينيها الفظيعتين وراء نظارة سوداء، أو ماذا فعلت الشابات بشعورهن. أحد الجيران لاحظ أكثر من ذلك - إحساس بالإفراط، جو البيت الذي أصبح ثقيلاً، والذي يعطي انطباعاً بالغرابة والنظرة المختلفة بوضوح في أعين شاغلات المكان -: اجتماعيات ومترابطات عندما يتحدّثن إليك، ساكنات لايتحركن ويقيّمنك بقية الوقت. ولكن إذا أتت إحدى الصديقات، فقد يصمت المنبه الداخلي عند رؤية النساء الشابات يتصرفن كراشدات، وكم يظهرن هادئات. وكم كانت كوني مستقيمة القوام وأنيقة. وكم

أصبح هذا الفستان المألوف يناسبها. وعندما تجلس هذه الصديقة في مقعد السائق وبجانبها سلّة وُضِعَت فوقها علبة، كان يمكنها أن تشعر بادئ الأمر بالغيظ من عجزها عن تحديد ماينقص بالضبط. وعند اقترابها من المنزل، وسيرها نزولاً في الشارع المركزي، قد يقع نظرها على بيت سويتي فليتوود وعلى بيت بات بيست، أو ربما تلاحظ أحد أبناء بول أو مينوس ذاهباً إلى مخزن إيس، ربما تدرك عند ذلك ماكان مفقوداً: فعلى النقيض من بعض سكان روبي، لم تعد نسوة الدير مسكونات. وربما أضافت، ولا مطاردات أيضاً. لكنها ربما أخطأت في تقديرها هذا.

لون

كانت الطريق ضيقةً، والمنعطف حاداً، ولكنها استطاعت الخروج بـ الأولدزموبيل من الطريق الترابي، والدخول بها إلى الطريق الإسفلتي دون أن تقلب اللافتة إلى الأرض تماماً. في وقت مبكر، على الطريق إلى هناك، عندما وصلت مع الظلام، وبمصباح أمامي وحيد، لم تستطع لون أن تمنع واقية الصدمات من كشطها، والآن وهي تغادر الدير أصبح العمود مائلاً ولافتة ـ بطيخ باكوري(*) ـ تكاد تسقط. تمتمت: «إنهم لايجيدون التهجئة!» تلك التي لفّت نفسها بالملاءة، على الأغلب. لايُعنى كثيراً بالتعليم هنا. ولكن كلمة «باكوري» صحيحة، وليس طريقة كتابتها وحسب. لم يكن شهر تموز قد انقضى وأصبح في حديقة الدير بطيخ ناضج حان وقت قطافه. مثل رؤوسهنّ، ملساء من الخارج، حلوة في الداخل، ولكن ياإلهي كم هي سميكة، لم يردن الإصغاء. قلن إن كوني مشغولة ورفضن استدعاءها ولم يصدّقن كلمة مما قالته لون. فقد أتت إلى هناك في منتصف الليل، لتخبرهنّ وتحذّرهنّ، ونظرت إليهنّ، عاجزةً وغاضبة، بينما أخذن يتثاءبن ويبتسمن. والآن يجب عليها أن تتصوّر شيئاً آخر تفعله. وإلاّ فإنّ البطيخات التي ستنفلع ستكون رؤوسهن الحليقة.

(*) EARLY MELONES هكذا كتب على اللافتة وهناك E زائد في آخر كلمة MELONE. لذلك نعتتهم بأنهم لا يجيدون الكتابة.

كان الهواء في تلك الليلة حاراً والمطر الذي أحست به مايزال بعيداً ولكنه أخذ يقترب، هذا ماظنته قبل ساعتين، عندما كانت تأمل أن تجد بعض جذور «اليبروح»(*) الذي كان جافاً. ذهبت بهدوء إلى ضفة المسيل قرب الفرن. ولو لم تذهب إلى هناك لما سمعت الرجال أبداً، ولما اكتشفت المخطط الشيطاني الذي كانوا يدبِّرونه.

الغيوم تغطي أحلى جواهر السماء الليلية، لكنها كانت تعرف طريق روبي كمعرفتها لصينية جمع التبرعات. على أية حال كانت ماتزال متنبّهة في حال عبور شيء ما أو شخص ما من أمامها - أمام المصباح الأمامي الوحيد في الأولدزموبيل: الأبوسوم أو الراكون أو أيل أبيض الذيل، أو حتى امرأة غاضبة، لأنّ النساء هنّ اللواتي يمشين على ذلك الطريق. نساء فقط، وليس رجالاً أبداً. وقد رأتهن لون طيلة أكثر من عشرين سنة: في الذهاب والإياب، في الذهاب والإياب: نساء باكيات، نساء محدّقات، نساء مقطبات أو عاضّات على شفاههنّ، نساء تائهات وحسب. هنا، على هذه الأرض الحمراء والذهبية التي تتخلّلها أحياناً صخور سوداء أو رقعة خضراء، هنا تحت سماء مزدحمة النجوم لدرجة شنيعة، هنا، حيث تعاملك الريح كرجل، نسوة يجرجرن ندمهن على هذا الطريق بين روبي والدير. هنّ وحدهن ينتقلن سيراً على الأقدام. فقد سارت عليه سويتي فليتوود، وكذلك بيلي ديليا، والفتاة التي تدعى سينيكا، وأخرى تدعى ماڤيس، وآرنيت أيضاً، وحدث ذلك أكثر من مرّة. ليس في هذه الأيام وحسب، فقد ذرعن هذا الطريق جيئة وذهاباً منذ اليوم الأول. سوان مورغان مثلاً، وكوني أيضاً عندما كانت شابّة. وقد سبق أن رأت لون بأم عينها الكثير من هؤلاء النسوة وهنّ يمشين على هذا الطريق وعلمت بذلك بشأن البقية. ولكن الرجال لايمشون على هذه الطريق أبداً بل يقودون عليه السيارات، رغم أن وُجْهَتَهُم هي وُجهَةُ النساء ذاتُها: سارجنت، «K.D.»، روجر،

(*) نبات من مناطق جنوب آسيا وحوض المتوسط، جذوره درنية ومتفرعة، تشبه بشكل غريب الجسم البشري، له خواص طبية، منها توسيع حدقة العين، وتعزى إليه مزايا تتصل بالسحر.

مينوس، وديكون الطيب بالذات، قبل ذلك بعقدين. حسناً، فإذا لم تجد من يصلح لها قشاط المروحة ويشدّ سدّادة تفريغ الزيت، سينتهي بها الأمر هي أيضاً إلى السير مشياً على الأقدام، شريطة أن يكون قد بقي مكان جدير بأن تسافر إليه.

إذا كان هناك وقت يجب أن تسرع فيه فهو الآن، ولكنّ حالة السيارة منعت ذلك. في عام 1965 كانت ماسحات الزجاج، جهاز تكييف الهواء، الراديو، كلها تسير بشكل جيد. أما الآن فإنّ التدفئة القوية ماتزال تذكّر بالقوة الأصلية السابقة لسيارة الأولدزموبيل. ففي العام 1968 ، بعد أن انتقلت بين مالكين، ديك ثم سوان مورغان، سألتها سوان إذا كانت تستطيع استخدامها. فصاحت لون من شدة فرحها. هاهي أخيراً، بعد أن بلغت التاسعة والسبعين، وبدون رخصة قيادة وإن كانت حادة الطبع، سوف تتعلم القيادة وتحصل على سيارة خاصة بها أيضاً. لم تعد بحاجة للوقوف على الطريق وانتظار من يوصلها مجاناً، ولن تسمع بعد الآن أصوات المكابح في باحتها في كل الساعات، كما كان يحدث سابقاً، تستدعيها لحالات طارئة، ليست بالحقيقة هكذا، ولافترات انتظار طويلة تتحول إلى أزمات. أما الآن، فيمكنها أن تعمل حسب رأيها، وتذهب لزيارة الأمهات عندما تريد، فهي تذهب إليهنّ بسيارتها الخاصة، وأهم مافي الأمر أنها تغادر عندما ترغب بذلك. ولكنّ الهدية أتت متأخرة أكثر مما يجب: ففي الوقت الذي أصبحت تستطيع فيه حقاً التنقل بالسيارة، ماعاد أحد يرغب بالاستفادة من مهارتها. وبعد أن أغضبت الحيوانات ذات الحافر وأخافت ذوات المخالب، وبعد أن أثارت عواصف من الغبار الأحمر على الطرقات الزراعية طيلة أسابيع عديدة، لم يعد لديها أي مكان تذهب إليه. كانت مريضاتها يسمحن لها بِجَسّهنّ والنظر إليهنّ، ولكن عند الولادة، كنّ يسافرن لعدة ساعات (إذا استطعن ذلك) إلى مشفى دمبي، حتى يضعن أنفسهن بين أيدي الرجال البيض الباردة. والآن، وهي في السادسة والثمانين، رغم سمعتها التي لم تصبها أية لوثة (أي أنها لم تفقد أي أمّ أبداً، كما حدث ذلك مرة لـ فيري) فهنّ يرفضن أن يعهدن إليها

ببطونهن المنتفخة، بصراخهن وبأيديهن التي تتشبّث بالأشياء. كن يهزأن بضمادات البطن النظيفة خاصتها ومن النقاط التي تسقط من بول الأم. ويلقين الشاي المفلفل في دورة المياه. ولايُحسَب استلقاؤها متكومة على نفسها فوق كنبة في بيوتهن لكي تهدهد أطفالاً مهتاجين، وترنح رأسها نعاساً في مطابخهن بعد جَدْلِ شعور بناتهنّ، وغَرْس النباتات في حدائقهن وتقديم النصائح الجيدة لهن خلال الخمس وعشرين سنة الأخيرة، وطيلة الخمسين سنة السابقة في هاڤن، قبل أن يرسلوا في طلبها. لايُحسَبُ أنها علّمَتْهُنّ تدليك أثدائهن لاستدرار الحليب، وماذا يفعلن بالمشيمة، وإلى أية جهة يجب توجيه رأس السكين تحت الفراش. ولايُحسب أنها جابت كل أرجاء الولاية لكي تجلب لهنّ جميع القذارات التي يشتهين أكلها، ولايُحسَب أنها كانت ترقد معهنّ في السرير واضعة باطن قدميها على باطن أقدامهنّ لمساعدتهن على الدفع والدفع في الولادة! أو لتدليك بطونهن بالزيت طيلة ساعات. هذا لايُحسب له أيّ حساب قطعاً. كانت طيبة بما فيه الكفاية عند ولادتهنّ، وعندما طُلب منها هي وفيري الاستمرار في عملهما في المكان الجديد: روبي، جلست الأمهات على أرائكهنّ، وباعدن مابين ركبهنّ وتنفسن الصعداء. والآن وقد ماتت فيري، دون أن تترك سوى قابلة واحدة لجماعة من السكان تحتاج إلى وجود قابلات وتفخر بأنها ذات أُسرٍ كبيرة كالجماعات المحيطة بها، مع ذلك أصبحت الأمهات يحملن أرحامهن بعيداً عنها. لكنّ لون كانت تظنّ أن هناك أكثر من موضة أجنحة الأمومة. لقد وَلَدَتْ أطفال فليتوود، ولوّثَ كل وليد غير طبيعي سمعتها كما لو أنها هي التي صنعَتْهُ ولم تُوَلِّده. اجتمعت الشكوك بأنها سيئة الطالع مع وسائل الراحة المتوافرة في مشفى دمبي لكي تحرمها من العمل الذي تعلمته. قالت لها إحدى الأمهات بأنها لاتستطيع إلّا أن تُسرّ بأسبوع الراحة، وبالوجبة التي تقدم لها على صينية، بميزان الحرارة، وبقياس الضغط، وأنها مولعة بالقيلولة في وضح النهار وبالأقراص المسكنة للألم، وأضافت أنها فوق كل هذا، يسرّها أن يظلّ هناك من يسألها عن حالها طيلة الوقت. وأنها لن تحظى بشيء من كل هذا إذا ولدت في المنزل. فهناك، ومنذ اليوم

الثاني أو الثالث، ستحضّر طعام الإفطار لكلّ العائلة وتنشغل بنوعية حليب البقرة وحليبها هي. ولابدّ أنّ نساءً غيرها شعرن بالشيء نفسه ـ تَرَفُ النوم، والابتعاد عن منازلهنّ، والمولود الجديد وهو يُحمل كل ليلة ويوضع تحت رعاية شخص آخر. والآباء ـ حسناً ترتاب لون بأنهم، هم أيضاً، يصبحون أكثر سعادة عندما ينتظرون في الرواق عند أبواب مغلقة، في مكان يتكفّل بمسؤوليته رجال آخرون، وليس امرأة عجوز درداء تمضغ علكة لتقوية لثّتها. لقد حذرتها فيري: «لاتنخدعي بما يقدّمه لك الرجال من شكر. فقد خاف الرجال منا، وسيظل الأمر هكذا. نحن بالنسبة لهم وصيفات الموت بينهم وبين الأطفال في بطون نسائهم». وكانت فيري تقول بأنّ القابلة في تلك الظروف، هي التي تتدخّل وتُصدر الأوامر، وكثير من الأمور تتعلق بمعلوماتها السريّة، وهذه السلطة تغيظ الرجال. وخاصة هنا، في هذه المدينة، التي أتوا إليها لكي يتكاثروا بأمن وسلام. وكالعادة كانت فيري على صواب، لكنّ لون كان لديها مسؤولية أخرى. يقال إنها كانت تجيد قراءة الأفكار، وهي موهبة أتتها من شيء ما كائناً ماكان وليس من الله، وأنها قد استخدمتها منذ السنة الثانية من عمرها، عندما جلست هي نفسها في الباحة حتى يعثر عليها الآخرون بينما كانت أمها ميتة في سريرها. وقد أنكرت لون هذا لأنها تعتقد أنّ الجميع يعرفون مايفكّر به الآخرون. وكل ماهنالك أنهم لايريدون رؤية ماهو ظاهر للعيان. ومع ذلك فهي كانت تعرف أموراً أكثر عمقاً من مذكرات مورغان أو كتاب تاريخ بات بيست. وكانت تعرف مالاتستطيع المذكراتُ أو التاريخ قولَهُ أو تسجيله: «حيلة» الحياة و«منطقها».

وعلى أية حال، فبعد أن فقدت لون وسيلة معيشتها (لم تُستدعَ سوى مرتين طيلة ثماني السنوات الأخيرة) أصبحت تعتمد على كرم جيرانها وكرم رواد الكنيسة. كانت تمضي وقتها في قطف النباتات الطبية والذهاب من كنيسة إلى أخرى لتَلَقّي حاصل التبرعات التي جمعتها لها رابطة «يد المعونة» ولمسح الحقول التي استهوتها لالأنها منكشفة، بل لأنها طافحة بالأسرار، مثل حمولة سيارة من

الهياكل العظمية، عثرت عليها قبل بضعة أشهر. ولو أنها أعارت انتباهاً لأفكارها وليس للشائعات، لكانت استقصت أمر حوائم الصوم الكبير، فور ظهورها - كان قد مرّ على هذا عامان، عند ذوبان ثلوج الربيع، في شهر آذار عام 1974 . ولكن بما أن الناس رأوا تلك الحوام في الوقت الذي أعلن فيه آل مورغان وآل فليتوود عن الزواج بالضبط، فإنهم لم يعودوا يعرفون فيما إذا كان هذا الزواج هو الذي جَلَبَ الحوام أم أنه زواج يحمي المدينة منها. والآن كان الجميع يعلمون أنّ ماالجتذبهم هو وليمة عائلية لأناسٍ فُقِدوا أثناء عاصفة ثلجية. أطباق أركنساس. لصاقة «هاربر جوري» على أدوية مضادة للسعال. كانوا متحابين في تلك الأسرة. حتى مع الفوضى التي أحدثتها الطيور الجارحة، يمكنك القول إنهم يتعانقون كلما ناموا أعمق فأعمق في ذلك البرد العميق.

في البداية ظنّت أنّ سارجنت لابدّ أن يكون قد اطلّع على الموضوع كله. لقد زرع ذرة صفراء في الحقول المجاورة. لكنّ الدهشة التي بدت على وجهه وعلى وجوه الآخرين عندما علموا بالخبر لم تترك مجالاً لأي خطأ. والمشكلة كانت في معرفة فيما إذا كان يجب إعلام رجال القانون أم لا. تقرّر أنه لاينبغي القيام بذلك. حتى أنّ دفنهم يمكن أن يعتبر اعترافاً بأمرٍ لايعنيهم. عندما ذهب عدد من الرجال ليلقوا نظرة، لم ينصبّ انتباههم الأساسي على المشهد الذي كان تحت أنظارهم ولكن على الدير الذي كانوا يرونه من بعيد، في الغرب. كان عليها أن تفهم في تلك اللحظة. فلو انتبهت أولاً إلى الحوام، وبعد ذلك إلى أفكار الرجال، لما بدّدت كل جهودها وجهود ريغلي والبنزين للقيام بمهمة كانت تأمل أن تكون الأخيرة. نظر ضعيف جداً، مفاصل متصلبة أكثر مما ينبغي - لم يكن هذا عمل قابلة موهوبة. ولكنّ الله قد عهد لها بهذه المهمة، فليتبارك قلبه المقدس، وبسرعة ثلاثين ميلاً في الساعة، في إحدى ليالي تموز الحارّة، كانت تعرف أنها تسافر في زمن الله وليس خارجه. إنه هو الذي وضعها هناك، وشجّعها على الذهاب للبحث عن نباتات طبية يُفضل أن تُقطف وهي جافّة، في الليل.

كان مجرى السيل جافاً، ولكنّ المطر الذي يوشك أن ينهمر سيعوّضه، كما أنه سيُلينّ الساق المزدوجة لنبات اليبروح. سمعت من جهة الفرن ضحكات وموسيقا منبعثة من راديو. أزواج من الشبان يتغازلون. فكرت، إنهم في الخارج على الأقل، لايتلوّون في مستودع للتبن ولاتحت غطاء في مؤخرة شاحنة. ثم توقفت الضحكات والموسيقا. وأصوات ذكورية عميقة حازمة، أخذت تصدر الأوامر، وأضاءت أشعة مصابيح يدوية أجساداً، ووجوهاً وأيدٍ وماتحمل. ودون همسة انصرف الأزواج، ولكنّ الرجال لم ينصرفوا. تجمّعوا في الظلام مستندين إلى جدران الفرن أو مقرفصين. حجبَتْ لون ضوء مصباحها الكهربائي بمريلتها، وكانت ستذهب دون أن يروها إلى خلف كنيسة «هولي ريديمر» حيث أوقفت سيارتها، لو أنها لم تتذكّر الأحداث الأخرى التي تجاهلتها أو أساءت فهمها: حوائم الصوم الكبير، ومسدّس أبولو الجديد. عادت عبر الظلام الدامس وجلست على العشب العطشان. كان عليها أن تكفّ عن إذكاء حقدها على مستوطني المدينة لأنهم رفضوا خدماتها، وتتوقف عن اهتبال الانتقام الرخيص بألا تسعى لمعرفة مايحاك في الخفاء، وتترك الشر يأخذ مجراه. أن تلعب بطريقة «التعامي» قد يسمح لها بألّا تسمع مايقوله لها الله. فهو لايعطي تعليماته رعداً ولايهمس برسائله في الأذن. أوه، كلا. إنه رب محرّر. معلمٌ يعلّمك كيف تتعلّم، وكيف تنظر إلى نفسك. إشاراته كانت واضحة تماماً وغزيرة، إذا توقّف المرء عن التمرّغ في عصير غروره الخاص الحامض، وإذا أعار انتباهه إلى عالم الله. أرادها أن تسمع الرجال المجتمعين قرب الفرن وهم يقررون ويخططون كيف يطردون النساء من الدير، وإذا أرادها أن تكون الشاهد على ذلك، فلابدّ أنه أراد أيضاً أن تقوم بعملٍ ما. لم تعرف في بداية الأمر ماذا يحدث، وماذا يجب أن تفعل. ولكن كما في الماضي عندما تكون حائرة، فقد أغمضت عينيها وتمتمت: «مشيئتك، لتكن مشيئتك». عند ذلك ارتفعت الأصوات، وسمعت بوضوح، مايقول واحدهم للآخر ومايفكرون به كما لو أنها بينهم. سمعت ماعبّروا عنه، ومالم يعبّروا عنه.

كانوا تسعة. البعض منهم يدخنون، والبعض الآخر يتنهدون، وأخذوا يتكلمون الواحد بعد الآخر. الكثير مما قالوه سمعته لون من قبل، لكن دون الحراشف الخشنة التي تنبت للكلمات المتلويّة كالثعابين عبر هواء الليل. لم يكن الموضوع جديداً، ولكن لم يكن فيه شيء من المتعة المعتادة التي تَظهَر عندما يُعالَج من فوق أحد المنابر. فقد تطرّق إليه المحترم كاري في موعظة قوبلت باستحسان جعله يعيد نسخةً عنها كل يوم أحد.

«عمّ تخلّيتم حتى تعيشوا هنا؟» سأل وهو يشدّ على «تُمْ» مثل مغنية سوبرانو: «ما التضحية التي تقدّمون «كلّ» يوم لكي تعيشوا هنا في جمَال الله. في جوده وفي سَلامه؟».

«قل لنا ذلك أيها المحترم. قُلهُ».

قهقه المحترم: «سأقوله لكم».

«نعم يا سيدي».

«هيا تابع، الآن».

رفع المحترم كاري يده اليمنى عالياً في الهواء وأغلق قبضته، وعَرَض قائمة الأشياء التي حَرَمَ حشد المؤمنون أنفسَهُم منها، وهو يرفع إصبعاً في كل مرة:

«التلفزيون».

قهقه الجميع ضاحكين.

«الديسكو».

ضحكوا بمزيد من القوة وهم يهزّون رؤوسهم.

«الشرطة».

هدروا ضاحكين.

«السينما، والموسيقا القذرة»، وتابع معدداً على أصابع يده اليسرى: «الفساد في الشوارع، السرقة في الليل، القتل في الصباح. الكحول كغداء، والمخدّرات كعشاء. هذا هو ماتخلّيتم عنه».

كلّ مفردة من هذه كانت تثير تنهدات وأنّات حزن. وكلّ واحد منهم كان شديد الامتنان لأنه رفض ونجا من جميع الشرور القذرة، القاسية، والإلحادية، المتنكرة بزيّ الملذّات. كل عضو أو عضوة من الجماعة قد يشعر أنّ قلبه أو قلبها يطفح بالشفقة على أولئك الذين يتصارعون مع تلك «التضحيات».

ولكن هناك، لم يكن يوجد أثر للشفقة. هنا، عندما يتحدّث الرجال عن الدمار الذي نزل بهم - الطريقة التي تتغير بها روبي على نحو لايطاق - فهم لايفكرون بمعالجة هذا الأمر بمدّ أيديهم عربوناً للصداقة أو المحبة. بل بدلاً من ذلك ينظمون الدفاع ويشحذون الأدلة الضرورية، حتى يتطابق كل عنصر مع ثلم صقيل جاهز سلفاً. كان بعضهم يتكلم كثيراً، وآخرون قليلاً، واثنان لم يقولا شيئاً على الإطلاق. لكن رغم صمتهما كانت لون تعرف أن القيادة موحّدة في توأمين.

أتذكر الفضيحة التي أحدثنها في حفل الزفاف؟ ماذا تقول؟ وهو اليوم نفسه الذي رأيتهن فيه تقبّل الواحدةُ الأخرى في المقعد الخلفي بالكاديلاك الخربة. في اليوم نفسه، وكأن ذلك ليس كافياً لإرضاء الشيطان، كانت هناك أيضاً اثنتان تتمرغان في القذارة. في القذارة تماماً. يارب، إني أكره المرأة القذرة. سويتي تقول بأنهن عملن كل مابوسعهنّ لكي يسمّمنها. وقد سمعت بذلك أيضاً. داهَمَتْها عاصفةٌ ثلجية في تلك الجهة وبحثت عن ملجأ عندهن. كان عليها أن تنتبه. أخيراً أنت تعرف سويتي. على أية حال، فقد قالت بأنها سمعت ضجيجاً منبعثاً من جهةٍ ما في البيت. وقد هُيء لها أنّ هناك أطفالاً صغاراً يبكون. ولكن، بحق الله، ماذا يفعل الأطفال الصغار هناك؟ أتسألني أنا؟ مهما كان الأمر فهو غير طبيعي. حسناً، كان هناك فتيات صغيرات يُقمن فيه، أليس كذلك؟ حسناً أنكر هذا. كنّ يقلن بأنها مدرسة. أية مدرسة؟ وماذا يعلّمن فيها؟ سارجنت ألم تعثر على الماريجوانا تنمو بين برسيمك؟ نعم، بالتأكيد، وهذا لايدهشني. كل ماأعرفه بأنهن ضربن آرنيت عندما ذهبت هناك لتواجههن بالأكاذيب التي روينها لها. إنها تعتقد بأنهنّ احتفظن بوليدها

وقلن لها إنه وُلِد ميتاً. زوجتي تقول بأنهن قد أجهضنها. أتصدّق هذا؟ لاأدري، ولكنّي أتهمهن به. وماأعرفه أنا، هو كيف كان وجهها خبيصة. أوه، يارجال لايمكن أن يستمر هذا بعد الآن. فقد قال لي روجر بأنّ الأم الرئيسة ـ تعرفها، العجوز البيضاء التي كانت تأتي للتّسوّق هنا، من وقت لآخر؟ ـ حسناً، قال لي إنها عندما فارقت الحياة كانت تزن أقل من خمسين باونداً، وكانت تلمع كالكبريت. يايسوع! وقال إنّ الفتاة التي أوصلها إلى هناك راحت تغازله علناً. أهي تلك التي تظل طيلة الوقت نصف عارية؟ أعرف أنه كان لديها شيء ليس على مايرام عندما نزلت من الباص. على أية حال كيف نجحت في استقدام باص إلى هنا؟ خمنوا، ولماذا تُخمنون؟ أتعتقد أن لديهنّ قوى خفية؟ أنا «أعرف» أن لديهن قوى خفية. أما قوة مَنْ هي الأقوى، فهذا هو السؤال. لماذا لايغادرن، هكذا بكل بساطة؟ هل ـادر أنت، إذا كان عندك بيت قديم، كبير جداً، تعيش فيه دون أن طر للعمل من أجله؟ تحدث بعض الأمور هناك، ولاأحب شيئاً من لا يارجال. يقبّلن بعضهن البعض ومواليد تُخبّأ. يا يسوع، ضّ النظر عن بقية الأمور. انظر إلى ماحدث لـ بيلي ديليا مذ بدأت تسكّع هناك. فقد رمت أمها أسفل الدرج وهربت إلى هناك كخنوص يلاحق حلمة الثدي. وسمعت بأنهن يشربن مثل السمك أيضاً. والمرأة العجوز كانت ثملة على الدوام في كل مرة رأيتها فيها، وهل تتذكّر الكلمات الأولى التي تفوّهن بها حين أتين إلى حفل الزفاف؟ أي شيء نشربه، هذا ماطلبنه، وعندما قدم لهن كأس من شراب الليمون، تصرّفن كأن أحداً بصق عليهن وخرجن من الباب. أذكر ذلك. عاهرات، أكثر شبهاً بالساحرات، ولكن يا أخي، العظام تفوقت على كل شيء. لاأستطيع أن أصدّق أنّ أسرةً بكاملها ماتت هناك دون أن يعرف أحد بذلك. لم يكونوا بعيدين إلى ذلك الحدّ. هل فهمت ماأعني؟ ولن يستطيع أحد أن يقول لي بأنهم غادروا الطريق وضاعوا في حقل، مع وجود منزل ضخم على مسافة تقلّ عن ميلين. لابُدَّ أنهم رأوه، لابُدّ. ولابُدّ أن الرجل نزل من السيارة وذهب إليه، هل تفهم

ماأقصد؟ كان يستطيع التفكير، أليس كذلك؟ وحتى إن لم يكن يستطيع التفكير، كان يمكنه أن يرى. كيف يمكنك ألّا ترى منزلاً بذلك الحجم في وضح النهار في منطقة مستوية كطبلة المسمار؟ أتقول أنّ لهن علاقةً ما بالأمر؟ اسمع، لم يحدث أي شيء أبداً في محيطنا كالذي يحدث الآن. قبل أن تأتي تلك البقرات الصغيرات إلى المدينة، كانت مملكة يملؤها السلام. والأخريات اللواتي سبقنَهُنَّ كان لديهنَّ شيء من التديّن. أما هؤلاء النسوة القذرات، اللواتي يعشن وحدهن هناك، فلايطأن الكنيسة أبداً، وأراهنك على دولار مقابل خمسة سنتات، أنهنّ لايفكرن بذلك حتى مجرد تفكير، ولسن بحاجة للرجال ولا لله. ولايستطعن الزعم بأنهنّ لم يُحَذّرهن. سئلن أولاً ثم حُذّرن. لو بقين بمفردهن فهذا شيء. لكنهن لايفعلن ذلك. إنهن يتطفلن، ويجتذبن الناس كما يجذب الغائط الذباب، ومن يقترب منهنّ يشوّه وتتسرب الفوضى إلى بيوتنا وإلى أسرنا. ولم يعد أحد يتحمّل هذا. أنتم جميعكم، لايمكنكم أن تتحمّلوا هذا أبداً.

وهكذا، فكرت لون أن البراثن والذيل في مكان آخر. هناك بعيداً، كل ماهو زلق موجود في بيت يغصّ بالنساء. لسن نساء آمنات بعيداً عن الرجال، بل أسوأ من ذلك، نساء اخترن رفقة بعضهن بعضاً. أي أنه لم يعد ديراً بل جمعية ساحرات. هزّت لون رأسها وضبطت ثانيةً نعناعها الحاد. وكانت تصغي للكلمات بفتور، محاولة اكتشاف الأفكار الكامنة خلفها. فتدرك بعضها في الحال. أمّا سارجنت، وهي تعرف ذلك، فكان يهزّ رأسه عند كل جملة من الإشاعة آخذاً بأطراف الحقيقة البالية متسائلاً بصوت مرتفع لماذا لاتستطيع هذه المدينة المتعمدة الجمال التي يديرها رجال مسؤولون، أن تبقى مستقرة، مزدهرة، دون شبان يتواقحون. لماذا يريدون الرحيل وتشكيل عائلات (زبائن) في مكان آخر؟ ولكنه يظنّ أيضاً أنّ نفقاته ستكون أقل بكثير إذا امتلك أراضي الدير، وكيف إذا رحلت النساء، سيكون في وضع أفضل للحصول عليها. والجميع يعلمون أنه سبق له أن زار الدير ـ «لتحذيرهنّ»، وهذا يعني أنه قد عرض عليهنّ شراءَهُ، وحيال التحديقة غير المفهومة التي

حصل عليها كجواب، قال للمرأة العجوز أن «تفكّر بذلك بروية واهتمام» وأنّ «أموراً أخرى يمكن أن تحصل وتخفّض الثمن». ثم كان على ويزدوم بول أن يبحث عن سبب يفسّر لماذا لم تعد له أية سيطرة على أخوته وأخواته. ولكي يفسّر كيف حدث أنّ أولئك الذين كانوا فيما مضى يحترمونه ويصغون إليه أصبحوا الآن ضائعين ويسعون إلى الاستقلال بأنفسهم. ففي العام الماضي، تبادل برود وأبولو إطلاق النار بسبب بيلي ديليا، فقدّمت له هذه الحادثة مبرّراً كافياً ليتسكع وراء متعة إلقاء بعض النساء في الطريق. بيلّي ديليا، صديقة لهؤلاء النسوة، وطلبت من أحد أخوة ويزدوم الأصغر سناً أن يوصلها إلى هناك، وذلك بعد أن اتّخذت المشاكل بين أبولو وبرود منحى خطيراً. ولم يطع أيّ منهما أمر ويزدوم بعدم التكلم مع هذه الفتاة أو النظر إليها أبداً. فكانت النتيجة توراتية - رجل يكمن ليقتل أخاه. أمّا بشأن آل فليتوود، حسناً، فقد أراد أرنولد وجِف منذ زمن طويل لوم أحد ما من أجل أبناء سويتي. ربّما كان ذلك خطأ القابلة، أو خطأ الحكومة. أما القابلة، فلم يكن ممكناً إلا حرمانها من وظيفتها والحكومة ليست مسؤولة. ورغم أن لون ولّدت بعض أبناء جِف المرضى، قبل وصول أول امرأة إلى الدير بكثير، فإنهما لن يتركا تفصيلاً من هذا النوع يمنعهما من العثور على عيب ما خارج نطاق دم أسرتهما ذاته. أو دم سويتي. أمّا مينوس، حسناً، فقد كان جاهزاً للإغارة ضدّ أيّ كان. فبعد أن أمضى كل تلك الأسابيع هناك لايفعل شيئاً، يجعلك تعتقد أنه مقرّ بالجميل، فلابدّ أن هؤلاء النسوة قد شهدن بعض الأمور، رأين بعض الأشياء، التي لا يريد هو أن تخطر لذهن أي شخص فيما إذا خرجت من أفواههن. ربما لم يكن ذلك إلا لإزالة العار الذي يشعر به لأنه سمح لـ هاربر والآخرين بِرَدعه عن الزواج بالمرأة التي اصطحبها معه. قالوا له إن هذه الفتاة التي تشبه كلب الصيد لاتليق به كفايةً. قالوا له إنها تشبه امرأة ماجنة أكثر مما تشبه العروس. تظاهر أنه كان يشرب بسبب مافعلته به ڤييتنام، ولكن لون تظن أنّ خسارته للفتاة التي تشبه كلب الصيد هي المشكلة الحقيقية. فلم يكن يملك الشجاعة الكافية ليرحل ويذهب ويعيش معها في مكان آخر. واختار بدلاً من ذلك الخضوع

لقانون أبيه وجعله يدفع ثمناً جيداً لذلك: تقبّلَ مصيبته دون نقاش. تخلّصه من نساء مستقلات سبق لهنّ أن نظّفن أوساخه، وغسلن سراويله، وأزلن قيئه، وأصغين إلى لعناته ونحيبه، ربما كان قد أقنعه لبعض الوقت أنه رجل غير ملوث بضعف أمه، جدير بصبر أبيه، وأنه محقٌّ بتَرْك الفتاة التي تشبه كلب الصيد ترحل. لم تعد لون تستطيع إحصاء عدد المرات التي سمعت فيها، وهي جالسة في كنيسة «صهيون الجديدة»، والده هاربر يبدأ بالادلاء بشهادته، مبتدئاً بتعداد خطاياه الخاصة، ومنتهياً بالنساء الخليعات اللواتي يستطعن منعك من معرفة مَنْ هم أطفالك. كان قد تزوج من إحدى بنات أسرة بلاكهورس: كاترين التي أصيبت في النهاية بمرض عصبي في جهاز الهضم لأنه راح يضايقها حتى يعرف ماذا تفعل، ومن تُقابل، ومن ومن ومن. وهل تربي ابنتهما كيت بصورة صحيحة. تزوّجت كيت بأسرع ما استطاعت فقط لكي تتخلص منه. وزوجته الأولى، والدة مينوس: مارثا. لابد أنها قد أزعجته كثيراً. إلى حدّ أنه لم يدع ابنه الوحيد ينسى ذلك ابداً. ثم كان هناك «K.D.»، رب الأسرة. راح يروي إلى أي حد كانت إحدى بنات الدير غريبة الأطوار، وكيف أنه أدرك ذلك منذ أن رآها تنزل من الباص، ها، ها، إنه الآن أب لطفل عمره أربعة أشهر بكامل أصابع يديه وقدميه، ومن يعلم، بدماغ كامل أيضاً، بفضل الطبيب الذي كان يقبل القيام بالعناية بـ السود في دمبي. لقد كان هو وآرنيت يحتقران لون، ومهما كانت آرنيت سعيدة الآن، وتريد إلقاء وزر «خطيئتها» الأولى على نساء الدير اللواتي خدعنها، فإنّ ذلك لم يخفّف من حقد «K.D.» عليهنّ. والفتاة، التي أصبح مجرد ذكر اسمها اليوم يؤذيه، كان قد جرى وراءها طيلة سنين عديدة قبل أن ترميه خارج الباب. ويلزمه العديد من الأطفال الأصحّاء لكي ينسى ذلك. إنه من آل مورغان بعد كل شيء، وهم لم ينسوا شيئاً منذ 1755 .

فهمت لون تلك الأفكار الخاصة وبعضاً مما يمكن أن تكون دوافع ستيوارد وديكون: لاأحد منهما يتحمّل مالايستطيع السيطرة عليه. ولكنها لم تكن تتصور ضغينة ستيوارد ـ والمرارة من فكرة أن

حفيد أخته (ربما؟) كان دون أي شك قد جُرح أو قُتل في ذلك المكان. كان ذلك بثرة تطفو في مجرى دمه، دون أن تزول أو يصبح لها رأس قيحي. كما أنها لاتستطيع أن تتصوّر أيضاً في أيّ حيزٍ من أعماق دماغه توجد ذكرى أخيه الذي كاد أن يفسخ زواجه بـ سوان. وإلى أية درجة ابتعد ديك عن الطريق المستقيم عندما نظر في هذا السم وفي عينيها السّامتين. وظلّ الاثنان يلتقيان سراً طيلة عدة شهور، ولشهور بحالها بدا ديك يلهو ويرتكب الأخطاء، وماذا لو حملت منه تلك العاهرة؟ أصبح لديها طفل هجين؟ كان ستيوارد يتميز غضباً عندما يفكّر بأنهما أوشكا تماماً أن يخونا كلّ ماعليهما من واجبات وماوعدا به الآباء القدامى. لكنّ الأمر الذي يهدّد بصورة دائمة رؤيته لنفسه ولأخيه العزيزة عليه، يتجاوز كثيراً هذه الخيانة التي أمكن بالكاد تحاشيها، لقانون الآباء القدامى وهو قانون الديمومة والتكاثر. وبالنسبة له كانت نسوة الدير حكاية ساخرة للتسع عشرة سيدة الزنجيات اللواتي يحتفظ بهنّ هو وأخوه في ذاكرتهما وتفهمهما الكامل. إنهنّ يمثلن انحطاط تلك اللحظة التي تشاركا فيها، بين بشرة مشبعة بأشعة الشمس وزهور «رعي الحمام». وبضحكهنّ وهزلهنّ البليد خرقن النغمات العذبة، ورنين الضحكات المرحة والخفيّة المرحب بها لتلك التسع عشرة سيدة، المرصودات للعيش إلى الأبد في أحلام زاهية ملونة بـ الباستيل، وقد أصبحن الآن معرضات للانقراض بسبب هذه الطغمة من النساء الفاحشات. لم يكن يستطيع أن يتحمّل منهنّ تلويث تاريخه الشخصي بثيابهن الخليعة ونزوعهن إلى العهر، وتحقير وتدنيس الرؤيا التي مكنته هو وأخيه من تجاوز الحرب، وصبغت زواجهما ودعّمت جهودهما في بناء مدينة يمكن للرؤيا أن تزدهر فيها. إنه لن يغفر لهنّ ذلك أبداً كما أنه لايستطيع أن يتسامح إزاء ضَياع الشعور بالمحبة هذا.

لم تكن لون تعرف أيضاً النهر الجليدي الذي كان يفخر به ديكون مورغان. لم تكن تعرف حجمه الخفي، تعاظمه وسكونه. كانت مطّلعة على علاقته القديمة مع كونسولاتا. لكنّها لم تستطع سبر

عاره الشخصي ولاأن تفهم إلى أيّ حدّ كان مهماً بالنسبة له القضاء على هذا العار وهذا النوع من النساء، إذ يعتقد أنها مصدره. امرأة منفلتة قارضة لم تعضّ له شفته إلّا لكي تلعق الدم الذي سال منها، امرأة جميلة من حيث مظهرها الخارجي، ذات بشرة ذهبية، وعينين خضراوين كالعشب، حاولت الإيقاع برجل في الفخّ، واحتجازه في قبو مع الكحول لإضعافه حتى يستطيعا ممارسة أعمالٍ شهوانية وشاذّة في الظلام. إنّها سالومي وقد نجا منها تماماً في الوقت المناسب، وإلّا لقدّمت رأسه على طبق العشاء. امرأة نهمة، مستعدة للمضاجعة على الأرض، لم تغادر حياته بل تسلّلت إلى عواطف سوان التي كان يشك بأنها قد سقتها شراباً شرّيراً حتى تصبح أقل استعداداً من السابق للحب. فلم يكن الحزن الأبدي على ولديها هو ماجمدها، بل تلك القذارات التي تبتلعها والتي تعطيها لها المرأة التي حوّلت اسمَها نفسَهُ إلى نكتة، وإلى محاكاة ساخرة لما يجب أن تكون عليه المرأة.

لم تكن لون تعرف، ولاتستطيع أن تعرف كل هذا، لكنها كانت تعرف منه مايكفي، وقد كشف لها ضوء المصابيح الكهربائية اليدوية التجهيزات التي يحملها الرجال: أصفاد برّاقة، لفّة من الحبال، ولم تكن بحاجة لأن تحزر ماذا معهم أيضاً غير ذلك. سارت بمحاذاة ضفة المسيل وهي تمشي دون أن تُحدث أي صوت، إلى مكان سيارتها. وهمست: «مشيئتك، لتكن مشيئتك» مقتنعة بأنّ ماسمعته وما استشفته ليس كلاماً تافهاً. فالرجال لم يأتوا إلى هنا لمجرد القيام بالتدريب. كانوا هناك مثل مجندي معسكر، مثل غزاة يستعدون للقتال، كانوا هناك للهذيان، لتسخين الدم أو تبريده لإنجاز المهمة انجازاً أفضل. كان هناك أمر فهمَتْه بشكل خاص على الفور: الصوت الوحيد الذي لم يكن يغني هو صوت الشخص الذي يقود الجوقة.

«أين ريتشارد ميسنر؟» لم تكلّف لون نفسها عناء إلقاء التحية

وقرع باب بيت ميسنِر، بل دخلت فوجدت البيت فارغاً يكتنفه الظلام. لقد انتزعَتْ جارتَهُ فرانسيس بول دوبريس للتو من نومها. فقالت فرانسيس متذمرة:

«ماذا يحدث معك يالون؟».

«قولي لي أين ميسنِر».

«لقد ذهبا إلى موسكوغي. لماذا؟».

«ذهبا؟ مَنْ هما؟».

«المحترم ميسنِر وآنّا، إلى أحد المؤتمرات. لماذا تحتاجينه في مثل هذه الساعة من الليل؟».

قالت لون: «دعيني أدخل». ومرّت من أمام فرانسيس وذهبت إلى غرفة الجلوس.

قالت فرانسيس:«تعالي إلى المطبخ».

«لاوقت لدي. اسمعي». وَصَفَتْ لون الاجتماع قائلة: «زمرة كاملة من الرجال يخططون لشيء ضد الدير. كان هناك أيضاً آل مورغان، آل فليتوود وويزدوم سيلاحقون أولئك النسوة هناك».

«يارب، أي نوع من الفوضى هذه؟ إنهم سيروّعونهم في منتصف الليل؟».

«يامرأة، اسمعيني، معهم بنادق عليها مناظير تسديد مقرّبة.»

«هذا لايعني شيئاً، فأنا لم أرَ أخي يذهب إلى أي مكان دون بندقيته إلّا عندما يذهب إلى الكنيسة، وحتى في تلك الحالة فهو يضعها في السيارة».

«ومعهم حبل أيضاً يافراني».

«حبل؟».

«ثخانته بوصتان».

«ماذا تظنين؟».

«إننا نضيع الوقت. أين سوت؟».

«نائم».

«أيقظيه».

«لن أزعج زوجي من أجل جماعة من الهمج...».

«أيقظيه يافراني. فأنا لست مجنونة، وأنت تعرفين ذلك».

كانت القطرات الأولى دافئة منبسطة، تحمل رائحة نبتة المجنون البيضاء والصبار من المناطق الشمالية والغربية. تهشمت تلك النقاط على زهور الجنطايانا وزهور البوق الصحراوية وانزلقت على أوراق الهندباء البرية. ولأنها ثقيلة ومنزلقة تدحرجت كأنها كرات من الزئبق على الأرض المتشققة بين صفوف خضروات الحديقة. كانت لون، فرانسيس وسوت دوبريس يجلسون في ضوء المطبخ يرون وحتى يشمّون رائحة المطر، لكنهم لايسمعون له صوتاً، لأنّ النقاط كانت ناعمة وملساء جداً.

لم يكن سوت مقتنعاً بأنه يجب الإسراع لإيقافهم كما تطلب لون، ولكنه وافق على التحدث إلى المحترم بوليام وكاري في صباح اليوم التالي. قالت لون: في الصباح سيكون قد تأخر كثيراً. وانصرفت مسرعة، لكي تحاول أن تجد أحداً لايخاطبها كما لو أنها طفلة عاجزة عن الاستيقاظ من كابوس. آنّا فلود رحلت، ولاتستطيع الذهاب لمقابلة سوان بسبب ديك، وبما أنّ «K.D.» وآرنيت قد استعادا منزل مينوس الذي اعتاد أن يمتلكه، فمعنى ذلك أن دوڤي مورغان لن تكون في المدينة. فكّرت بـ كيت ولكنها تعرف أنها لن تعارض أباها. وتذكرت بينيلوب ولكنها نبذت الفكرة ليس لأنها متزوجة من ويزدوم وحسب، بل لأنها أيضاً أخت سارجنت. أدركت لون بأنّ عليها الذهاب إلى المزارع، لتقابل أناساً كانت تعتقد أنّ عليها ألا تدع العلاقات العائلية تسيطر على عقولهم. ماسحات زجاج تعمل بصورة جيدة، تمثل ترفاً لايمكن أن تحصل عليه، ولون التي

راحت تمضغ علكتها ببطء، تبذل جهدها لكي تتصرف بحذر. وعند مرورها من أمام الفرن المهجور وهي مسرورة لأنها جمعت بعض جذور اليبروج في الوقت المناسب، لاحظت أنه لايوجد أيّ ضوء في بيت آنّا ولاخلفه، في منزل ديك مورغان. سارت لون بحذر شديد لتقطع الأميال القليلة من الطريق الترابي بين طريق روبي وطريق الولاية الرئيسي. كان السير عليه غير آمن، لأنّ الأرض الآن تمتص المطر الذي يضخّم جذور النباتات الظمأى، ويشكّل جداول صغيرة في كل مكان. راحت تقود ببطء، متفكرة أنه إذا كانت هذه المهمة هي حقاً إرادة الله، فلا شيء يمكن أن يعيقها. وفي منتصف الطريق إلى منزل آرون بول توقفت الأولدزموبيل في حفرة جانب الطريق.

في الوقت الذي كانت لون دوبريس تحاول أن تتحاشى فيه لوحة البطيخ الباكوري، كان الرجال يرتّبون التفاصيل الأخيرة وهم يحتسون القهوة وشراباً آخر أكثر قوة لمن يرغب بذلك. لم يكن بينهم أي سكّير، باستثناء مينوس. ولكنهم في تلك الليلة، لم يكونوا يعارضون إضافة الخمر إلى قهوتهم. خلف بناية سارجنت التي تشبه مبنىً ضخماً حيث أقام تجارَتَهُ، وفي طرف الحظيرة التي كان يحتجز فيها الخيول - يوجد مرآب، كان يعمل فيه بإصلاح عدة الخيل - عملاً أصبح اليوم هواية أكثر منه عملاً مأجوراً - فهو يجلس هناك ليتأمل ويجترّ أفكاره، وليهرب من نساء أسرته، وقد أقام فيه بعض وسائل الراحة الخاصة بالذكور: موقد صغير، برّاد، طاولة عمل وبعض الكراسي، كل ذلك وُضع على أرض غير خربة. بالكاد بدأ الرجال ينفخون على قهوتهم عندما بدأ المطر يتساقط. وبعد تناولهم بعض الرشفات لحقوا بـ سارجنت في الباحة لكي يغطّوا بعض الأكياس والمعدات بمشمع لاينفذ منه الماء. وعندما عادوا مبلّلين إلى المرآب شعروا أنهم مرتاحون، وأحسوا فجأة بالجوع. عرض عليهم سارجنت أن يقدم لهم شرائح لحم العجل وذهب إلى البيت ليجلب مايحتاجه ليقدّم للرجال مايأكلونه. سمعته زوجته

بريسّيلاّ فعرضت عليه المساعدة، ولكنّه صرفها بحزم لتنام. راح المطر المعطّر يقرع كالطبل. وساد في السقيفة جو رفاقي زاد من شجاعتهم، بينما راحوا يأكلون الشرائح السميكة المحضّرة على الطريقة القديمة والمقليّة في مقلاة شديدة السخونة.

كانت رائحة المطر العطرية أشدّ قوة في شمال روبي وبخاصّة عند الدير، حيث اجتاح النفّل الأبيض والوزال الاسكوتلندي كل شيء، عدا حديقة الخضار. اندفعت ماقيس وبالاس وقد أيقظتهما هذه الروائح من نومهما، لتقولا لـ كونسولاتا وغريس وسينيكا بأنّ المطر الذي انتظره الناس كثيراً قد أتى أخيراً. اجتمعن على باب المطبخ، أخذن ينظرن أولاً، ثم مدّت كل منهنّ يدها لكي تتلقّف قليلاً منه وتتحسّسه. كان مثل السائل المنظّف على أصابعهنّ، عند ذلك دخلن فيه وتركنه يسيل كبلسم على رؤوسهن الحليقة ووجوههنّ المرفوعة إلى أعلى. كونسولاتا هي التي بدأت ولم تتأخر البقية عن اللحاق بها. هناك أنهار كبيرة في العالم، على ضفافها وعلى شواطئ المحيطات، أطفال يشعرون بالإثارة تحت تأثير نداء المياه. في الأماكن التي تكون فيها الأمطار خفيفة تكاد هذه الإثارة تصبح شهوانية. ولكنّ هذين الإحساسين استسلما لنشوة نساء قدسيات يرقصن تحت المطر الدافئ والعذب. ربّما كنّ ضحكن من ذلك، لو لم يكن السحرُ بهذا العمق. ولو احتفظن بأقل ذكرى للتهديدات والتحذيرات التي تلقينها مؤخراً، لكان المطر الذي لايقاوم قد غسلها نهائياً. استقبلت سينيكا ثم ودّعت أخيراً صبيحة قاتمة في أحد المساكن الحكومية. غريس رأت التنظيف الناجح لقميص أبيض ماكان يجب أن يلوثه شيء أبداً. وماقيس مشت عبر ارتعاشات بتلات ورود شارون التي تدغدغ لها بشرتها. أمّا بالاس التي أنجبت ابناً رقيقاً، كانت تضمّه بين ذراعيها بينما يغسل المطرُ امرأةً مخيفة على درجٍ متحرك، والخوف شديد من المياه السوداء. وكونسولاتا

المسكونة تماماً بالرب الذي ناشدها في الحديقة، كانت الراقصة الأكثر هياجاً، وماقيس الأكثر أناقة. سينيكا وغريس رقصتا معاً، ثم انفصلتا عن بعضهما لكي تتمرّغا في الوحل الطري. وبالاس التي تملّس قطرات المطر عن رأس طفلها أخذت تتمايل كورقة السّرخس.

أخيراً، بعد أن خرجت لون من الحفرة، بحثت بشكل عفوي عن أحد أفراد أسرة دوبريس. فقد أنشأتْها هذه الأسرة وأنقذتها، وقامت إحدى الأخوات بتأهيلها. وأكثر من ذلك، فهي تعرف معدنهم وأحوالهم. اختارت في بداية الأمر بيوس دوبريس ابن بوكر دوبريس وابن أخي جوفينال دوبريس الشهير. وكانوا سعداء مثلهم في ذلك مثل أسرتي مورغان وبلاكهورس بمعرفتهم أنهم منحدرون من رجال سبق لهم أن تولوا رئاسة مجالس الولاية، ولكنهم على النقيض منهم، كانوا أكثر فخراً بالأجيال الأولى: حرفيون، صانعو أسلحة، خيّاطات، صانعات دانتيلّا، إسكافيون، حدادون، بنّاؤون سَرَقَ منهم عَمَلَهُم الجدّي بعضُ المهاجرين البيض. ويكنون احتراماً أعمق للأجيال التي رأت دكاكينها تُحرق وبضائعها تلقى من فوق متون المراكب. لأنّ المهاجرين البيض لا يؤمنون أو يحافظون على المنافسة الشريفة. وقد أُوقفت جماعتهم، وهُدّدوا، طُردوا ونُبذوا من العمل المؤهّل والحِرَف. لكن العائلات تشبّثت بكل ما استطاعت، بما كسبته عام 1755 ، عندما حمل أول أفراد أسرة دوبريس منشفة بيضاء فوق ذراعه، وكتاب صلاة في جيبه. وما كان الإيمان الذي أعطاهم القوة كئيباً، والفضيلة والطيبة غير المتوقعة جعلتهم يبتسمون. أشياء قليلة كانت تُثْرِع قلوبَهُم كالاستقامة المتعمّدة. دون أن يعرفوا دائماً ماذا كان يعني ذلك، ولكنهم أمضوا وقتاً طويلاً في محاولة اكتشافه. وقبل أن يُنتخَب جوفينال لمجلس الولاية بكثير كان حديث العشاء حول مائدة آل دوبريس يتركز على مشاكل كل منهم، ويبحثون كيف يستطيع كل منهم حل تلك المشاكل أو المساعدة على حلها. ودائماً يرجعون إلى الحديث عن أخلاق العمل ونقاء الدوافع، وفيما إذا كان السلوك يزيد مجد الرب ويحافظ على ثقته.

ولم يكن آل دوبريس الحاليون يحبون أو يستحسنون نساء الدير. ذلك كان بعيداً عن تلك المسألة. فقد اعتبروا تصرّف برود وأبولو بمثابة إهانة. ويزدوم بول كان شقيق زوجة أخيهما ومساهمتهما مع مجموعة تريد إلحاق الأذى بالنساء - أيّاً كان مبرّر ذلك - سيعتبرونها بسرعة عملاً وحشياً. وهذا ماحدث. إذ عندما روت لهم لون كل ماسمعته وماعرفته، لم يُضِعْ بيوس الوقت. فقد كلّف ميلندا امرأته أن تذهب إلى بيت آل بوشامب لكي تطلب من رين ولوثر أن يحضرا لمقابلته. وسيذهب هو ولون للبحث عن ديد ساندز وآرون بول. قالت ميلندا إنّ عليهما أن يُعلما دوفي، ولكنهما لم يتوصلا إلى الاتفاق على طريقة القيام بذلك إذا كان ستيوارد هناك. ولم تكن لون تعرف فيما إذا كانوا قد توجّهوا إلى الدير أو أنهم ينتظرون شروق الشمس، بل قالت بأن أحداً ما، يجب أن يجازف بإعلام دوفي التي لو أرادت تستطيع أن تخبر سوان بكل مايجري.

عادت النساء إلى البيت تعبات من تلك الليلة الراقصة، لكنهن سعيدات، وبينما كنّ يجففنّ أجسادهن، طلبن من كونسولاتا أن تحدّثهن من جديد عن بيداد بينما يَدْهَنَّ شعورهن بعطر شجرة الغلطيرة.

«جلسنا على ممشى الشاطئ، حممتني في مياه زمردية. وكان صوتها يُبكي النساء المزهوات في الشوارع. كانت تتساقط قطع نقود معدنية من أصابع الفنانين ورجال الشرطة، وتَوَسّلَنا أكبر طهاة البلد أن نأكل طعامهم. كان لدى بيداد أغانٍ تستطيع تهدئة موجة، إيقافها في عطفة سقوطها لتصغي إلى لغة لم يسبق لها أن سمعتها قط منذ أن انفتح البحر. كان هناك رعاة، على أكتافهم طيور ملوّنة، نزلوا من الجبال ليتذكروا حياتهم في أغانيها. ومسافرون رفضوا الصعود إلى بواخر متجهة إلى الوطن أثناء غنائها. وفي

الليل أمسكت بالنجوم من شعرها الصوفي وغطتني به. كان لأنفاسها رائحة الأناناس والكاجو...».

تنام النساء، ويستيقظن ويَعُدن إلى النوم وهنّ يرين صوراً لببغاوات وأصداف البحر الكريستالية وصورة امرأة تغني ولاتتكلم أبداً. وعند الرابعة صباحاً، يستيقظن للاستعداد لعملهن اليومي، إحداهن تخلط العجين، بينما تشعل أخرى الموقد. بعضهن يقطفن خضاراً من أجل وجبة الغداء، ثم يهيئن المائدة للإفطار. ويقطّع العجين إلى كرات صغيرة توضع في صوان من تنك لتختمر فيها.

كان نور الشمس على وشك أن يسطع عندما وصل الرجال. إذ يصعب عليه اختراق زرقة السماء الموشحة بالغيوم، ولكنّ خلال الوقت الذي كَمَن الرجالُ فيه خلف شجيرات السنديان، وانطلقوا نحو الدير نفذت الشمس عبر الشقوق. زرقة بهية. تصاعدت مياهُ الليل على شكل ضباب من الحفر والبريكات الطافحة بالماء على كتف الطريق. عندما وصلوا إلى الدير تحاشوا السير على الحصى الذي يحدث أصواتاً قوية وتسللوا عبر الحشائش الطويلة وأقواس قزح العرضية نحو المدخل الرئيسي. المخالب، ربما تنتزع ستيوارد خارج هذا العالم. فهي تمسك بالدرجات وتبدو مرقشة وتتلألأ من مياه المطر. وعندما صعد بينها، رفع نقنه ثم بندقيته وأطلق النار على القفل ليفتح باباً لم يقفل أبداً. انفتح إلى الداخل وهو ينحني على مفصّلاته. تبعته أشعة الشمس وقد لطّخت جدران مدخل البهو حيث يلعب أطفال جنسانيون، الواحد مع الآخر برسوم على الدهان المكشوح. وفجأة ظهرت امرأة لها البشرة البيضاء ذاتها، وكل ماكان ستيوارد بحاجة لرؤيته، هما عيناها الشهوانيتان لكي يضغط الزناد ثانية. يجفل الرجال الآخرون ولكن نلك لم يمنعهم من

عبورها. وأخذوا يتلمّسون أسلحتهم وقد شعروا فجأة بأنهم شبان وطيبون إلى حد تذكروا معه أنّ هذه البنادق ليست سوى زينة أو تهويل أو سلوان. وأنهم معنيون.

يعطي ديك الأوامر.

يتفرق الرجال.

ثلاث نساء يحضّرن الطعام في المطبخ سمعن طلقاً نارياً. وقفة. طلق آخر. أخذن ينظرن بحذر عبر الباب الصفّاق. وبعكس الضوء، عبر النور الآتي من الباب المكسور بدت ظلال رجال مسلّحين في مدخل القاعة، اندفعت النسوة إلى غرفة الألعاب وأغلقن الباب قبل أن يتخذ الرجال مواقعهم في القاعة ببضعة ثوانٍ. سمعن وقع خطى تمرّ وتدخل إلى المطبخ الذي غادرنه للتو. لانوافذ في غرفة الألعاب ـ فقد وقعت النسوة في المصيدة وهنّ يعرفن ذلك. مرّت الدقائق. خرج أرنولد وجِف فليتوود من المطبخ وشمّا أثر رائحة الغلطيرة في الهواء. فتحا باب غرفة الألعاب. أصابت أرنولد منفضةُ سجائر من المرمر على صدغه، مما يبهج المرأة التي تلوح بها. واستمرت بالضرب إلى أن انهار على أربع، وصوّب جِف وقد أُخذ على حين غرّة بندقيته بعد فوات الأوان بثانية. طارت من يديه عندما حطّم له رسغه قضيبُ البلياردو، ولما نهض دخل في فكه. رفع ذراعه في بداية الأمر ليحمي نفسه وليمسك طرف قضيب البلياردو. عندها تحطم إطار صورة «كاترين السييناوية» على رأسه.

اندفعت النسوة في القاعة، ولكنهنّ تجمّدن في أماكنهنّ عندما رأين شخصين يخرجان من المصلّى. رجعن راكضات إلى المطبخ ووراءهن هاربر ومينوس. هاربر أمسك بخصر وذراع إحداهن. إنها ضئيلة الحجم، لذلك لم يرَ المقلاة التي دقت جمجمته بشدة. وقع على الأرض مُفلتاً بندقيته. أما مينوس الذي كان يحاول وضع القيد في يدي امرأة أخرى فقد التفت عندما سقط أبوه. والسائل الذي غمر وجهه كان شديد الحرارة لدرجة أنه لم يستطع الصراخ. وضع إحدى

ركبتيه على الأرض، وامتدت يد إحدى النساء نحو البندقية التي تدور على الأرض. ورغم الألم، وبعد أن صار نصف أعمى، فقد شدّها من كاحلها الأيسر، فرفسته على رأسه بقدمها اليمنى. ومن خلفه رفعت امرأة أخرى سكين جزّار وأغمدتها بعمق شديد بين عظام كتفه، بحيث لم تستطع إخراجها لتضرب مرة أخرى. تركته في مكانه وهربت إلى الباحة مع رفيقتيها الأخريين، يذعرن الديك حيثما تذهبن.

ولم يرَ ويزدوم بول وسارجنت بيرسون أحداً، عندما نزلا من الطابق الثاني. فدخلا إلى غرفة الدرس التي يغمرها الضوء الذي يدخل من النوافذ، وأخذا ينظران خلف المقاعد التي ألصقت بالجدران وإن كان من البديهي ألّا أحد، حتى لو كان طفلاً يمكن أن يختبئ هناك.

وفي الأسفل، هناك حزم ضوئية طويلة وبطيئة مع مصابيح «بلاك أند ديكر»، ستيوارد وديك و «K.D.» يتأملون شيئاً نفيساً يمثل تدنيساً وعُنفاً وانحرافات تتجاوز الخيال. قذارات رُسمت بعناية وغطت الأرض كأنها بساط. لمس «K.D.» بأصابعه صليبه المصنوع من سعف النخيل. وربّت ديك على جيب قميصه الذي وَضَع فيه نظارته الشمسية. لقد فكّر أن يستخدمها لغايات أخرى ولكنه أخذ يتساءل إن كان يحتاج إليها الآن ليحمي نظره من هذا البحر من المفاسد الذي يومئ في الأسفل. لم يجرؤ أحد على المشي فوقها. وإذ وجدوا ما يبرر توقعاتهم، استداروا وصعدوا الدرج ثانية. كان باب غرفة الدرس مفتوحاً على مصراعيه، أشار إليهم سارجنت وويزدوم أن يدخلوا. اصطفّ الخمسة أمام النوافذ، وقد أدركوا أنّ النساء لسن مختبئات هناك، بل إنهن طليقات.

بعد وقتٍ قصير من مغادرة الرجال لمرآب سارجنت وصل مواطنو روبي إلى الفرن. تباطأ المطر. وراحت بعض بقايا الأوساخ

تطفو على سطح حاوية القمامة. امتلأ المسيل ولكنه لم يفِض. تسرب الماء إلى الأرض، وسال المطر الذي انهمر كالشلال من الفرن إلى الوحل الذي انتشرت عليه شظايا جِص انتُزعت من القرميد. مالَ الفرن قليلاً على جنبه لأنّ الأرض المرصوفة التي بُني عليها قد تقوضت. وانطلق مواطنو روبي في شاحنات وسيارات ليقابلوا الرجال.

لم تكن أيّ واحدة من الأختين بحاجة لمن يقنعها، لأنهما تعرفان أنّ هناك أمراً فظيعاً يدبّر في الخفاء. طلبت دوڤي من سوان أن تقود السيارة. وظلّت كلتاهما صامتتين، بينما أفكارهما تدوّي كالصواريخ. طيلة ثلاثين سنة نظرت دوڤي إلى زوجها وهو يحطم شيئاً ما في داخله. كلما جنى أكثر أصبح هو أقل. وربّما هو الآن منهمك بتدمير كل شيء. هل شوّشت له ذهنه خمسةٌ وعشرون سنة من النجاحات الباهرة؟ هل ظنّ أنهم لكونهم يعيشون خارج نطاق قوانين البيض قد أصبحوا فوقها؟ طبعاً إن أحداً لا يمكنه أن يتمنى زوجاً أكثر وداً، وطالماً تجاهلت الأجزاء التي لا يمكن معرفتها، ظلّ زواجهما رائعاً. ومع ذلك فهي تفتقد البيت الصغير المرهون حيث كان صديقها يزورها. لم يأت لزيارتها سوى مرة واحدة، منذ أن استعاده «K.D.»، كان ذلك في حلم، وقد أخذ يتحرك مبتعداً عنها: راحت تناديه فيلتفت. الشيء التاليُ الذي تعرفه أنها كانت تغسل له شعره. استيقظت حائرةً، ولكنها سعيدة لرؤية يديها مبلّلتين بالرغوة.

تعاقب سوان نفسها لأنها لم تكلم ديك مجرد كلام وحسب، ولأنها لم تقل له بأنها تعرف كل شيء عن كوني، وأنّ فقدان طفلهما الثالث عقوبة لها ـ وليس له. بعد أن أنقذت كوني حياة سكوت تبخّرَ كلُّ حقد سوان عليها، ولأنّهما أصبحتا صديقتين حميمتين اعتقدت أنها غفرت لديك أيضاً. والآن راحت تتساءل فيما إذا كان خوفها من الاختناق في هواءٍ أرق من أن تتنفّس فيه، وحدادها الذي لايقبل عزاءً على ولديها، وطريقتها في إبقاء آلامها حيةً برفضها قراءة رسائلهما الأخيرة، ليست سوى وسائل لمعاقبته دون أن تبدو كذلك.

وعلى أية حال، فهي تعرف أن طرد نسوة الدير له علاقة بزواجهما. لأنّ هاربر وسارجنت وبالتأكيد أرنولد، ماكانوا ليرفعوا أيديهم على هؤلاء النسوة، لو لم يكن ديك وستيوارد قد فوّضاهم وتلاعبا بعقولهم . لو أنها تكلمت قبل هذا الوقت باثنتين وعشرين سنة، لو أنها تكلمت وحسب.

حطمت دوقي الصمت: «بماذا تفكرين؟».

«لا أستطيع».

«لن يؤذونهنّ، أليس كذلك؟».

أوقفت سوان ماسحات الزجاج. لم يعد هناك حاجة لها الآن. وأجابت: «لا، يريدون إخافتهنّ وحسب. أعني حتى يرحلن».

«ومع ذلك فالناس يتحدثون عنهنّ طيلة الوقت. كما لو كنّ... قذارة».

«إنهنّ مختلفات، وهذا كل مافي الأمر».

«أعرف، ولكن فيما مضى كان هذا يكفي».

«إنهن نساء يا دوقي، مجرد نساء».

«عاهرات، على أية حال، وغريبات الأطوار أيضاً».

«دوقي!».

«هذا مايقوله ستيوارد وإذا صدق ذلك...».

«سيّان عندي إن كنّ كذلك...» لم تكن سوان تستطيع أن تتخيل شيئاً أسوأ من هذا. لزمت الاثنتان الصمت.

«تقول لون أنّ «K.D.» ذهب إلى هناك».

«سيكون هناك».

سألتها دوقي: «أتعتقدين أنّ مابل مطّلعة على الموضوع؟ أو بريسيلا؟».

«أشك بذلك، فلولا لون لما عرفنا نحن؟».

«أعتقد أن الأمور ستكون على مايرام. لأنّ آرون وبيوس سيوقفانهم عند حدهم. وآل بوشامب وحتى ستيوارد لن ينجرف مع لوثر».

انفجرت الأختان ضاحكتين ضحكات خفيفة طافحة بالأمل لتهدئة مخاوفهما وهما تسرعان السير، عبر هواء الفجر الرائع.

تستيقظ كونسولاتا. وهي تعتقد أنها سمعت قبل بضعة ثوانٍ وقع أقدام تنزل. افترضت أن بالاس قادمة لتطعم الطفل المستلقي بجانبها. دسّت حفّاضَتَهُ لترى إذا كان بحاجة لتغييرها. شيء ما، شيء ما. انتابت كونسولاتا قشعريرة. فتحت الباب وسمعت وقع الخطى وهي تبتعد، خطى أثقل وأكثر عدداً من أن تكون لامرأة. وتساءلت فيما إذا كان عليها أن تزعج الطفل النائم أم لا. ثم لبست بسرعة فستاناً أزرق، ياقته بيضاء وقررّت أن تترك الطفل في مهده. صعدت الدرج فرأت في الحال جسماً ممدّداً على الأرض، في المدخل. أسرعت فاحتضنت المرأة بين ذراعيها، وقد تلطخ خدها والجانب الأيسر من فستانها بالدم. نبضها يدق في عنقها، لكنه ليس محسوساً جداً وتنفّسها ضعيف. فركت كونسولاتا الزغب على رأس المرأة وبدأت تدخل فيها، بعمق، وأكثر عمقاً لكي تجد نقطة الضوء. دوّت طلقات نارية في الغرفة المجاورة.

الرجال يطلقون النار عبر النافذة على ثلاث نساء يركضن فوق النفَل والوزال الاسكوتلندي. دخلت كونسولاتا وهي تصرخ: «لا!».

التفت الرجال.

أغمضت كونسولاتا جفنيها نصف إغماضة بسبب أشعة الشمس، ثم رفعت نظرها كما لو أنّ شيئاً استرعى انتباهها فوق رؤوس الرجال فقالت: «غُدتَ» وابتسمت.

ديكون مورغان بحاجة للنظارة الشمسية ولكنها محشورة في جيب قميصه. نظر إلى كونسولاتا ورأى في عينيها الشيء الذي جف

منهما ومن نفسه أيضاً. هناك دم قرب شفتيها. وهذا جعل أنفاسه تنحبس في صدره. رفع يده ليوقف يد أخيه، وليكتشف أيّ منهما هو الأقوى. اخترقت الرصاصة جبين كونسولاتا.

صرخت دوڤي. وسوان تنظر محدّقة.

«هذا الاحتضار قد يستغرق بعض الوقت»، لون بحاجة ملحّة لـ النعناع الحاد بينما راحت تُوقِف الدم الذي يسيل من جرح المرأة البيضاء. نقلتها هي ورين إلى الأريكة في غرفة الألعاب. لاتستطيع لون سماع دقات قلبها، رغم انطباعها بأنها ماتزال تشعر بدقات النبض في عنقها. فقد غادر دمٌ غزير جسد هذه المرأة ذات الرّسغين الصغيرين كرسغي طفل.

صاحت: «هل ذهب أحد ليبحث عن روجر؟».

جاءها الجواب بصوت مرتفع: «نعم».

سبّبت لها الضجة في الخارج صداعاً، ورغبة لاتقاوم بالحصول على شيء تمضغه. تركت لون المرأة لترى ماذا يحدث وتنقذ حياةً أو حياتين عبر تلك الفوضى.

دوڤي على الدرج تبكي.

اقتادتها لون نحو المطبخ الموجودة فيه سوان: «عليك أن تسكتي الآن يا دوڤي، وأنا بحاجة إلى امرأة تفكّر. هيّا، تعالي انظري هنا، اذهبي واجلبي ماءً، وحاولي أن تسقي الفتاة الموجودة في الداخل».

في وقت مبكر كان ديكون مورغان قد نقل كونسولاتا إلى المطبخ، وحملها بين ذراعيه طيلة الوقت الذي قضته النساء بإزالة الأشياء عن الطاولة، ثم وضعها عليها برفق، كما لو أن حركة عنيفة يمكن أن تسبّب لها ألماً. عندما وضع كونسولاتا بوضع مريح ـ بعد

أن طُوي معطف سوان المطري تحت رأسها ـ حينئذٍ فقط أخذت يداه ترتجفان. ثم غادر ليساعد الرجال الجرحى. مينوس الذي عجز عن نزع السكين الذي غُرز في كتفه كان يئنّ من الألم. رأس هاربر أخذ يتورّم، ولكن أرنولد فليتوود هو الذي بدا أنه يعاني من صدمة وارتجاج. وكان يجب العناية بفكّ جِف ورسغه المسكورين. وصلت جماعة أخرى من سكان روبي بعد أن أثارتهم القافلة الأولى، فزادوا من حجم الفوضى والضجيج. نزع المحترم بوليام السكين من كتف مينوس ووجد صعوبة كبيرة في إقناع هاربر ومينوس جوري وآل فليتوود بقبول الذهاب إلى مشفى دمبي. وصلت رسالة من ابن ديد ساندز تعلن أن روجر سيعود من ميدلتون، صباح ذلك اليوم، وأنه حالما يصل سوف ترسله ابنته إلى الدير. أخيراً توصل بوليام إلى إقناع الرجال، وقاد الجرحى بالسيارة بعيداً عن المكان.

كانت أصوات ذكورية ما تزال تدوّي. وبين الاتهامات الصاخبة والدفاعات المحزنة الهادئة ولكن الأكثر هدوءاً وأمام عدوانية الأسئلة والتنبؤات بالقدر المشؤوم احتاج الأمر نصفَ ساعةٍ على الأقل، قبل أن يفكّر أحد بالسؤال عما حدث لبقية النساء. وعندما ألقى بيوس السؤال، أشار سارجنت برأسه: «هناك في الخارج».

«هل هربن؟ إلى «الشريف»؟».

«أشك بذلك».

«ما الأمر يارجل؟».

«لقد سقطن بين الحشائش والأعشاب».

«هل ذبحتم كل هؤلاء النساء؟ ولأيّ سبب؟».

«الآن سيتعقبنا القانون الأبيض واللعنة!».

«لم نأتِ إلى هنا لنقتل أحداً. انظر ماذا فعلن بـ مينوس وفليت لقد قمنا بالدفاع المشروع عن النفس!».

نظر آرون بول إلى «K.D.» الذي أعطى هذا التفسير: «لقد

دخلتم عليهنّ في بيتهنّ، ولم تتوقعوا المقاومة؟» كان الاحتقار واضحاً في نظراته، لكنه ليس بارداً مثل احتقار لوثر الذي سأل: «من الذي كان يحمل السلاح؟».

«نحن، ولكن الخال ستيوارد هو الذي...».

صفعه ستيوارد على فمه، ولولا سيمون كاري لكان من الممكن أن تحدث مذبحة أخرى. صاح المحترم كاري: «امسكوا به!» وأشار بإصبعه إلى «K.D.» قائلاً: «أنت في مأزق، يابني!».

ضرب بيوس الجدار بقبضته وقال له: «لقد سبق لك أن أسأت إلى سمعتنا. والآن تريد تدميرنا؟ أيّ نوع من الشرور يكمن تحت جلدك؟» نظر في بادئ الأمر إلى ستيوارد ولكنه بعد ذلك أخذ يحدق بـ ويزدوم بـ سارجنت والاثنين الآخرين.

قال ستيوارد: «الشرّ في هذا البيت. انزل إلى القبو كي ترى أنت بأمّ عينيك».

«أخي يكذب. فنحن الذين فعلنا ذلك. نحن وحدنا. ونحن نتحمل المسؤولية».

وللمرة الأولى منذ إحدى وعشرين سنة تبادل الأخوان التوأمان النظرات بعينين جامدتين.

أثناء هذا الوقت أغلقت سوان ولون دوبريس العينين الضعيفتين ولكنهما لم تستطيعا أن تفعلا شيئاً للعين الثالثة الرطبة الموجودة في الوسط، والتي لاأجفان لها.

همست سوان: «لقد قالت ديڤاين».

«ماذا؟» حاولت لون أن تغطي الجثمان بملاءة.

«عندما ذهبت لأراها. تماماً بعد أن كان ستيوارد... أمسكتْ برأسها، فقالت «ديڤاين». ثم شيئاً آخر مثل: «إنه إلهيّ، وينام بصورة إلهية». كانت تحلم على ما أعتقد».

«حسناً، لقد قُتلت برصاصة في رأسها يا سوان».

«وماذا تظنين أنها رأت؟».

«لاأدري، ولكنها فكرة جميلة، حتى لو كانت الأخيرة».

دخلت دوقي وقالت: «لقد ماتت».

سألتها لون: «أمتأكدة أنت من ذلك؟».

«اذهبي وانظري بنفسك».

«سأفعل».

غطّت الأختان كونسولاتا بالملاءة.

قالت دوقي: «لم أكن أعرفها بقدر ماتعرفينها».

«كنت أحبها كثيراً. والله شاهدي على ذلك، كنت أحبها، ولكن أحداً لم يكن يعرفها حق المعرفة».

«لماذا فعلوا هذا؟».

«فعلوا «هم» تعنينه هو أليس كذلك؟ ستيوارد هو الذي قتلها، وليس ديك».

«إنَّ من يسمعك يقول بأنّ كل شيء كان بسببه».

«ليس هذا ماقصدت قوله».

«ماذا إذن؟ ماذا تريدين أن تقولي؟».

لاتدري سوان ماذا تقصد، باستثناء أن تعرف كيف تجد قطعة صابون لإزالة أصغر بقعة تستطيع تنظيفها. ولكنّ هذا التبادل غيّر علاقتهما بصورة نهائية.

الناس الذين كانوا مضطربين، غاضبين، حزينين، خائفين، تكدسوا في السيارات، وعادوا نحو الأولاد، والمواشي، والحقول والأعمال المنزلية والحيرة. كم عملوا بحميَّة من أجل هذه المدينة، وكم كانوا بعيدين ذات مرة عن الفظاعة التي شهدوها للتو، كم تستطيع مهمة نظيفة ومباركة لهذا الحد أن تلتهم نفسها وتصبح العالم الذي هربوا منه؟

قالت لون إنها تريد البقاء مع الموتى إلى أن يصل روجر. سألتها ميلندا: «وكيف ستعودين؟ سيارتك عندنا».

تنهّدت لون: «حسناً، الأموات لايتحركون. ولدى روجر الكثير من الأعمال التي تنتظره». وفي السيارة التي تبتعد، التفتت لون وألقت نظرة على المنزل. «الكثير من الأعمال».

لم يكن لديه الكثير. وعندما عاد روجر بيست إلى روبي لم يقم حتى بتغيير ملابسه. فقد أدار محرك سيارة الاسعاف/ ودفن الموتى وانطلق بها نحو الدير. لقد قيل له إن ثلاث نساء سقطن بين الحشائش، وواحدة في المطبخ، وأخرى في المدخل. فتّش في كل مكان. كلّ بوصة من الحشائش، وكلّ رقعة من الوزال الاسكوتلندي. قنّ الدجاج. حديقة الخضار. وفي خطوط الذرة الصفراء في الحقل الخلفي. ثم في غرفة المصلّى وغرفة الدرس. غرفة الألعاب كانت فارغة وكذلك المطبخ ـ كان هناك غطاء ومعطف مطري مطوي على الطاولة، كدليلين وحيدين على أنّ جسداً كان موجوداً هناك. وفي الطابق الأعلى بحث في الحمّامين، وفي كلٍّ من الغرف الثماني. ومرة أخرى فتّش في المطبخ وفي غرفة المؤن. ثم نزل إلى القبو ومشى على اللوحات المرسومة على الأرض. فتح باباً يؤدي إلى مستودع للفحم. وخلف باب آخر رأى سريراً صغيراً وزوجاً من الأحذية المُلمَعّةعلى منضدة الزينة. لم يكن هناك أحد. لاشيء. حتى الكاديلاك كانت قد مضت.

سيف ـ ماري

«هاكم سبب وجودنا هنا: في هذه اللحظة الفريدة التي يكتنفها الحزن والألم ـ ونحن نتأمل الحياة القصيرة والموت غير المقبول وغير المفهوم لطفلة ـ نؤكد أو نرجئ أو نفقد إيماننا. هنا، في دقات هذه اللحظة، في هذا المكان تبدو جميع أسئلتنا، وجميع مخاوفنا، غضبنا واضطرابنا وأسانا، وكأنها تندمج، وتنتزع الأرض من تحت أقدامنا، ونحس كأننا نسقط. هنا، ربما نستطيع القول بأنه قد حان الوقت لنتوقّف، أن نطيل هذه اللحظة ونرفض التفاهات حول العصافير التي تسقط تحت عين الله، حول جدوى الموت في سن الشباب (لم يكن لهذه الطفلة خيار بأن تكون صالحة) أو حول الموت كونه الديموقراطية الوحيدة. هذا هو زمن إلقاء الأسئلة التي في أذهاننا. من يمكن أن يفعل هذا بطفلة؟ من يمكن أن يسمح بحدوث هذا لطفلة؟ ولماذا؟».

لم تكن سويتي فليتوود ترغب بمناقشة هذا الأمر. لن ترقد طفلتها لترتاح في أرض ستيوارد مورغان. كانت هذه مشكلة جديدة تماماً: مسألة مكان الدفن لم تُطرح في روبي منذ عشرين سنة، وقد حدثت دهشة وحزن عندما أصبح ذلك ضرورياً. وعندما توفّيت سيف ـ ماري أصغر أبناء سويتي وجِف ظنّ الناس أنّ الآخرين: نوح، إستير ومينغ سيتبعونها بسرعة. أُعطي الأول اسماً قوياً لأنه ابن قويّ وكذلك لأنه اسم والد جدّه. وسميّت الثانية إستير تخليداً

لذكرى أم جدتها التي أحبّت الأول واعتنت به بكثير من الغيرية. وأعطوا للثالثة اسماً، كان جِف يتمسّك به ـ لأمر له علاقة بالحرب. وأخيراً كان اسم الطفلة الأخيرة عبارةً عن التماس (أو تفجع): سيف ـ ماري(*) ومن يستطيع القول بأنّ هذا الطلب لم يلق جواباً. لذلك فإنّ النقاش الحادّ بشأن اختيار مقبرة رسمية لم يحصل فقط بسبب رغبات سويتي وانتظار عمليات دفن جديدة، بل لأنه لأسباب معقّدة، لم تعد الحصّادة ممنوعة في روبي. وبالتالي فإنّ ريتشارد ميسنر أصبح يشرف على قطعة أرض نذرت للكنيسة ويقيم مؤسسة جديدة. ولكن بالنسبة لـ سويتي فإنّ مسألة معرفة فيما إذا كان يجب استخدام المقبرة لهذا الغرض بالذات في مزرعة ستيوارد ـ حيث ترقد روبي سميث ـ كانت مستحيلة. وتحت تأثير أخيها لوثر فقد لامت ستيوارد لأنه وضع زوجها ووالده في مأزق وقالت بأنها تفضل أن تعمل مثل روجر بيست (الذي حفر قبراً في أرضه) وأنّ الأمر سيان تماماً لديها أن تكون ثلاثة وعشرون عاماً قد مرّت على عملية الدفن السريعة تلك، التي شهدها قليل جداً من الناس في الباحة الخلفية.

فَهِم معظم سكان روبي لماذا كانت تُحدث كل ذلك الاهتياج (ماكان يختمر في رأسها هو الحزن والملامة). ولكن بات بيست تظن أنّ عناد سويتي كان محسوباً أكثر من ذلك. إذ أنّ رفضها لعرض آل مورغان، وتركها الشك يساور الناس بشأن استقامة مورغان قد يتيحان لها الاستيلاء على بعض المكاسب من جيوب مورغان. وإذا كانت نظرية بات المتعلقة بجماعة الـ (R-8) صحيحة، فإنّ حقد سويتي وضع جماعة (R-8) في موقف محرج إذ يجب عليهم أن يقرروا الحصول على مقبرة حقيقية رسمية في مدينة تغص بالخالدين. وقد حدث أمر زلزالي منذ شهر تموز. إذ كانوا موجودين هناك، تحت سماء غائمة، في يوم من أيام تشرين الثاني اللطيفة، وقد اجتمعوا على مسافة تقرب من الميل خلف آخر منزل في

(*) Save - Marie، وتعني أنقذ ماري.

روبي، في أرض تعود بالطبع إلى آل مورغان، ولكن أحداً لم يتجرأ على إبلاغ سويتي بذلك. استعادت بات وهي واقفة بين الجمهور المحيط بآل فليتوود الحزانى، حالة الاستقرار. وقبل ذلك بقليل، أثناء تشييع الجنازة، راحت تبكي لأنهم لو يؤبنوا الموتى. والآن عادت إلى شخصيتها المألوفة اللاهية كالعادة دون انفعالات. تأمل على الأقل أن تكون دون انفعالات وتأمل أنّ ماتشعر به هو اللهو تماماً. وكانت تعرف أنّ لدى آخرين أحكاماً مختلفة على موقفها. وقد ذكر لها ريتشارد ميسنر بعضها: («حزين، حزين وبارد»)، لكنها كانت واسعة الثقافة وليست رومانسية، وقد حصّنت نفسها ضد كلام ريتشارد ميسنر الذي قاله بجانب القبر ليلفت نظرها بدلاً من ذلك إلى الحزانى.

لقد رجع هو وآنّا فلود بعد يومين من الاعتداء على نسوة الدير، وقد أمضى أربعة أيام حتى اطّلع على ماحدث. أعطته بات نسختَي القصة الرسمية: أولاً أنّ تسعة رجال ذهبوا ليتحدثوا مع النساء في الدير لإقناعهنّ بالرحيل أو بإصلاح سلوكهنّ، وحدث شجار، فاتخذت النسوة أشكالاً أخرى واختفين في الهواء الرقيق. ثانياً (رواية فليتوود ـ جوري): أن خمسة رجال ذهبوا لطرد النساء، وأنّ أربعة آخرين ـ هم مؤلفو القصة ـ ذهبوا لمنعهم أو إيقافهم، فهاجمت النساء هؤلاء الأربعة، ولكنّ الرجال تمكّنوا من حَمْلِهنّ على الفرار، فهربن في سيارة الكاديلاك. ولسوء الحظ، كان بعض الرجال الخمسة قد فقدوا رشدهم وقتلوا المرأة العجوز. وتركت بات لـ ريتشارد ميسنر الحرية لأن يختار الرواية التي يفضلها. ولم تعطه نسختها هي: أن تسعة من جماعة (R-8) قد قتلوا خمس نساء مسالمات، (أ) لأن هؤلاء النسوة كنّ مدنّسات (لسن من جماعة (R-8)، (ب) لأنهنّ كنّ ملعونات (في أفضل الأحوال زانيات وفي أسوئها يعملن على الإجهاض) و (ج) لأنهن يملكن القدرة ـ وهذا ما هدفت إليه جماعة (R-8) وما تتطلبه «الصفقة» أيضاً.

لم يصدّق ريتشارد هذه القصص التي تحولت بسرعة إلى كلام مقدس، وتحدّثَ عنها للقسّين الآخرين، سيمون كاري وسنيور

بوليام اللذين أوضحا جوانب أخرى من الحكاية. ولكن بما أنّ أياً منهما لم يجزم بمغزى نهايتها، وبالتالي عجزا عن صياغة بيان عنها يتصف بالمصداقية وجدير بأن يصبح أساساً لإحدى المواعظ، ولذلك لم يستطيعا تخفيف استياء ريتشارد. كانت لون هي التي زوّدته بالتفاصيل المأساوية التي أسرع عدة أشخاص لمناقضتها، لأنّ لون، كما قالوا، لايمكن أن يوثق بها. باستثنائها، لم يسمع أحدٌ الرجال عند الفرن، ومن يعرف ماذا قالوا فيما بينهم حقاً؟ وكبقية الشهود وصلت بعد أن أطلقت العيارات النارية، وعلاوة على ذلك، فإنها هي ودوقي يمكن أن تُخطئا، حول ما إذا كانت امرأتا الدير قد قتلتا أم جُرحتا وحسب، أخيراً، فإنها لم ترَ أحداً خارج المنزل، حيّاً كان أو ميتاً.

أمّا بالنسبة إلى لون فقد تشوشت من الطريقة التي راحوا يعيدون بها القصة، كيف كان الناس يغيرونها لجعل أنفسهم يظهرون بشكل طيب. وفيما عدا ديكون مورغان الذي لم يكن لديه مايقوله، كان لكل واحد من الرجال الذين اشتركوا في الهجوم حكاية مختلفة، وراح أفراد عائلاتهم وأصدقاؤهم (الذين لم يكونوا قريبين من الدير أبداً) يؤيّدونهم ويدعمون ويعززون ويخلقون معلومات مغلوطة. ورغم أن آل دوبريس، آل بوشامب، آل ساندز وآل بول يؤيدون رواية لون. ولكنّ ماعُرِف عنهم من دقة ونزاهة بالذات لم يستطع أن يمنع حقيقةً محرّفة من أن تفرض نفسها في أحياء أخرى. ولو لم يكن هناك ضحايا لغدت قصة الجريمة مجالاً لعبث أي لسان. ولذلك فإنّ لون أغلقت فمها واحتفظت بما تشعر به كأمر مؤكد مطوياً في رأسها: لقد منح الله روبي فرصة ثانية. وقد جعل حضوره مرئياً جداً، وغير قابل للجدال أبداً، إلى حدّ أنّ أشد المتكبرين (من أمثال ستيوارد) والبلهاء الذين لايمكن إصلاحهم (كابن أخته الكذاب) كان لابدّ أن يكونوا قادرين على رؤيته. لقد التقط واستقبل «خادمات الله» في وضح النهار حقّاً حبّاً بالخير! تحت أعينهم بالذات حبّاً بالمسيح! وبما أنهم كانوا يتّهمونها بالكذب، قرّرت أن تلزم الصمت وتراقب كيف تعامل يدُ الله الشكاكين وشهود

الزور. هل سيعرفون أنهم خوطبوا؟ أم أنّهم سيبتعدون أكثر عن طريق الله؟ هناك أمر مؤكد: كانوا قادرين على رؤية الفرن ولايستطيعون قراءة ذلك أو التحدث عنه بشكل سيء، لذا من الأفضل أن يسرعوا ويثبّتوا انزلاقه قبل فوات الأوان ـ وربّما هذا ماحدث، لأنّ الشبان غيّروا الكلمات من جديد. لم يعودوا يدعون أنفسهم «كونوا غضبة الله». أصبح النقش الأثري على غطاء الفرن يقول الآن: «نحن غضبة الله».

ومهما كانت حدة الانقسامات التي حدثت حول ما قد حصل بالفعل، فإنّ بات تعرف أنّ الحدث الضخم والذي كان الجميع متفقين عليه هو أنّ جميع من وجدوا هناك قد غادروا المكان، وهم متأكدون أنّ رجال القانون سيكونون سعداء جداً بانتشار الجميع في المدينة (فقد قتلوا امرأة بيضاء على أية حال) وليلقوا القبض على جميع رجال الأعمال في روبي. وعندما علموا بعدم وجود موتى يجب الإبلاغ عنهم أو نقلهم أو دفنهم، شعروا بارتياح عظيم جَعَلهم يبدؤون بنسيان مافعلوه أو رأوه حقاً. ولولا لوثر بوشامب ـ الذي كان يروي القصة الأكثر تفاهةً ـ وبيوس وديد ساندز وآرون ـ الذين أخذوا يؤيدون العناصر الأساسية في رواية لون ـ ربما كانت القضية برمتها قد أزيلت من الوجود. ومع ذلك، فحتى هؤلاء لم يكن بإمكانهم أن يقرروا الكلام عن ميتات غير طبيعية في منزلٍ ليس فيه جثث، مما قد يؤدّي إلى اكتشاف ميتات طبيعية في سيارة ملأى بالجثث. ورغم أن بات لم تكن حائزة على ثقة أناس كثيرين، فقد جمعت من أحاديثها مع أبيها ومع كيت، ومن مناقشات استرقتها عمداً رغم أنها لم تُطلع كثيراً من الناس على ذلك، ماجعل الناس، بعد أربعة أشهر يرددون الأحاديث عن المشكلة ويطلبون من الله أن يرشدهم إن كانوا مخطئين: إن كان قانون البيض يستطيع، على نقيض كل مايعرفونه ويؤمنون به، معالجة قضايا كانوا في الماضي يقومون بتسويتها فيما بينهم. راحت الصعوبات تخضّ كل الناس وتُبَلْبلهم: الشكاوى والإتهامات، الصلوات من أجل التفاهم والصفح،

التباهي بالدفاع عن النفس، الأكاذيب المباشرة، وحشد من الأسئلة التي لايكفّ ريتشارد ميسنر عن طرحها عليهم. ولذلك فإن عملية الدفن كانت عبارة عن فترة توقف ولم تكن النتيجة.

ربما كانوا على صواب فيما يتعلق بهذه المدينة، كما فكرت بات وهي تعاين سكان المدينة. ربما روبي محظوظة. ثم تراجعت قائلة: لا، صححت لنفسها. حتى لو كانت الأدلة على الهجوم غير مرئية، فإنّ النتائج لم تكن كذلك. فهناك جِف وذراعه حول خصر زوجته، والاثنان يبدوان حزينين مع شيء من الجلال الاستخفافي أيضاً، لأنّ جِف أصبح الآن المالك الوحيد لمخزن والده بأثاثه وعمله. أصبح أرنولد بشكل مفاجئ عجوزاً جداً يشكو من صداع دائم، له غرفَته الخاصة به الآن منذ أن رحلت آرنيت. وقف منكس الرأس عيناه تقع على كل شيء عدا التابوت. بينما كان سارجنت بيرسون مرتاحاً كما لم يكن أبداً: فليس هناك أي مالك ينتظر أجراً عن أراضيه، إلا إذا كان هناك مفتشٌ مالي للمقاطعة يولي اهتماماً (وإلى أن يفعل ذلك) لقرية صغيرة يسكنها سود لامشاكل لهم، يعيشون في خشية الله، فإن جشعه لن يعرف حدوداً. كان هاربر جوري دون ندم يرتدي بزّة زرقاء غامقة، ويحمل في رأسه جرحاً كأنه وسام، يسمح بأن يتخذ وضعية المحارب الجريح الذي لم ينحنِ إزاء الشر. مينوس صار أكثرهم بؤساً، لم يعد لديه عملاء في مخزن آنّا، من جهة لأنّ كتفه المكسور كان يحدّ من قدرته على استعمال أدوات الحلاقة، ومن جهة أخرى لأن ميله للمشروب قد امتد إلى أكبر عدد من أيام الأسبوع. وقد سار انغماسه في الملذات بسرعة نحو نهايته. وتعود أسوأ حصة إلى ويزدوم بول. حمّله سبعون من أفراد الأسرة مسؤولية (كما حمّلوا أخويه برود وأبولو) تدنيس سمعة أجدادهم، دون أن يتركوا له السلام أو المنصب، وقاموا بتوبيخه كل يوم إلى أن ركع على ركبتيه وبكى أمام جميع المؤمنين في «هولي ريديمر». وبعد أن اعترف علناً، وتاب، وشعر بمزيد من الندم، أخذ يُجري محادثات عابرة مع برود وأبولو. كانت آرنيت و«K.D.» يبنيان بيتاً جديداً على أرض لـ ستيوارد. إنها حامل من جديد والاثنان يأملان أن يصبحا

في وضع يتيح لهما أن يجعلا الحياة بغيضة بالنسبة إلى آل بول، آل دوبريس، آل ساندز وآل بوشامب، وبخاصة إلى لوثر الذي كان يستغل كل مناسبة لإهانة «K.D.». وكانت التطورات الأكثر أهمية تعني الأخوين مورغان. فالسمات التي تميزهما راحت تتآكل : اختيار التبغ (فقد تخلى الاثنان في وقت واحد عن تدخين السيجار ومضغ التبغ)، الأحذية، الملابس وشعر الوجه. كانت بات تظن أنهما يشبهان بعضهما، دون شك، أكثر من وقت ولادتهما. ولكن الاختلاف الداخلي كان عميقاً جداً لايمكن لأحد أن يخطئه. ضم ستيوارد الوقح الذي لايعتذر «K.D.» تحت جناحيه، وعمل جهده لكي يحقق الثراء لابن أخته وطفله البالغ من العمر ستة عشر شهراً (والمنزل الجديد ضمناً)، ومسهلاً دخول «K.D.» إلى المصرف، بينما راح ينتظر دوڤي أن توافق ويبدو أنها ستوافق ، فعلى ما يبدو كان هناك برود واضح في العلاقة بينها وبين سوان. لم تكن الأختان متّفقتين بشأن ماحدث في الدير. فدوڤي رأت كونسولاتا عندما وقعت ولكنها تؤكد أنها لم ترَ من هو الذي ضغط على الزناد. أمّا سوان فتعرف، وهي بحاجة لأن تعرف شيئاً واحداً: أنه لم يكن زوجها. لقد رأت يده تنتقل فوق يد ستيوارد بإيماءة محذرة ومانعة. فقد رأته وتقول ذلك مرّة بعد أخرى لكل من يريد سماع ذلك.

كان ديكون مورغان أعظمهم تغيراً. كما لو أنه نظر إلى وجه أخيه ولم يعد يحب نفسه. والأمر الذي أدهش الجميع أنه عقد صداقة (حسناً، علاقة على أية حال) مع شخص آخر غير أخيه، يشكل سبَبُها ومبررها وأساسها أعجوبة خفية. لم يكن ريتشارد ميسنر يتكلّم، ولم تُعرف بشكل مؤكد سوى مسألة السير بقدمين حافيتين التي حدثت بصورة علنية.

كان ذلك في أيلول والجو مازال حاراً عندما سار ديكون مورغان نحو الشارع المركزي. أقحوان على يمين الممشى المحاط بالآجر الذي يؤدّي إلى منزله الأبيض الفخم، أقحوان على يساره. كان يضع قبعته ويرتدي بزته وصدريته وقميصاً أبيض نظيفاً. بلا حذاء وبلا جوارب. دخل شارع سان جون حيث غرس أشجاراً تبعد

الواحدة عن الأخرى خمسين قدماً، فقد كان تفاؤله عظيماً قبل ذلك بعشرين سنة. انعطف يميناً إلى الشارع المركزي. كان قد مرَّ عقد من الزمن لم يمش فيه نعلا حذائه، ناهيك عن قدميه الحافيتين على تلك المسافة من الإسمنت الكثير. وبعد منزل أرنولد فليتوود بالضبط، قرب زاوية شارع سان لوك قال زوجان: «صباح الخير يا ديك». فردّ لهما التحية بإشارة من يده وعيناه مستقيمتان قُدماً. وحيّته ليلي كاري من شرفة منزلها، بالقرب من تقاطع شارع سان مارك ولكنه لم يلتفت برأسه. فسألته وهي تحدق إلى قدميه: «هل سيارتك معطلة؟». وأمام مخزن أدوية هاربر جوري، عند زاوية الشارع المركزي وشارع سان ماتيو، شعر بعينين منتبهتين تتبعانه. لم يحوّل رأسه ولم يلق نظرة عبر نافذة «مصرف مورغان للتوفير والقروض» عندما اقترب من شارع سان بيتر. اجتاز الشارع عند التقاطع واتّجه نحو منزل ريتشارد ميسنر. آخر مرة أتى إليه، قبل ست سنوات، كان غاضباً، تساوره الشكوك ولكنه واثق أنه هو وأخوه سيسيطران. وماشعر به الآن بدا غريباً بعض الشيء بالنسبة لتوأم ـ الاحساس بالتفكك والعزلة الكظيمة التي أودت بشهيته ونومه وصوته. ومنذ شهر تموز أصبح لديه انطباع أنّ الناس يتكلمون بصوت خافت أو يصرخون من مكان بعيد جداً. كانت سوان تراقبه، لكنها، رأفةً به، لم تندفع في محادثة خطيرة. أدركت بأنها لو فعلت ذلك، فإنّ ماسيقوله سينتزع الحياة من حياتهما. قد يخبر زوجته بأنّ خضرة الربيع قد استُنزفت، وفيما عدا هذه الخسارة، فإنها جميلة أكثر من أي امرأة يظن أنها جميلة، وأنّ شعرها المتمرّد يحيط بوجه ذي ملامح حادة لدرجة أنه شعر بالرغبة في لمسه، وأنها عندما تكلمت، ابتسامتها جعلت الشمسَ تبدو بلهاء. وربما يقول لزوجته بأنه ظن في بداية الأمر أنها قد تكلمت معه: ـ «لقد عدْت» ـ ولكنه يعرف الآن أنّ الحال ليس هكذا. وأنه رغب على الفور معرفة ما الذي رأته، ولكنّ ستيوارد الذي لم يرَ شيئاً أو رأى كل شيء، أوقفهما خوفاً من أن يعرفا عالماً آخر.

وفي وقت مبكر من ذلك الصباح من شهر أيلول استحمّ وارتدى

ملابسه بعناية، ولكن لم تطاوعه نفسه على تغطية قدميه. قلَّب جواربه الداكنة وحذاءه الأسود اللمّاع خلال برهة طويلة، ثم وضَعَهُما جانباً.

قرع الباب، ورفع قبعته عندما فتح الباب الرجل الأكثر شباباً:

«يجب أن أتحدث إليك أيها المحترم».

«ادخل».

لم يسبق لـ ديكون مورغان أن استشار أحداً أو وثق بأي رجل . كانت كل حواراته الحميمة بلا كلمات مع أخيه ومُتوعِّدة مع رفاقه الذكور. كان يتكلم مع زوجته بطريقة مبهمة يعتقد أنها لائقة. ولم يطلب منه أحد أن يترجم القضية الخام التي عرضها على المحترم ميسنِر إلى خطاب. راحت كلماته تخرج كالقضبان الحديدية التي ينتزعها الحدّاد المتدرّب من النار، حارقة، مشوَّهة، لاتشبه بعضها إلا بتأجّجها، تحدث عن جدار أبيض تحت شمس الأصيل في «راڤينيا» في إيطاليا، وعلى جوانبه ظلال بلون النبيذ. وعن طفلين يجلسان على شاطئ، قدّما له محارة على شكل S ـ كم بدا وجهاهما مفتوحين، وكم كان رنين الأجراس مدوياً. وعن الماء المالح الذي كان يحرق له وجهه على سفينة حربية. وعن فتيات ملونات بالبنطال، أشرن لهما من باب معمل للتعليب. ثم تحدّث عن جدّه الذي مشى حافي القدمين مسافة مئتي ميل، بدلاً من أن يرقص.

كان ريتشارد يصغي إليه بانتباه شديد ولم يقاطعه سوى مرة واحدة لكي يقدّم له ماءً بارداً. ورغم أنه لم يفهم عمّ يتحدث ديكون فإنه استطاع أن يرى أن حياة هذا الرجل لا تطاق. ثم أخذ ديكون يتحدث عن امرأة حظي بها، وكيف أنه ازدراها لأنّ أساليبها المنحلّة والسهلة أعطته الحرية بأن يهجرها ويحتقرها. وأنه بينما كان فريسةً للزنى، أثناء فترة قصيرة (قصيرة جداً) فإنّ تبكيت ضميره الطويل الأمد يأتي من كونه أصبح مايلعنه الآباء القدامى، النوع من الرجال الذي يُنصّب نفسه قاضياً، يطرد بل ويدمّر أولئك المختلفين عنه والمغلوبين على أمرهم والذين يعانون من الفاقة.

سأله ريتشارد: «من هي تلك المرأة؟».

لم يجبه ديكون. أدخل إصبعه في ياقة قميصه، ثم بدأ قصة أخرى. على مايبدو، كان جدّه زكريا هدفاً لشتائم شخصية ولمقالات صحفية تصف أعماله السيئة في منصبه. كان يشكل أداة مضايقة وإزعاجاً بالنسبة للسّود وأداة تهديد وسخرية بالنسبة للبيض. ولم يشأ أحد أن يساعده على إيجاد عمل آخر، لا البيض ولا السود. حتى أنهم رفضوا إعطاءه وظيفة معلم في مدرسة ابتدائية بائسة في الريف. والزنوج الذين كانوا في وضع يستطيعون فيه مساعدته كانوا قليلي العدد: (أزمة 73 كانت قاسية)، ولكنهم اعتبروا تمسك زكريا بكرامته نوعاً من البرود وكلامه المتكلّف عجرفةً، أو سخرية، وربما كليهما معاً. وفقدت الأسرة بيتها الجميل وذهب التسعة ليعيشوا مع أسرة إحدى أخواته. وجدت زوجته ميندي عملاً بالخياطة في المنزل، واشتغل الأولاد ببعض الأعمال الصغيرة. وقليل من الناس عرفوا وقليل منهم تذكروا أنه كان لزكريا أخ توأم، وقبل أن يغيّر اسمه كان اسماهما: «كوفي وتي»(*) وعندما حصل كوفي على مقعده في مجلس الولاية، بدا تي مسروراً كالجميع. وعندما طُرد أخوه، شعر هو أيضاً بالإهانة والتحدي. وذات يوم، بعد سنوات، كان يمر هو وأخوه التوأم أمام إحدى الحانات، فضحك بعض الرجال البيض من وجههما المزدوج، استحثوهما على الرقص. وعندما أصبح التشجيع بالمسدّس، انصاع تي بحق للبيض وإن كان رجلاً راشداً وأكبر سنّاً منهم. أمّا كوفي فقد تلقى رصاصة في قدمه. ومنذ تلك اللحظة ما عادا أخوين. فبدأ كوفي يخطط لحياة جديدة في مكان آخر، اتّصل برجال آخرين ومشرّعين آخرين سابقين من الذين صادفهم سوء الحظ مثله ـ جوفينال دوبريس ودروم بلاكهورس. فشكل الثلاثة نواة الآباء القدامى. ولاجدوى من القول بأنّ كوفي لم يطلب من تي أن ينضم إليهم في رحلتهم إلى أوكلاهوما.

قال ديكون مورغان: «كنت دائماً أفكر أن كوفي ـ بيغ بابا ـ قد

(*) القهوة والشاي.

أخطأ، أخطأ بما فعله بأخيه. فعلى أية حال، كان تي أخاه التوأم. أنا أقل ثقة الآن. وأظن أن كوفي كان مصيباً لأنه رأى لدى تي شيئاً ليس فقط مراعاة تصرّف بعض الشبان البيض السكارى وحسب، رأى شيئاً أخجله. الأسلوب الذي يقّدر به أخوه الأمور، الخيارات التي يقوم بها عندما يجابه تلك الأمور. لم يتحمله كوفي. ليس لأنه خجل من توأمه، بل لأن العار كان في داخله. وكان يخيفه. ولذلك رحل ولم يوجّه بعد ذلك الكلام إلى أخيه أبداً. حتى ولاكلمة. أتعرف ما أعني؟».

قال ريتشارد: «لابدّ أنّ في ذلك قسوة شديدة!».

«أقول إنه لم يوجّه له كلمة واحدة أبداً، ولم يدع أحداً يلفظ اسمه».

قال ريتشارد: «نَقْصٌ في الكلام، نقصٌ في الصفح. ونقصٌ في المحبة. وفقدان أخ أمر صعب. أمّا اختيار فقدانه، حسناً، فهو أسوأ من العار الأصلي، أليس كذلك؟».

نظر ديكون إلى قدميه برهة طويلة. وظلّ ريتشارد هادئاً معه بجانبه. أخيراً رفع رأسه وقال:

«أمامي طريق طويل يجب أن أقطعه، أيها المحترم».

قال ريتشارد ميسنِر «ستقطعه، ليس هناك أدنى شك».

كان ريتشارد وآنّا يشكان باختفاء الضحايا الجماعي المناسب، ومأأن عادا حتى ذهبا ليريا كل شيء بنفسيهما. وفيما عدا مهد أبيض، في إحدى الغرف التي عُلقت على بابها كلمة «ديڤاين» وبعض الطعام، لم يكن هناك شيء يدل على أنّ أحداً قد عاش منذ وقت قريب في المكان. كانت الدجاجات تتسكع هنا وهناك، وقد التهمت الحيوانات الشاردة ذوات الأربع نصفها. شتلات

الفليفلة بدت مزهرة، لكنّ بقية الحديقة صارت مهملة. وبدا حقل الذرة الصفراء العائد إلى سارجنت كأنه اللمسة البشرية الوحيدة. نظر ريتشارد بالكاد إلى أرض القبو. ولكنّ آنّا تفحّصتها بالدقة التي أتاحها لها مصباحها ورأت الأشياء المخيفة التي وصفها «.K.D»، ولكنها ليست بالإباحية التي رآها، ولاخربشات الشيطان. لقد رأت بدلاً من ذلك، اضطراب نساءٍ وهنّ يحاولن السيطرة على الوحوش التي تستعبدهن متجنّبات أن تدوسهن تلك الأقدام.

غادرا المنزل ووقفا في الباحة.

قالت له آنّا: «اسمع، واحدة منهن لم تمت أو ربما أكثر من واحدة. إن أحداً لم يتحقق بنظرة ـ لقد افترضوا ذلك وحسب. ثم، بين الزمن الذي انصرف فيه الناس ووصول روجر، هربن من هناك مسرعات. وأخذن معهن اللواتي متن. الأمر بمنتهى البساطة، أليس صحيحاً؟».

قال ميسنر: «صحيح».

ولكنه لم يبدُ مقتنعاً.

«لقد مضى على ذلك عدة أسابيع الآن، ولم يأتِ أحدٌ إلى هنا ليلقي أيّ سؤال. فلابدّ أنهنّ لم يبلغن عن الموضوع، فلماذا علينا أن نفعل ذلك؟».

«لمن الطفل الذي كان هناك؟ فالمهد جديد».

«لاأدري، ولكنه بالتأكيد ليس طفل آرنيت».

وكرّر قوله: «صحيح» ونبرة الشك نفسها في صوته، ثم أضاف: «أنا لاأحب الأشياء الغامضة».

«أنت قسّ. إيمان حياتك كلها سرغامض».

«الإيمان سر غامض، الاعتقاد سر غامض. لكنّ الله ليس سرّاً غامضاً. أمّا نحن، فنعم».

قالت كما لو أنّ الأمر زاد عمّا ينبغي: «أوه، ريتشارد».

كان قد طلب منها الزواج: «هل تتزوجينني يا آنّا؟».

«أوه، لاأدري».

«لم لا؟».

«نارك لاذعة بشدة».

«ليس عندما يكون الأمر هاماً».

لم تتوقع أبداً أن تكون سعيدة إلى هذه الدرجة وعائدة إلى روبي، بدلاً من الإعلان عن الحدث الكبير، نظّما ما يبدو كأنه الانهيار الكامل لمدينة.

«هل نأخذ فراخ الدجاج؟ سوف تؤكل، على أية حال».

أجابها: «إذا أردتِ».

«لا، لاأريد. سأرى فقط إذا كان هناك بيض». دخلت آنّا إلى القنّ مجعدةً أنفها ومشت على سماكة نصف بوصة من فضلات الدجاج. طردت اثنتين من الدجاجات لتحصل على البيضات الخمس التي اعتقدت أنها طازجة على الأغلب، دون شك. عندما خرجت ويداها ملآنتان نادت: «ريتشارد؟ أمعك شيء أضع فيه البيضات؟». عند مدخل الحديقة كان هناك كرسي أحمر باهت، انقلب على جنبه. وما وراء ذلك التبرعم والموت. بعض شتلات البندورة اليابسة، ونبتات صغيرة خضراء بُذرت من تلقاء نفسها وعليها أزهار ذهبية، وبعض زهور الختميّة الوردية الطويلة السيقان، لدرجة أن رؤوسها قد انحنت على خط من براعم القرع اللامعة. وأوراق الجزر الشبيهة بالدانتيلّا، داكنة وجافّة وبلا حياة بجانب قصبات البصل الخضراء المنتصبة. بعض البطيخات أبدت نضجها كاشفة عن لثة مليئة بالعصير الأحمر. تنهّدت آنّا حيال هذا الخليط من الإهمال والنموّ الذي لايمكن ترويضه، وهي تحمل بيديها البيضات الخمس السمراء التي ماتزال دافئة.

اقترب ريتشارد: «هل هذا كبير بما يكفي؟» وبسط منديله.

«ربما. هاك، أمسكها، بينما أذهب لأرى إذا كانت نبتات الفليفلة قد أثمرت».

أجابها: «لا، سأذهب أنا». وطوى زوايا المنديل على البيضات».

لقد رأيا ذلك عندما عاد، وكانا واقفين قرب الكرسي، هي تؤرجح البيضات السمر في المنديل الأبيض، وبينما تبدو أصابعه كأنها تضاعفت بسبب قرون الفليفلة الطويلة ـ الخضراء، الحمراء والسوداء ـ أو بالأحرى شعرا به، لأنه لم يكن هناك شيء يُرى. قالت فيما بعد، إنه باب. فقال وهو يضحك: «لا، إنها نافذة. هذا هو الفرق بيننا: أنتِ رأيت باباً، أمّا أنا فرأيت نافذة».

ضحكت آنّا هي أيضاً. تَوَسّعا في الموضوع: ماذا يعني باب؟ نافذة؟ ركزا اهتمامهما على الإشارة أكثر منه على الحدث. وأثارتهما الدعوة وليس الحفلة، كانا يعرفان أنّه كان هناك. ويعرفانه جيداً لدرجة أنهما ظلّا منذهلين لبرهة طويلة، قبل أن يتراجعا ويركضا نحو السيارة. وضعا البيض والفليفلة على المقعد الخلفي. رفع هواء المكيّف ياقة آنّا. ضحكا قليلاً بينما كانت السيارة منطلقة بهما، وتبادلا بعض الإهانات اللطيفة لمعرفة من هو المتشائم ومن هو المتفائل. من الذي رأى باباً يغلق، ومن الذي رأى نافذة تُفتح. أي شيء ليتجنبا الإحساس بالارتعاشة نفسها، أو يقولا بصوتٍ عالٍ ما كانا يتساءلان عنه. ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنهما اجتازا باباً كان بحاجة لأن يفتح، أو نافذة سبق أن فتحت وأخذت تعطي إشارة؟ ماذا يمكن أن يكون هناك في الجانب الآخر؟ ماذا يمكن أن يكون ذلك؟ ماذا يمكن أن يكون؟

كان المحترم ميسنِر يسترعي انتباه الجميع ولم يكن قد بقي لديه سوى بضع كلمات يقولها. راح يركز نظره على الرجال المذنبين الذين اصطف سبعة منهم بعيداً على مايبدو عن بقية الجماعة بنوع

من الغريزة البدائية لحب البقاء، سارجنت، هاربر، مينوس، أرنولد، جف، «K.D.»، ستيوارد. ويزدوم كان الأقرب إلى أسرته. وديكون لم يكن هناك أبداً. ليس لدى ريتشارد أفكار حسنة عن هؤلاء الرجال. سواء كانوا الأوّلين أو الآخرين. سواء كانوا يمثلون أقْدَمَ العائلات السوداء أو أحدثها، أفضل مافي التقاليد أو أكثرها إثارة للأسى، فقد أدى بهم الأمر أخيراً إلى خيانة كل شيء. يظنون أنهم أكثر خبثاً من الرجل الأبيض بينما هم في الحقيقة يقلّدونه. ويعتقدون أنهم يحمون نساءهم وأطفالهم، في حين أنهم في الحقيقة يشوهونهم. وعندما يطلب الأولاد المشوهون الغوث، يسعون إلى مكان آخر بحثاً عن السبب. فقد ولدوا من خلال حقد قديم، حقدٍ بدأ عندما احتقر نوع من الرجال السود نوعاً آخر، وعندما نقل هذا النوع الكراهية إلى مستوى آخر، حولت أنانيتُهُم مئتي عام من الآلام والانتصارات إلى لحظة من العنجهية والخطأ والتصلب، إلى حدٍ يجمد العقل . بدت له روبي التي لا تخيفها الكتب المقدسة والتي يصمّ أذنيها صخب تاريخها الخاص، إخفاقاً لاجدوى منه. كم كانت أمنية السعادة الدائمة إنسانية على نحو رائع، وكم أصبحت المخيلة الإنسانية هزيلة وهي تحاول تحقيق ذلك. وقريباً ستصبح روبي كأية قرية ريفية: الشبان يفكرون في مكان آخر، والعجائز يملؤهم الندم. والمواعظ ستكون بليغة، ولكن شيئاً فشيئاً سيتناقص عدد الناس الذين يولونها اهتمامهم أو الذين يجدون فيها صلة بالحياة اليومية. وتساءل: كيف يمكنهم المحافظة على كل ذلك معاً، على هذا الفردوس الذي تمّ الحصول عليه بمشقة كبيرة والذي يتّصف فقط بغياب المدانين وعديمي الجدارة والغرباء؟ من الذي سيحميهم من قادتهم؟

أدرك ريتشارد ميسِز فجأة أنه سيبقى. ليس لأن آنّا تريد ذلك وحسب، ولا لأنّ ديك مورغان أتى لمقابلته من أجل نوع من الاعتراف، بل لأنه ليس هناك معركة أفضل من هذه ليخوضها، ولامكان أحسن من هذا يوجد فيه إلّا وسط هؤلاء الناس الذين يتصفون بالجمال على نحو فاضح، الناس القاصرين والمزهوّين.

وبالإضافة إلى ذلك ربما كان حدوث الموت أمراً جديداً بالنسبة إليهم، أما الولادة فلا. فالمستقبل ينتظر لاهثاً أمام الباب. وروجر سيحصل على محطة محروقاته، وستقام الوصلة بين الطريقين. ولن ينقطع الغرباء عن الذهاب والإياب، ولابدّ أن بعضهم يرغبون بالحصول على سندويش وعلبة بيرة عيار 3,2. إذن، فمن يدري، ربّما يكون هناك مطعم. وسيكون «K.D.» وستيوارد مستعدين للحديث عن إحضار جهاز تلفزيون. ولم يكن من الملائم الابتسام خلال عملية دفن، ولذلك تصوّرَ ميسنِر الفتاةَ الصغيرة التي سُمح له ذات مرة أن يمسك يديها المشوّهتين، مما ساعده على استعادة سلسلة أفكاره. والأسئلة التي طرحها بدلاً عن المشاركين في الحداد كانت تحتاج إلى إجابة.

«هل لي أن أشير إلى أنها ليست الأسئلة الهامة. أو بالأحرى إنها أسئلة الألم وليس الذكاء. وبما أن الله هو الذكاء نفسه والكرم ذاته، فقد وهبنا العقل لكي نعرف لطافته. ونعرف أناقته ونقاءه. ولكي نعرف أنّ مايبذر لايحيا قبل أن يموت».

اشتدّت الرياح قليلاً ولكن ليس إلى الحد الذي يزعج الحاضرين. كان ميسنِر يفقدهم، إذ وقفوا أمام القبر المفتوح، منغلقين أمام كل شيء عدا تأملاتهم الخاصة. وامتزجت أفكارهم المأتمية بخططهم لعيد الشكر وتقييمهم لجيرانهم وثرثرات الحياة اليومية. منع ميسنِر نفسه من التنهّد قبل أن يختم ملاحظاته بالصلاة. ولكنّه عندما أحنى رأسه وحدق في غطاء النعش رأى النافذة في الحديقة، وشعر أنها تشير إلى مكان آخر ـ ليس الحياة ولا الموت ـ لكن إلى هناك، هناك تماماً، مجسّدة أفكاراً لايعرف أنها لديه.

«انتظروا. انتظروا». كان يصرخ: «أتظنّون أنها كانت حياة قصيرة، مثيرة للشفقة، لاقيمة لها لأنها لم تتوازَ مع حياتكم؟ دعوني أقُلْ لكم شيئاً: الحب الذي حظيث به كان واسعاً وعميقاً، والاهتمام الذي أحيطت به كان لطيفاً لايعتريه الملل، وذلك الحب وهذا الاهتمام قد غمراها لدرجة أنّ أحلامها ورؤاها، والرحلات التي قامت بها جعلت حياتها مرغِمة، غنية، وثمينة كأية حياةٍ من حيواتنا، وبدون

شك أكثر بركة. ومصيبتنا هي عدم معرفتنا خلال حياتنا الطويلة ماعرفته في كل يوم من حياتها القصيرة جداً: ورغم أن الحياة في الحياة محدودةٌ والحياة بعد الحياة أبديةٍ، فإن الله معنا على الدوام، في الحياة وبعد الحياة وبخاصة بين الاثنتين، وهو ينتظر أن نعرف الروعة». توقّف وقد اعتراه الاضطراب بسبب محتوى وشكل ماقاله للتو، ثم وكأنه يعتذر من الفتاة الصغيرة، تحدث إليها مباشرة بلطف:

«آوهٍ، يا سيف ـ ماري لقد ظلّ اسمك يشبه على الدوام عبارة «نجّني». «نجّني». فهل يوجد رسائل أخرى مخبّأة في اسمك؟ أنا أعرف واحدة منها تسطع لكي تُرى: لم يكن هناك أبداً أيّ وقت لم تكوني فيه مخلّصة يا مريم. آمين».

كانت كلماته تحرجه قليلاً، ولكن في ذلك اليوم لم يكن هناك من شيء أوضح.

مشت بيلي ديليا ببطء مبتعدة عن المشاركين في موكب الدفن. لقد وقفت مع أمها وجدّها وابتسمت مشجعة أرنيت ولكنها الآن ترغب في البقاء وحدها. كانت تلك أول عملية دفن تشهدها، وفكرت فيها من خلال كم كان مكلفاً لجدها حتى أصبحت مهاراته مطلوبة. ولكنها كانت تفكر بشكلٍ خاص بغياب النساء اللواتي أحبّتهنّ. لقد عاملنها بشكل طيب جداً، دون إرباكها بتعاطفهن، ولم يبدين لها سوى اللطف الدافئ. فقد تفحّصن وجهها المليء بالكدمات وعينيها المتورمتين، وشرّحن الخيار لوضعه على جفنيها، بعد أن قدّمن لها كأساً من النبيذ لتشربه. لم تلح أيّ منهنّ أن تعرف ما الذي قادها إلى هناك، لكنها تستطيع أن تتحدث لهنّ عن ذلك وكنّ سيصغين لها إذا أرادت. كانت المدعوّة ماقيس ألطفهنّ، أما أمرحهن فتدعى جيجي. ربما بيلي ديليا هي الوحيدة في كل المدينة التي لم يربكها السؤال عن مكان وجود النساء وغير معنية بكيفية اختفائهن. ولكن كان

لديها سؤال آخر: متى سيرجعن؟ متى سيظهرن ثانيةً بعيونهن المتقدة وطلاء الحرب، وبأيديهنّ الهائلة ليمزقن ويهدمن هذا السجن الذي يطلق على نفسه اسم مدينة؟ مدينة حاولت أن تدمّر جدّها، ونجحت في ابتلاع أمها، وحطمتها هي تقريباً. مكان مجهول ومتخلف يحكمه رجال تخرج قدرَتُهم على السيطرة عن نطاق أية سيطرة، ولديهم الوقاحة الكافية ليقرّروا من يستطيع أن يعيش ومن لايستطيع وأين، والذين رأوا في تلك الإناث الحيويات، الحرات، والعزلاوات، تمرد المهرات ، فتخلصوا منهنّ. راحت تتمنى من كل قلبها أن تكون النساء بعيدات عن ذلك، لامعات بدُكنتهنّ، ينتظرن ساعتهن، يلمّعن أظافرهن ويشحذن أنيابهن - ولكن بعيداً عن ذلك. أي أنها كانت تأمل حدوث معجزة. وهي أمنية ليست غير معقولة إلى حد كبير، لأنّ معجزة صغيرة قد حدثت للتو: فقد تصالح برود وأبولو واتفقا على انتظارها إلى أن تقرّر. وهي تعرف مثلهما أنها لن تستطيع أن تفعل ذلك أبداً وأنّ هذا الثلاثي سينتهي فقط مع نهايتهم. ستقهقه نساء الدير على هذا، حتى أنها تستطيع رؤية أسنانهنّ المدببة.

تطلّب إرجاء تنفيذ حكم الإعدام، عدّة سنوات، لكنه جاء أخيراً. وكان يمكن لمانلي جيبسون أن يموت في إحدى الزنزانات مع آخرين مثله، وليس مربوطاً إلى كرسي لاينظر إليه أحد من أقربائه. كان ذلك أمراً جيداً. أمراً عظيماً. فقد حصل على الإذن بالخروج وأصبح الآن أحد أفراد الفريق الذي يعمل على طريق البحيرة. والبحيرة كانت شديدة الزرقة. ووجبة غداء «كنتاكي فرايد تشيكن» شهية جداً. وربما استطاع الهرب. ولكنّ هذه نكته، محكوم بالسجن المؤبّد، وهو في الثانية والخمسين ويهرب. ليذهب إلى أين؟ ليلتقي بمن؟ إنه في السجن منذ العام 1961 ، وقد ترك وراءه بنتاً في الحادية عشرة من العمر، لم تعد تكتب له، وفي الصورة الوحيدة لها التي في حوزته، كان عمرها ثلاثة عشر عاماً.

كانت فترة الغداء خاصة. وهم يجلسون على ضفة البحيرة، يراهم الحرّاس جيداً ولكن بجانب الماء على أية حال. جفّف مانلي يديه بالمناديل الورقية الصغيرة. وإلى يساره قرب مجموعة من الأشجار، مدّت امرأة شابة غطاءين على العشب ووضعت جهاز راديو بين الاثنين. التفت مانلي ليرى كيف يكون ردّ الفعل لدى الفريق: امرأة مدنيّة وسطهم تماماً. أخذ الحراس المسلّحون يذرعون الطريق فوقهم. لم يعط أي منهم إشارة تدل على أنهم رأوها.

أدارت الراديو ونهضت، كاشفة عن وجه كان سيعرفه في أي مكان. وما كان في كل الأحوال قادراً على ضبط نفسه، همس: «جيجي!».

نظرت الفتاة ناحيته. حاول مانلي أن يتمالك نفسه ومشى الهوينى نحو الأشجار، وهو يأمل أن يظنّ الحراس أنه ذاهب ليتبوّل.

«هل أنا على صواب؟ أهذه أنتِ؟».

«دادي مان؟» أخيراً بدت مسرورة برؤيته.

«أهذه أنتِ! اللعنة... كنت أعرف ذلك! وماذا تفعلين هنا؟ أكنت تعرفين أنني حصلت على إرجاء تنفيذ الحكم؟».

«لا، لم أعرف شيئاً عن ذلك أبداً».

«حسناً، انظري هنا، أنا لم يطلق سراحي، أو أي شيء، ولكني لم أعد على الدور». التفت مانلي ليرى إذا كان الآخرون قد لاحظاهما. وهمس: «فليبق صوتك منخفضاً». «إذن ماذا تفعلين هنا؟» وللمرة الأولى لاحظ ملابسها: «هل أنت في الجيش؟».

ابتسمت جيجي: «نوعاً ما».

«نوعاً ما؟ تعنين أنك انضممت إليه؟».

«أوه، دادي مان، يمكن لأيٍ كان شراء هذه الملابس». وضحكت جيجي.

«أعطني عنوانك يا حبيبتي. أريد أن أكتب لك لأخبرك عن كل شيء. هل سمعت شيئاً عن أمك؟ أمايزال والدها على قيد الحياة؟». كان يبدو في عجلة من أمره، فصفارة الغداء قد تنطلق بين لحظة وأخرى.

رفعت جيجي قبعتها وأعادتها: «ليس لي عنوان بعد».

«لا؟ حسناً، اكتبي أنت لي، أتوافقين؟: بوساطة رقابة السجن، سأضع اسمك على اللائحة غداً. يمكنني استقبال اثنتين في الشهر...».

صفرت الصّافرة. كرّر مانلي: «اثنتان»، ثم أضاف: «أخبريني، أما زالت لديك تلك الميدالية التي أعطيتكِ إياها؟».

«نعم».

«أوه، ياحبيبتي، أوه ياحبيبتي، يابنتي الصغيرة». ومدّ يده لكي يلمسها ولكنه توقف عن ذلك وقال: «يجب أن أذهب. وإلّا فإنهم سيعطونني علامة سلوك سيئة. بوساطة رقابة السجن، هل سمعت، ستتذكرين ذلك؟ رسالتان في الشهر». تراجع دون أن يكفّ عن النظر إليها. «هل ستصلني أخبارك، أليس كذلك؟».

أصلحت جيجي وضع قبعتها: «ستصلك يا دادي مان، ستصلك».

وفيما بعد، بينما كان مانلي جالساً في الباص، استعرض بالتفصيل كل ما رآه من ابنته، قبعتها العسكرية وبنطال السخرة بألوانه المموّهة. حذاؤها العسكري الثقيل، الـ «تي شيرت» الأسود. والآن، وهو يفكر بذلك، كان يمكن أن يقسم أنها تنصرف الآن. نظر نحو البحيرة التي بدت داكنة تحت أشعة الشمس التي مالت للمغيب، ولكنها كانت أكثر جمالاً.

خلعت جيجي ملابسها. الليالي تجعل البحيرة باردة، والشمس تجد صعوبة أكثر فأكثر لتدفئتها في اليوم التالي. في هذا الجزء من البحيرة يمكن للمرء أن يسبح عارياً دون أية مشاكل. كانت هذه بحيرة البلدة: مياه خضراء تشوبها زرقة، أشجار منتصبة و - الأماكن التي لا تصلها المراكب ولا الصيادون - عزلة يتمناها الملوك. تناولت منشفة وجففت شعرها. لقد نما أقل من نصف بوصة، لكنها كانت تحب الطريقة التي تموّج بها الريح، الماء،

أصابع اليدين أو القدمين. فتحت زجاجة من مستحضر الصبر وأخذت تفرك بها بشرتها. ثم عدّلت المنشفة قربها وألقت نظرة على البحيرة، حيث كان رفيقها قادماً للتو.

اللوحة الخامسة عشرة كانت كالأولى، بحاجة إلى المزيد. وحين بذلت ديدي جهدها لتتذكر شكل الذقن أُحبطت في محاولتها الأولى، ولكنها عندما قررت تجاوز خط الفك والاكتفاء بتظليل القسم الأسفل من وجه ابنتها، لاحظت خطأً في رسم العينين. كانتا أفضل في اللوحة الخامسة عشرة، لكن شيئاً ما بقي ناقصاً. كان الرأس جميلاً ولكنّ الجسم يبدو بارداً لايثير الاهتمام، وبحاجة لشكل آخر - عند الورك أو عند المرفق. ولأنّها لم يسبق لها أن عانت أبداً من دافع غير حسي، فقد حيّرتها تلك الطاقة التي شعرت أنها قادرة على اغترافها من نفسها حين تشاء من أجل تجديد رسم القامة بكاملها أو أن تبدأ من جديد. ظلت العينان تتهمانها. أخطأت في تحديد لون البشرة، وبدا الشعرُ مثل القبعة تماماً.

جلست دي دي على الأرض، وتفحّصت العمل الذي أنجزته وهي تُدَوّر مقبض الفرشاة بين أصابعها. نهضت وهي ترسل زفرة طويلة وذهبت إلى الردهة. رأتها في اللحظة التي تناولت فيها أول جرعة من شراب الـ مرغريتا وهي تجتاز الباحة، وقد ربطت على صدرها كيساً أو شيئاً من هذا النوع. ولكن لم يكن قد بقي على رأسها شعر، لاوجود للشعر أبداً، ورأس طفل وليد ملتصق بها تحت ذقنها تماماً. اقتربت أكثر فلمحت دي دي ساقين ممتلئتين، مستديرتين ككعكة «الدونات» تخرجان من ذلك الشيء الذي يشبه الكيس المعلق على صدر الأم. وضعت كأس المرغريتا وضغطت وجهها على زجاج النافذة. لامجال للخطأ: إنها بالاس. إحدى يديها أسفل الكيس، وفي الأخرى سيف. سيف؟ وعلى وجه بالاس بدت ابتسامة مشرقة. أما فستانها ذو اللونين الوردي والعنبري، فكان يلتف حول كاحليها عند كل خطوة. أشارت لها دي دي بيدها

وصاحت باسمها. أو أنها حاولت ذلك. وبينما هي تفكّر بـ «بالاس»، وتصوغ الاسم في ذهنها، خرج اللفظ من فمها مختلفاً، شيئاً يشبه: «urg» و«neh, neh». شيء ما غير صحيح في لسانها. بالاس تسير بسرعة ولكنها لاتتوجّه نحو باب الدخول. دارت حول المنزل. ركضت دي دي وقد استولى عليها الذعر إلى المرسم، تناولت اللوحة الخامسة عشرة وانطلقت إلى باحة الدار، رفعتها في الهواء وأخذت تصرخ: «urg, urg. neh». التفتت بالاس. ضيقت عينيها وتوقّفت كما لو أنها تحاول معرفة مصدر الصوت، وعندما لم تتوصل إلى ذلك، تابعت طريقها. تجمّدت دي دي في مكانها ظانّة أنها ربما كانت فتاة أخرى. ولكن سواء كانت بشعر أو بلا شعر، فإنّ الوجه هو وجهها بالتأكيد، أليس كذلك؟ فهي تعرف بالطبع وجه ابنتها أكثر من أي شخص، كمعرفتها وجهها، أليس كذلك؟

رأت دي دي بالاس مرة أخرى. كانت بالاس في غرفة الضيوف (حيث اعتاد كارلوس، الذي يضاجع أمها، أن ينام)، تبحث تحت السرير. بينما دي دي تنظر إليها، دون أن تجرؤ على الكلام خوفاً من ألّا يخرج من فمها سوى القرقرة. نهضت بالاس وهي ترسل غمغمة تنمّ عن الرضا، وتناولت زوجاً من الأحذية كانت قد تركته هناك في زيارتها الأولى والأخيرة. صندل، لكنه غالٍ جداً، لأنه مصنوع من الجلد الطبيعي وليس من البلاستيك أو ليف الحبال. لم تلتفت بالاس بل انصرفت مارةً بالأبواب الزجاجية المتحركة. لحقت بها دي دي ورأتها تصعد إلى سيارة عتيقة متوقفة جانب الطريق. كان في السيارة أشخاص آخرون، والوقت عند غروب الشمس فلم تستطع دي دي أن تتبيّن الأشخاص لتعرف إن كانوا رجالاً أم نساء. وانطلقت بهم السيارة في لون فوق بنفسجي إلى درجة جعلتها تشعر بأنّ قلبها قد تحطم.

سالي أولبرايت التي كانت تسير نحو الشمال، باتجاه كالوميت توقفت فجأة أمام واجهة لنزل «جني كانتري إن». كانت متأكدة، شبه

متأكدة بأن المرأة الجالسة بمفردها على إحدى الموائد المخصصة لأربعة هي أمها. اقتربت سالي لتنظر تحت قبعة القش التي تضعها المرأة على رأسها. لم تستطع رؤية الوجه جيداً، ولكنّ الأظافر، اليدين اللتين تتناولان الطعام، كانت لها دون جدال. دخلت إلى المطعم. قالت لها السيدة الجالسة جانب الصندوق: «هل أستطيع مساعدتك؟» فهي الآن وكل مرة تدخل فيها مكاناً، يتوقف الناس بسبب لون شعرها. ردّت على السيدة قائلة: «لا، إني أبحث... أوه، هاهي هنا». تظاهرت بالثقة بنفسها، واتجهت بهدوء نحو مائدة الأربعة. فلو أنها مخطئة، يمكنها أن تقول: «عذراً، كنت أعتقد أنكِ شخص آخر». جلست على كرسي، وتأمّلت بانتباه شديد وجه المرأة.

«أمي؟».

رفعت ماقيس نظرها، وقالت وهي تبتسم: «أوه، ياإلهي، انظري إلى نفسك!».

«لم أكن متأكدة، القبعة وكل هذا، ولكن يا إلهي، هذه أنت».

ضحكت ماقيس.

«إيه، حسناً، كنت أعرف ذلك. يا إلهي، أمي. لقد انقضت... سنون!».

«أعرف، هل أكلت؟».

«نعم. لقد انتهيت الآن بالضبط. لديّ فرصة من أجل الغداء. وأنا أشتغل في...».

رفعت النادلة دفتر الطلبات: «هل اخترتما ما تريدان؟».

أجابت ماقيس:

«نعم، عصير برتقال، جريش مزدوج مع بيضتين مقليتين فوق الوسط».

سألتها النادلة:

«لحم خنزير مقدد؟».

«لا، شكراً».

«لدينا نقانق طيبة جداً، متصلة ببعضها أو منفصلة».

«لا، شكراً. وهل تقدمون الصلصة مع البسكويت؟».

«بالتأكيد، أتريدينها مسكوبة فوقه أم موضوعة إلى جانبه؟».

«إلى جانبه من فضلك».

«بالتأكيد» .وقالت مخاطبةً سالّي «وأنت؟».

«قهوة فقط».

قالت ماڤيس: «أوه، هيّا، اطلبي شيئاً. على حسابي».

«لاأريد شيئاً».

«هل أنت متأكدة؟».

«نعم، أنا متأكدة».

انصرفت النادلة. صححت ماڤيس وضع الأغطية الصغيرة فوق المائدة وصحنها، ثم قالت: «هذا هو ماأحبه هنا، إنهم يتركون لك حرية الاختيار. الصلصة فوق البسكويت أم إلى جانبه، أرأيتِ؟».

«أمي! لاأريد التحدّث عن الطعام!».

كان لدى سالي انطباع بأنّ أمها تتهرّب، متظاهرة بأنّ لقاءهما ليس له أهمية.

«حسناً، دائماً لم يكن لديك شهية قوية للطعام».

«أين كنت؟».

«حسناً، لم أكن أستطيع العودة، أليس كذلك؟».

«تعنين تلك القصة المتعلقة بمذكّرة التوقيف؟».

«أعني كل شيء. ماذا عنك، هل أنت بخير؟».

«إجمالاً. فرانكي بخير. يحصل على أفضل العلامات في كل دروسه. ولكنّ الأمور لاتسير تماماً بهذا الشكل بالنسبة لـ بيلي جيمس».

«أوه، لماذا؟».

«إنه يتسكّع مع بعض القذرين الحقيقيين، الفظيعين».

«أوه لا».

«كان عليك أن تذهبي لتريه ياأمي، وتتكلمي معه».

«سأفعل».

«ستفعلين؟».

«هل أستطيع أن أتناول غدائي أولاً؟» ضحكت ماقيس وخلعت قبعتها.

«أمي. قصصت شعرك». أيضاً ـ ذلك الاحساس بالتّهرب. «إنه جميل، لاحظي. هل يعجبكِ شعري؟».

«إنه جذاب».

«لا. ليس جذاباً. ظننت أني أفضّل أن يكون لي ضفائر شقراء، ولكني مللت. وربما قصصته أيضاً».

أتت النادلة واضعة أطباق الطعام بعناية. رشت ماقيس ملحاً على الجريش وحرّكت قطعة الزبدة الموضوعة فوقها. وأخذت ترشف عصير البرتقال، وقالت: «أووه، إنه طازج».

سار كل شيء دفعة واحدة، لأنها كانت تشعر بوجوب الإسراع. وإذا كان عليها أن تقول شيئاً فيجب أن تسرع. «كنت خائفة طيلة الوقت ياأمي، طيلة الوقت. حتى قبل التوأمين. ولكن عندما غادرت أصبح الحال أسوأ. لايمكن أن تعرفي، أعني كنت أخشى أن أنام».

قدّمت لها ماقيس كأس عصير البرتقال:

«تذوقي هذا، ياحبيبتي».

رشفت سالي جرعة سريعة: «أبي كان... ياللسفالة، لاأدري كيف استطعت تحمله، كان يسكر ويحاول إزعاجي ياأمي».

«آوه، ياطفلتي».

«لكني كنت أتعارك معه. وأقول له بأنه في المرّة القادمة التي يدوخ فيها، سأقطع عنقه. وكان من الممكن أن أفعل ذلك أيضاً».

قالت ماقيس: «أنا آسفة، لم أكن أدري ماذا أفعل سوى ذلك. أنتِ كنت على الدوام أقوى مني».

«ألم تفكري بنا أبداً؟».

«طيلة الوقت، حتى أني رجعت لألقي نظرة عليكم جميعاً».

ابتسمت سالي: «لا، اللعنة؟ أين؟».

«إلى المدرسة على الأغلب. كنت أخاف كثيراً الاقتراب من البيت».

«لو ذهبتِ إليه لما عرفته الآن. أبي تزوج من امرأة تركله على قفاه إذا لم يسلك سلوكاً قويماً ويحافظ على الباحة نظيفة ومرتبة. كما أن لديها مسدساً أيضاً».

أخذت ماقيس تضحك: «جيد بالنسبة لها».

«ولكني انتقلت أنا وشيرمين ووجدنا مكاناً لنا نحن الاثنتين في أوبرن. فهي...».

«أواثقة أنت من أنك لاتريدين شيئاً؟ الطعام هنا جيد حقاً ياسال».

تناولت سالي شوكة. غرزتها في صحن أمها، والتقطت كتلة من الجريش الدسم. عندما وصلت الشوكة إلى فمها التقت عيونهما. أحسّت سالي بأجمل شعور عندها. كان طويلاً، عميقاً، بطيئاً وساطعاً.

«هل ستغادرين ثانية ياأمي؟».

«يجب أن أغادر ياسال».

«وستعودين؟».

«بالتأكيد».

«ولكنك ستحاولين التحدث إلى بيلي جيمس، أليس كذلك؟ وفرانكي سيحب ذلك. أتريدين عنواني؟».

«سأتحدث إلى بيلي جيمس وسأقول لفرانكي بأني أحـ

«أنا منزعجة وآسفة من كل شيء ياأمي، وكنت خائفة طيلة الوقت».

«وأنا أيضاً».

كانتا واقفتين في الخارج. ازدادت زحمة الغداء واختلطت بأولئك الذين يتسوقون مع أطفالهم.

«عانقيني ياطفلتي».

أحاطت سالي خصر أمها بذراعيها وأجهشت بالبكاء.

قالت ماقيس: «اهاهه. لاتفعلي هذا الآن».

عصرتها سالي.

قالت ماقيس ضاحكةً: «آخ!».

«ماذا؟».

«لاشيء. هذا الجانب يؤلمني قليلاً، هذا كل ما في الأمر».

«أنت بخير؟».

«تماماً ياسال».

«لاأدري ماالذي تظنينه بي، ولكني أحببتك على الدوام، على الدوام، حتى عندما...».

«أعرف هذا ياسال. أعرفه الآن على أية حال».

دفعت ماقيس خصلة شعر أسود وأصفر وراء اذن ابنتها، وقبّلتها على خدها:

«اعتمدي عليّ ياسال».

«سأراك ثانية، أليس كذلك؟».

«وداعاً ياسال... وداعاً».

راقبت سالي أمها وهي تختفي بين الجمهور. مرّت بإصبعها

تحت أنفها، ثم وضعت يدها على خدها الذي قُبّل. هل أعطتها عنوانها؟ إلى أين ذهبت؟ هل دفعتا الحساب؟ متى دفعتا لأمينة الصندوق؟ لمست سالي جفنيها. منذ دقيقة كانتا تأكلان البسكويت، الدقيقة التي تلتها كانتا تتبادلان القُبل في الشارع.

قبل ذلك بعدة سنوات، ذهبت لتتفقّد بيت التبنّي، فرأت الأم - امرأة مرحة وليست غبية، ويبدو أنّ الأطفال أحبّوها. إذن، فالأمور على مايرام. وهذا كل شيء. رائع. يمكنها متابعة حياتها. وهذا مافعلته حتى عام 1966 ، عندما لفتت نظرها فتيات بعيونهنّ الكبيرة بلون الشوكولا. لابد أن سينيكا أكبر سنّاً: في الثالثة عشرة من عمرها، ولكنها تحققت من السيدة غرير لتتأكد إن كانت قد بقيت على اتصال معها.

«من أنت ثانيةً؟».

«ابنة عمها جين».

«حسناً، لقد بقيت هنا فترة وجيزة فقط... بضعة أشهر، بالحقيقة».

«هل تعرفين أين... ».

«لا ياحبيبتي. لاأعرف شيئاً على الإطلاق».

بعد ذلك كانت تشرد بشكل غير متوقع في المراكز التجارية، وصفوف الانتظار أمام المسارح وفي الباصات. وفي العام 1968 كانت متأكدة أنها لمحتها في إحدى حفلات «ليتل ريتشارد» الموسيقية، لكنّ الازدحام منعها من الذهاب لتراها عن قرب. ظلت جين متحفظة بشأن بحثها المزعج. لم يكن جاك يعرف أنها قد أنجبت في السابق (في سن الرابعة عشرة) ولم تبدأ ذلك البحث عن تلك العينين، إلاّ بعد أن تزوجا وأنجبت له طفلاً. وكان ذلك الظهور

يحدث في أوقات غير متوقعة أبداً وفي أماكن غريبة ـ فقد اعتقدت مرة أن الفتاة التي قفزت من مؤخرة إحدى الشاحنات هي ابنتها ـ وأنها عندما اصطدمت بها أخيراً، في العام 1976 ، أرادت أن تطلب سيارة الإسعاف. كان جاك وجين يجتازان موقف سيارات الملعب تحت الأنوار المبهرة. لمحا فتاة تقف أمام سيارة والدم ينزف من يديها. رأت جين الدم أولاً ثم العينين بلون الشوكولا.

صاحت بأعلى صوتها: «سينيكا!» وانطلقت نحوها. عندما اقتربت، أوقفتها فتاة أخرى تحمل زجاجة بيرة وخرقة، وقد بدأت تمسح الدم.

صرخت جين ثانية من فوق رأس الفتاة الأخرى: «سينيكا؟»

«نعم».

«ماذا حدث؟ هذه أنا».

قالت الفتاة الثانية: «بعض الزجاج، لقد سقطت فوق قطع زجاج. أنا أعتني بها».

كان جاك على مسافة بضع سيارات منهنّ:

«جين! ألا تأتين؟ أين أنت بحق الشيطان؟».

«إني قادمة. دقيقة واحدة، حسناً؟».

كانت الفتاة التي تمسح يدي سينيكا ترفع نظرها من وقت لآخر لتعبس في وجه جين، وسألت سينيكا: «هل بقيت قطع زجاج؟».

فركت سينيكا باطن يديها الواحدة بعد الأخرى: «لا. لاأعتقد ذلك».

«جين! سيصبح ازدحام السير كالجحيم ياحبيبتي».

«ألا تتذكرينني؟».

رفعت سينيكا نظرها، جعل النور عينيها تبدوان سوداوين. «هل يفترض بي؟ من أين؟».

«في وودلاون كنا نعيش في إحدى الشقق شمال وودلاون».

هزّت سينيكا رأسها: «كنت أعيش في بيكون قرب الملعب».

«ولكن اسمك سينيكا أليس كذلك؟».

«نعم».

«حسناً أنا جين».

«سيدتي، والدك يناديك». عصرت الصديقة الخرقة وسكبت بقية البيرة على يدي سينيكا. لوحت هذه بيديها، وقالت لصديقتها:

«أوه! إنها تحرقني».

قالت جين: «يبدو أني ارتكبت خطأ، كنت أظن أنكِ شخص عرفتُهُ في وودلاون».

ابتسمت سينيكا: «لابأس، الجميع يرتكبون الأخطاء».

قالت الصديقة: «الحال على مايرام الآن. لنظري».

نظرت سينيكا وجين معاً. كانت يداها نظيفتين، لا أثر للدم عليهما، بضعة خطوط فقط، ربما لن تترك أي أثر.

«عظيم!».

«هيا بنا».

«حسناً، وداعاً».

«جين!».

«وداعاً».

ضغط جاك على دواسة البنزين وهو ينظر في المرآة العاكسة، وسأل: «من هذه؟».

«فتاة ظننت إني عرفتها سابقاً. عندما كنت أعيش في أحدى الشقق شمال وودلاون في المساكن الحكومية».

«أية مساكن حكومية؟».

«في وودلاون».

قال جاك: «لاتوجد أية مساكن حكومية في وودلاون أبداً. لقد

كانت في بيكون وقد هُدمت اليوم، ولم تكن في وودلاون أبداً. وبيكون ماتزال في المكان نفسه قرب الملعب القديم».

«أمتأكد أنت من ذلك؟».

«طبعاً أنا متأكد من ذلك. هل فقدتِ ذاكرتكِ يا امرأة؟».

في صمت المحيط تغنّي امرأة سوداء كالفحم. وبجانبها امرأة أفتى منها تلقي برأسها في حضن المرأة. أصابع تالفة تنزلق في شعرٍ بلون الشاي الغامق. تمتزج جميع ألوان الصدفيات ـ الحنطي، الوردي، واللؤلؤي ـ في وجه المرأة الفتية. عيناها الزمرديتان تعبدان الوجه الأسود المحاط باللون الأزرق السماوي. وحولهما على الشاطئ تتلألأ بقايا البحر. أغطية زجاجات مرمية، تلمع بجانب صندل ممزق. وجهاز راديو صغير ميت يطفو بشكل هادئ.

لاشيء يعادل السلوى التي تجلبها أغنية بيداد، رغم أن الكلمات تثير ذكريات لم تعشها أي منهما: عن تقدم السن برفقة الأخرى وعن أحاديث مشتركة، وتقسيم الخبز المحمص فوق النار، وعن السعادة البسيطة بالعودة إلى الموطن ليكون المرء في بيته ـ إنها طمأنينة العودة إلى حيث نشأ الحب.

عندما يصطخب المحيط ويقذف بإيقاعات الماء نحو الشاطئ، تنظر بيداد لترى مالذي أتى. سفينة أخرى، ربما ولكنها مختلفة، تتجه نحو الميناء، الطاقم والمسافرون، المفقودون والناجون، جميعهم يرتجفون لأنهم أمضوا بعض الوقت مكسوري الخاطر. والآن، سيرتاحون قبل أن يستأنفوا العمل اللانهائي الذي خلقوا لأدائه، هنا في الأسفل، في الفردوس.

فردوس

إنها رواية مجموعات ضاغطة لا رواية فرد بطل. إنها رواية من هذا العصر، ولهذا العصر، الذي يمنح الفرد «كامل» حريته، من جهة، ويسلبها منه بما أفرز من ضغوط المجموعات، من جهة أخرى. فشركة واحدة يمكن أن تستلب كامل هذه الحرية الموهومة: إنه عصر التجمعات الضخمة، أو التي تتضخم، وكلما فعلت ذلك ادعت أنها تمنح الفرد «كامل» حريته والبيض والسود مجموعتان ضاغطتان، من جملة المجموعات الكبرى في العالم.

ولكن ماذا لو عالج السود حياتهم؟ إنهم يذكروننا بتلك الأقطار التي عانت من استغلال المستعمرين وقمعهم واضطهادهم، فلما استقلت لم تتحسن أحوالها ولا انتظمت لها شروط الرقي، وكالعادة: يقوم الآباء بالتأسيس والكدح لنيل الاستقلال، أما الأبناء فهم كالابن الضال الذي يتمتع بثروة أبيه... ولكنه هنا لا يتوب ولا يؤوب.

لم يستطع السود، في المناطق التي خلت من البيض، أن يبنو فردوساً.

الفردوس ليس أسود، ولا أبيض... إنه علاقة نقية تقيمها المجموعات البشرية... وهذا ما حاولت الرواية أن تقنعنا به... ونحن به مقتنعون... فعندما ننتصر على علاقة مغلوطة نقيم مكانها علاقة مغلوطة أخرى، فنداوي الغلط بالغلط... وهذه هي الحماقة البشرية المتأصلة التي تطوف الكاتبة أرجاءها... والتي تجعل الفردوس حلماً.

الناشر